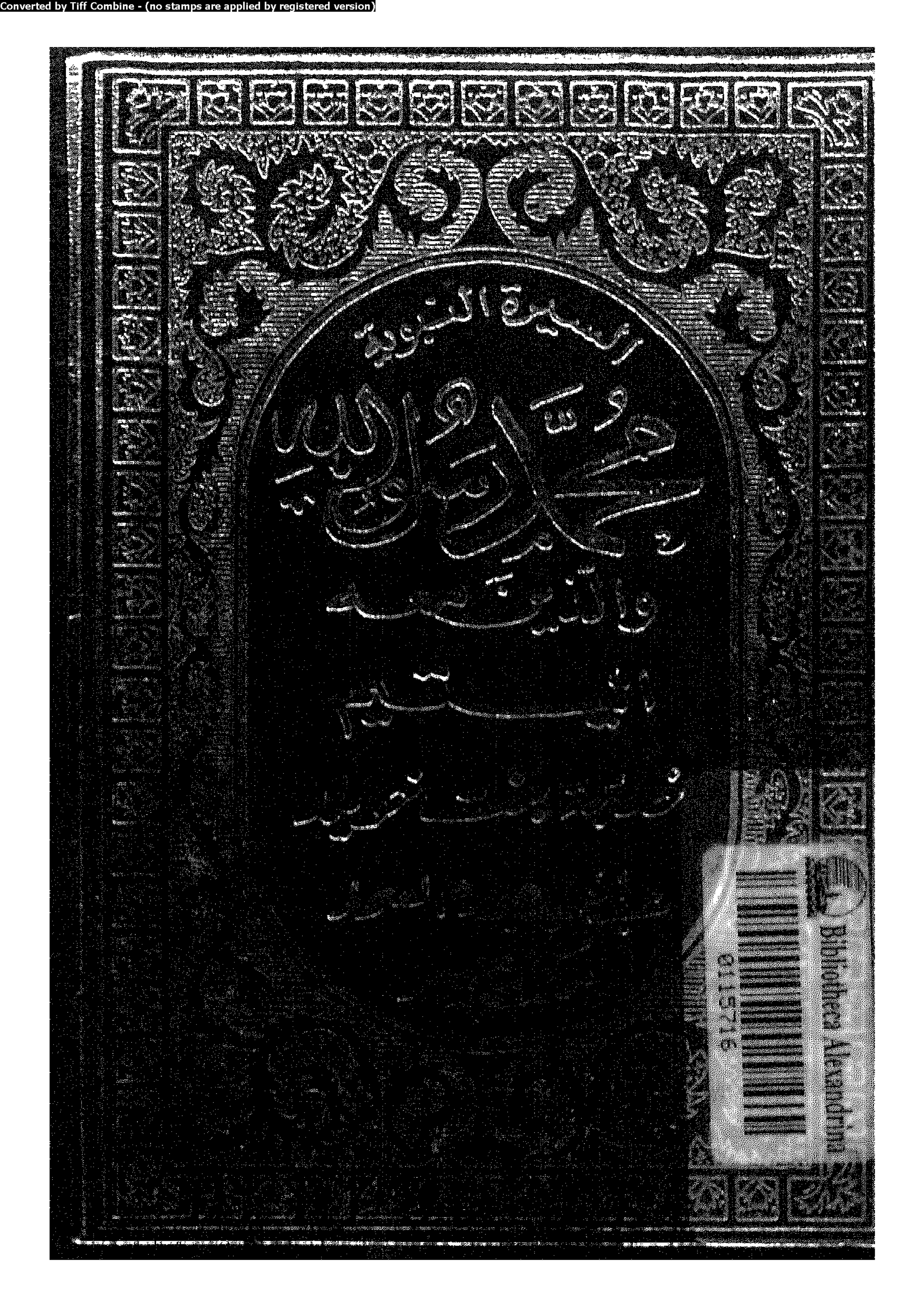

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
Bibliotheca Alexandrina









اليتيم

عبد الحميد جودة السحار



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

(قرآن كريم)

سجى الليل ، وراحت الشهب صغيرها وكبيرها تتزاحم فى رقعة السماء وتتنافس فى التألق واللمعان ، فبدت كبساط زمرد نثرت عليه دنانير تخالطها دراهم ، وأحدقت نجوم الثريا بالهلال كأنها تريد أن تسبقه ، وبات الهلال فى معصم الظلام سوارا وعلى مفرق الدجى إكليلا ، ومحمد بن عبد الله جالس تحت الشجرة فى أعالى مكة يرنو إلى السماء وفى ذهنه انبهار ، وفى نفسه عجب وإعجاب ، وفى وجدانه إشراق ، يستشعر كأنه ذاب فى الوجود ، أو كأن الوجود كله قد انسكب فى فؤاده .

كان يسير مع أمه حليمة وأبيه الحارث فى طريقه إلى مكة ، لتعيده حليمة إلى أمه آمنة بنت وهب بعد أن شب ومضى من عمره أربع سنوات ، وقد سقط عليهم الليل فى أعالى مكة ، وتدفق سيل الحجيج إلى بيت الله العتيق ، وجرف الركب الصغير فإذا به يجد نفسه فى بحر من الناس ، فراح يتلفت فلم يجد حليمة ولا الحارث وضل الطريق ، فلم يفزع ولم ينخلع قلبه رعبا ، بل راح يشق طريقه فى الجموع ، حتى إذا ما بلغ شجرة جلس تحتها هادىء النفس ينتظر أوبة حليمة ، أو مجىء من يحمله إلى أهله عند الحرم .

وراح محمد يقلب وجهه فى الكون وهو مسرور ، كأنما كانت روحه الفتية القوية تمتص حكمة الوجود . وأرهف سمعه ، وأصاخ للأصوات

المنبعثة من وقع أقدام الناس وارتطام حوافر الدواب بالأرض وحنين الإبل ووسوسة النسيم فى أوراق الشجر ، فانشرح صدره وتهلل بالفرح قلبه ، لكأنما كان يصغى إلى ترانيم وتسبيحات .

لم يعرف الوجود الغمض و لم تغمض عينا الصبى و لم يقف ذهنه و لم ينم قلبه ، بل راح يتذكر أيامه فى بنى سعد ، تلك الأيام السعيدة التى أمضاها فى دار حليمة مع إخوته عبد الله وأنيسة والشيماء ، وقفزت إلى ذهنه لعبته المفضلة ، لعبة العظمة البيضاء التى كان يلعبها مع أنيسة وعبد الله ، وقد كانوا يأتون بعظمة ناصعة البياض ، وفى الليالى المظلمة يلقون بها بعيداً إلى أقصى ما تستطيع يد أحدهم ، فمن يبصر بها على بعدها يصبح رئيس الجماعة . ورفت على شفتيه بسمة هادئة فقد رأى نفسه وهو زعيم أنيسة وعبد الله .

وتذكر ذلك اليوم الذى كانت تحمله فيه الشيماء على ظهرها تلاعبه وتداعبه ، وقد أسرفت فى ملاعبته فمال برأسه وعضها عضة قوية فى ظهرها ، فندت منها صرخة أفزعته ، فغامت صفحة وجهه الجميل بالأسى وهو تحت الشجرة ، فما كان يحسب فى ذلك اليوم أن عضته تلك تسبب لأخته مثل ذلك الألم ، وقد ظل كلما رأى أثر عضته فى ظهرها يتألم وتترقرق الدموع فى عينيه .

وبات محمد فى شروده وأحلامه وتعاطفه مع الوجود وتناسقه مع كل ما حوله ، بينا كان عبد المطلب وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) ومتعقبو الأثر منتشرين فى أعلى مكة ينقبون عن ابن عبد الله ، الذى أضلته مرضعته حليمة فى ليلة شديدة الزحام .

كان عبد المطلب على صهوة فرسه ينطلق إلى وادى تهامة ، وهو يتلفت وقد انقبض صدره وربا خوفه خشية أن يكون محمد قد انجرف مع تيار الحجيج ، أو أن يكون حاج غريب عن الديار قد التقطه ، وزاد من قلق شيخ قريش لما وجد نفسه ضالا فى بحر من الناس لا يعرف أين منطلقه ، ففرسه تدور مع الجموع ليس له عليها سلطان .

وأحس عبد المطلب عجزه فرفع عينيه إلى السماء وراح يبتهل فى حرارة إلى ربه أن يرد ولده محمداً ، وانسابت من فؤاده مشاعر رقيقة ملأت جوانحه فسالت على خديه العبرات .

وسار ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل على راحلتيهما يتلفتان فى الظلام ينقبان عن محمد بن عبد الله ، الصبى القرشى الذى جاءت مرضعته تقول إنها أضلته فى أعالى مكة ، وقد انطلق ورقة وزيد معا فقد كانا صديقين لا يفترقان أبدا إلا فى أمر ما يعتنقان من دين ، اتفقا على تسفيه دين الآباء وأعرضا عن عبادة الأصنام وساحا فى الأرض بحثا عن دين الحنيفية دين أبيهم إبراهيم الخليل ، فقال لهما أحبار اليهود وكهان النصارى أن الذين يعرفون ذلك الدين قد ذهبوا ، وأن نبيا سيعيد ملة إبراهيم قد أظلهم زمانة ، وأنه سيبعث فى البلد الحرام الذى جاءا منه ، فرأى ورقة أن يتنصَّر إلى أن يبعث ذلك النبى الأمى ، وآثر زيد أن يستمر على دينه وأن يجتهد فيه ينقيه من الشوائب والأساطير التى لحقت بالحنيفية السمحة ، لعله يصل ببصيرته إلى ملة أبيهم إبراهيم .

وانساب أبو الحكم بن هشام على بعيره يقلب وجهه فى الجموع المتدفقة من أعالى مكة إلى الحرم ، فإذا برأسه يدور وقد زاغ بصره ؛ كانت جحافل الناس تندفع إلى البيت العتيق وقد ضجت بالتلبية لرب

البيت وشركائه الذين يقربونهم إليه ، وقد ثار النقع وانتشر الغبار كأنما سحابة قد ملأت بين السماء الأرض ، فلم يملك أبو الحكم إلا أن يتلثم حتى يستطيع أن يتنفس ، ثم راح يجاهد لينأى بنفسه عن الكتل البشرية التى تشتد فى سيرها لتبلغ غايتها وتستكين نفوسها إلى الأمن والسلام والراحة .

وانتشر منقبو الأثر فى الوادى المقدس ينقبون عن آثار أقدام محمد بن عبد الله ويشمون ريحه ، ولم يكن الأمر سهلا فالحجيج يأتون من كل فج عميق يمحون كل أثر ويذهبون بكل ريح . وراح الذين خرجوا يلتمسون الصبى القرشى يضربون فى أرجاء الوادى ، وما دار بخلد أحدهم أن ذلك الصبى الذى يبحثون عنه هو دعوة إبراهيم وبشرى عيسى الذى تنتظر الأمم رسالته .

ووقف ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل عند الشجرة اليمنى بوادى تهامة ، فإذا بصبى قائم تحتها يجذب غصنا من أغصانها ، وإذا بنور الكواكب ينعكس على وجهه الجميل فيزيد الصبى سحراً ، فراح ورقة وزيد يرمقان الصبى برهة ثم قال زيد :

ـــ من أنت يا غلام ؟

ـــ أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

فمال زيد واحتمله بين يديه ووضعه أمامه على راحلته ، وسار به وورقة إلى جواره وانطلقوا ليعودوا إلى مكة .

وغارت صغار النجوم وبقى أحسنها وأضوؤها وأكبرها ، ولم تبق نابتة إلا فاحت روائحها وضحكت السماء من جوانبها ، ولم يبق طائر إلا غرد . وبلغ الركب الصغير الحرم فأناخ زيد راحلته ونزل عنها

واحتمل محمدا بين يديه ثم وضعه على الأرض ، وهبط ورقة عن راحلته ، ثم انطلقوا قاصدين شيخ بنى هاشم .

كان بعض النسوة واقفات على باب المسجد وقد ارتفعت أصواتهن يلتمسن ثيابا طاهرة يطفن بها ، وراحت كل منهن تقول :

— من يعيرنا مصونا ؟

— من يعير ثوبا ؟

— من يعيرنى تطوافا ؟

وكان رجال يرتدون ثيابا طاهرة اكتروها من الحمس فى طريقهم إلى الكعبة ، بينا كان رجال آخرون قد خلعوا ثيابهم وراحوا يطوفون حول الحرم عرايا ، اعتقادا منهم بأنه لا يجوز لهم عبادة الله فى ثياب أذنبوا فيها .

وراح رجال يسوقون الهدى أمامهم ليذبحوه عند إساف ونائلة قربانا للآلهة ، وراح آخرون يقدمون الفرع للذبح وقد زينوه وألبسوه ، والفرع أول نتاج الإبل والغنم ، وكانوا يعتقدون أنه نصيب الآلهة .

وراح الصبى محمد بن عبد الله ينظر فى انبهار إلى تلك الحشود الهائلة التى تكدست فى بيت الله ، ومد عينيه إلى الأصنام التى وضعت خارج الكعبة ، فرأى تمثال أسد ولم تكن هذه أول مرة يراه فقد رآه فى أرض هوازن ، فهو إلههم يغوث الذى يعبدونه فيما يعبدون من أصنام ، ووقعت عيناه على تمثال نسر رمز الإلٰه نسر ، وعلى فرس رمز الإلٰه يعوق ، وعلى تمثال رجل رمز الإلٰه ود ، وعلى صورة امرأة رمز الإلهة سواع ، واستمر يقلب وجهه فى أصنام قبائل العرب فقد صارت الكعبة بيتا للأصنام .

وراح ورقة وزيد بن عمرو بن نفيل ومحمد بن عبد الله يطوفون

بالبيت ، و لم يجد ورقة الذى ترك دين الآباء واعتنق المسيحية حرجا من الطواف ، فالمسجد الحرام أول بيت وضع للناس ، وقد عرف الطواف فى كل الديانات ، وإنه ليذكر قول داود فى مزاميره : « أغسل يدى فى النقاوة فأطوف بمذبحك يارب » .

وطافوا سبعة أشواط ثم دخلوا فى جوف الكعبة يبحثون عن عبد المطلب ، و لم تكن هذه أول مرة يدخل فيها محمد الكعبة فقد دخلها يوم أن عادت به حليمة إلى أمه عقب أن فطمته وكان عمره آنذاك سنتين ، و لم يدم النظر طويلا إلى تمثال هبل فى ذلك الوقت ، أما هذه المرة فقد راح يتفرس فيه . إنه تمثال من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب ، أمامه سبعة أقداح لاستشارته فى أمر السفر والزواج والثأر و نسبة المواليد إلى أهلهم وفى كل ما يحتاج إلى رأى الإله فى شئون الدنيا ، وقد تكدست حوله تماثيل كثيرة كأن كل من خرج من العرب إلى مصر من الأمصار جلب منها تمثالا ، وألقاه بين أيدى آلهته فى البيت العتيق .

كانت التماثيل مصنوعة من المعدن ومن الخزف ومن الحجارة ومن الخشب ، وكانت عند أقدام هبل بئر تعرف بالغبغب ترمى فيها العطايا والنذور ، وقد راح الناس يلقون فيها الدراهم والدنانير وبعض طرف جاءوا بها من الحيرة وبصرى ومنف وصنعاء وكل سوق من الأسواق التى نزلوا بها فى فارس والشام ومصر وجزيرة العرب .

وخرج ورقة وزيد والصبى من جوف الكعبة ، وما أن ألقى محمد بصره إلى إساف ونائلة حيث يذبح الناس القرابين حتى رأى الأعراب يطوفون حول الذبائح ، ورأى أحواض الأدم التى وضعت عند زمزم

وقد ملئت بالماء وبث فيها عبد المطلب التمر والزبيب ، وازدحم الناس حولها وراحوا ينهلون منها وقد لاح على وجوههم السرور .

وسار الثلاثة فى الحرم يبحثون عن عبد المطلب ، وجذب بصر محمد أكثر من مرة غلام صغير يرتدى صوفا أبيض فى الحر الشديد وقد ترك بالقرب من الكعبة وحده ، ولم يدر محمد حكمة ذلك ولم يعرف فى ذلك الوقت أن ذلك الغلام قد وهبه ذووه للكعبة وأنه ربيط ، وأنه إذا شب عن الطوق أصبح من طبقة الصوفية الذين يتولون خدمة البيت العتيق .

ولمح ورقة عبد المطلب قادما يشق طريقه فى الزحام فهتف فى فرح :

— عبد المطلب !

ومد زيد بصره إلى حيث كان ورقة ينظر فألفى عبد المطلب يتلفت وفى وجهه أسى عميق ، فقد عاد من بحثه دون أن يعثر على حفيده أو يجد له أثراً . وأحس زيد شفقة نحو الشيخ الجليل فوسع من خطوه وراح يجد فى السير ، ولولا ذلك الزحام الذى يسد عليه الطريق لهرول إلى شيخ بنى هاشم ليفضى إليه بنبأ عثورهم على الصبى حتى يستريح قلب الشيخ الواله الحزين .

ودنا زيد من عبد المطلب وقال ورقة فى رقة :

— وجدناه .

وما إن مس الصوت أذنى عبد المطلب حتى طفرت من عينيه الدموع وقال فى لهفة :

— وأين محمد الآن ؟

وما انتهى من قوله حتى كان ورقة بن نوفل وفى يده محمد بن عبد الله

أمامه ، فمال عبد المطلب واحتمل محمداً بين يديه وضمه إلى صدره وراح يقبله فى حب شديد ، وقد سالت عبراته حتى بللت لحيته .

وجاءت حليمة وزوجها الحارث ، وما كادت عيناها تقعان على محمد وهو فى أحضان جده حتى خنقتها عبراتها وهتفت فى وجد :

ـــ ولدى ! ولدى الحبيب !

وتناولت محمداً من جده وراحت تمطره بقبلاتها ، ثم سارت به والحارث إلى جوارها إلى دار آمنة بنت وهب لترد إليها ابنها وتؤديه إليها ، وبينا هم سائرون أخذ محمد ينظر إلى الحشود التى فرغت من السعى بين الصفا والمروة واتخذت طريقها إلى الكعبة ، وإلى قباب الجلود وقد جلس فى ظلها الحمس من أهل مكة ، فما كان الحمس يستخدمون فى موسم الحج خيام الشعر والوبر .

كان محمد ينظر إلى ما يجرى حوله بعينين مفتوحتين وذهن صاح ، فما يراه الساعة دنيا جديدة تختلف كل الاختلاف عن دنياه التى عاشها فى صحراء بنى سعد ؛ كان يعيش هناك بين أحضان طبيعة خلابة ، يستنشق الحرية ويذوب فى الوجود بينا يشق هنا الجموع المتدفقة كالسيل ليصل إلى داره عند الصفا ، جموعا جاءت من كل فج عميق من بلاد العرب لتحج البيت ، وتقدم خضوعها وولاءها وعبوديتها لرب البيت .

ووقعت عينا محمد على دار أمه فعرفها وراح يعدو إليها فى لهفة وفرح وقد فاض قلبه بحنان وشوق إلى أمه العزيزة ، وراح الحارث وحليمة يسرعان الخطا خلفه ليلحقا به .

ودق الباب فى لهفة ، وسرعان ما فتحت بركة الباب وما أن رآها حتى لف ذراعيه حول ساقيها فى حب . وفطنت بركة إليه فتهللت

أساريرها بالفرح ، ومالت عليه تقبله هنا وهناك وقلبها يخفق بالرحمة والحنان .

وانفلت محمد من بين أحضان بركة فى الوقت الذى وصل فيه الحارث وحليمة إلى الدار ، وانطلق يجرى إلى حيث كانت أمه وهو ينادى فى لهفة وشوق وحنان :

ـــ أماه ... أماه .

وانسكب صوت محمد فى أذنى آمنة عذبا لكأنه كان رحيق الوجود أو موسيقى السماء ، فتدفقت من كنز فؤادها مشاعر رقيقة حانية ، وسرت فى كيانها رجفة من أثر النشوة العارمة المفاجئة ، فما خطر لها على قلب أن يأتى محمد الحبيب الساعة ليملأ فراغ حياتها بهجة ، وظلام نهارها نوراً وإشراقا .

وهرعت آمنة إليه وقد بسطت له ذراعيها فارتمى فى أحضانها وهو سعيد غاية السعادة ، وراحت تلثمه فى حب وفاض تأثرها فطفرت الدموع لتنفس عن المشاعر الرقيقة الموارة التى ضاق بها صدرها .

واستمرت آمنة وابنها الحبيب متعانقين مدة استشعرا فيها أنهما الوجود كله ، بكل ما فيه من مشاعر حلوة ونبضات فرحة مرحة . وأفاقا من نشوة اللقاء على صوت أقدام بركة وحليمة ، فذهبت آمنة تستقبل مرضعته التى كانت حريصة كل الحرص على أن يمكث محمد معها ، وإذا بها تعيده قبل أن ينقضى الأجل .

ورحبت آمنة بحليمة ثم قالت لها :

ـــ ما أقدمك به يا ظئر (مرضعة) ولقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟

فأطرقت حليمة وقالت :

ـــ قد بلغ والله وقضيت الذى على ، وتخوفت عليه الأحداث فأديته إليك كما تحبين .

ـــ ما هذا شأنك فأصدقينى خبرك .

فراحت حليمة تقص عليها قصة ميله إلى الوحدة وصعوده لمراقبة السماء ، وخشيتها من أن يتردى فى الجبل أو تؤذيه الشياطين ، فقالت آمنة وهى تبتسم :

ـــ أفتخوفت عليه الشيطان ؟

ـــ نعم .

ـــ كلا والله ما للشيطان عليه سبيل ، وإن لبنىّ شأنا .

كان أبو قحافة يطوف بالبيت وقد بدا فى وجهه رقة وطيبة وهدوء ، ووقعت عيناه وهو فى طوافه على عبد المطلب وهو فى مجلسه فى ظل الكعبة ومن حوله ندماؤه وبعض أبنائه وحفدته ، وابنه حمزة فى حجره يعبث فى لحيته ، فيميل عليه شيخ قريش ويقبله فى حب وقد انبسطت أساريره تعبر عما فى نفسه من سرور ، فإذا بأبى قحافة يستشعر حنينا إلى الولد فقد ولدت له زوجه بنين وبنات ولكن لم يعش له منهم أحد .

كانت الكعبة تموج بالأبناء والبنين فما من أحد من قريش إلا وله قرة أعين ، فعبد المطلب قد عاش حتى رأى أبناء أبنائه وضمهم جميعا إلى صدره ، وأمية وإن كان قد ذهب بصره فإنه يشم ريح أحفاده ، وها هو ذا حفيده أبو سفيان بن حرب يتأهب للزواج ، فإن مد الله فى عمره فسيحتوى بين ذراعيه حفيد ابنه حرب ، وسيطوف به البيت العتيق ، وهى أمنية عزيزة يحلم بها كل رجال مكة . ترى أيأتى ذلك اليوم الذى يطوف فيه بحفيد من حفدته وهو منشرح الصدر متهلل الوجه ؟

كان عثمان الذى عرف بأبى قحافة من قبيلة تيم ، ويلتقى نسبة مع بنى هاشم وبنى أمية عند كعب بن لؤى . وعرفت قبيلة تيم بالرقة وظهر فيها كثير من الشعراء ، وعرفت نساؤها بالحظوة عند الأزواج . ومارست القبيلة التجارة ولكن تجارتها لم تبلغ شأو تجارة بنى هاشم وبنى أمية ، ولكنها مكنت القبيلة من أن تحيا حياة كريمة لم تصل إلى ما وصلت إليه

حياة سراة قريش من ترف، و لم تهو إلى حياة المسغبة التى كان يقاسيها أغلب أهل مكة، والتى كان ينتشلهم منها بين الحين والحين أجواد قريش.

إنه جلس أكثر من مرة حول جفان عبد المطلب وجفان عبد الله بن جدعان ، و لم يكن ذلك لفقره بل ليشارك قومه فى طعامهم وسرورهم ، فقد كانت أيام الطعام وما أكثرها بمثابة أعياد فى مكة يجتمع فيها الشباب للمرح ويتبادل فيها الشيوخ الآراء وكثيراً ما نسقت فيها أعمال القوافل المنطلقة إلى بصرى أو منف أو صنعاء أو الحيرة .

كان أبو قحافة غاية فى الرقة والهدوء وقلما كان يثور ، ولكنه إن ثار ثار ثورة الحليم التى لا تبقى ولا تذر . و لم يكن صاحب مطامع كبيرة فقد كانت كل غايته أن يعيش أيامه فى سلام ، وأن يهب الله له ذرية تملأ حياته غبطة . و لم تشرئب أمانيه بعنقها و لم يشطح به الخيال ليرى ابنا من أبنائه سيداً على قريش ، فكيف يفلت منه زمام أحلامه ـــ وهو الرجل العاقل المتزن ـــ ليرى أحد بنيه شريفا فى مكة وفى القوم بنو هاشم وبنو أمية ؟

كان يرى المنافسة الظاهرة والمنافسة الخفية بين عبد المطلب وأمية وابنه حرب ؛ كان إذا أطعم بنو هاشم الناس سارع بنو أمية إلى أطعامهم ، وإذا واسى عبد المطلب فقيرا أو عاد مريضا هرع حرب إلى المواساة والزيارة ، وإذا مدح شاعر شيخ بنى هاشم أو أحد بنيه أغرى شعراء آخرون بمدح بنى أمية وإظهار مناقبهم ، إنها منافسة عاش عليها كثير من المكيين ولكن أبا قحافة آثر أن ينأى عنها .

انضمت تيم إلى بنى عبد مناف يوم أن كادت الحرب تنشب بينهم وبين بنى عمهم عبد الدار على شرف حجابة البيت وحمل لواء قريش ،

وقد غمس رجال تيم أيديهم فى جفنة الطيب التى وضعت ليقسموا عليها ويتحالفوا على حرب عدوهم فأصبحوا فى حلف المتطيبين على لعقة الدماء ، ولولا أن تداعى الناس إلى الصلح لكان الثأر قائما بين عبد الدار وبنى تيم حتى الآن ، ومن يدرى ما الذى كان يحدث ، فلعل الخطاب كن يتربص بأبى قحافة ليقتله أو لعله كان قد قتله وشفى غليل صدره !

وما دار بخلد أحد يوم أن تداعى الناس للصلح بعد أن امتشقوا الحسام للقتال أن الله قد حبب إليهم الجنوح إلى السلم ، لأن الله كان يدخر حفدة هؤلاء المتحرقين للقتال وسفك الدماء لرسالة عظمى ، بل لأعظم رسالة حملها البشر ؛ رسالة السماء .

كان هوى أبى قحافة مع عبد المطلب ، فقد كان عبد المطلب يمارس الحياة على سجيته دون أن يتكلف أو ينافق مجتمعه ، كان كريما بطبعه يسارع للخيرات بوحى من ضميره ، قد حرم على نفسه أشياء لم تحرمها شرائع قومه ولا تقاليدهم ، فما كان يشرب الخمر ولا يطوف على بيوت البغايا لأنه وجد أن فى مقارفة تلك النواقص حطا من قدره ونيلا من كرامته وثلما لشرفه . ولعل مكارم بنى أمية كانت مجاراة لسيد بنى هاشم ، لم تكن نابعة من وجدانهم بل خشية من أن يذهب منافسهم بالمجد وينفرد بالشرف وحده .

وربط ذهن أبى قحافة بين أشراف قومه وبين ذلك الاعتقاد الذى وقر فى عقول المكيين من أن المرأة التى لا يعيش لها ولد إذا مرت بقتيل شريف يقتل غدرا ، ووطئت ما حوله عاش ابنها . وأن كل أمنيته أن يعيش له ولد ، ولكن أين ذلك الشريف الذى يقتل فى قومه لتتخطاه زوجة المقلاة سبع مرات لعل أولادها يعيشون ، فقد هده الحزن على فقد أولاده ؟

وراح أبو قحافة يقول وهو منصرف من الكعبة إلى داره :

تباشرت المقالت حين قالوا ثوى (عمرو بن مرة) بالحفير

ووسع أبو قحافة من خطوه فقد وافى ميعاد ذلك العراف الذى سيزوره فى بيته ليصنع لزوجه حميلة تنفر الجن وتبعد عنها أذى الشياطين ، وتحفظ له ولده الذى فى بطنها والذى أوشك على الميلاد .

ودخل أبو قحافة على زوجه فألفى الهدوء شاملا لا حركة ولا نأمة ، وقد جلست امرأته وقد وضعت رأسها بين كفيها شاحبة اللون يبدو فى وجهها خوف وقلق فقد باتت تخشى أن يلحق البوار ذلك الجنين العزيز الذى تحس بحركته فى بطنها ، وراحت تتلفت كأنما تستعجل قدوم العراف الذى سيكتب لها التميمة المسحورة التى تحفظ حياة وليدها فلا يدهمه الموت كما دهم إخوته الآخرين .

وجاء العراف وقدمت له الضحية فذبحها فى مكان مظلم من الدار ليسكن الجن وتذهب الأرواح الشريرة ، ثم أخرج خرزة ملونة وراح يكتب عليها رموزا وإشارات وينظر إلى الأرض بين لحظة وأخرى ويتمتم كأنما يخاطب الجن الساكن تحت الثرى ، ثم وضع الخرزة فى تميمة وقدمها إلى أبى قحافة لتعلقها امرأته فى عنقها .

وجاء شهرها التاسع فذهبت إلى الكعبة لتبتهل إلى الآلهة جميعا أن تطيل فى عمر وليدها . وبينما هى فى طريقها لتبدأ الطواف من الحجر الأسود رأت الأطفال الذين وهبهم أهلوهم لخدمة البيت الحرام فطافت بذهنها فكرة ، لماذا لا تنذر ما فى بطنها للكعبة إرضاء للآلهة ؟ ومررت يدها على التميمة التى تدلت على صدرها فلم تحس تلك الراحة التى كانت تحسها كلما لمستها بل انبعثت من أغوارها أصوات تهتف بها أن تجعل ابنها

ربيطا للبيت الحرام إن أرادت أن يعيش .

وتعلق بصرها بالحرم وقالت :

ـــ اللهم إنى وهبت لك ما فى بطنى فأطل فى عمره وأبقه لى .

وانهمرت دموعها على خديها .

وحان أوان الوضع فالتف بها نساء بنى تيم مشرقات الوجه على شفاههن ابتسامات تشجيع وفى صدورهن إشفاق وخشية أن يموت الوليد ، وراح أبو قحافة يعدو ويروح فى الدار وهو قلق ما إن يسمع وقع أقدام حتى يلتفت إلى مصدرها فى ذعر ، وجاءت إليه واحدة من بنى تيم هدأت من روعه وشرحت صدره عندما قالت له :

ـــ إذا جاء الولود غلاما فماذا تسميه ؟

واستراح أبو قحافة إلى أنه لم يعد وحده فريسة لمخاوفه ، فقال فى صوت ينم عما كان يكابد من قلق :

ـــ عبد الكعبة .

ـــ وإذا كان أنثى ؟

وتغير لون أبى قحافة ولاح فيه شيء من الأسى وعدم الراحة ، ثم قال :

ـــ لم أختر لها اسما بعد .

وارتفع صوت المولود فتسمر أبو قحافة فى مكانه ، ثم رفع بصره إلى السماء وراح يدعو ربه أن يكون المولود ذكرا ليرثه ويرث آل تيم ، فانفلتت المرأة مهرولة لتعود إليه بالنبأ المثير .

ومرت لحظات حسبها أبو قحافة دهرا ، ثم جاءت المرأة بالبشرى نطق بها وجهها قبل أن يتحرك لسانها ، وقالت فى فرح شديد :

ـــ إنه ذكر .. إنه ذكر .

وفاض سرور أبى قحافة حتى إنه دار فى مكانه من شدة السرور ، ثم راح يقطع المكان صاعدا هابطا لا يستطيع أن يهدأ أو يستقر حتى طلب إليه أن يدخل ليرى وليده ، فتقدم خافق القلب وقد فاضت نفسه بالفرح والسرور .

ووقف برهة يرنو إلى زوجه والوليد الذى نام إلى جوارها وقد تحركت عواطفه وجاشت الرحمة فى وجدانه ، وعجز عن أن يكبح ذلك الحنان المتدفق من سويداء قلبه فمال وطبع على جبين الوليد قبلة أودعها ذوب المشاعر الرقيقة من أغوار النفس وأعماق الفؤاد .

وانفرج وجه زوجه الذابل عن ابتسامة عذبة ، ثم التفتت إلى ابنها الحبيب وقالت :

ـــ إنه جميل ، أليس كذلك ؟

فهز أبو قحافة رأسه وقال :

ـــ بلى هو فى غاية الجمال .

وقد راحت أهازيج الفرح وأناشيد الحياة تخفق بين جنباته ، فقد صار للدنيا طعم لذيذ جديد يرجو أن يدوم .

ومرت أيام وزوج أبى قحافة سعيدة كل السعادة بالصبى ، وفجأة خطر على قلبها فكرة موت الوليد فانقبض قلبها وطافت بها موجة من الرعب والفزع ، فإذا بها تخطف ابنها وتضمه إلى صدرها كأنما تحميه من غوائل القدر ، وكأنما لم يكن ذلك يكفى فاستقبلت به الكعبة ثم قالت :

ـــ اللهم هذا عتيقك من الموت فهبه لى .

وراح الخوف ينقشع رويدا رويدا ليحل الهدوء والطمأنينة والأمن ،

ولينبت الأمل فى الفؤاد الواجب الولهان . ونظرت إلى وجه الصبى فإذا بوجهها يشرق بالابتسام ، وإذا بها تهزه وتقول :

— عتيق عتيق .. ومنظر أنيق .

فبدا لها كأن الكون كله يغني غناء يفوق غناء كل قيان مكة ، ولا غرو فغناء القيان ينسكب من الأذن إلى القلب أما هذا الشدو فهو من الروح إلى الروح ، من قلب الوجود إلى القلب الودود .

وفى اليوم الثامن من ميلاد الصبى حمل أبو قحافة ابنه على ذراعيه وراح يطوف به حول الكعبة ، ثم دخل به إلى جوفها وراح يبتهل إلى هبل أن يطيل فى عمره وأن يهبه له ، واستمر فى دعائه وتحدرت دموعه على وجهه ، وتساقطت على الوليد الذى يضمه إلى صدره فى حنان .

وأولم أبو قحافة وليمة لبنى تيم ، فجاء الرجال والنساء يهنئون بالمولود ، وقال النسوة لأمه :

— ما اسمه ؟

فقالت الأم وقد توجت شفتيها بسمة حلوة ولاح فى وجهها سرور عميق :

— عتيق .

وقال الرجال لأبيه :

— ماذا سميته ؟

فقال الأب فى انشراح :

— عبد الكعبة .

ولم يعرف الوليد فى مستقبل حياته بعتيق ولا بعبد الكعبة ، بل عرف بأبى بكر الصديق .

لاحت شعرة بيضاء فى الدجى ثم انتشر الشيب فى مفرق الفجر ، وقام أبو طالب من نومه وراح فى عماية الصباح يتمسح بتمثال الإله الذى كان قريبا منه ويدعوه أن يرزقه ، فقد كان أبو طالب كثير العيال .

وانتشر فلق الإصباح وارتفعت الشمس غضة من وراء جبال مكة ، فخرج أبو طالب إلى الحرم وطاف بالبيت ثم انطلق إلى سوق مكة الضيق المسقوف ليفتح دكانه ، فقد كان أبو طالب عطارا وكان خبيرا بأصناف الطيب والبخور والغوالى والندود ، يفرق بين أنواع المسك ما ورد من التبت وهو أفضلها وأرفعها وما ورد من الهند وما ورد الصين ، وبين العنبر وأنواعه ومعادنه ، وبين العود وأنواعه وأصنافه وأوصافه من هندى وسمندورى وقمارى . كان يرى أن العود الهندى هو أرفع أجناس العود وأفضلها وأجودها وأبقاها على النار وأعلقها بالثياب ، ولم يكن ذلك العود معروفا لسواد الشعب بل كان لبعض الخواص من سادات مكة .

وكان أبو طالب يخرج فى قوافل قريش لينتقى أجود أنواع العطارة والطيب ، وكان يترك دكانه فى ذلك الوقت لبعض ولده ، وكان كهنة الكعبة يفضلون شراء البخور من عند أبى طالب ، فاللبان الذى يستورده من اليمن يفوق كل أنواع البخور الواردة من بلاد أخرى .

وقد وسعت مهنة العطارة معارفة عن البلاد فقد كان كل صنف من

أصناف العطارة ينسب إلى البلد الذى ورد منه ، فعرف التبت والهند ومدنها ، والصين ومدنها ، وفارس واليمن ومصر والشام ، وقد يسرت له رحلاته الاحتكاك بأهل البلاد التى نزل بها أو شد الرحال إليها ، فعرف بعض عادات الشعوب وطباع البشر ، واستمد من تجاربه حكمة قلما كانت تتوفر لعربى جاور الحرم ولم يخرج عن نطاق مدينته المقدسة .

وجاء العباس بن عبد المطلب إلى دكان أخيه يلتمس الخضاب لأبيه ، ووقف ينظر إلى ما يفعله أبو طالب فلم تنشرح نفسه إلى ذلك العمل ، فهو على الرغم من حداثة سنه يفضل أن يخرج فى قوافل قريش حتى يصبح من أغنيائها ثم يقرض أمواله بالربا إلى المحتاجين من أهل بلدته ، فهو أحق بذلك من بنى ثقيف الذين يأتون من الطائف لإقراض بنى المغيرة وغيرهم .

وأخذ العباس الخضاب وانساب فى السوق وهو يتلفت ، فما كان يهتم بحوانيت الأقمشة والأثاث والطرف الواردة من كل بلاد الأرض ، وكان يستوقف نظره الصيارفة والمرابون الذين يقرضون الأموال ، وقد يسر له حبه لهذه المهنة الوقوف على كثير من أسرارها ، بل كان ذلك الحب عونا له على الاجتهاد فى تعلم القراءة والكتابة عند الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، حتى يستطيع أن يبرم العقود ويوقع المواثيق فى مستقبل حياته .

وعاد العباس بالخضاب إلى أبيه فراح عبد المطلب يسود شعره الأبيض الذى ينعى إليه نفسه ، ثم خرج إلى الكعبة وذهب إلى حيث فراشه .

كان ندماء عبد المطلب وبنوه يجلسون حول الفراش لا يجلسون عليه إجلالا لشيخ بنى هاشم ، فقام محمد وجلس على الفراش فلما رأى

أعمامه ذلك أخذوه ليؤخروه عنه ، وإذا بعبد المطلب قد أقبل ورأى ذلك منهم فقال :

— دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا .

وجلس عبد المطلب وأجلس محمدا معه على فراشه وراح يمسح ظهره بيده وهو يحدث أصحابه ، وقام محمد ليلعب فجعل عبد المطلب يختلس النظر إليه بين لحظة وأخرى فيشرق وجهه بالابتسام ، فقد كان يسره كل ما يصنع .

وذهب عبد المطلب ليتناول طعامه ، وقبل أن يمد يده إليه تلفت فلم يجد محمدا فقال :

— علىّ بابنى .

فأتوا به إليه فراح عبد المطلب وحفيده يأكلان فى جفان واحد .

وضاق محمد على الرغم من حداثة سنه بحياة الفراغ التى يحياها بمكة ، إنه كان فى بنى سعد يخرج مع إخوته يرعى غنم حليمة ، وكان يذهب مسرورا ويعود مسرورا فقد كان يجد متنفسا لذلك الحنان الفياض فى نفسه ، وكان إذا ما مسح بيده على حمل وديع تحركت فى قلبه الرأفة ، وإذا ضمه إلى صدره أو على يديه أحس أن فؤاده قد لان ، وأن رحابة وجدانه كانت تزداد على مر الأيام وتمتلىء رحمة وسلاما .

إنه يستشعر شوقا إلى السماء ونجومها ، وإلى الجبال ووديانها ، وإلى المراعى الخضر وانبلاج الفجر وغروب الشمس ، وإلى زفير النسيم وهبوب الرياح ، فهو محب لهذا الكون ، وإنه كثيرا ما يذوب فيه حتى يحس أن نبضات قلبه إن هى إلا بعض خفقات روح عظيمة تسرى فى كل الوجود .

وأفضى إلى جده برغبته فى رعى غنم أهله فرحب عبد المطلب وهو مسرور .

وتنفس الصباح وخرج محمد من داره بعد أن قبل أمه وانطلق إلى حيث كان رعاة بنى هاشم ، وذهب معهم ليرعى الغنم فى أجياد .

وراح يرعى الغنم ويتعلم الصبر والأناة ويقضى على ذلك الظلم الغريزى الذى ركّب فى بنى الإنسان ، فقد كان يرعى أضعف البهائم ويتعاطف معها ويفيض عليها من كنوز قلبه ويعيد شاردها إلى القطيع فى هدوء ، فعمرت السكينة نفسه وتسربل قلبه بالوقار .

وصار محمد سعيدا بحياته ، يرتشف حنان أمه إذا ما آوى إليها فى الليل أو فى النهار ، وينتشى فؤاده بالعواطف الرقيقة التى تسبغها عليه بركة الحبشية جارية أبيه عبد الله ، وينعم بالحنان الدافق الذى يغمره به جده عبد المطلب ، وبالحب العظيم الذى يحوطه به أعمامه .

وكان حمزة بن عبد المطلب أقرب أعمامه إلى قلبه فهو فى مثل سنه ، وكان يلعب معه إذا ما جاءت أمه لزيارة ابنة عمها آمنة بنت وهب ، وكان يحب عمه العباس فهو وإن كان أسن منه بسنتين فكثيرا ما كان يمضى أوقات فراغه معه وكثيرا ما ذهب معه إلى دكان عمه أبى طالب .

وحبه لعمه أبى طالب يفوق حبه لأعمامه الكبار ، فالساعات التى يقضيها فى رعاية أبى طالب كانت من أحب ساعات حياتــه ، كان يستشعر فيه حنان الوالد ، ذى القلب الكبير والحنان العظيم .

كان أبو طالب عطارا وكان شاعرا من أفصح شعراء بنى هاشم ، فإذا ما سمر أبناء عبد المطلب كان أبو طالب يقوم فيهم ويلقى قصيدة من قصائده فتتهلل الوجوه بالفرح ، فقد كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت

القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن بالأعراس ، وتباشروا به لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم .

و لم يكن أبو طالب أول شاعر فى بنى عبد المطلب فقد كان الزبير بن عبد المطلب شاعرا مفلقا شديد العارضة قذع الهجاء ولكن محمدا لم يكن يحس راحة إذا ما سمع هجاء عمه الزبير ، فى حين أنه كان يستريح إلى شعر عمه أبى طالب وإن كان لا يهتم بتعلم الشعر وما ينبغى له .

وكان يستريح إلى امرأة عمه أبى طالب ، فاطمة بنت أسد بن هاشم ابن عبد مناف كانت تهش له وتبش فى وجهه وترحب به ترحيبا صادقا إذا ما جاء لزيارة أبناء عمه ووالدهم العظيم ، وكان شيخ بنى هاشم يفطن إلى علاقة الحب التى بين محمد وعمه أبى طالب وزوجه فاطمة ، فكان يبارك ذلك الحب ويعمل على تغذيته ليكفل أبو طالب حفيده من بعده .

واستمر محمد فى رعى الغنم لأهله فى أجياد ، وإذا بالمراعى تذبل وتصفر ، وإذا بالجفاف ينتشر فى الوديان وعلى سفوح الجبال فقد بخلت السماء فانقطع المطر وباتت الإبل والغنم لا تجد ما تأكله ، ونزل بأهل مكة هم ثقيل فرأوا أن يفزعوا إلى آلهتهم يستسقون بها السماء ويطلبون ببركتها الماء .

وطب الكهنة إلى أصنام الآلهة وأطلقوا البخور وأقيمت الصلوات وارتفعت الدعوات وتجاوبت فى أرجاء مكة الابتهالات ، وراحت العيون ترقب السماء فإذا هى صافية لم تظهر فيها سحابة و لم ينسدل على وجهها نقاب ، فغامت وجوه أهل مكة بالأسى وانتشرت فى قلوبهم الأحزان .

وجاء السحرة يتوسلون بسحرهم ويرجون سقوط المطر ؛ فطالما انحبس فأنزلوه وطالما هطل حتى كاد ينزل بهم البوار فأوقفوه ، فأخذوا حطب السلع والعشر فحزموهما وعقدوهما فى أذناب بقرة وأضرموا فيها النيران وأصعدوها فى جبل قبيس قِبل المغرب ، واندفع الناس خلفها يستمطرون آلهتهم ويدعون أحر دعاء وقد شخصوا بأبصارهم إلى السماء يترقبون أن تبرق وأن يبدو سنا البرق كما بدا سنا النار التى تضطرم فى البقرة . وكتمت الأنفاس وراحت العيون تجول فى لهفة فى القبة الزرقاء وهى تفيض بالرجاء ، إلا أن النار أكلت البقرة وخمدت دون أن يبرق البرق أو يأتى الغيث ، فعاد الناس مطرقى الرءوس قد خاب سعيهم ومزقت الأحزان أحشاءهم .

ونزل بأهل مكة البلاء بعد أن راحت خيولهم وإبلهم وغنمهم تنفق من قلة الطعام ، إنها سنة جدب قد أذابت الشحم وأكلت اللحم وأنقت العظم . ودخلت رقيقة بنت أبى صيفى بن هشام زوجة عبد المطلب لتنام ، فبينا هى راقدة مهمومة إذا بها تسمع هاتفا يصرخ بصوت صحل يقول :

ـــ ألا فانظروا منكم رجلا طوالا عظاما أبيض أشم العرنين له فخر يكظم عليه ، ألا فليخلص هو وولده وليدلف إليه من كل بطن رجل ، فليشنوا من الماء وليسموا من الطيب وليطوفوا بالبيت سبعا ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته ، ألا فليدع الرجل وليؤمن القوم وإلا فغثتم أبداً ما عشتم .

فأصبحت مذعورة قد قف جلدها ووله عقلها ، وراحت تقص رؤياها على من عندها فقال :

ـــ هذا شيبة الحمد .

وذاع خبر تلك الرؤيا فى قريش فانقض الناس على عبد المطلب من كل بطن رجل ، واغتسلوا وانطلقوا إلى الحرم واستلموا الحجر الأسود وطافوا بالبيت سبعا ، ثم تأهبوا ليصعدوا إلى جبل قبيس مع عبد المطلب ومحمد بن عبد الله ، فقد أصر عبد المطلب ألا يبتهل إلى ربه إلا وحفيده معه ، فقد كان شيخ قريش يؤمن فى أغوار نفسه ببركة ابن عبد الله .

وراحوا يرتقون أبا قبيس وقد أحاط الناس بعبد المطلب وحفيده حتى قروا بذروة الجبل ، فقام عبد المطلب فاعتضد ابن ابنه محمداً فرفعه على عاتقه ، ثم قال فى صوت متهدج يفيض بالإيمان :

ـــ اللهم سادّ الخلة وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ومسئول غير مبخل ، وهذه عبداؤك وإماؤك بعذرات حرمك يشكون إليك سنتهم ، فاسمعن اللهم وأمطرن علينا مريعا مغدقا .

وشخص محمد ببصره إلى السماء كأنما يسأل ربه أن يستجيب لدعاء الشيخ ، كان يستقبل السماء بكل كيانه ووجدانه وكل خلجة من خلجاته فقد كان فى أعمق صلاة وإن لم تتحرك شفتاه بكلمة .

وهبطوا فى الجبل فإذا بالرياح تسوق السحب ، وما أن عادوا إلى الحرم حتى انفجرت السماء بمائها فانفجرت العيون بدموع الفرح وخر الناس لله سجدا .

وقفت آمنة فى الشباك ترنو إلى الكعبة وترقب الطريق ، فهى تنتظر أوبة ابنها الحبيب لتفضى إليه بما عقدت عليه العزم من أمر السفر إلى يثرب لزيارة قبر زوجها الراحل ، فقد آن الأوان ليعرف محمد مثوى أبيه .

إنها حدثته عن أبيه أحاديث مقتضبة تتفق مع سنه ، ولكنها عزمت أن تقص على ابنها فى هذه الليلة قصة عبد الله ونذر عبد المطلب أن يذبح أحد بنيه لإلٰهه إذا ما بلغ عددهم عشرة ، والضرب بالقداح على أبناء عبد المطلب وخروج السهم على عبد الله ، وفداء فتى قريش بمائة من الإبل ، ثم خروج عبد الله فى القافلة المنطلقة إلى الشام وموته فى دار من دور بنى النجار أخوال عبد المطلب .

إن ذلك الحديث ينكأ جرح قلبها ويجدد أحزانها ، ولكن كل ألم يهون فى سبيل أن يعرف محمد حقيقة منبته ، وأنه قد جاء من أشرف أبوين وأفضل حيين فى العرب.. زهرة وبنى هاشم ، وأن يعرف تلك الصلة التى تربط بينه وبين الخزرج فى يثرب ، فجده عبد المطلب حريص على أن تظل الأسباب متصلة بين بنى هاشم وبين بنى النجار أخواله ، وقد بان فى وجهه الرضا لما استأذنته فى أن تخرج بمحمد لزيارة قبر أبيه ، وأوصاها بأن تنزل فى دار النابغة فهو سيد أسياد بنى النجار ، وسيسره

أن يستقبل ابن عبد الله فى داره .

ودارت بعينيها فى المكان فأحست كأن أنفاس عبد الله تتردد فيه . انقضى ست سنوات وشهران منذ أن ودعها عبد الله قبل أن يخرج إلى الشام الوداع الأخير ولكن طيفه ظل فى البيت يغدو ويروح . إنه فى خيالها لا يريم ولا ينثنى ، وما أكثر اللحظات التى تناجيه فيها تحدثه عن ابنهما الحبيب ، وما أكثر ما زارها فى منامها وما أكثر ما ذرفت عليه الدموع .

وشعرت بعبراتها تسيل على خديها فمسحتها بظهر يدها ثم عادت ترصد الطريق ، فإذا بمحمد قد أقبل يتكفأ فى مشيته كأنما ينحدر على سفح جبل ، قد وسع من خطوه يسير دون أن يتلفت فلم يعرف منذ نعومة أظفاره التسكع بل كان يقصد هدفه على الصراط المستقيم ، فأضاءت جوانب آمنة بالنور ولعبت النشوة بأوتار قلبها ، فإذا بفرح دافق يملأ وجدانها ويتألق فى عينيها ويتوج شفتيها بابتسامة رقيقة عذبة حلوة تفيض بأنبل مشاعر الوجود .

وخفت آمنة لاستقبال الوافد الكريم ، ففطنت بركة إلى أن محمداً قد آب فانشرح صدرها وهرعت خلف سيدتها لترحب بالصبى الذى تفتحت له نفسها منذ أن احتضنته فى تلك الليلة التى ولد فيها ، وبدا كأن الكون قد أشرق بالنور .

وضمت آمنة ابنها إلى صدرها فى حب عميق ، وظلت بركة ترقبهما فى انفعال شديد حتى بللت الدموع عينيها ، وفطن الصبى إلى وجود بركة فذهب إليها وارتمى فى حضنها فقبلته وراحت تشمه فى نشوة ، فقد

كان ينبعث منه أريج أطيب من المسك وأزكى من كل ما فى الأرض من بخور .

ووضع الطعام وجلست حوله آمنة وبركة ومحمد ، فكانت آمنة تقدم إلى حبيبها أفضله ولكن محمداً لم يكن ليحفل به ، فهو يتناول منه ما يقيم أوده وكثيراً ما كان يكتفى ببضع تمرات ، وكانت آمنة تعجب من أمره فهو ينمو ويغلظ ويشب شبابا لا يشبه من كان فى مثل سنه من الغلمان ، وإن كان قليل الطعام .

وذهبت آمنة ومحمد إلى غرفتهما ، وراحت الأم تقص على ابنها قصة هاشم بن عبد مناف وذهابه إلى يثرب وزواجه من سلمى الخزرجية ومولد عبد المطلب عند أخواله بنى النجار ، وموت هاشم وذهاب المطلب إلى يثرب وعودته بابن أخيه إلى مكة ، وتولية عبد المطلب السقاية والرفادة وحفر زمزم وولادة أبيه عبد الله .

واستمرت تروى قصتها وقصة الذبيح عبد الله فى تأثر وانفعال ومحمد يصغى إليها فى انتباه ويلقى عليها أسئلة ذكية تنم عن رجاحة عقله . كان فى السادسة من عمره ولكنه بدا فى عينى أمه رجلا على استعداد لأن يحمل على كتفيه أضخم المسئوليات ، وأنهت حديثها معه بأنهما ذاهبان إلى يثرب لزيارة قبر أبيه ، ولتوطد الأسباب بينه وبين أخوال جده من بنى النجار فقد يفزع إليهم يوما لينصروه كما نصروا جده يوم أن أراد عمه نوفل أن ينتزع منه شرف السقاية والرفادة ، فجاءوا إلى مكة وأيدوا حق ابن أختهم وقضوا على نوازع الطمع التى كانت قد تحركت لسلب حق عبد المطلب .

وجهزت آمنة راحلتين ، راحلة اعتنت أشد العناية بهودجها الذى صنع من أغصان الشجر لتحمى محمداً الحبيب من لفح الشمس وعصف الرياح . إنه سيكون فى رعايتها على ظهر تلك الراحلة يؤنسها طوال الطريق ويملأ جفاف حياتها نوراً وأملا ، وراحلة لبركة وما يحتاجون إليه من زاد طوال الرحلة حتى يبلغوا يثرب .

وباتت آمنة تنتظر خروج القافلة المنطلقة إلى يثرب فى لهفة فقد كانت فى شوق لزيارة عبد الله لتذرف عليه دموعا لم ترقأ مذ جاء إليها الناعى يحمل إليها أسوأ نبأ قرع أذنيها طوال حياتها . إن أباها وهبا قد مات وقد أحست حزنا لفراقه ولكنها لم تحس تلك النار التى تلظت فى أحشائها بعد أن نعى إليها عبد الله . كانت بضعة من وهب بيد أن ذبيح قريش كان على الرغم من قصر العهد الذى عاشاه معا الروح الذى يخفق بين ضلوعها .

وراح محمد يرقب ذلك اليوم الذى ستخرج فيه القافلة من مكة إلى المجهول فى أمل ورجاء . إنه حمل فى يومه الثامن إلى أرض هوازن وتفتحت عيناه أول ما تفتحت على خيام بنى سعد وعلى الصحراء المترامية التى تمرح فيها حرية لا تحد ، وعلى الجبال السامقة الجرداء بوجهها العابس الذى ينطق بقسوة الحياة ، فراح منذ أن تعلم المشى يحاول أن يقهر تلك الجبال ، وقد استطاع أن يجلس على ذروتها ويرنو إلى السماء فى تطلع ورجاء كأنما تهفو نفسه القوية إلى أن تربط الأسباب بينها وبين ما فوق السموات قبل أن تعود به أمه حليمة إلى أمه آمنة بنت

وهب .

تفتح قلبه فى بنى سعد لأخيه عبد الله ولأخته أنيسة وأخته الشيماء ولأمه حليمة ولأبيه الحارث وغنمات بنت أبى ذؤيب . إنه لا ينسى تلك الأيام السعيدة التى عاشها فى كنفهم . وتفتح قلبه الكبير بعد أن عاد إلى مكة لعمه حمزة وعمه العباس ولصبيان بنى هاشم ، و لم ينسه أهله إخوته الذين شب بينهم فقد كان يحدث آمنة عنهم حديث وفاء وحب ، وما دار بخلده فى تلك الأيام أنه قد شرفهم برضاعته فيهم .

وإن قلبه لعلى أهبة لأن يتفتح لهؤلاء القوم الذين سيشدون الرحال إليهم ، هؤلاء الذين لم تقع عيناه عليهم ولا يعرف الطريق إليهم ؛ يكفى أن أباه قد لفظ أنفاسه بين أيديهم وأنه قبر فى أرضهم ليحبهم ، فقد كان ذا قلب غني بمشاعر طيبة رحيمة تفوق كل ما فى الأرض من كنوز .

إنه يحب كل ما يمد إليه عينيه ، السماء بنجومها ، والأرض بجبالها ووديانها ، والنباتات بأشجارها وعشبها ، والطيور أليفها وجارحها ، والحيوان صغيره وكبيره ، والإنسان طيبه وشريره ، فهو يتناسق مع الوجود ويتعاطف مع الكون ويشتهى أن يضم العالم كله إلى صدره أو يحتويه بين ضلوعه .

وحانت ساعة الرحيل فقافلة قريش المنطلقة إلى يثرب قد أناخت خارج الحرم تنتظر إذن عبد المطلب ببدء الرحلة المباركة الميمونة ، فراحت آمنة تلقى على دارها نظرة وداع وإذا بأحداث ذلك اليوم الذى جاءت فيه إلى الدار مع عبد الله أول مرة تطفو على سطح ذهنها . إنها ترى عبد الله وهو يحنو عليها يسير بها فى الحجرات ليريها عش الزوجية الجميل ، كانت سعيدة غاية السعادة.انطلقت فى اليوم أمانيها وأحلامها

من عقالها فراحت تحلق مجنحة فى أجواء مستقبلها ، فرأت عبد الله فى مثل سن عبد المطلب يجلس على فراشه فى ظل الكعبة وحوله بنوه وقد بلغ عددهم عشرة !

كانت رؤى عذبة حبيبة ، وكان عبد الله يغذيها بأعذب التصورات ، ولم يخطر لها على قلب فى تلك الأيام أن الموت يتربص لفتى الأحلام ليقوض كل ما بنت فى الهواء ، ذهب عبد الله دون أن يئوب وترك فى أحشائها جنينا كادت تتلفه الأحزان ، ولكنه بقى لها ليكون عزاء عن قسوة الأيام .

كانت تحلم بأن تنجب عشرة لعبد الله ولكنها لم تلد له غير محمد ، وإنها لترجو أن يكون محمد خيرا من عشرة ، وأن تتحقق تلك الهواتف التى سمعتها ليلة أن حملت به وليلة أن وضعته أن يصبح سيد هذه الأمة ، وفاض تأثرها فضمت محمدا إليها وسالت عبراتها .

وغادرت آمنة الدار ومحمد فى يدها وبركة من ورائها ، وما أن أغلق الباب خلفها حتى انقبض صدر آمنة وأحست كأن باب حياتها قد أغلق . إنها كانت متلهفة إلى الإنطلاق إلى قبر الحبيب ، ولكن ما أن أوشكت الرحلة على الابتداء حتى استشعرت قلقا ورهبة لا تدرى لهما سببا ، ترى أتذهب دون عودة كما ذهب عبد الله ، أم أنها تخشى أن يلحق ابنها الحبيب مكروه فى الطريق ؟

وهبطوا إلى الطريق الذى يقود إلى باب إبراهيم ولاحت لعيونهم الكعبة وبئر زمزم وجبل قبيس ، فراح محمد ينظر إلى البيت العتيق وقد تهلل وجهه بالفرح فسيطوف بالحرم ثم يلحق بالقافلة التى ستحمله إلى قبر أبيه وأخوال جده عبد المطلب من بنى النجار وإلى أناس سيحبهم

ويحبونه . وتحركت شفتا بركة بالدعوات بينا التفتت آمنة خلفها وألقت على دارها نظرة وداع وفى الحلق غصة وفى العينين دموع .

واستلم الثلاثة الحجر الأسود ثم راحوا يطوفون بالبيت . كانت آمنة تبتهل إلى رب البيت أن يحفظ محمداً وأن يبارك لهم فى سفرهم وأن يعيدهم سالمين ، وكان محمد يصغى إلى دعوات الطائفين بينا كانت بركة تسير خلفهما وقد لاح عليها وجوم فقد شغل ذهنها بالرحلة ومتاعبها عن الدعوات والابتهالات والمناجاة ؟

وانتهوا من طواف الوداع فذهبوا إلى حيث أناخت القافلة واتجهوا إلى راحلتيهما ، وقبل أن يعتلوا ظهريهما جاء عبد المطلب يقوده عبده بعد أن ذهب بصره وحوله بعض بنيه ليودعوا آمنةَ ومحمد بن عبد الله .

مد عبد المطلب يده ومررها على رأس حفيده فى رفق وحنان ، ثم احتمله بين ذراعيه وضمه إلى صدره وقبله فى حب وراح يشمه فى وجد كأنما يريد أن يملأ روحه بريحه ما دام لا يستطيع أن يملأ منه عينيه .

وراح عبد المطلب يحدث الأرملة الشابة فى صوت متهدج يفيض رحمة ، يوصيها بمحمد ويحملها سلامه إلى أخواله من بنى النجار ثم يتمنى لها أطيب التمنيات . وحان أوان الرحيل فتقدم أعمام محمد ليودعوه فأحست آمنة رقة تكتنفها فسالت من مآقيها العبرات .

وسارت القافلة فالتفتت آمنة خلفها وألقت نظرة طويلة على الكعبة فاستشعرت وحشة وكأن يداً قوية تهصر فؤادها ، وعجبت لذلك الحزن الذى ران عليها ولتلك الوساوس التى انبعثت فى صدرها تفح فحيح الأفعى تهمس بأن نظراتها التى تلقيها على الوادى المقدس هى آخر ما بينها وبين ذلك الوادى الحبيب ؛ إنه فراق لا لقاء بعده .

وحاولت آمنة أن تنتزع نفسها من تلك المشاعر التى تهجس فى وجدانها فراحت تداعب محمداً الذى كان إلى جوارها فى هودجها وتبش له وتحادثه وتصغى إلى حديثه ، إلا أنها ألفت نفسها تلتفت خلفها وترنو إلى جبل قبيس رنوة طويلة كأنما تقبله بعينيها قبلة فيها رحيق الروح وذوب النفس وكل ما فى الفؤاد من عواطف الرقة والتعاطف والوداد .

وفطنت بركة إلى كثرة تلفت سيدتها فحسبت أنها تكثر من التلفت لتعود ، فقد كان القوم يعتقدون أن كثرة التلفت توجب العودة ، فرفت على شفتى بركة بسمة هادئة وراح قلبها يبتهل إلى الوجود أن يرحم ضعف الأم ووحيدها .

وسرت القافلة فى الكون العريض ومحمد يرعى نجوم السماء فى الليل ويبتهج قلبه للشروق وتتهلل نفسه بالفرح وهو يرقب الغروب ، إنه يذوب فى الوجود ويتناسق مع كل ما حوله ويستشعر بتعاطف عجيب بينه وبين كل ما يمد إليه عينيه من رمال وصخور ونخيل وآبار وعيون وسادة وعبيد .

واتجهت القافلة ناحية ساحل البحر ، ودب فى الرجال والنساء نشاط ، وارتفع صوت الحادى يحث الإبل على الإسراع ، والتفت محمد بعينيه الجميلتين إلى أمه وكان فيهما تساؤل كأنما يقول لها : فيم هذا النشاط ؟ وفطنت الأم إلى ما يريد فقالت :

ـــ مناة . إلهة الأوس والخزرج .

وكست سحابة من الأسى وجه آمنة بنت وهب فذكر « مناة » أعاد إلى ذهنها فكرة الموت ، فمناة إلهة المنايا ومخبآت القدر ، ترى فيم هذا الخوف الذى يجتاحها ؟ وما الذى يخبئه لها القدر فى رحلتها ؟ إنها منقبضة

النفس منذ أن غادرت دارها فى مكة ولا تدرى لذلك الأسى من سبب . أذهابها إلى قبر الحبيب عبد الله هو علة ذلك الحزن والانقباض ؟! أنكأت الرحلة جراحات القلب والنفس والوجدان ؟! كان عبد الله نور العينين وهواء الرئتين وروح الروح فلا جرم أن سحت الدموع واكتأبت النفس وانقبض الصدر وغلف كل وجودها سواد .

وبالقرب من الساحل أناخت القافلة بين المدينة ومكة ، وأفصح الحديث الدائر بين الناس أنهم بناحية المشلل بقديد ، وما كادت أقدام القوم تستقر على الأرض حتى انسابوا فى خشوع ناحية صخرة منصوبة على ساحل البحر قد وقف عندها كهان يحرقون البخور ويتمتمون بصلوات .

ونظر محمد إلى آمنة ، فما رأى من قبل مثل هذه الصخرة الموقرة التى لها سدنة يعظمونها وأناس ينحرون عندها ويطوفون بها ويعلقون عليها الهدايا ، فقالت له :

— إنها مناة .

كان هذا الصنم معظما عند الأوس والخزرج والأزد وغسان ، فكانوا يحجون إلى الكعبة ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رءوسهم ، فإذا نفروا أتوا صنم مناة وحلقوا رءوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك .

وكانت قريش وهذيل وخزاعة وأزد شنوءة وغيرهم من الأزد تعظم ذلك الصنم ، بل كانت كل قبائل الحجاز تعظمه ، فراح رجال القافلة يطوفون حوله ويهدون إليه الهدايا ومحمد ينظر من بعيد إلى جموع الخاشعين المبتهلين لصخرة من الصخور .

إنه لا يدرى ما الذى منعه من أن يطوف مع الطائفين وأن يخر ساجدا مع الساجدين ، كل ما يدريه أن صدره لم ينشرح لذلك الذى يفعله قومه وأنه لم يحس وهو ينظر إلى الصنم تلك الإحساسات المشرقة بالفرح التى يستشعرها كلما سار فى الكون ومد عينيه إلى السموات والأرض وما بينهما . إنه كلما هام فى الوجود أحس أن روحا تسرى فيه بينا لا يرى فى ذلك الصنم إلا حجرا ميتا بلا روح .

واستأنفت القافلة رحلتها وراحت آمنة تحدث محمدا الحبيب عن آلهة قومه ، وأن للكون إلها عظيما خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر وأنزل المطر من السماء أحيا به الأرض بعد موتها ، وأن الأصنام التى يعبدونها بناته يشفعن للناس عنده . وظل محمد يصغى إلى أمه حتى لاحت أرباض يثرب .

وانسابت القافلة بين النخيل فى الواحة الخضراء حتى بلغت منزلها ، فأناخ القوم رواحلهم بينا انطلقت آمنة ومحمد وبركة الحبشية على بعيريهما إلى دار النابغة أحد سادات بنى عدى بن النجار .

وراح محمد يتلفت وهو فى الطريق يديم النظر إلى الآطام المنتشرة فى كل مكان ، وكأن المدينة ميدان قتال ، ففى كل حى فيها تقوم حصون تنسب إلى أصحابها من الأوس والخزرج وقبائل اليهود ، وبين تلك الحصون بنيت الدور والأسواق ، وقد مس أذنيه خرير الماء كأنه صوت ملائكى أتى من السماء .

وخفق قلب آمنة خفقات شديدة ، إنها على بعد خطوات من قبر الحبيب ، قبر عبد الله الذى كتب عليه أن يموت غريبا قبل أن تكتحل عيناه برؤية ابنه الذى هفت إليه روحه قبل أن يراه ، والذى طالما سبحا

فى بحور الخيال يتحدثان عن ذلكم الوافد الكريم الذى بشرت به آمنة لما حملت به ، ولكن لم يبلغ بهما الخيال أن يتصورا أن هذه المدينة التى ولد فيها عبد المطلب وقبر فيها عبد الله ستحمل يوما اسم ابنهما الحبيب ، وأن منها سوف يشرق نور الرسالة التى سيجىء بها محمد بن عبد الله ليغمر العالمين .

ووقفت الراحلتان أمام دار النابغة ، فخف بنو النجار لاستقبال آمنة وحفيد ابن أختهم عبد المطلب ، ورحب النسوة بزوجة عبد الله ، وما أن دخلت آمنة ومحمد وبركة ليستريحوا حتى تجددت أحداث وأحزان ، أحداث مضت عليها ست سنوات وأحزان نامت تحت رماد الزمان ، فقد راح النسوة يقصصن على القادمين كيف حمل عبد الله وهو مريض إلى هذه الدار ، وكيف ظل أكثر من شهر وهو مسجى فى الفراش ، وما دار بينه وبين أخيه الذى جاء من مكة ليعود به من حوار ، والتفتت امرأة من بنى عدى بن النجار إلى آمنة وقالت لها إنه كان يذكر اسمها على الدوام ، فطفرت الدموع إلى مآق الأرملة التى لم يجف لها دمع مذ ذهب عبد الله .

والتقط القادمون من الصحراء أنفاسهم ثم قاموا ليزوروا قبر فتى قريش الذى دفن فى دار النابغة ، فانطلقوا وقد خيم عليهم وجوم ، وامتقع وجه آمنة واشتد وجيب فؤادها وثارت عواطفها حتى أنها قبضت على محمد بيد متشنجة ، وأحست بالأرض تميد تحت قدميها فاستندت بيدها الأخرى على بركة ، وراحت تتقدم فى تؤدة فقد أشفقت على نفسها من هول ذلك اللقاء .

كان خيال عبد الله يملأ أقطار المكان ، إنها تكاد تشم ريحه ، وتحس

أنفاسه ، وتشعر بمس أنامله ، وتسمع نجواه . إنه هنا فى خيالها .. فى ضميرها .. فى سويداء فؤادها ، إنه لم يمت ، إنه حى فى أعماقها ، إنه نبضات قلبها وخفق وجدانها .

ولاح لعينيها قبر الحبيب ، وتبخرت الأوهام وانجلت لها الحقيقة المرة . إن عبد الله هنا تحت الثرى ، وفارقها فراقا ليس بعده لقاء ، فأحست بالأسى يعتصر فؤادها وبالحزن يجثم على صدرها وبوقدة نار فى حلقها ، وأرادت أن تكبح عواطفها رأفة بابنها الحبيب ولكن ذلك كان فوق طاقة البشر فارتمت على القبر تبكى أحر بكاء .

وخنقت بركة عبراتها فانتحبت ونشجت ، وملأت الرحمة قلب محمد فبكى لبكاء أمه ، ثم هرع إليها وارتمى معها على قبر أبيه يذرف الدموع السخينة ، فضمته آمنة إلى صدرها وسالت عبراته وعبراتها لتروى رمس الفتى الغريب الغالى المتعطش للحنان .

— ٥ —

توطدت الصداقة بين محمد وغلمان بنى النجار فكان يخرج معهم إلى المروج وإلى جنات يثرب فيرى المزارع وقد نسج الربيع لها ثيابا خضراء وصفراء بديعة اللون ، تأخذ العين وتشرح الصدر وتبده الوجدان بآيات الأرض ، وقد رأى الباقلّى كاللؤلؤ المنضد فى طى أصداف من الزبرجد ، وأوراق ورده خواتم من لجين فصوصها خرزات سود ، وسنابل الشعير كأنها سلسلة مضفورة من عنبر ، والخيار كأن ظاهره زبرجد أخضر ، كأن باطنه من البلور . ورأى جداول الماء وقد انعكست عليها أشعة

الشمس فبدت كفضة تموج بالتبر ، فكان يقف الساعات يرنو إلى الأعناب والنخيل وأوراق الشجر والماء الجارى فى القنوات فلا يتحرك خياله تحرك خيال الشعراء بل كان يمتص رحيق الحكمة من نبض الوجود .

وراح يضرب مع أبناء أخواله فى جنبات المدينة يصغى إلى أحاديثهم عن الحروب التى نشبت بينهم وبين أعدائهم من الأوس ، فما كان يمر يوم دون أن يتشابك رجل من الخزرج مع رجل من الأوس ، وكان القتال ينشب بين الحيين لأتفه الأسباب .

وكانت الآطام منتشرة فى كل مكان فكان صبيان بنى النجار يذكرون لمحمد القادم من مكة اسم كل أطم يمرون به ويقولون :

ـــ هذا أطم بنى الأشهل يقال له « واقم » .

ولاح بالقرب من الأطم سعد بن معاذ فازور الغلمان عنه فهو من أعدائهم الأوس ، وكانت العداوة بين الحيين تغرسها الأمهات فى قلوب الصبيان مذ أن تتفتح عيونهم على الحياة .

ـــ « الريان » أطم بنى حارثة .

وبصق صبى من الصبيان على الأطم فهو من آطام الأوس ، وعند قباء وقف الصبيان طويلا ينظرون إلى الآطام الكثيرة المنتشرة بها وكانت كلها للأوس وكان أعظمها أطم « الشنيف » وكان لبنى عمر بن عوف ، و « الصياصى » ، و « المستظل » وكان لأحيحة بن الجلاح الجحجبى ، وقد التصقت ألسنة الغلمان بأفواههم و لم تتحرك بالسباب كلما مدوا أعينهم إلى آطام أحيحة ، فقد تزوج أحيحة الأوسى من سلمى الخزرجية لينشر السلام بين القبيلتين ، وقد أنجب منها ذرية لتكون جسر

المحبة بين الأوس والخزرج ، ولكن ذلك الزواج قد فصم وتزوجت سلمى من بعده هاشم بن عبد مناف وأنجبت منه عبد المطلب جد محمد بن عبد الله ، ذلك الفتى الذى جاء مع أمه من مكة ليزور قبر أبيه وليجدد الصلات الطيبة بين قريش وبنى النجار أخوال شيخ بنى هاشم .

كان غلمان بنى النجار يعرفون ذلك التاريخ حق المعرفة فكانوا لا يسبون أحيحة على الرغم من انفصام الزواج الذى كان بينه وبين سلمى ، فهم أخوال أبناء أحيحة الذين أنجبهم من الخزرجية ، وكان العرب ينظرون إلى الخئولة نظرة احترام وإجلال .

ولاح على البعد أطم أسود ، فأشار إليه أحدهم وقال :

ـــ هذا « الضحيان » ابتناه أحيحة بن الجلاح ، بناه أولا من حجارة بيضاء فسقط ، ويقول فيه :

طويل الرأس أبيضُ مشمَخِر لو ان المرء تنفعه العقول

وقد أعددت للحدثان حصنا يلوح كأنه سيف صقيل

وراح محمد يضرب فى جنبات يثرب مع غلمان بنى النجار يمشى فى أسواق المدينة ويتفرس فى وجوه يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع ، ويشاهد أعمال الصياغة والحدادة التى يقوم بها اليهود ، وينطلق إلى جبل أحد فيذكره بجبل قبيس ومكة الحبيبة والبيت العتيق .

كان محمد يخرج كل يوم مع غلمان بنى النجار يسرى فى يثرب كفراشة طليقة وقد فتح عينيه وأذنيه وفؤاده يصغى إلى أحاديث القوم ، حتى إذا ما بلغ ذات يوم ثَنِيَّة الوداع راح غلام يروى ما سمعه فى داره عن سبب تلك التسمية ، قال :

ـــ كان لا يدخل المدينة أحد إلا من هذا الطريق وحده ، وكان عليه

أن ينهق كالحمار عشرة أصوات فى طلق واحد ، فإن لم يعشر بها مات قبل أن يخرج منها ، فإذا وقف على الثنية قيل : قد ودع ، فسميت ثنية الوداع ، حتى قدم عروة بن الورد العبسى فقيل له : عشر بها ، فلم يعشر بها وأنشد يقول :

لعمرى لئن عشرت من خشية الردى
نهاق الحمـــــار ، إننـــــى لجزوع

ثم دخل فقال : يا معشر يهود مالكم وللتعشير ؟ قالوا : إنه لا يدخلها أحد من غير أهلها فلم يعشر بها إلا مات ، ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا قتله الهزال . فلما ترك عروة التعشير تركه الناس ودخلوا من كل ناحية .

وكان محمد يعود بعد الطواف فى يثرب إلى العوالى شرق وادى بُطحان حيث منازل الخزرج وآطامهم ، وكان يمر بأطم المزدلف الذى بناه مالك بن العجلان الذى قتل ملك اليهود ويلقى سمعه إلى الغلمان الذين يروون قصة مالك . كان محمد يتطلع إلى بيوت بنى سالم بن عوف وآطامهم « الشماخ » و « القوافل » حتى يصل إلى دور بنى النجار فيدخل ليلقى أمه آمنة فيرتمى فى أحضانها ويقص عليها ما رآه فى يومه فى مدينة أخواله ، وكانت آمنة تصغى إليه منشرحة الصدر متفتحة النفس تغمرها سعادة عارمة وهى تملأ منه عينيها ، فقد كان قرة نفسها و فؤادها .

وتعلم محمد العوم فى بئر بنى عدى بن النجار وأحسنه ، وكان ينطلق إلى بركة جارية أبيه عبد الله ويقص عليها خواطره ، فكانت ترنو إليه فى حب وكثيرا ما كانت تجوس معه خلال أسواق اليهود وتلحظ تفرسهم

فيه ، فكانت توجس منهم خيفة فتضمه إليها كأنما تحميه من عدو يريد به شرا .

وكان مع غلمان من أخواله يلاعب أنيسة جارية من الخزرج على أطم عدى بن النجار ، وعلى الرغم من حداثة سنه فقد كان يمتاز بالنبل الإنسانى : يعاون من يحتاج إلى المعاونة ، ويرق قلبه للضعيف ، ويمتلىء فؤاده بالسعادة إذا ما قام بعمل يسعد الآخرين ، فقد كان يحس فى أعماق وجدانه أنه إنما وجد فى هذه الحياة ليبذل نفسه رحمة للناس ، وأن سعادة ذاته مستمدة من إسعاد غيره من كل ذى كبد رطبة .

نشأ محمد فى ثرى مكة ولكنه منذ أن ولد لم يستقر بها طويلا ، حمل إلى البيداء لتهيم روحه فى معبد الوجود وتتصل بالسماء وتحاول أن تسمو إلى ما فوق السموات ، ثم عاد إلى أهله وجلس فى ظل الكعبة مع ندماء جده عبد المطلب ، إلا أنه ضاق بحياة الفراغ فذهب يرعى الغنم ليسرى فى الكون الذى يحبه حرا طليقا من قيود المجتمع المكى . وما انقضى على عودته سنة أو سنتان حتى ذهب إلى يثرب ليزور قبر أبيه ويعايش تيار الفكر فى المدينة فقد كانت سعادته مذ أن تفتحت براعمه فى المعرفة ونشدان الخير الأسمى .

كانت بذور الحكمة تلقى فى أغوار ضميره بالاستغراق فى الفكر والنظر إلى الكون واستشفاف الحقائق ومحاولة الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تخفق فى الوجود ، وأن ينبثق فى ذات نفسه نور من النور .

وتقضت الأيام وآمنة راضية بمقامها إلى جوار قبر الحبيب ، تستشعر إحساسا غامضا أن عبد الله قد خرج فى قوافل قريش وأنه عما قريب سيئوب وأنهما سيلتقيان لقاء لا فراق بعده . وكان ذلك الشعور يحبب

إليها يثرب والمكث فيها ، ولو طاوعت قلبها لبقيت إلى جوار رمس عبد الله ما دامت الحياة ، ولكن إحساسها قبل محمد القرشي الذى ينبغى أن يشب فى أهله جعلها تضحى بالراحة النفسية التى تكتنفها لتعود به إلى مكان ، حيث الوحدة والألم والفراغ .

كانت آمنة تقاسي نفس العواطف التى قاستها سلمى بنت عمرو الخزرجية يوم أن جاء المطلب يلتمس منها أن يعود بابن أخيه شيبة بن هاشم إلى مكة ، كانت تتنازعها عاطفتان : عاطفة الأمومة التى تنشد أن تعيش مع ابنها الحبيب فى دعة وسلام وأمان مؤثرة نفسها على ما فيه مصلحة ابنها ، وعاطفة إيثار ترغب فى أن تفتح أمام الحبيب سبل الحياة ليبلغ ذروة ما ينتظره من مجد فى قومه وإن قاست من مرارة الفراق وألم العودة إلى مهد الذكريات .

وعادت قافلة قريش من الشام فخف أهل يثرب لاستقبالها والترحيب بها ، ونكأت العودة جرح قلب آمنة وأعادت إلى ذهنها ذكريات ذلك اليوم الذى عاد فيه فتيان مكة ولم يؤب معهم فتى قريش . كان يوما قاسيا عصف بكل الأمانى والآمال ، وإنها لتحس مرارته فى نفسها حتى هذه اللحظة التى تمد عينيها فيها إلى العائدين من بصرى متهللين بالفرح مفعمين بالرضا والسرور .

وطفرت من مآقيها دمعة ، ومن خلال غيام العبرة رأت محمدا الحبيب يهرول نحو القافلة ليرحب بالعائدين ، فخفق قلبها خفيقا ناعما أشاع الغبطة بين جوانحها ، فرفت على شفتيها بسمة تجمعت فيها كل رقة الوجود .

وغاص محمد فى القافلة ، وراح فتيان الأوس والخزرج يغدون

ويروحون بين الإبل التى حنت إلى الراحة ، ولعل كتف محمد قد احتكت بكتف سعد بن عبادة أو سعد بن معاذ أو حسان بن ثابت أو عمارة بن حزم أو سعد بن زرارة أو أبى أيوب أو عبد الله بن أبى بن سلول أو أى من الرجال الذين سينصرونه أو اليهود الذين سيناهضونه ، ولعل بعضهم قد تفرس فى وجه الصبى ، ولكن الذى لا شك فيه أنه لم يخطر على قلب أحدهم روعة الأحداث التى ستكون بينه وبينهم ، وأن فيض إيمانه سينبعث من هذه الواحة النابضة بالإحن والعداوة ليغمر العالمين .

وهرع رجال قريش إلى أسواق يثرب يشترون من اليهود الحلى لأزواجهم وبناتهم ، ويدفعون لهم بعض ما عليهم من ديون وفوائد ، ويمتارون ما يحتاجون إليه من تمر . وخف الشباب إلى البغايا صاحبات الرايات الحمر يلتمسون اللذة وينشدون تلك النشوة التى يحسونها بعد شرب ما أتوا به من الشام من خمور ؛ إنها ليالى صاخبة مترعة باللهو والمجون .

وراحت بركة وعبيد بنى النجار يعدون راحلتى آمنة للعودة بعد أن مضى شهر على وفود آمنة وابنها وجارية عبد الله ونزولهم بدار النابغة . إنه شهر مر كلمح البصر وإن تعلم فيه محمد العوم وأحسنه ، وطاف بأحياء يثرب ورأى آطام الأوس والخزرج واليهود ، واشتد فى سعيه حتى دخل خيبر وأحس ما بين العرب واليهود من عداوة ، ولمس العداوة التى بين الأوس والخزرج والتشاحن الذى بين اليهود واليهود .

ووافى يوم الرحيل فذهبت آمنة ومحمد وبركة إلى قبر عبد الله ووقفوا برهة وقد نكسوا رءوسهم وغامت وجوههم بالأسى ، ثم ألقوا على القبر نظرة وداع وانسلوا خارجين .

كان الجملان قد أنيخا أمام دار النابغة بن عدى بن النجار . وكان غلمان بنى النجار واقفين لتوديع محمد الصبى الذى جاء من مكة ليستولى بدماثة خلقه ورجاحة عقله على أفئدتهم فقد أحبوه من كل قلوبهم ، وكانت أنيسة الجارية الخزرجية التى طالما لعبت معه على أطم بنى عدى بن النجار واقفة بينهم وقد ترقرقت فى عينيها الدموع .

وركبت آمنة راحلتها ، وخف محمد واعتلى ظهر الجمل وما كاد يستقر إلى جوار أمه حتى راح يقلب وجهه فى الغلمان الذين جاءوا ليودعوه . إن قلبه تفتح لهم وإنه ليبتسم لهم بكل وجدانه وقد انشرح صدره ، فهو يتهلل بالسرور ويمتلىء رحمة كلما أحس بترقرق العواطف النبيلة فى أسارير البشر .

ووقعت عيناه على أنيسة ورأى العبرات فى مآقيها ، فأحس رقة تكتنفه ودموعا تبلل روحه وإن لم تطفر من مآقيه ، وحركت الجارية ذكرياته فإنها كانت على الدوام تذكره بأخواته أنيسة والشيماء وعبد الله أبناء حليمة السعدية . إنه لم ينس تلك الأيام الحلوة التى قضاها فى بنى سعد فى هوازن ، ولن ينسى الأيام التى أمضاها فى يثرب ، وسيذكر على الدوام أخواله من بنى النجار ، وأبناء أخواله ، وقبر أبيه ، وآطام الأوس والخزرج واليهود ، وأسواق الصياغة والحدادة ، وأنيسة التى لعبت معه على أطم بنى النجار .

وانطلقت الراحلتان إلى حيث كانت قافلة قريش ؛ فى إحداهما آمنة الشابة الصغيرة وقد ذبل لونها لا يدرى الناظر إليها علة ذلك الذبول أهو من فرط حزنها على حبيبها الثاوى فى دار النابغة أم أصابتها حمى يثرب ، وإلى جوارها محمد يصافح بعينيه كل الوجود ويتفتح فؤاده لرحيق

الحكمة الذى يكاد أن يكشف النقاب عن وجه المجهول ، وفى الأخرى بركة الحبشية ترقب سيدتها وقد خنق قلبها بالخوف ، فامتقاع لون سيدتها جعلها تستشعر رهبة وقلقا .

ورحلت قافلة قريش مخلفة وراءها يثرب وإن كانت ذكريات أيامها ولياليها ماثلة فى الأذهان ، فزيارة قبر عبد الله أهاجت قسوة الفراق التى كانت قد نامت على مر السنين . إنها تستشعر أن فتى قريش قد مات الساعة ، فتجددت لوعة أساها ونزل بصدرها حزن عميق وانسدلت على آمالها المشرقة أسجاف من اليأس المرير ، ولولا التصاق محمد الحبيب بها لحسبت أن حياتها لم يعد له هدف ولا معنى .

والتفت محمد بوجهه إلى أمه وراح يحدثها والقافلة تسرى فى الكون العريض حديثا يفيض رقة وأملا عن أيامه فى يثرب ، وعن أصدقائه غلمان الأوس والخزرج ، فما تأثر بالعداوة الناشبة بين الحيين ، وعما رأى فى بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى النضير من عادات اليهود ، فأحست آمنة أن حديثه الشجى يغسل أدران الشجن ، وأن صحراء نفسها قد بذرت فيها بذور أمل بسام ، وأن غيث ابنها الحبيب قد أحياها بعد موتها ، فانفرجت شفتاها عن بسمة بددت الغيوم التى رانت على وجهها النبيل .

وراحت الريح تتناوح تهب من جهات مختلفة لها حنين كحنين الإبل فأوجست آمنة خيفة ، خشيت أن يكون ذلك بداية عاصفة حاصبة هوجاء ليس لهم منها عاصم فى هذه البيداء المترامية التى لا يرى البصر فى أفقها إلا انطباق السماء التى عليها غبرة على الأرض الجرداء .

واشتدت الريح وارتفع صوت زفزفتها فصارت جافة تسفى الوجوه

بالرمال ، فاضطرب حبل القافلة ، وحاولت الإبل أن تدور لتحمى وجوهها من صفع الذر الذى يؤذى أعينها لولا هؤلاء الرجال الذين أخذوا بمقودها وراحوا يجذبونها لتشق طريقها فى العاصفة .

كانت آمنة ومحمد فى الهودج الذى صنع من أغصان الشجر ، فراحت الريح تعصف بالهودج وآمنة تجاهد أن تتشبث به لتحمى محمداً الصغير من غائلة الصحراء ، ولكن هيهات فقد جاء إعصار وأطار الأغصان وما عليها من فرش وصارت آمنة وابنها الحبيب فى مهب الريح ، فاحتضنت آمنة ابنها وأخفته من السوافى فى طيات ثيابها .

ومالت فوقه بغريزة الأمومة تتلقى عنه غضب الطبيعة ولفح الرياح المزمجرة ، وتذكرت وهى فى هذه الشدة ذلك الهاتف الذى هتف بها يوم أن حملت به : إنك حملت بسيد هذه الأمة ، فزادها ذلك إصراراً على أن تصون ذلك النور المشرق فى ظلمات حياتها ، فاحتملت فى صبر عصف الهبوة[١] التى تكاد أن تقصف عودها .

وتقدمت القافلة فى بطء شديد ، وشغل كل من فيها بنفسه حتى أن بركة أسدلت نقابا كثيفا على وجهها وانكمشت فى الهودج الذى كان كريشة تتأرجح ، ولم يخطر على قلبها أن تطل برأسها لترى ماذا أصاب آمنة وابنها الصغير .

وضاعت صيحات الرجال فقد كانت تذروها الرياح ، وتعلقوا بأعناق الإبل حتى لا تنجفل فى الصحراء مفزوعة لا تلوى على شىء ، وصهلت الخيل وولولت النسوة وبكى الولدان ، وظلت آمنة صامتة وإن

---

(١) الريح إذا هبت بالغُبرة .

دوت الآلام فى أغوار ذاتها ، كانت تستشعر وهنا وأن روحها تكاد أن تنسل من بين جنبيها ، ولكنها كانت تنفث العزيمة فى نفسها بأن توحى إلى ضعفها أن ذلك الثاوى فى أحضانها أمانة بين يديها عليها أن تعود به سالما إلى مكة ليتحقق قدره ويسود قومه .

وكانت آمنة تمنى النفس بأن كل ريح لها هبوب فلابد لها من ركود ، ولكن العاصفة كانت تزأر زئيراً عاليا بينما كانت تنوء بضعفها ، فباتت تخشى أن يدركها السكون قبل سكون العاصفة ، ودارت الأرض بها وأحست أنها على وشك أن تغيب عن الوجود ، فراحت تتلمس محمداً الحبيب لتتأكد أنه فى مأوى يعصمه من الحرور فقد كانت به رحيمة .

وهدأت العاصفة وحطت القافلة لتصلح من أمرها ، فهرعت بركة إلى راحلة سيدتها ، وما كادت عيناها تقعان على وجه آمنة حتى انقبض صدرها ولاح الخوف فى محياها ، فقد كانت سيدتها ذابلة ذبول الموت وقد كاد أن ينطفىء بريق عينيها .

ومدت بركة يديها لتعاون آمنة على الهبوط ولكن سيدتها مدت يدين مرتجفتين إلى محمد وحاولت أن تحمله لتدفع به إلى بركة ، ولكنها عجزت عن أن ترفعه ، فخفت بركة إليه واحتملته بين ذراعيها وفى القلب أسى وفى الحلق غصة وفى العينين دمع يترقرق .

ووضعت بركة محمداً على الأرض وهرعت إلى آمنة وحملتها حملا ثم مددتها على الأرض ، وراح محمد ينظر إلى أمه فى خوف شديد ؛ إنه بات يخشى ذلك الاصفرار الذى علا وجهها وتلك النظرات الزائغة وذهاب بريق عينيها وذلك الضيق فى أنفاسها ؛ إنه يحس رقة ورحمة وشفقة وحزنا ، وحشرجت روحها فى صدرها وقال فى صوت ضعيف :

— واكرباه !

فاستشعر محمد كأن نياط قلبه تتمزق ، وأن يداً قوية تهصره هصراً ، وربا خوفه فمال عليها وراح يناديها ولكنها لم ترد نداءه فقد كانت تجود بأنفاسها . وفطن محمد إلى فداحة المصاب الذى سينزل به فراح فؤاده ينز أسى ، وأحس لسع نار اليتم ترعى فى جوفه فسالت عبراته ، وراح يقاوم أن ينشج بالبكاء حتى لا يؤذيها فى لحظاتها الأخيرة .

وفاضت روح آمنة فارتمت بركة عليها تندبها وتبكيها ، وصرخ محمد صرخة فيها ذوب نفسه ، وراح ينادى أمه الحبيبة فى لوعة وقد جرت دموعه تغسل وجهه الحزين وتخفف ذلك اللهيب الذى اشتعل فى وجدانه ، وهرع رجال القافلة إلى مبعث العويل فألفوا آمنة مسجاة وقد ارتمى على جسدها الهامد محمد الصغير وبركة الحبشية وراحا يبكيان أحر بكاء وينشجان فى صوت مسموع ، فوقفوا أمام جلال الموت مطرقين ، ثم رفعوا الصبى عن صدر أمه وراحوا يتشاورون فرأوا أن يحملوا الجسد معهم إلى الأبواء ليقبروه هناك .

وحمل الجسد الفانى على ظهر البعير ، وأرادت بركة أن تأخذ محمداً معها ولكنه أبى إلا أن يمكث مع أمه يلقى عليها آخر النظرات ، فهى زاده الوحيد من الحنان حتى آخر الزمان . وركب إلى جوار الجثمان يرنو فى أسى إلى العينين المسبلتين اللتين طالما أفصحتا عن عميق الحب قبل الهمود ، ورأى من فى القافلة الصبى اليتيم وهو يمرر يده على شعر أمه التى ذهبت ولن تعود ، فتفجرت دموع الرحمة فى أعينهم .

وسارت القافلة الهوينى وقد نكس كل من فيها رءوسهم حتى الإبل أرخت أعناقها ، فقد صمت الحادى وساد الكون سكون عميق لم يكن يمزقه إلا نشيج محمد اليتيم الذى كان يتجرع مرارة اليتم لأول مرة من

كأس مترعة بالألم والأسى والعذاب تعصف بالفتى الغض الذى اضطرمت النكبة فى جوفه ناراً من الأسى تتلظى .

ودخلت القافلة الأبواء يغلفها حزن عميق فقد كانت آمنة زوجة فتى قريش الذبيح جثة هامدة ، ولم تذهب القافلة إلى حيث اعتادت أن تذهب لتستريح بل انطلقت إلى القبور ، لتقبر آمنة الغالية غريبة فى الأرض ، لكأنما قد كتب على سادات قريش وسيداتها أن يموتوا غرباء .

وعملت المعاول وحفر القبر وحمل الجسد الطاهر ليغيب فى الثرى ، وراح محمد يتشبث به وهو يذرف الدمع السخين يريد أن يدفن مع أمه الحبيبة ، إلا أن بركة ذهبت إليه وهى تجهش بالبكاء وانتزعته من الجثة الهامدة ثم ضمته إلى صدرها وقد اختلطت دموعها بدموعه .

وأهيل التراب على آمنة ومحمد ينظر يكاد أن ينفطر قلبه أسى وأن تذهب نفسه شعاعا ، لا يكاد يصدق أن يكون هذا المصير نهاية أمه الغالية الحبيبة .

ولم يستطع الصبر على ما يرى فانفلت من بين يدى بركة وارتمى فوق القبر ينشج وينتحب ويرويه بدموعه .

وجاءت بركة إليه وحملته بين ذراعيها ودموعها تسيل على خديها ، ثم عادت به إلى رحلها تواسيه وتمسح عبراته وتنفض عنه غبار القبر الذى علق به وإن كان الشجن يكاد يكتم أنفاسها .

وسرت القافلة عائدة إلى مكة ومحمد وبركة على ظهر بعير واحد وقد لاذا بالصمت وشردت نظراتهما . كانت بركة تسترجع فى ذاكرتها تلك الأيام الحلوة التى أمضتها فى بيت آمنة وتفكر فى ذلك الغلام اليتيم الذى فقد أمه وأباه ولم يتجاوز بعد السادسة ، وامتلأ فؤادها حبا ورحمة لتسبغ

عليه من الحنان ما يعوضه عن بعض حنان أبويه اللذين تركاه يواجه الحياة وحده .

وكان محمد يفكر فى أمره ؛ إنه خرج من مكة مع أمه وها هو ذا يعود وحده بلا ولى ولا ناصر . كانت لرحلته بداية وها هى ذى تشرف على النهاية ، وكانت لأمه بداية وقد انتهت أيام حياتها . إن الحياة رحلة لابد أن تنتهى إلى غايتها يوما ، وإن كل شيء له أول لابد أن يكون له آخر . وراح محمد يفكر فى الحياة وفى الموت وفى الوجود بعد أن واجه قسوة الفناء لأول مرة تفكيراً يتلاءم مع سنه ، أقرب إلى الأحساس منه إلى استجلاء كنه الحياة والموت وما بعد الموت . وقد كان ذا عقل راجح وبصر نافذ وإحساس مرهف وتناسق مع الكون سوف تقوده فى أيام نضجه إلى جوهر الحقيقة .

ولاحت جبال مكة فأغذت القافلة السير للقاء الأحبة وقد تهللت النفوس بالفرح وخفقت القلوب بالشوق وندت من الأفواه صيحات سرور ، بينما ظل محمد وبركة مطرقين يمضغان أحزانهما ويجففان دموعهما فقد أهاجت عودتهما إلى أرض الوطن دون آمنة عبراتهما .

وأناخت الإبل وهرع الرجال إلى الرجال يتعانقون ، وخفت النسوة إلى الآباء وفلذات الأكباد والأخوات ، وارتفعت أصوات الصبيان والغلمان بالترحيب بالعائدين ، ورفرف على المكان غبطة وسرور وحبور . وهبط محمد وبركة من على بعيرهما وسارا مطأطئى الرءوس يجران أرجلهما جرا ، فقد كان الرزء فادحا ناءا بحمله .

وأسرع بنو هاشم وبنو زهرة إلى محمد وبركة ، وراح أبو طالب يقود عبد المطلب إلى حيث كانا قادمين ، ولما تأكد أنهما عائدان وحدهما قال

فى صوت مضطرب :

ـــ إنى لا أرى آمنة !

وخفق قلب شيخ بنى هاشم فى شدة ولفه اضطراب ووسع من خطوه وانطلق إلى حيث كان حفيده مقبلا كأنما كان يشم ريح محمد ، وفى لحظات كان رجال بنى هاشم وبنى زهرة أمام محمد وبركة وفى وجوههم قلق وفى عيونهم تساؤلات ، وارتفعت أصوات تقول فى لهفة :

ـــ أين آمنة ؟

وانفجر محمد باكيا وقالت بركة وعبراتها تخنقها :

ـــ ماتت وقبرناها فى الأبواء .

وغامت الوجوه بالحزن وطفرت الدموع من العيون ، وذهب عبد المطلب إلى حيث كان محمد ينشج بالبكاء وهو يتحسس بيده ، حتى إذا ما لمس حفيده مد يده واحتمله وضمه إلى صدره ودمعه السخين يجرى على خديه شفقة على يتيم قريش .

— ٦ —

خرج شعب القسطنطينية شيوخا وشبابا ورجالا ونساء وأطفالا وملأ الميدان الكبير المواجه للقصر الإمبراطورى ، واصطف على جانبى الطريق بين القصر وكنيسة الحكمة المقدسة أيا صوفيا العظيمة ، وارتفعت الأصوات تهتف بحياة الإمبراطور الجديد طيباروس الثانى فقد كان ذلك اليوم يوم تتويجه .

كان يوسطينوس الثانى قد جن من حمل مسئوليات الحكم والهزائم

التى حاقت بالجيش الرومانى فتولت زوجه صوفيا الوصاية على العرش سنة ، ثم تولاها معها طيباروس أربع سنوات ، ونودى به قيصر مع قيصر المجنون قبل أن يذهب إلى ربه ، ولم يجد الشعب فى ذلك التثليث غضاضة بل حسبه من حسن الطالع ، فالحاكم الرومانى قد أصبح أشبه بإلهه ، ثلاثة فى الأرض وثلاثة فى السماء .

كان الشعب الرومانى أجناسا وأخلاطا فنسبة الإغريق الخلص فيه ضئيلة ، فقد امتزجت بالدماء الإغريقية عناصر جديدة ، عناصر حامية وفدت من إفريقية وعناصر سامية جاءت من سورية ، وقد اختلط الإفريقيون والسوريون بقبائل أوروبا فكان سكان القسطنطينية ينتمون إلى كل قبيلة وكل أصل ، وإن كانت الأسر النبيلة تحب أن تدعى أنها من أصل رومانى .

وكان مواطن الإمبراطورية قوى الشعور بأنه أشد ثمرات الجنس البشرى تحضراً ، قوى الشعور برومانيته ، قوى الشعور بأنه صاحب المذهب الصحيح ، قوى الشعور بأنه الوريث للحضارة الإغريقية .

وقد أثر امتزاج الدم الإغريقى بالدماء الأخرى فى تحزب البيزنطى العنصرى ، فقد كان متسامحا فى مسألة الأجناس وكان يهمه العقيدة ، فهو يقبل كل من آمن بالعقيدة الأرثوذكسية ، عقيدة البلاد ، وكل من استطاع التحدث باليونانية ويعده أخا فى الوطن ، أما الأجنبى الذى لا يؤمن بعقيدة البيزنطى فهو كافر مارق زنديق حليف غير ملم بتهذيبات الحضارة الإمبراطورية !

وكان كل أجنبى يعتنق ديانة الدولة يستطيع أن يحصل على جنسيتها وأن يمارس كل حقوق المواطن وأن يتزوج امرأة بيزنطية مهما يكن أصله

أو أصلها ، وقد تزوجت كرائم البيزنطيات من مغامرين من الفرنجة أو من رجال جاءوا من الشرق و لم يثر ذلك اعتراض أحد ؛ لقد كان الاستياء الوحيد الذى أظهره الناس يوم أن أرغم يوسطنيانوس الثانى سيدة من بنات أسر السناتو على الزواج من طاهيه الخاص الزنجى ، فقد ثارت ثائرة الإحساسات الكريمة فى البلاد لشعورها بانتهاك حرمتها ، وكان ذلك عن ترفع وغطرسة لا عن تحزب بسبب اختلاف لون البشرة .

كانت أنظار الناس متجهة إلى قباب القصر الكبير وممراته المسقفة المجللة بالقراميد الملونة ، وكان الشوق إلى رؤية موكب الإمبراطـور الجديد يملأ الصدور حتى أن الشباب البيزنطى تسلق التمثال الضخم الذى نصب عند القصر الكبير وكان يمثل ثوراً يقاتل أسدا ، وجميع التماثيل التى كانت فى الميادين .

وعلى الرغم من الحدث الكبير فإن الناس لم ينسوا أنفسهم ، فقد كان الرجال والنساء متأنقين يرتدون أغطية عجيبة للرأس : قبعات ذات قمة لها حواف من الفراء وعمائم عالية منبعجة ، وقد غطت نساء صغيرات فاتنات وجوههن بالمساحيق وأبدين زينتهن وجعلن يتلفتن فى الزحام .

وعلى طول الشارع الأوسط وقف أصحاب الحرف أمام حوانيتهم : الصياغ يتحدثون عن الذهب والفضة ، وصناع الأثاث يتحدثون عن الأخشاب وكساد السوق ، وأمام دار الأنوار وهى المركز الضخم لسوق الحرير راح الرجال يتحدثون عن مصاعب استيراد الحرير وما لحق بهم من كساد .

كان الحرير يسير براً خلال فارس إلى محطتى المكوس الإمبراطوريتين

عند نصيبين ودارا ، ومن ثم ينقل ليصنع فى القسطنطينية أو فى المصانع الموجودة بصور وبيروت ، وكان بعضه يحمل بالطريق البحرى وكانت سيلان هى المكان الذى تتم فيه المقاصة المالية لتجارة الشرق بأكمله ، فهناك كانت تتجمع البضائع الشرقية : الحرير من الصين ، والحرير واللوز والقرنفل وخشب الصندل من الهند الصينية ، والفلفل من مكبار ، والنحاس من كاليانا بالقرب من بومباى ، والمسك والخروع من السند ، وكان التجار الفرس يتصيدون الحرير ويحتكرون تجارته ويحملونه صعداً فى الخليج الفارسى ، أما بقية السلع فكانت السفن الحبشية تحمل معظمها إلى آدوليس عاصمة أكسوم على البحر الأحمر ، ومنها إلى القلزم بالقرب من السويس .

وقد أوقفت حروب يوسطنيانوس مع فارس ورود الحرير ، وحاول الإمبراطور إبقاء سعره منخفضا فقضى على تلك الصناعة ، وعندئذ اشترى الإمبراطور المصانع فحولت صناعة الحرير إلى احتكار إمبراطورى .

ووجد يوسطينوس الثانى أن الدولة لا تزال بحاجة ملحة إلى الحرير وأن الحروب مع فارس تحول دون وروده إلى الإمبراطورية الرومانية ، فحاول أن يفتح طريق السهوب ولكن ذلك العمل كان فوق طاقته .

كان تجار الحرير واقفين أمام دار الأنوار يرقبون مرور الموكب الإمبراطورى وكانوا فى نفس الوقت يتحدثون عن أزمة الحرير وندرة الوارد منه من الصين والهند الصينية لتعذر مروره خلال فارس ، وقال قائل منهم :

— إن راهبين نسطوريين وصلا إلى القسطنطينية يحملان سر دودة

القز فى عكازيهما الأجوفين .

وقال آخر :

— وما علاقة الدود بالحرير ؟

فراح الآخر يشرح فى إسهاب ما سمعه عن دودة القز وصحابه يصغون إليه بين مصدق ومكذب ، ثم قال قائل منهم :

— وحتى إن كان ما تقول صحيحا فتربية دودة القز تحتاج إلى وقت .

— وإلى دراية .

— الوقت بجانبنا وبالممارسة نكتسب الخبرة .

كان طيباروس هو الحاكم الفعلى الذى كان يباشر السلطة أيام يوسطينوس الثانى ، ولكن كان يهفو إلى التتويج ليضفى على سلطته إقرارا دينيا يمنحه حق ممارسة عمله بوصفه نائب الله فى هذه الدنيا .

و لم يكن أباطرة الرومان يعرفون التتويج قبل ذلك الصراع المرير الذى نشب بين الفرس والرومان ، إلا أنه بطول الاحتكاك انتقل كثير من عادات الشرق إلى الغرب ، فراح الغرب يقتبس تقاليد البلاط الشرقى ، وأخذ الرومان فكرة التاج والتتويج عن الفرس ، وكان كبير الكهنة المجوس هو الذى يقوم بتتويج كسرى ، إلا أن دقلديانوس عندما اقتبس تلك العادة كان هو نفسه الحبر الأعظم ، لذلك استغنى عن معونة الكاهن وسن سنة جديدة هى أن يقوم بمراسم التتويج أحد البارزين من ممثلى الناخبين .

وعلى مر الأيام أخذ الناس يشعرون بخطر البطريرك ، فأصبح بطريرك القسطنطينية أحق الناس بتتويج قيصر لأنه يتولى أعلى منصب بعد التاج ،

وكان البطريرك يعمل بوصفه أبرز مواطن فى الإمبراطورية لا بوصفه قسيسا .

وفتح باب القصر الكبير وخرج منه موكب فخم رائع ، وما كاد الشعب يلمح طيباروس حتى تعالى الهتاف بحياته فقد كان لابد للناخبين من أن يعلنوا موافقتهم الرسمية بالهتاف و لم يضن الناخبون يوما بإعطاء موافقتهم .

وعلى طول الطريق إلى كنيسة أيا صوفيا انطلقت الحناجر بالهتاف وترقرقت الدموع فى العيون ونسي الناس متاعب حياتهم لحظة ، فقد فاضت العواطف النبيلة وغمرت القلوب .

وسار الركب الإمبراطورى حتى بلغ كنيسة الحكمة المقدسة ، فإذا برجال السيناتو وممثلى الشعب والجيش قد اصطفوا خارج أيا صوفيا وداخلها ، وإذا بالهتافات للإمبراطور الجديد تشق عنان السماء ، ونزل طيباروس من مركبته يحف به وزراؤه وكبار رجال الجيش ثم تقدم بين الأصوات المدوية كالرعد فى الميدان إلى الكنيسة .

وسار الإمبراطور خاشعا إلى حيث وقف بطريرك القسطنطينية أمام المذبح حتى إذا ما وصل إليه راح البطريرك يباركه ، ثم أخذ الإمبراطور يقسم اليمين المرعية للتتويج ، وما أن انتهى منها حتى راح البطريرك يضع التاج على رأسه .

ووقف الوزراء وجميع أعضاء مجلس الشيوخ وجميع الضباط والجنود وممثلو طبقات المواطنين يقسمون يمين الولاء لقيصر ، وما انتهت مراسم التتويج حتى عاد طيباروس إلى القصر الكبير وقد صار نائب الله فى الأرض وقسيسا أعظم للإمبراطورية الرومانية والوكيل الذى أمره الله أن

يطعم قطيعه كما أطعم بطرس أمير الرسل قطيعه .

وانصرف الناس إلى دورهم ، وانطلق الشباب البيزنطى وطلاب اللهو إلى حى زيجما على القرن الذهبى ، وراحوا يتحدثون بلاتينية رنانة ويطلقون ضحكات ماجنة ويلقون نظرات عابرة على تمثال أفروديت الذى توسط الميدان ويتفرسون فى قحة فى النسوة اللاتى يخطرن فى الطريق ، ولا غرو فقد كانوا فى حى المواخير والبغايا .

كانت القسطنطينية مدينة عجيبة بنيت كنيسة عند ناصية كل شارع ، فانتشرت فيها أفخم الكنائس : أيا صوفيا والرسل المقدسين ومئات أخرى من دور العبادة بها أديرة أحيطت بأسوار ضخمة صارمة ، وفى نفس الوقت كانت المواخير والحانات ودور البغايا منتشرة فى حنايا المدينة التى تبغض المروق من الدين أشد البغض ، والتى يعتبر أهلها أن العقيدة الأرثوذكسية هى الركن الركين فى حق التمتع بالجنسية الرومانية !

كانت الإمبراطورية الرومانية تحاول أن تعيش فى ظل قانون ناموس الله وقانون الطبيعة البشرية اللاشعورية ، وهما قانونان متضاربان بل متنافران ، فالله فى قانون ناموس الله هو المحبة ، وفى قانون الطبيعة البشرية اللاشعورية هو صانع كل ما فى الدنيا من شرور وأهوال ، وقد كان المسيحى فى الإمبراطورية الرومانية يجد نفسه مكرها على اختيار أحد رأيين يبلبل كلاهما فكره بلبلة مفجعة ، وكان سوس الفساد الأخلاقى ينخر فى البنيان الذى يبدو هائلا متماسكا لأول وهلة ، وإن كانت الفلسفات التى انبثقت من فكرة تثليث الإله تمزق أوصاله وتزعزع الإمبراطورية التى امتد نفوذها الدينى شرقا وغربا .

كانت الإسكندرية كنيسة مسيحية فى مرتبة كنيسة القسطنطينية ، ولكن الخلاف المذهبى بين الإسكندرية والقسطنطينية ملأ الإسكندرية بنوازع البغضاء للحكومة الإمبراطورية ، و لم تدع فرصة لأثارة الفتن إلا اهتبلتها ، وقد ناصرت الأمانى القومية نكاية فى الإمبراطور الذى كان يضطهد المصريين الذين آمنوا بعقيدة تختلف عن عقيدته وإن كانوا جميعا نصارى .

وكان طيباروس على علم بالصراع الدينى الناشب فى جوف إمبراطوريته، وكان يخشى الثورات الداخلية خشيته من جيوش الفرس. وكانت أعز أمانيه أن يغفل عنه كسرى أنوشروان وأن يتركه يتمتع بفترة سلام ينعم فيها بلذة السيطرة والسلطان . وأراد أن يكشف أستار الغيب عن مستقبله ومستقبل الإمبراطورية فبعث يستدعى العرافين والمنجمين .

وأطال العرافون والمنجمون النظر فى النجوم وعكفوا على الحساب وقطبوا الجباه ، فكل الدلائل تدل على أن ملك طيباروس لن يطول ، وأن نجم الإمبراطورية فى أفول ، وأن الخطر الذى سيدهمها آت من الشرق . إنه ليس من قبل الفرس ولكنه آت من قبل شعب مختون ، شعب صغير ، سينبعث منه نور يغمر الشرق والغرب ، ويبعث فى المؤمنين به قوة روحية تندحر أمامها جيوش الفرس والرومان .

وراح العرافون والمنجمون يروون فى رفق للإمبراطور الجديد ما أفصحت عنه النجوم ، كانوا يلفون ويدورون حول قصر أيام دولته ولكنهم قالوا دون مواراة أو تزويق نبوءة ذلك الشعب المختون الذى سيقضى على الإمبراطورية .

وطرق طيباروس يفكر فى ذلك الشعب الذى يهدد الحضارة البيزنطية بالزوال فهداه فكره إلى أنه اليهود ، فما كان يخطر على قلب بشر أن قبائل العرب المتناحرة المتنافرة التى يفد أشرافها إلى القسطنطينية التماسا لرضا الإمبراطور يمكن أن تتحد وتصير أمة قوية تنزع السلطان من أكبر إمبراطوريتين عرفهما التاريخ ! ومن أين لهؤلاء الجاهلين بالنور الذى يغمر العالمين ؟

إن اليهود هم الخطر الكامن داخل إمبراطوريته ؛ إنهم الجنس البشرى الوحيد المستقر بالإمبراطورية الذى لم يحاول أبدا أن يمتزج فيمن حوله بسبب ديانته ، وما من مدينة بيزنطية إلا فيها جالية منهم ، فإن اتحدت كلمتهم حول توراتهم وثاروا فإنهم يستطيعون أن يطعنوا الإمبراطورية طعنة فى الصميم .

وراح الإمبراطور يضطهد اليهود ، يفرض عليهم ضرائب باهظة ، وينزل بهم كل ألوان الاضطهاد إذا ما بدرت منهم بادرة استياء أو حركة تمرد ، وراح يرصد كل حركاتهم وقد فكر أكثر من مرة أن ينفيهم عن البلاد ولكنه كان يطرد ذلك الخاطر خشية أن يكون فى ذلك الطرد تجمعهم وتكوين دولة وتحقيق تلك النبوءة التى باتت تؤرقه ، القائلة بأن الإمبراطورية سيدمرها شعب مختون ، وما خطر على قلب بشر أن الهادى الذى سيخرج العرب من الظلمات إلى النور ، والذى سيجعل من قبائل العرب المتنافرة خير أمة أخرجت للناس بفضل كتاب الله الذى يوحيه إليه ، والذى سيدمر خلفاؤه إمبراطورية الروم وإمبراطورية الفرس ، لا يزال غلاما يتيما .فى كفالة جده ، يسعى بين دور بنى هاشم والحرم ويخرج إلى الكون العريض يتفرس فى آيات الله ، ليمتلىء قلبه حكمة

وتتهذب روحه ويقوى وجدانه ويستعد لحمل أعظم رسالة ، رسالة لا يقوى على حملها إلا أولو العزم من الرسل ، لأنها رسالة السماء .

— ٧ —

انتقل محمد وجاريته بركة الحبشية من بيت أبيه عبد الله بعد موت أمه آمنة إلى البيت الكبير . بيت جده عبد المطلب ، فصار يمضى ساعات نهاره وليله مع عمه حمزة ، فتوطدت بين الغلامين أواصر صداقة ومحبة . وكان العباس بن عبد المطلب أقرب صبيان بنى هاشم إلى قلبيهما ، فقد كان يقضى أغلب وقته معهما وكثيرا ما كان يدور معهما على دور إخوته أبناء عبد المطلب وبناته ، أو ينطلق معهما إلى الحرم أو السوق ، فلم يكن فارق السن بينهم كبيرا فالعباس أسن منهما بسنتين .

وكانت هالة بنت وهيب أم حمزة وابنة عم آمنة تحب الفتى اليتيم من كل فؤادها ، فكانت تسبغ عليه ألوانا من العطف لتعوضه حنان آمنة التى لحقت بزوجها ولما تتجاوز من العمر عشرين سنة . وكان محمد يحس راحة فى كنفها إلا أنه كان يستشعر أمنا وسلاما كلما مسح جده بيده على ظهره أو أجلسه على ساقه أو ضمه إلى صدره ، فعبد المطلب كان رقيقا رحيما حتى أن يتيم قريش وجد فى كفالته عزاء عن أمه الحبيبة التى ذهبت وتركته وحيدا فى مهب عواصف الحياة قبل أن يشتد عوده .

وكان محمد يلقى من التكريم فى دور أعمامه وعماته ما أفعم قلبه بالرضا ، فعمه الزبير يغمره الحنان ، وعمه أبو طالب وزوجته فاطمة وأبناء عمه يتهللون بالفرح كلما جاء لزيارتهم وما كان يمر يوم دون أن

يذهب إلى دار أبى طالب ، وكانت عمته أم حكيم البيضاء توأم أبيه عبد الله تضمه فى حنان دافق وتمطره بقبلاتها ، وكان يلمح الدموع المترقرقة فى مآقيها فتتحرك مشاعره وتزداد كنوز فؤاده رقة ورحمة وحنانا .

وكان عمه أبو لهب يبش له فى حب كلما رآه فأبوه عبد الله كان حبيبا إليه ، وقد سمع محمد أن عمه وهب جاريته ثويبة حريتها لما بشرته بمولده ، فكان يحب أبا لهب وامرأته أم جميل وكان يمضى وقتا سعيدا فى دارهم .

وكان يمر على دار عمته صفية زوجة العوام وكان يصغى إلى الأحاديث التى تدور بين أعمامه وعماته ، وكانت تلك الأحاديث تنم عن الصلات الإنسانية التى تربط أفراد أسرة شيخ قريش ، كانت صفية معجبة بأخيها الزبير وكثيرا ما كانت تصرح أنها نذرت إن منَّ الإلـٰه عليها بولد أن تسميه الزبير بن العوام . وكان يبدو فى تلك الاجتماعات حب الزبير لأخيه أبى طالب وحبهما لمحمد بن عبد الله ، ولا غرو فقد كان الزبير وأبو طالب وعبد الله أشقاء حملهم بطن واحد .

كان محمد يجد قلوبا محبة رحيمة فى كل دور أعمامه وعماته وأخواله وخالاته ، بل فى كل دور بنى هاشم ، إلا أن حبه عمه أبا طالب كان يفوق كل حب ، وكان يرى من حدب فاطمة امرأة عمه عليه ما شرح صدره ، فكانت دار أبى طالب أقرب الدور إلى قلبه بعد دار جده عبد المطلب .

وكان عبد المطلب يجلس فى ظل الكعبة على فراشه قد ذهب بصره وشاب شعر رأسه ولحيته وأجفان عينيه ، إنه يسمع ابتهالات الطائفين بالبيت وخفقات أجنحة حمام الحمى وخرير ماء زمزم الذى يصب فى

الأحواض والأوانى ، ويرى بعين خياله الحرم والحطيم والملتزم وباب الكعبة وقد حلى بغزالين من الذهب .

وطاف مع الطائفين أبو لهب والحارث بن عامر بن نوفل وأبو إهاب ابن عزيز بن قيس بن سويد التميمى ؛ شباب قريش الذين سرقوا غزالة من غزالتى الذهب اللتين كانتا معلقتين فى جوف الكعبة مع قرنى كبش يقال إنهما كانا قرنى الذبح العظيم الذى فدى الله به إسماعيل .

إنهم سرقوا الغزالة ليشتروا بثمنها خمرا وقد وضعوها عند دويك مولى بنى مليح ، وقد قطعت قريش يد دويك ، أما الأشراف فقد وجدوا فى أهلهم من يحمونهم من قريش وإقامة الحد عليهم .

وانتهى أبو لهب من الطواف فذهب إلى حيث كان أبوه وألقى عليه التحية ، فلما عرفه عبد المطلب بعثه مع بعض إخوته فى طلب إبل له ضلت ، ثم أطرق الشيخ فراحت الذكريات تنثال على رأسه ، رأى ذلك اليوم الذى خاصم فيه الثقفيين لأنهم احتفروا ماء له بالطائف يقال له « ذو الهَرْم » واتفقوا على أن ينطلقوا إلى الكاهن نفيل ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختصمون .

إنه يرى نفسه وقد خرج مع ابنه الحارث وليس له يومئذ غيره ويرى الثقفيين وقد خرجوا فى جمع كبير ، ويرى فى وضوح ساعة أن نفد ماؤه فطلب إليهم أن يسقوه فأبوا ؛ إنه يكاد يحس وهو فى مجلسه قسوة العطش الذى أحسه فى ذلك اليوم ، لقد بلغ العطش منه ومن الحارث كل مبلغ حتى أشرفا على الهلاك ، ورأى نفسه وهو يثير بعيره ليركب وإذا بعين ماء تتفجر من تحت رقبته .

إنه شرب فى ذلك اليوم حتى ارتوى بعد أن شرب حبيبه الحارث

وتزود من الماء حاجته ، ونفد ماء الثقفيين فطلبوا إليه أن يسقيهم فأنعم لهم ، وإن صوت ابنه الحارث يرن فى أذنيه كما رن فى ذلك الوقت يقول : لأنتحين على سيفى حتى يخرج من ظهرى !

ورفت على شفتى الشيخ بسمة هادئة لما سمع صوته يأتى كالهمس من أغوار الماضى يقول : لأسقينهم فلا تفعل ذلك بنفسك .

إنه سقاهم على الرغم من أنهم أبوا أن يسقوه ، وانطلقوا حتى أتوا الكاهن وقد خبأوا له رأس جرادة فى خرزة مزادة وجعلوه فى قلادة كلب لهم يقال له « سوَّار » ، وراح الحوار الذى بينهم وبين الكاهن ينبعث حيا فى نفسه :

— ما حاجتكم ؟

— قد خبأنا لك خبيئا فأنبئنا عنه ، ثم نخبرك بحاجتنا .

— خبأتم لى شيئا طار فسطع ، فتصوب فوقع ، فى الأرض منه بقع .

— لادِه (أى بينه) .

— هو شيء طار فاستطار ، ذو ذنب جرار ، وساق كالمنشار ، ورأس كالمسمار .

— لاده .

— إن لاده فلاده (إلا هذه فلا هذه) ، هو رأس جرادة ، فى خرز مزادة ، فى عنق « سوَّار » ذى القلادة .

— صدقت ، فأخبرنا فيما اختصمنا إليه .

وانفرجت ابتسامة عبد المطلب ، إنه ليذكر أن الكاهن قد أخبرهم فيما اختصموا إليه ، وقضى له بماء الهَرْم وخذل بنى ثقيف .

وجاء عبد الله بن جدعان وسلم ثم جلس ، و لم يأت أمية بن حرب فقد وقع الجفاء بين عبد المطلب ونديمه أمية حتى تنافرا إلى عزى سلمة الكاهن ، وقد قضى عزى لعبد المطلب على أمية بن حرب كما قضى الحكم من قبل لهاشم بن عبد مناف على أمية بن عبد شمس ، ووقعت البغضاء بين هاشم وبنى أمية .

وجاء سادات قريش وجلسوا بعيدا عن فراش عبد المطلب احتراما له وإجلالا لقدره ، وأرهف الشيخ سمعه فأبناؤه قد ذهبوا فى طلب إبل له ضلت و لم يعودوا ، ومس أذنيه وقع أقدام تمشى هونا ، وملأت خياشيمه رائحة ذكية ، إنها رائحة حفيده . وجاء محمد وجلس بجنب جده لا يمنعه أحد ، ومد عبد المطلب يده وراح يتحسسه ثم لف ذراعه حوله وضمه إليه فى حنان دافق ثم قال :

ـــ سيكون لابنى هذا شأن .

وعاد بنو عبد المطلب دون أن يعثروا على الإبل الضالة ، فقال الشيخ لحفيده :

ـــ اذهب أنت .

فنهض محمد لينقب عن الإبل الضالة وبقى سيد بنى هاشم فى مجلسه ، ومر الوقت وغاب محمد وبدأ القلق يساور جده ثم استولى عليه واستبد به ، فقام يتحسس طريقه إلى الكعبة حتى إذا ما وقف أمام بابها أخذ بحلقتيه وجعل يضرب بهما الباب ويقول :

يارب ردّ راكبى محمدا   اردده ربى واصطنع عندى يدا

كان الأسى يلوح فى وجه الشيخ وكان الابتهال ينبعث من قلب مؤمن بربه ؛ إنه لطالما ابتهل إلى إلـهه ولكنه لم يحس أنه يذوب فى توسلاته إلا

مرتين ، مرة يوم أن جاء أبرهة يبغى هدم الكعبة فوقف أمام بابها يدعو إلٰهه أن يحمى بيته ، وهذه المرة التى غاب فيها محمد الحبيب ودثره خوفه وقلقه واضطرابه .

ومر رجل غريب ، ورأى شيخا طويلا عظيما أبيض مقـرون الحاجبين طويل شعر الأجفان رقيق الأنف قد ابيضت عيناه ، تسيل عبراته على خديه وهو يتوسل إلى ربه فقال :

— من هذا ؟

هذا سيد قريش عبد المطلب له إبل كثيرة ، فإذا ضل منها شيء بعث فيه بنيه يطلبونها ، فإذا غابوا أو خابوا بعث ابن ابنه ولم يبعثه فى حاجة ألا أنجح فيها ، وقد بعثه فى حاجة أعيا عنها بنوه وقد أبطأ عليه .

وما انتهى الرجل من كلامه حتى جاء محمد بالإبل معه فقال رجال لعبد المطلب :

— جاء محمدٌ .

فانبسطت أسارير الشيخ ولاحت على وجهه طمأنينة نفسه ، وذهب إلى حيث كان حفيده الغالى قادما كأنما كان يشم ريحه ، ثم بسط له ذراعيه وضمه إليه فى لهفة ووجد وهو يقول فى انفعال :

— حزنت عليك حزنا لا يفارقنى بعده أبدا .

وقفل عبد المطلب عائدا إلى الدار يقوده حفيده وقد ساد الصمت بينهما ، فقد كان عبد المطلب يفكر فى ذلك اليوم الذى غفلت فيه بركة عن محمد فوجده قد ذهب بعيدا عن الدار ، وتذكر الحوار الذى دار بينه وبين حاضنته :

— يا بركة .

ـــ لبيك .

ـــ أتدرين أين وجدت ابنى ؟

ـــ لا أدرى .

ـــ وجدته مع غلمان قريبا من السدرة . لا تغفلى عن ابنى فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبى هذه الأمة وأنا لا آمن عليه منهم .

وتذكر عبد المطلب ذلك الحديث الذى دار بينه وبين أسقف نجران وقد جاءه عندما كان فى الحجر فى ظل الكعبة ، قال الأسقف :

ـــ إنا نجد صفة نبى بقى من ولد إسماعيل وهذا البلد مولده .

ونظر الأسقف طويلا إلى محمد وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدمية وقال :

ـــ ما هذا منك ؟

ـــ هذا ابنى .

ـــ ما نجد أباه حيا .

ـــ هو ابن ابنى وقد مات أبوه وأمه حبلى به .

ـــ صدقت .

وأحس عبد المطلب نورا ينير بصيرته وإن ذهب بصره ، فضم حفيده إلى جنبه فاستشعر كأن كل جوارحه تلثمه فى حنان وحب ما بعده حب .

وبلغا الدار فهرعت هالة لاستقبالهما وقادت عبد المطلب إلى حجرته ، وذهب محمد إلى مكانه من البيت الكبير .

ووضع الطعام وقادت هالة زوجها الشيخ إلى حيث مد السماط ، وما كاد عبد المطلب يستقر حتى قال :

ـــ عليّ بابني .

فأحضروا محمدا وأجلسه إلى جنبه ، وقد كان يقعده على فخذه أيام أن كان صغيرا . وكان يجلس معهما حمزة والعباس وإخوتهما ولكن عبد المطلب كان يؤثر محمدا بأطيب طعامه .

* * *

وتتابعت على بلاد قيس ومضر أيام شدة وجدب ذهبت بالأموال وأشرفت الأنفس على الهلاك ، فاجتمع عظماؤهم وقالوا :

ـــ أصبحنا فى جهد وجدب وقد سقى الله الناس بعبد المطلب ، فاقصدوه لعله يسأل الله فيكم .

فقدموا مكة ودخلوا على عبد المطلب فحيوه بالسلام ، فقال لهم :

ـــ أفلحت الوجوه .

وقام خطيبهم فقال :

ـــ قد أصابتنا سنون مجدبات وقد بان لنا أثرك وصح عندنا خبرك ، فاشفع لنا عند من شفعك وأجرى الغمام لك .

فقال عبد المطلب فى تواضع :

ـــ سمعا وطاعة ، موعدكم غدا عرفات .

وباتت مكة تردد قول رقيقة بنت صيفى بن هاشم بن عبد مناف زوجة عبد المطلب فى سقيا الناس بعبد المطلب ، يوم كاد أهل البطحاء يهلكون من قلة الماء :

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا　　وقد عدمنا الحيا واجلوّذ[1] المطر

---

(١) امتد زمن تأخره .

وما أشرقت شمس اليوم التالى حتى خرج عبد المطلب وحفيده محمد يقوده ، معه الناس وولده ، وكان عبد المطلب يستشعر راحة وأمنا واطمئنانا كلما تحسس رأس حفيده الذى أشرف على الثامنة من عمره وإن كان يبدو فى خيال جده رجلا أعظم من كل الرجال .

وبلغوا عرفات فنصب لعبد المطلب كرسى فجلس عليه ، وأخذ محمدا فوضعه فى حجره ، ثم قام عبد المطلب ورفع يديه ثم قال :

ـــ اللهم رب البرق الخاطف ، والرعد القاصف ، رب الأرباب ، وملين الصعاب ، هذه قيس ومضر ، من خير الشر ، قد شعثت رءوسها ، وحدبت ظهورها ، تشكو إليك شدة الهزال ، وذهاب النفوس والأموال . اللهم فأتح لهم سحابا خوارة ، وسماء خرارة ، لتضحك أرضهم ، ويزول ضرهم .

فما استتم كلامه حتى نشأت سحابة دكناء لها دوى ، وقصدت نحو قيس ومضر ، فقال عبد المطلب لما سمع دوى السحاب :

ـــ يا معاشر قيس ومضر انصرفوا فقد سقيتم .

فترقرقت الدموع فى عيون الرجال من شدة الانفعال ، وارتفعت صيحات الفرح وخف الناس إلى عبد المطلب يقولون :

ـــ هنيئا لك يا أبا البطحاء بك عاش أهل البطحاء .

وأطرق عبد المطلب وصم أذنيه عن هتافات الناس ، فقد كان فى قرارة نفسه على يقين أن قيس ومضر قد أمطروا ببركة حفيده اليتيم .

طال على الفرس الأمد ففسد دين زرادشت وصار أهورامزدا إلٰه النور النار ، وبنيت لها بيوت فى طول إيران وعرضها فتفتتت ديانة التوحيد ووهن أساسها ، وزاد فى ضعفها تيارات الفساد التى جاء بها مانى ومزدك والخرافات الدينية الكثيرة المزدية التى ضاق بها رجال الدين أنفسهم .

وقد قامت مناظرة بين أحد الموابذة وجيورجيس المسيحى وهو إيرانى اعتنق المسيحية ، دلت على ما بلغه الدين القيم من تهافت ، قال الموبذ :

ــ نحن لا نعتبر النار إلٰهاً ولكنا نعبد الله بواسطتها كما تعبدونه بواسطة الصليب .

فراح جيورجيس يتلو بعض فقرات من الأوستا حيث جاء ذكر النار على أنها إلٰه ، فقال الموبذ وقد ضاق بالأمر متسللا من الموضوع فى لباقة :

ــ نحن نعبد النار لأنها من نفس طبيعة أهورامزدا .

فقال جيورجيس :

ــ أفى النار كل ما فى أهورامزدا ؟

ــ نعم .

ــ إن النار تلتهم النجاسة وروث الخيل وكل ما تمس ، وإذا فإن أهورامزدا يلتهم كل هذا لأنه من نفس الطبيعة .

وفى ذلك الوقت الذى ترنحت فيه الديانة الزرادشتية ذاعت فى إيران

النظرية الزروانية وكانت وبالا على الدين ، إذ بثت فكرة الجبر ، ولم يكن زروان كما تروى الأساطير الإله القديم وأبا أهورامزدا وأهرمن من الزمن اللامتناهى فحسب ، بل كان القدر أيضا .

وقد جاء فى رسالة روح الحكمة أو الحكمة السماوية : « إن الإنسان رغم قوته وسعة ذكائه وعلمه لا يستطيع مغالبة القدر ، لأن القدر المحتوم حين يقرر الخير أو الشر يعجز الحكيم عن العمل ويقدر الشرير عليه ، وهذا يجعل الشجاع جبانا والجبان مقداما والعامل كسولا والكسول عاملا » .

ولم يكن مجهود الإنسان عبثا كله ، فقد جاء فى روح الحكمة أن هذا المجهود سيوضع فى الميزان فى الوجود الروحى أى فى العالم الآخر ، ولكن بعض الذين كانوا يؤثرون قواعد الأخلاق على عقائد الدين قالوا بأن ليس هناك آلهة وأراحوا أنفسهم من البحث فى أمور الدين وتحمل مشقة العمل الطيب ، ونظروا إلى هذه الدنيا حسب ما يتعلق بالأنظمة من كل نوع ، والتقلبات التى تختص بأجسادهم بواسطة العمل ، وذلك بمعارضة شىء آخر واختلاط شىء بآخر ، كالتطور الأولى للزمن اللامتناهى ، وادعوا أن لا جزاء على الخير ولا عقاب على الذنوب ولا جنة ولا نار ولا شىء يدفع الناس إلى خير أو إلى شر ، وأن الأشياء كلها مادية وأن ليس للروح وجود .

زلزل أساس العقيدة الزرادشتية ، فبعد أن جاء زرادشت ليدعو إلى التوحيد تطور دينه إلى عبادة النار ، ثم غمره مانى بالأساطير ، ولما جاء مزدك شرع شيوعية المال والمرأة ، وعلى الرغم من قضاء أنو شروان على المزدكية إلا أن تيار الفساد أثر فى العقيدة الزرادشتية فانهارت انهياراً

مروعا وباتت تنتظر مصلحا يعيد إليها قدرتها على الجدل وقرع الحجة بالحجة والوقوف صامدة فى وجه الأديان الأخرى . وقد جاءها ذلك الإصلاح من الدين القيم الذى سيأتى به يتيم قريش ليغمر كل الأديان .

كانت إيران فى زمن كسرى أنو شروان ، الروح الخالد ، فى دور النقه بعد الحمى التى اعترتها من المزدكية ، وكان التعديل المالى يرمى إلى مصلحة الخزانة قبل مصلحة الشعب فقد عاشت الجماهير كما عاشت قرونا طويلة فى الجهل والظلم .

وقد أحس الفلاسفة البيزنطيون الذين آووا إلى البلاط الإيرانى بخيبة أملهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يرفعوا أنفسهم إلى مرتبة الفلاسفة الحقة فيحكموا من غير تحيز على عادات أمة أجنبية عنهم ، وقد كانت آراؤهم معبرة عن المثل التى تصوروها لدولة يحكمها فيلسوف .

لم يتوفر لهم ذوق الدراسات الخاصة بالأجناس وبعلم النفس الجنسى . لقد راعهم أن يجدوا الإيرانيين يبيحون التزوج من أمهاتهم أو أخواتهم أكثر مما راعتهم عادة عرض الجيف على قبور الصمت ، وهى عادة مقدسة .

لقد نغص عيش الفلاسفة البيزنطيين الذين استوردهم كسرى إلى بلاطه روح القبيلة والهوة التى تفصل بين الطبقات والحالة التعسة التى كان عليها الشعب ، فالقوى يظلم الضعيف ، وهم يرتكبون كثيرا من القسوة والوحشية فيما بينهم .

إن برزويه فى مقدمة « كليلة ودمنة » يصف بؤس الحياة الإنسانية ولا يجد ملجأ إلا فى الزهد المقوض للديانة الزرادشتية المتطورة فرارا من رزايا المعيشة العامة ، إنه يقول :

« لا سيما فى هذا الزمان الهرم البالى الشبيه بالصبابة والكدر ، فإنه وإن كان الله تعالى[1] قد جعل الملك سعيد الأمر ، مأمون النقيبة ، حازم الرأى ، بعيد المقدرة ، رفيع الهمة ، بليغ الفحص ، عدلا برا جوادا صادقا شكورا رحب الذراع ، متفقدا للحقوق ، مواظبا فهما حليما رءوفا رحيما ، عالما بالناس ، محبا للخير وأهله ، شديدا على الظلمة ، موسعا على رعيته ، فإنا نرى الزمان مدبراً لكل مكان ، حتى كأن الفضل قد ودع وأصبح مفقودا ما كان عزيزا فقده ، موجودا ما هو ضار لمن ظفر به ، وكأن الخير أصبح ذابلا والشر نضيرا ، وكأن الغىّ أقبل ضاحكا وأدبر الرشد باكيا ، وكأن العدل أصبح غابرا وأصبح الجور غالبا ، وكأن العلم أصبح مستوراً وأصبح الجهل منشوراً ، وكأن اللؤم أصبح آمرا وأصبح الكرم موطوءا ، وكأن الود أصبح مقطوعا وأصبح الحقد موصولا ، وكأن الكرامة قد سلبت من الصالحين وتوخى بها الأشرار ، وكأن الغدر أصبح مستيقظا وأصبح الوفاء نائما ، وكأنما الكذب أصبح غضا والصدق قاحلا ، وكأن الحق ولى عاثرا وأصبح العدوان قد جرى سبيله ، والإنصاف بائسا والباطل مستعليا ، والهوى بالحكام موكلا ، والمظلوم بالخسف مقرا ، والظالم لنفسه فيه مستطيلا ، والحرص فاغرا فاه يتلقف من كل جهة ما قرب منه وبعد عنه ، والرضا مجهودا مفقودا ، والأشرار يسامون السماء ، والأبرار يريدون بطن الأرض ، وأصبحت المروءة مقذوفا بها من أعلى شرف إلى أسفل مهواة ، والدناءة مكرمة والرفعة مجفوة ، والسلطان متنقلا من أهل الفضل إلى أهل النقص ، والدنيا جذله مسرورة تقول : قد غيبت الحسنات

(١) ترجمة ابن المقفع بعد الإسلام .

وأظهرت السيئات » .

كان الدين الزرادشتي يوم أن مات كسرى أنو شروان قد تزعزعت أركانه حتى أن رجال الدين أنفسهم قد ضاقوا بخرافاته وأساطيره وراحوا يخترعون الشروح التي يقبلها العقل . وقد خاب أمل الفلاسفة فى البلاط الكسروى ودب اليأس فى قلوب المفكرين وانتشر الإلحاد والضياع وبدا لكل ذى عينين أن فارس باتت فى أشد الحاجة إلى دين جديد وأن أوان صاحب الجمل الذى بشر به زرادشت قد آن ، ولو بقى بصيص من نور الإيمان فى القلوب لاتجهت الأبصار جميعا إلى جزيرة العرب ، فالبشارات الفارسية منذ عهد زرادشت تنبأت بأن نور اليقين سينبثق منها يغمر العالمين .

وخلف كسرى أنو شروان هرمزد الرابع وقد كان أول ما فعله أن استدعى العرافين والكهان والمنجمين ، وقد أخبروه أن ملكه سيزول بسبب ثورة الأشراف عليه فغرسوا فى قلبه كراهية الأشراف والخوف منهم .

وصار همه تألف السفلة واستصلاحهم وحبس العظماء وحط مراتبهم ، وقد قتل من العلماء وأهل البيوتات والشرف ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل ، وقد عرضه تسامحه فى أمور الدين لحقد رجال الدين الزرادشتى .

ومنع بنو تميم لما مات كسرى أنو شروان ضربة الأتاوة التى كانت عليهم ، فلما بلغ ذلك هرمزد أرسل إلى النعمان بن المنذر عامله على الحيرة يأمره أن يبعث الجيوش لتأديب بنى تميم الذين شقوا عصا الطاعة وأبوا أن يؤدوا الجزية لملك الملوك .

فأرسل النعمان يطلب أخاه الريان ، فلما جاء الريان إلى « الخورنق » قصر الحيرة العظيم أمره أن يخرج فى كتيبة دوسر لتأديب المتمردين ، وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل .

كان قيس بن عاصم شريفا من أشراف بنى تميم ، وكانت ابنته زوجة لسيد من سادات القبيلة . وفى ذات يوم بينا كانت القبيلة هادئة هانئة إذا براية النعمان مقبلة وإذا بكتيبة دوسر تتقدم وقد رفع رجالها سيوفهم ، إنها الحرب . ففزع رجال بنى تميم إلى سيوفهم وسرعان ما دار القتال وتقارعت السيوف ، ومشى الرجال إلى الرجال مشى الوعول ، وسالت الدماء وارتفعت الصيحات مجلجلة فى الفضاء ، ولاح النصر للريان فقد كان رجال تميم يتقهقرون وقد غطت جثث صناديدهم الأرض وراحت الطيور والجوارح تحوم حولها .

وانكشفت خيام الحريم ، ولما رأى نسوة القبيلة ما حاق بالحماة رحن يهرولن يلتمسن الفرار ، ولكن رجال كتيبة دوسر انقضوا عليهن انقضاض النسور ، واستاق الريان نَعم بنى تميم وسبى ذراريهم ، ثم عاد بغنائمه إلى الحيرة .

واستقبل النعمان أخاه الريان استقبال الغزاة وأقام فى القصر حفلا رائعا ، وقد قام الشعراء يعبرون عن شعورهم فقال قائل منهم :

لما رأوا راية النعمان مقبلة
قالوا : ألا ليت أدنى دارنا عَدَنُ
ياليت أم تميم لم تكن عرفت
مُرا وكانت كمن أودى به الزمن
أن تقتلونا فأعيار مُجَدَّعة
أو تنعموا فقديما منكم المِنَنُ

كانت الأفراح فى الخورنق وكانت الأتراح فى مضارب قبيلة بنى تميم ، وقد زاد فى حزن الرجال أن ابنة قيس بن عاصم فى السبايا ، وراح سادات القبيلة وأشرافها يمعنون الفكر فلم يجدوا خيرا من الذهاب إلى النعمان وتكليمه فى الذرارى .

وتأهب أشراف القبيلة وسادتها للانطلاق إلى الحيرة ، وكان قيس بن عاصم إلى جوار زوج ابنته يستشعر خزيا ويطأطىء رأسه كلما حانت منه التفاتة إلى الرجل الواله الحزين والتقت عيناه بعينيه .

كانت مصيبتهما واحدة والرزء واحد والألم يرعى بين الجوانح ، ولكن كان يخفف من لوعة الأسى أن الابنة الحبيبة والزوجة الشريفة أخذت قسرا وأنها ستموت دون عرضها .

وبلغ أشراف بنى تميم وسادتها الحيرة ، فانطلقوا متلهفين إلى القصر والتمسوا مقابلة النعمان ، فأذن لهم ، فلما مثلوا بين يديه كلموه فى الذرارى فقال النعمان :

ـــ إنى جعلت الخيار فى ذلك إلى النساء ، فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه .

وأمر أن يؤتى بالنساء فخفقت قلوب رجال بنى تميم رهبة وجفت الحلوق وزاغت الأبصار ، فلو اختارت زوجة سابيها على زوجها لكان فى ذلك ذل ما بعده ذل وعار ما بعده عار .

وتقدمت النساء على استحياء وراح النعمان يخير كلا منهن بين زوجها وسابيها فاختلفن فى الخيار واسودت وجوه بعض الرجال . وتقدمت بنت قيس بن عاصم فأحس أبوها أن روحه تكاد أن تفر من بين جنبيه ، وشعر زوجها كأن يدا قوية تضغط على عنقه تكاد تكتم أنفاسه ،

آه لو اختارت زوجه سابيها عليه لمات كمدا . وخيرها النعمان بين زوجها وسابيها فتعلقت العيون بشفتيها ، إنها ستنطق بكلمة فيها حياة أبيها أو موته ، وإن ظل يمشى على وجه الأرض يتلفت .

وخرجت الكلمة من بين شفتيها كخنجر مسموم طعن فؤاد أبيها ، إنها اختارت سابيها على زوجها . وأحس قيس بن عاصم أنه جدار قديم يتهدم وأن أنفه فى الرغام ، ودارت به الأرض وانسل من القصر لا يدرى كيف خرج .

إنه فى ذهول ، إنه لا يصدق أذنيه . ولكن نظرات القوم التى سددت إليه تؤكد له حقيقة الفاجعة . كان أهون عليه أن تنعى إليه ابنته من أن يقال فى قبائل العرب بنت قيس بن عاصم اختارت سابيها على زوجها ، اختارت العار على الشرف .

وقفلت وفود بنى تميم عائدة إلى منازلها وقيس يجرجر أذيال العار ، وقد نذر أن يدس كل بنت تولد له فى التراب . وظل قيس يتوارى من الناس خجلا حتى إذا ما وضعت إحدى زوجاته بنتا زينها ثم وأدها ؛ وضعها فى حفرة وهى حية ثم أهال عليها التراب .

وانتشر فى قبائل العرب انتشار الريح أن بنت قيس بن عاصم اختارت سابيها على زوجها وأن البنات لا يجلبن إلا العار ، وأن قيس بن عاصم قد نذر أن يدس كل بنت له فى التراب ، وأنه وأد أول بنت ولدت له . وأثارت تلك الحادثة الغيرة فى قلوب رجال العرب فأقبلوا على وأد بناتهم مخافة العار .

وانتقل الوأد إلى مكة ، وأشفق بعض عقلاء الرجال من هذه الوحشية فراحوا يقاومون هذه البدعة التى ابتدعها زعيم بنى تميم .

كان فقراء المكيين يقتلون أولادهم خشية الفقر ، حتى إذا ما صار هاشم بن عبد مناف زعيم قريش واستن رحلة الشتاء والصيف جعل أموال القوافل مشاعا لكل المكيين لكل مكى حق فى أرباح التجارة ، فقضى على الإملاق وهجر الفقراء قتل الأولاد أو تقلصت تلك العادة . وها هو ذا قيس بن عاصم يحيى بدعة اعتنقها الغيورون من الرجال وساروا على أثره متحمسين غير مفكرين ، فقد سلبت مخافة العـار ألبابهم .

وقد رأى محمد ولا ريب الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة ، فإذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة وأهالت عليها التراب . وقد تركت هذه القسوة أثرها فى النفس الذكية والقلب الرحيم .

— ٩ —

أرخى الليل شعره الأسود الفاحم على وجه النهار ، وران السكون على جبال مكة ووديانها ، وهدأ كل شىء لا حركة ولا نأمة ، وهجعت الكائنات بينا ظل قلب الوادى المقدس ينبض بالحياة ، فالطواف حول الكعبة لا ينقطع آناء الليل وأطراف النهار .

وراح عبد المطلب يتلمس طريقه إلى سريره وهو يحس وهنا يدب فى أوصاله ، وحنين جسمه إلى الأرض ، فباتت أمنيته أن يبلغ الفراش لكى يرتمى فيه ويسلم جنبيه للرقاد ، فساقاه أمستا لا تقويان على حمله حتى أنه يستشعر بالكون يدور به وبمطارق تدق رأسه . وكاد أن ينوء وهو فى

طريقه إلى سريره ولكنه جمع ما بقى من عزيمته الماضية وشد أزر نفسه حتى وصل إلى غايته ، إلا أنه لم يلق بذاته المتعبة فى الفراش بل راح يتحسسه بيده ، فلما لم يجد بغيته نادى :

— بركة .. بركة .

وجاء صوت بركة من بعيد :

— لبيك .

— على بابنى .

واتخذت بركة الحبشية طريقها إلى حيث اعتاد ابنه أن يجلس فى الليل : إنها مرت بحمزة بن عبد المطلب وبالعباس و لم تلتفت إليهما ، فما كان الشيخ يبغى أحدهما بل كان يريد ابن عبد الله حبيبه الذى لا يطيق فراقه .

كان محمد جالسا بالقرب من النافذة يرعى نجوم السماء ويقلب وجهه فى الكون ، ينظر ويتأمل ويتدبر وتتهلل نفسه بالفرح كلما أحس بتعاطف مع ما حوله وبحب يزداد مع الأيام للوجود الذى يستشعر نبضه فى أغوار أعماقه .

الدنيا من حوله مليئة بالأسرار ، وهى أسرار غامضة يلذ له أن يطيل النظر إليها دون أن يحاول أن يغوص ليكشف عنها النقاب أو يعرف كنه جوهرها ، بل كان يكفيه وهو فى مثل سنه تلك النشوة الروحية التى تملأ وجدانه كلما انصهرت ذاته لتذوب فى ذات الذوات وروح الوجود الخفافة ، فى كل ما يمد إليه عينيه أو بين جنبيه .

وجاءت إليه بركة فألفته هائما فى ملكوت السموات كأنما يرشف رحيق الحكمة لتستقر فى قرار مكين ، فرنت إليه رنوة حب وحنان

وإعجاب ثم أخذته من يده وسارت به إلى حيث تمدد الشيخ الجليل . وما أن أحس عبد المطلب بمقدم حفيده الغالى حتى وسع له مكانا فى السرير فصعد محمد ونام إلى جوار جده الذى ضمه إليه فى حب . ولما استشعر أنه قد التصق بصدره وملأ عبيره الذكى أنفه سكنت الطمأنينة قلبه وراح فى سبات عميق .

وطار الليل مقصوص الجناح ، وغرد الطير فنبه من نعس ، وسل سيف الفجر من غمد الدجى فقام محمد من نومه وترك فى خفة الفراش لكيلا يوقظ شيخ بنى هاشم ، وسرعان ما دبت الحياة فى البيت الكبير قبل أن تبعث الشمس أشعتها إلى أم القرى ، وفتح الباب فى رفق خشية أن يوقظ صريره عبد المطلب ، وخرج منه محمد وحمزة والعباس وانطلقوا إلى الحرم ليطوفوا بالبيت العتيق الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

وطافوا سبعة أشواط ، وما أتموا طوافهم حتى ذهب العباس وحمزة إلى الملتزم بين باب الكعبة والحجر الأسود حيث يتلقى صفوة صبيان مكة وشبابها دروسا فى الكتابة والحساب ، وانطلق محمد ربيب الحرية إلى المراعى ليرعى غنم أهله ، فقد كان يتألق بالبشر كلما ألقى بنفسه بين أحضان الطبيعة الحانية .

كان العباس يرهف السمع لذلك الذى يلقى عليهم دروسا فى الكتابة ويعلمهم أسرار الحساب ، وكان يجد فى التحصيل فغاية أمانيه أن يقرض الناس بالربا وأن يجيد كتابة العقود حتى لا يضيع ماله ، بينا كان حمزة يتلقى العلم للعلم ليكون سيدا من سادات بنى هاشم ، فقد كان جل بنى هاشم يجيدون القراءة والكتابة ، أما محمد فلم يكن ليحفل بذلك العلم

الذى تحشى به رءوس غلمان سادات مكة عند الملتزم ، فهو يتلقى من هيامه فى البيداء ومن تأمله فى الوجود أسرارا يعجز عن كشف مغاليقها من نصبوا أنفسهم لتعليم طلاب العلم عند الملتزم . إنه يسلك طريقا وعرا شائكا مليئا بالعوائق والصعوبات ، ولكنه طريق سيصل به إلى أعتاب السر البشرى ، بل إلى أعتاب أسرار الوجود جميعه .

واصطبغ الأفق الغربى بلون الأرجوان ، ومالت الشمس لتغـيب خلف جبال مكة فراح محمد يسوق الغنم أمامه ليعود قبل الغسق ، وقبل أن يدركه الليل كان فى طريق الصفا ليدخل دار جده عبد المطلب .

كان بعد عودته من يثرب بعد موت أمه يطيل النظر إلى بيت عبد الله قبل أن يعرج إلى البيت الكبير ، وكانت ذكريات الأيام الحلوة التى قضاها مع أمه تنثال على رأسه ، وكثيرا ما كانت تدمع عيناه لما تدركه رحمة آمنة ، وكان يحس مرارة اليتم فى نفسه ويتأ لم أشد الأ لم ، ذلك الأ لم الذى يعمل على تكوين شخصيته وتحقيق ذاته . ولكنه على مر الأيام اعتاد أن يأخذ طريقه إلى دار جده دون أن يتلفت ، فقد عوضه حنان عبد المطلب كل حنان .

ودخل وهو يتلهف على رؤية جده وتأهب ليرتمى فى أحضانه ، ولكنه ما أن تقدم خطوات حتى تسمر فى مكانه وخفق قلبه فى خوف ، فقد رأى جده مسجى فى فراشه وحوله أعمامه وعماته مطرقين صامتين وفى وجوههم هم ثقيل ، وشق غلالة السكون صوت عبد المطلب يقول فى صوت خافت :

— واكرباه !

ونظر محمد إلى وجه جده وهو واقف خلف سريره فألفاه ذابلا قد

علته صفرة . إنه رأى الموت قبل ذلك فى وجه أمه وإن ما يراه فى وجه جده هو نفس ما رآه فى محيا آمنة الحبيبة ، ترى أيموت جده كما ماتت أمه ويتركه فى هذه الحياة وحده بلا ناصر ولا حبيب ؟

وسرت فى بدنه قشعريرة وانقبض صدره وبللت الدموع روحه وأحس أن عبراته توشك أن تفر من مآقيه ، فحاول أن يملك ذاته ولكنه عجز عن أن يكبت عواطفه فذهب بعيدا ليبكى وحده .

إنه وحيد ، يتيم ذهب أبوه قبل أن يرى النور ، وماتت أمه غريبة فى الصحراء وقبرت هناك فى الأبواء ، وها هو ذا جده يجود بأنفاسه الغالية وعما قليل يذهب دون أن يئوب ويتركه يتجرع غصص اليتم مرة أخرى بعد أن وجد عنده حنانا عوضه حنان آمنة وحبا عوضه حب عبد الله ، فموت عبد المطلب هو موت عبد الله وموت آمنة وموت لكل الآمال الحلوة والأمانى البسامة التى كانت تلوح له فى حلكة الزمان .

ورفع عبد المطلب يدا واهنة ومررها على وجهه ، وراحت أطوار حياته تمر أمام عين خياله ، إنه يرى نفسه غلاما فى يثرب يلعب مع أبناء أخواله من بنى النجار ، ويرى أمه سلمى وهى تغمره بالحنان ، ثم سرعان ما رأى عمه المطلب وقد جاء ليحمله إلى مكة ، واحتلت صفحة ذهنه صور الوداع الحار الذى كان بينه وبين أمه ، إن ذكرى ذلك اليوم ظلت حية فى وجدانه لم يضعفها مرور الأيام .

ورأى يوم ذهب بعبد الله إلى هبل ليذبحه وفاء لنذره ، ورأى الناعى وقد جاء ينعى إليه عبد الله ، وما لبث أن رأى ابنه الحارث يلفظ ذوب نفسه ، وهز رأسه فى ضعف كأنما يحاول أن يمحو ذكريات الموت .

وراح يجاهد ليتذكر رحلاته فطفت على سطح خياله رحلته إلى اليمن ،

وإذا بصوت الكاهن الذى ذهب إليه يرن فى أعماقه :

« إنى أرى فى إحدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة » كانت تلك النبوءة غامضة فى ذلك الوقت ولكنها واضحة له فى هذه اللحظة وضوح النهار ، فقال فى صوت واه :

ـــ على بابنى .

فخف أبو طالب إلى حيث كان ابن أخيه ، وما لبث أن عاد بمحمد ووضعه بين ذراعى الشيخ . وحاول عبد المطلب أن يضم حفيده إليه ولكنه كان أوهى من أن يحرك ذراعيه ، وهم محمد بأن يرتمى على صدر جده كما ارتمى من قبل على جثة أمه وأن يطلق لعواطفه العنان وأن يذرف الدمع السخين على حبه الكبير ، إلا أنه أشفق أن يؤذى حبيبه فراح يقاوم دموعه وإن كانت نار اليتم ترعى بين ضلوعه .

سيذهب جده ولن يئوب وسيتركه كما تركته أمه للشجن واليتم والألم والدموع ، إنه بات يشعر وهو فى دار جده أنه غريب ، وراح يقلب عينين دامعتين فى الحاضرين ، إنه يرى من بين الدموع هالة زوج جده ، وعماته صفية وبرة وعاتكة وأم حكيم البيضاء وأميمة وأروى ، وزوجة عمه فاطمة بنت أسد ، وجارية أبيه الحبشية بركة ، وأعمامه الزبير وأبا طالب وأبا لهب والعباس وحمزة ، إنه يستشعر أن الأرض تكاد أن تميد به ولا يدرى إلى أى صدر حنون يهرع ليرتمى عليه ليذرف عبراته . وقد وجد فى تلك اللحظة أن أمه بركة أقرب الحاضرات إلى قلبه الواله الحزين ، فهى عبير آمنة ورفيقة الطريق بعد أن قبرا الغالية ، وهى التى مسحت بيدها يتمه عقب أن عاد إلى مكة وحيدا حزينا يكاد أن ينفطر فؤاده من الأسى ، فانطلق إليها وأخفى وجهه فى طيات ثيابها وراح ينشج

فى صوت مكتوم حتى لا يصل نحيبه إلى الشيخ الحبيب .

كان عبد المطلب قد ذهب بصره إلا أنه كان يرى فى وضوح وهو يعانى سكرات الموت أباه هاشما وأمه سلمى وابنيه عبد الله والحارث وقد جاءوا ليأخذوه ، وفطن إلى أنه الفراق فأحب أن يسمع رثاءه ، فالتفت ناحية بناته وقال لهن :

— ابكين علىّ حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت .

فقالت صفية :

أرقتُ لصوت نائحـــــة بليــــــل
على رجــــل بقارعـــــة الصعيــــد
فقــاضت عنــد ذاك دمــوع عينــى
على خـــدى كمنحـــدر الفريـــد
على رجــــل كـــــريم غير وغل
لــه الـفضل المبيــنُ على العبيــد
على الفيــاض شيبـــة ذى المعـــالى
أبـيك الخيــرُ وارثَ كل جـــود
صدوق فى المواطــن غير نِـكْس[1]
ولا شخت[2] المقـام ولا سنيــد[3]

---

(١) الرجل الضعيف الذى لا خير فيه .

(٢) الشخت : الدقيق الضامر من غير هزال .

(٣) الضعيف الذى لا يستقل بنفسه حتى يسند رأيه إلى غيره .

طويـل البـاع أروع شَيْظَمِـى[١]

مطـاع فى عشيرتـه حميـد

رفيـع البـيت أبلـج ذى فضول

وغـيث النـاس فى الزمـن الحرود

وقالت أميمة :

ألا هلك الراعى العشيرةَ ذو الفقـدِ

وساقى الحجيج والمحامى عـن المجد

ومـن يؤلـف الضيف الغريبَ بيوتَه..

إذا مـا سماء النـاس تبخـل بالرعـد

كسَبْتَ وليدا خير ما يكسبُ الفتـى

فلـم تنفك تـزداد يـا شيبـة الحمـد

أبـو الحارث الفيـاض خلـَّى مكانـه

فـلا تبعـدن فكـل حـى إلى بُعـد

فـإنى لبـاك مـا بقـيت وموجَـع

وكان لـه أهـلا لما كان مـن وجـدى

سقـاك ولـىُّ النـاس فى القبر ممطـرا

فسوف أبكِّيـه وإن كان فى اللحـد

فقـد كان زينـا للـعشيرة كلهـا

وكان حميدا حيث ما كان مـن حمد

وقالت أروى :

---

(١) الشيظمى : الطويل الجسم .

بكت عينى وحق لها البكاء
على سمح سجيته الحياءُ
على سهل الخليقة أبطحى
كريم الخيم نيته العلاء

وقالت برة :

أعينى جودا بدمع درر
على طيب الخيم والمعتصر
على ماجد الجد وارى الزناد
جميل المحيا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذى المكرمات
وذى المجد والعز والمفتخر

وقالت عاتكة :

أعينى جودا ولا تبخلا بدمعكما بعد نوم النيام

وقالت أم حكيم البيضاء :

ألا يا عين جودى واستهلى وبكّى ذا الندى والمكرمات

وما انتهت بناته من رثائه حتى قال فى صوت متهدج متقطع :

ــ هكذا فابكينني .

ولفظ شيخ بنى هاشم النفس الأخير فضج الحاضرون بالبكاء ، ووقف محمد خلف سرير عبد المطلب يبكى جده أحر بكاء وقد ثار فى نفسه ألم حاد عميق ، إنه أضحى مرة أخرى يتيما ، لا مستقبل له ينعطف إليه ولا صدر حنون يرتمى عليه ، إن النيران قد اشتعلت فى جوفه وإنه يعانى تجربة الوحدة المريرة الممضة القاسية .

كان بين أعمامه وعماته الذين يذرفون الدموع إلا أنه كان يحس كأنه تائه فى بيداء الحياة ، الحزن يضطرم فى أعماقه ، والدموع لا تطفىء لهيب نفسه الحزينة . إنه وحيد يستشعر أنه فى جانب والعالم كله فى جانب آخر ، فهو وحده الذى يستطيع أن يحس لوعة الأسى وحدّة الألم التى تعصره عصرا .

ماتت أمه آمنة وتركته يجابه الحياة وحده يعانى التجارب الأليمة ، فلما كفله جده وغمره بعطفه كاد يطمئن إلى الأيام ويركن إلى الحنان الدافق الذى يهدهد حواسه ، ولكن المنون عادت واختطفت جده الحنون وتركته للوحدة والألم لتكتسب ذاته عمقا وخصبا وثراء ، فالتجارب الأليمة التى يعانيها تندمج فى صميم وجوده وتزيد فى خصب حياته الروحية وفى عمق حياته الباطنية ، وتصبح ثروة فى الفؤاد تدخرها ذاته للمستقبل سلاحا يصد به هجمات الأحداث المرة الأليمة .

وذاع فى مكة أن عبد المطلب مات فساد الناس وجوم وطفرت العبرات من العيون ، واشتدت النادبات إلى جبل أبى قبيس يندبن رجل الكرم والجود ، وانطلقت ألسنة الشعراء بالرثاء وأغلقت الأسواق حداداً على الرجل الذى ظل لسنوات طوال أمل قريش ورمز مكة وعزها .

وحمل بنوه النعش على أكتافهم ، وسار رجال مكة كلهم خلفه سادة وعبيداً وقد غامت الوجوه حزنا وامتلأت المآقى بالعبرات ، وانطلق محمد فى الزحام فى جنازة جده وهو شارد يكاد الحزن أن يمزق أوتار قلبه ، يعانى فى صمت مرارة الألم وقسوة الوحدة وإن كان فى غمار كل أهل مكة .

وحركت أشجانه الذكريات الحزينة فرأى نفسه وهو على ظهر بعيره

وأمامه أمة جثة هامدة مسبلة العينين ذابلة الوجه صامتة صمت القبور ، يخب بهما البعير منطلقا إلى الأبواء لتوارى الأم الحبيبة فى التراب ، فلم يستطع أن يملك زمام ذاته فانفجر باكيا يحس أن كبده تكاد تنفطر وأن حلقه قد امتلأ بأشواك .

وبلغت الجنازة الحجون فدلى عبد المطلب فى حفرة ليقبر إلى جوار جده قصى فضج الناس بالبكاء ، وراح محمد يتلوى أسى وألما وحزنا . إنه الموت ، إنه الفراق ، إنه الوداع ، وإنه ليتجرع نفس غصص الألم التى تجرعها يوم أن قبرت أمه غريبة فى أرض غريبة ، وقد أمسى هو نفسه يحس غربة وإن كانت قريش كلها حوله .

وأهيل التراب على عبد المطلب وعاد الناس إل دورهم مطرقين أسفا ، وعاد حمزة بن عبد المطلب ليرتمى فى أحضان أمه هالة يبكى وينتحب ، وقفل العباس إلى دار أبيه ، ولم يعد محمد إلى البيت الكبير فقد خوى من جده الحبيب ، بل ذهب إلى الحرم ومد بصره إلى حيث كان يجلس عبد المطلب فى ظل الكعبة ، ثم سح الدموع على ذهاب جده وعلى يتمه الذى تجدد .

— ١٠ —

اختصم الزبير وأبو طالب شقيقا عبد الله أيهما يكفل محمداً ، فالزبير يحب أن يضم ابن أخيه إلى بنيه وأبو طالب يتمسك بوصية عبد المطلب ، فقد أوصاه أبوه قبل أن يموت أن يرعى حفيده الحبيب . ورأى أبو طالب أن يحسم الأمر بأن يترك لليتيم أمر اختيار من يحب أن يعيش فى كنفه ،

فجیء بمحمد وخير فاختار أبا طالب فضمه عمه إليه فى حب ، ثم انطلقا إلى دار أبى طالب وقد حملت بركة الحبشية متاعها ومتاع ابنها من البيت الكبير إلى دار الكافل الجديد .

وحرّك خروج محمد من بيت جده أشجان هالة فذرفت الدمع على ابن آمنة اليتيم الذى لم يعرف الاستقرار مذ تفتحت عيناه على النور ، فما مضت ثمانية أيام على ولادته حتى حملته حليمة إلى هوازن ليشتد عوده فى بنى سعد ، وما كاد يألف جبال البيداء ووديانها ويتفتح فؤاده لإخوته الشيماء وأنيسة وعبد الله حتى أعادته حليمة إلى أمه لينعم بالحب الصافى العميق ، ولم تطل أيام طفولته المستقرة السعيدة فما أسرع أن حملته أمه إلى يثرب ليزور قبر أبيه .

ومكث الفتى الذى كتب عليه أن يضرب فى الأرض شهراً فى ضيافة أخوال جده من بنى النجار يجوس خلال الديار ويتعلم العوم وهو الذى لم ير فى مكة ولا فى بيداء بنى سعد مجارى الماء ، ليسفر منذ نعومة أظفاره على استعداده لتطوره وعلى سموه على عادات قومه . وقد انتهت أيام يثرب بقمة مأساة لصبى إذ ماتت أمه فى الطريق وتركته يواجه وحده لطمات أمواج الحياة فى سفينة بلا ربان .

وترك الغلام بيت أبيه عبد الله بعد أن خلا من آمنة الرءوم ، وما كاد يطمئن على صدر جده الحنون وينسى آلام اليتم ومرارته حتى ذهب عبد المطلب كما ذهب من قبل عبد الله وآمنة ، وذاهب الموت لا يئوب . وحز فى نفس هالة أن كتب على ابن آمنة ولما يتجاوز الثامنة من عمره عذاب الألم وقسوة الوحدة ومرارة الأحزان ، وما خطر على قلب بنت وهيب أن القوة كلها والغبطة كلها والثروة الروحية كلها إنما تنبعث جميعها من

الوحدة والألم والأحزان ، وأن ابن عبد الله إنما يصهر فى بوتقة الألم لتكتسب ذاته عمقا وخصبا وثراء ورحمة تؤهله جميعا للرسالة السماوية التى ينوء بها أولو العزم من الرجال .

كانت هالة ابنة عم آمنة وزوجة عبد المطلب وأم حمزة ، وكانت ترجو من كل قلبها أن يستمر محمد فى بيت جده مع عمه حمزة الذى كان فى مثل سنه ، ولكن كان يحول دون تحقيق أمنيتها تقاليد عتيدة لا تقر بأن يترك صبى مثل محمد فى كنف امرأة ولو كانت ابنة عم أمه وزوج جده الحبيب ، فكان لا بد أن يكفله عم من أعمامه ، وقد انتقل يتيم قريش من دارها إلى دار أبى طالب مخلفا فراغا ولوعة وأسى فى قلب حمزة ، بل فى قلوب كل من فى البيت الكبير من سادة وعبيد .

ورحبت فاطمة بنت أسد بالوافد الكريم وحاولت بحنانها أن تمسح عن صدره الألم والأحزان ، وجاهدت ليندمج الفتى اليتيم فى بنيها يلعب معهم كما يلعبون ويلهو كما يلهون ، ولكنه آثر الوحدة والانطواء على نفسه وسبر غور ذاته ، فقد اختبر عمق حياته الباطنية وأدرك تفاهة الانغماس فى حياة مجتمعه .

ووضع أبو طالب الطعام وجلس محمد مع بنيه فإذا بأبناء أبى طالب ينهبون ما أمامهم و لم يمد محمد يده ، ولاحظ أبو طالب ذلك ففطن إلى أن ابن أخيه يتعفف وأنه يكره أن يتناول شيئا من الطعام قد يشتهيه غيره ، فأمر أبو طالب أن يقدم لمحمد طعامه وحده . وقلما كان يأتى على ما يقدم إليه ، وعلى الرغم من ضآلة ما كان يأكله فإنه كان ينمو نموا يفوق نمو من كان فى مثل سنه .

وكان محمد يخرج إلى الحرم ويطوف بالبيت ويتأمل أهل مكة وهم

يتمسحون بتماثيل الآلهة ويقدمون إليها القرابين ، فلم يستسلم لمجتمعه ولم يفعل ما يفعل قومه بل راح ينظر ويتأمل ويفكر فلم يسترح بفطرته السليمة إلى هذه الأفعال التى تركز كل آماله فى صنم ، بل كان ينطلق إلى الفضاء العريض فيستشعر أن الكون كله محرابه وأن كل نظرة إلى السماء التى لا تحد صلاة ، وكل رنوة إلى غروب الشمس أو بزوغ القمر أو تلألؤ النجوم تسبيح ، وأن الوجود جميعه بما يخفق فى جنباته من نبض الحياة قدس أقداسه . إنه ينصهر فى شروق الشمس ويذوب فى الشفق ويحس بينه وبين الكون ضربا من الألفة والتوافق والاتزان والتطابق ، فهو وإن كان منطويا على ذاته فإنه يستشعر فى صميم وجدانه بالعالم ، بل بالآفاق ، بسحرها وسرها وغموضها اللذيذ .

كان كلما ارتمى فى أحضان الكون يتهلل بفرح روحى ؛ ويربو خصب حياته الباطنية ، ويتضاعف ثراء كنوز فؤاده وينطلق حرا طليقا من سجن جسده ليهيم فوق السحاب ، بل ليسمو إلى ما فوق السماء ، وقد كانت رحلة روحه القوية تروى بذور نموه الروحى وتفتق البراعم عن أسرار عظمته .

رده الألم إلى ذاته وأتاح له معاناة الوحدة على حقيقتها . فكانت الوحدة ملاذاً أمينا مكنه أن يكشف عمق حياته الباطنية ؛ وأن يظل طويلا مطويا فى داخل صمته يتأمل ويتدبر ويفكر ويتصل بالملكوت الأعلى ، ليتسلح لذلك اليوم الذى سيجابه فيه الدنيا بأسرها ليبلغ رسالات ربه .

إنه رأى أمه تموت أمام عينيه ، ورأى جده يشهق شهقة ثم يمضى بلا عودة ، فراح يفكر فى المولد والموت وما بعد الموت ؛ إن الإنسان يولد

وحيداً ويموت وحيداً وليس لأحد أن يعيش عوضا عنه أو يموت عوضا عنه . هذه حقيقة ولكن ماذا بعد الموت ؟ أخلق الإنسان عبثا ؟ ذلك هو السر الذى يحيره .

الموت ! إنه وقف عاجزاً أمامه يوم أن صرع أمه واختطفها من بين أحضانه لتغيب فى التراب ، الموت ! إنه استل جده الحبيب من بين بنى هاشم الأقوياء دون أن يحرك أحدهم ساكنا . ترى أيموت الناس كما يموت البعير ثم لا شىء ؟ أتطول وقفته على أعتاب ذلك السر ؟

والإنسان ؟ من أين جاء ؟ هل انبثق من العدم ؟ وإلى أين يذهب ؟ أيذهب إلى العدم ؟ أسئلة دارت فى ذهنه لم يجد لها فى ذلك الوقت جوابا ، ولكنه كان يحس أن هناك صلة وثيقة بينه وبين العالم الذى يعيش فيه ، بل بين روحه التى تخفق بين جنبيه وروح الوجود التى تسرى فى الكون . وكان ذلك الإحساس يملأ جوانبه بالنور ، ولكنه لم يكن يقضى على الأسئلة الذكية التى تثور فى وجدانه .

كان يستريح لصحبة نفسه ويبتهج للخواطر التى تثور فى صميم ذاته ، ويركز ذهنه ليلقى أضواء عليها ويطيل تأمله الباطنى ويراقب ضميره فتزداد حياته الروحية عمقا وثراء ، فيدنو من السماء وتدنو منه السماء .

كان عملاقا فى جسم غلام ، إنه أكبر بكثير مما يبديه جسده أو ما يراه منه الآخرون ، فهو على الرغم من حداثة سنه لم يسجد لصنم ولم يذبح لوثن ولم يصغ إلى عراف ، ولم يحلف أبداً باللات والعزى والحلف بهما يتردد فى الحرم وفى الدور وفى الأسواق ، ويتجاوب فى شعاب مكة وجبالها وروابيها بل وفى كل فج عميق من أرض الحجاز .

وجاء يوم عيد من أعياد قريش يخرج فيه الناس إلى صنم من أصنامهم

يذبحون له ويحلقون عنده ويعكفون عليه يوما إلى الليل فى كل سنة ، فتقاطر أبناء عبد المطلب وبناته إلى بيت أبى طالب فى البكرة وراح كل منهم يقبل محمداً ويضمه إليه فى حنان ومحمد سعيد بالعواطف الرقيقة الفياضة بالحب التى تغمره . وراح أبو طالب وزوجه فاطمة يعدان الإفطار للأسرة التى تجمعت لتنطلق إلى العيد ، وخلا الزبير بمحمد وطفق يحدثه عن رحلة الشتاء التى سينطلق فيها إلى اليمن ، فعرض محمد على عمه أن يأخذه معه فما كان الصبى الذى راح يجوب الآفاق منذ اليوم الثامن من مولده يحب حياة الدعة والاستقرار ، فرحب الزبير بصحبته ، وراح العم وابن أخيه يستبقان الزمن ويجريان وراء الرحلة الموفقة الميمونة .

واجتمعت أسرة عبد المطلب حول الطعام ، وقبل أن يمد أحدهم يده تلفت أبو طالب فلم يجد محمداً ، فقال :

— كما أنتم حتى يحضر ابنى .

وجاء محمد وجلس يأكل معهم ، وامتدت الأيدى وامتلأت البطون وبقى فضل من الطعام ، فالتفت أبو طالب إلى محمد وقال :

— إنك لمبارك .

كان أبو طالب قد ولى زمزم والسقاية عليها بعد أن مات عبد المطلب ، وكان فى بحبوحة من العيش ؛ تجارته رائجة ، ولم يكن بعد كثير العيال ، وكان العباس فى الثالثة من عمره وكان يتطلع إلى الغنى ولكنه لم يثر ولم يعرف الذهب طريقه إليه ، وكان على الرغم من أنه من أحدث إخوته سنا إلا أنه كان يتطلع إلى أن يلى شرف الرفادة والسقاية لحجيج بيت الله .

وتأهبت أسرة عبد المطلب للخروج إلى العيد ، وارتفعت صيحات

الفرح من غلمان بنى هاشم ، حتى عمات محمد لاح فى وجوههن البشر . واندفع الرجال والنساء والصبيان نحو الباب فرحين يرجون رضاء آلهتهم عليهم . وحانت من أبى طالب التفاتة فألفى محمداً قد انزوى بعيداً وقد جلس إلى شباك وقد شرد يمد بصره إلى السماء ، فقال أبو طالب :

ـــ محمد ، ألا تحضر العيد معنا ؟

ـــ لا .

وصوبت الأبصار إلى محمد وقد لاح فيها خوف ، ودنت إحدى عماته منه وقالت له إنها تخاف عليه من غضب الآلـٰهة . ولكنه أبى أن يذهب معهم فغضب عليه أبو طالب وغضبت عليه عماته أشد الغضب وجعلن يقلن :

ـــ إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا .

ـــ ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعا ؟!

فلم يزالو به حتى ذهب معهم وقد عزم على أن يكون فى صحبة نفسه منطويا على ذاته ، يعانى فى عمق تجربة الوحدة فى المجتمع ، وإن كان العالم الخارجى ينبض بثرثرة المخلوقات التى لا تكف عن استعـراض ذاتها والتحدث عن نفسها والتدخل فى شئون غيرها وإذاعة سرها وأسرار الناس دون أن يكون فى وسعها أن تقبع فى ذاتها لكى تسبر غور نفسها .

وبلغ أبو طالب ومن معه رجلا من قبيلة لهب كان قائفا قد أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويقتاف لهم فيهم ، ينبئهم بعين فراسته عن مستقبلهم ، فأتى أبو طالب بمحمد ودفع به إلى القائف لعله ينبئه عن سبب تلك الكراهية التى يحملها ابن أخيه لآلهتهم ، فنظر الرجل إلى محمد

نظرات فاحصة ثم شغل عنه بشيء ، فلما فرغ قال فى لهفة :

ــ علىّ بالغلام .

وجعل يقول :

ــ ويلكم ردوا على الغلام الذى رأيت آنفا ، فوالله ليكونن له شأن .

فلما رأى أبو طالب حرص الرجل عليه غيبه عنه وانطلق به حتى أتوا مكان الاحتفال ، وإذا بأصنام قائمة ، وإذا بالناس يطوفون حولها طوافهم بالكعبة ، وإذا بالذبائح تذبح ، وإذا برجال ونساء وأطفال يطوفون حول الذبائح مهللين مستبشرين ملتمسين من آلهتهم أن تتقبل منهم وأن ترضى عنهم ، وإذا برجال يحلقون رءوسهم عند أصنام الآلـهة ، وإذا بعرافين ومنجمين وقافة قد انتشروا فى أرض العيد وقد أتاهم الناس ملتمسين إزاحة الستار عن أسرار الغيب .

وراح الزبير وأبو طالب وأبو لهب وحمزة وصفية وأم حكيم وهالة بنت وهيب ورجال بنى هاشم ونساؤهم وولدانهم وعبيدهم وإماؤهم يطوفون بأصنام الآلـهة فى خشوع ويبتهلون إليها فى حرارة ، ثم قدمت القرابين لتذبح ، وسالت الدماء عند أقدام الآلـهة ومحمد بن عبد الله واقف ينظر من بعيد ، ويتأمل ويفكر فى الأحجار التى لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا ترى ، التى يلوذ بها الناس ويشخصون إليها بأبصارهم وفى العيون دموع وفى القلوب خشية ، فيعجب من أحلام قومه الذين يعبدون ما ينحتون .

وعبق البخور فى المكان وراح يتصاعد إلى السماء ، وعلقت الهدايا الغالية بالأصنام وألقيت النذور فى الغبغب الذى كان أشبه ببئر صغيرة

عند أقدام كل صنم ، وراح سدنة الآلهة ينظرون وقد تألقت بالطمع عيونهم ورف الجشع على شفاههم وإن تظاهروا بالتقوى والصلاح .

وطهيت لحوم الضحايا التى ذبحت على النصب ، ومدت الموائد لينال المكيون الطعام اللذيذ بعد أن نالت الآلهة ما تشتهى من الدماء ، وقدمت خمور الشام فراح الرجال يعبون منها عبا ، وأبى أبو طالب أن يشرب فقد حرم الخمر على نفسه ، وامتنع عبد الله بن جدعان عن الشراب فإنه كان يحاول أن يقبض على أشعة القمر وهو سكران فلما أفاق وأخبر بما فعل أقسم ألا يعود للشرب أبداً .

ولعبت الخمربرءوس الرجال فطار الوقار كأنما قد استحال سادات الناس إلى قردة تقفز فى نشوة وتعبث دون مبالاة ، وراح محمد يرقب ذلك المجتمع العابث الذى فقد وقاره وهو يرثى فى قرارة نفسه لذلك الابتذال الذى تبدى من قوم خرجوا من دورهم لتقديم عبوديتهم لآلهتهم .

وتبخرت النشوة المؤقتة من الرءوس وبدأ الصداع وثقلت الجفون وحنت الأجسام إلى الرقاد فامتلأت الساحة بالراقدين . واصفر النهار ثم غابت الشمس فى الأفق الغربى فقام العبيد بإيقاد النيران على حوافى أرض العيد ، فراحت ألسنة اللهب تتراقص فى الفضاء وتعكس أضواءها على أصنام الآلهة فيبدو المكان رهيبا كأنما قد غلف بسحر يأخذ بمجامع القلوب .

وراح محمد يرنو إلى تلك الأصنام التى كانت تتألق فى أضواء النيران فيحس رغبة فى أن يقوم إليها يتحسسها ، فقد كانت تبدو فى سكون الليل وقد تراقصت عليها ظلال النار غيرها فى النهار ، فنهض وسار إليها

ومد يده يمس أحدها فإذا به يخيل إليه أن قد قام بينه وبين الصنم شبح طويل يصيح به أن يعود ، فجمد فى مكانه لحظة ، حتى إذا ما سكن روعه واسترد أنفاسه راح يمد يده لصنم آخر فإذا بذلك الشبح قد قام بينه وبين الصنم وصاح به أن يعود ، فراح يعدو إلى الدار مرعوبا فزعا لا يلوى على شىء .

كانت بركة فى الدار فلم تخرج مع الخارجين ، فقد كانت حبشية و لم تكن على دين القوم وما كانت تحفل بأعيادهم وإن كانت تطوف بالبيت العتيق وتقسم بما يقسمون ، فلما دخل محمد عليها قرأت الرعب فى وجهه فقالت له :

ـــ ما دهاك ؟

ـــ إنى أخشى أن يكون بى لمم (المس من الشيطان) .

ـــ فما الذى رأيت ؟

ـــ إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يا محمد لا تمسه .

فضمته بركة إلى صدرها كأنما كانت تحميه من أشباح تطارده ، ثم قالت :

ـــ ما كان ربك ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك .

ازدحم الناس فى بيت الزبير بن عبد المطلب فقد جاء الموسرون من المكيين ليقدموا إلى زعيم القافلة التى ستنطلق إلى اليمن فى رحلة الشتاء بضاعتهم ، أو ليسلموه بعض النقود الفارسية أو الرومية ليشترى لهم بخورا يحملونه إلى الكنائس فى رحلة الصيف ، فالقسيسون والرهبان يقبلون على البخور ويشترونه بأسعار عالية ليطلقوه فى كنائسهم .

وجاء بعض متوسطى الحال والنسوة بما ادخروه فى عامهم ليشاركوا فى قافلة قريش التى كان خروجها إلى الشام أو إلى اليمن يوما من أيامهم المعدودة ، والتى كانت عودتها عيدا يدخل السرور على مكة كلها حتى إن غناء القيان كان ينبعث من كل دورها .

وأقبل أبو طالب وبعض بنيه ومحمد بن عبد الله إلى دار أخيه ليوصيه بشراء عطارة لدكانه وليساهم ببعض ماله فى تجارة قومه لعله يربح ما يعينه على رفادة حجيج بيت الله وسقايتهم فقد حمل ذلك العبء بعد موت أبيه عبد المطلب ، وهو يتمنى من كل قلبه أن ينهض به كما نهض به أبوه وألا يقصر فى حق ضيف الله وزوار بيته .

وراح محمد ينظر إلى الحشود التى ملأت دار عمه الزبير ، وإلى العقود التى تبرم ، وإلى الصكوك التى توقع ، وإلى البضائع التى تحمل إلى المخازن ، وإلى العبيد الذين كانوا فى غدو ورواح وقد تفصد العرق من أجسامهم وانبهرت أنفاسهم ، وإلى المرابين الذين خفوا إلى ساحة الدار التى انقلبت إلى سوق ليقرضوا الراغبين فى المغامرة بربا فاحش ليأكلوا

أموال الناس أضعافا مضاعفة ، فكان يبش مرة وينقبض فؤاده مرة ، ويستشعر الشفقة مرة ويمتلئ بالضيق وبالزراية مرة ، فقد كانت عواطفه تتحرك حسبما كان يجرى أمام عينيه ، وكانت تجارب جديدة تضاف إلى رصيد تجاربه كل يوم .

كان محمد فى علاقة مباشرة مع العالم ببصيرته النفاذة أن يغوص ليكشف عن جوهر الأشياء ، وما كان بمعزل عن الآخرين بل كان يحاول دائما أن يهيب بإرادته لكى تعبر ذلك الجسر الذى يربط بين ذاته وذوات كل من حوله من البشر ، لا ليقف على وصيد سر البشرية بل ليزيح الستار عن أغوار النفس ومكمن الأسرار .

وراحت تراوده رغبة وهو فى وسط خضم المكيين الزاخر أن يصبح ذات يوم شعاعا يضىء أفئدة هؤلاء الناس الذين يحبهم . فهو لا يتقبل الواقع على ما هو عليه من ظلم وجشع وقسوة ، بل إنه ليحس فى أعماقه أنه لقادر على أن يبدل هذه النفوس الضالة التى يقودها طمع المادية إلى سبل الضلالة والخسة إلى طريق الرشاد ، إذا ما عرج بقومه إلى غاية روحية ترفعهم من ضرورات الأجسام إلى آفاق أسمى .

لم تكن الصورة واضحة فى نفسه بل كانت لا تزال إحساسات غامضة وأمانى لم تتبلور بعد فى صميم ذاته ، إنها بذرة صالحة غرست فى أغواره وقبس من نور النور أضاء ظلام وجدانه ، وإنه لحريص على أن يتعهد تلك البذرة وعلى أن يفتح كل نوافذ باطنه لتسطع جوانحه بالنور ويفيض على الكون من حوله .

كان أثرياء مكة يتدفقون إلى دار الزبير ويجتمعون فى دار الندوة ويحررون العقود عند الملتزم لا حديث لهم إلا التجارة والأرباح والبضاعة

والقروض وربا الفضل وربا النسيئة ، بينما كان فقراء المكيين يقتلون أولادهم خشية إملاق ، فيقول الرجل منهم لزوجه أن تزين ابنتها وتطيبها حتى يذهب بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فإذا ما بلغ بها البئر يقول لها : انظرى فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب .

وكان الوأد منتشراً بين الفقراء ، وكان زيد بن عمرو بن نفيل يشفق على الموءودات فكان إذا رأى رجلا أراد أن يقتل ابنته يقول له :

ـــ لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها .

ولم يكن زيد بن عمرو هو الذى يحيى الموءودات وحده ، فقد كان بعض عقلاء العرب يأخذون البنات اللاتى يريد آباؤهن وأدهن ، فإذا ما ترعرعت إحداهن عند أحدهم قال لأبيها :

ـــ إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها .

وكان محمد يرى الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة ، فإذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة وإذا ولدت ولداً حبسته . ورأى الآباء يدفعن بناتهن من خلفهن فى الآبار التى حفروها فى الصحراء ثم يهيلون عليهن التراب ، فكان يحس أسى وتثور فى نفسه ثورة عارمة على ذلك الشر الذى يزهق أرواحا بريئة .

وخرج رجال مكة ونساؤها وفتيانها وعبيدها وإماؤها وعاهراتها إلى حيث أناخت القافلة ، وما كاد الليل يرخى سدوله حتى جلجلت ضحكات السكارى وارتفع صوت القيان بالغناء وانسل الشباب إلى العاهرات ذوات الرايات الحمر ، وراح العبيد يغدون ويروحون بين المخازن والإبل التى أنيخت على ظهورها التجارة . فطفق محمد يتأمل حال قومه ؛ حرية مطلقة وعبودية مذلة للبشرية ، حرية تنخر قلب

الوجود وتفرز سموما خبيثة تشيع فى الكون الفساد ، وعبودية قاسية تهوى بالإنسانية إلى مهاوى الانحطاط ، إلى مستنقعات الوحل والأقذار .

وفطن إلى أن الوجود لا يمكن أن يسمو بمثل هذه الحرية الفاسدة ، الحرية الطليقة التى لا يعقلها عقل ، حرية فى ظاهرها وإن كانت عبودية للشهوات والنزوات ، حرية تتنكب الطريق القويم للخلاص . إنه يحس ضرورة تنظيم هذه الحرية ، بل تقييدها بنواهى لتنطلق فى طريق النجاة ، ولكن ما كان يعتمل فى صدره كان مجرد إحساس لا يدرى كيف يتطور إلى منهج عمل وواقع حياة !

وكان ما يلقاه العبيد من ذل واضطهاد يمس وترا حساسا فى فؤاده ، إنه يرى فيما يقاسى العبيد إهدارا لكرامة الإنسان ويستشعر بالسياط التى تهوى على ظهور العبيد سياطا تلهب ضميره ، فهو فى صميم وجدانه لا يستطيع أن يفرق بين حر وعبد وبين سيد ومسود ، ففى كل منهما روح خفاقة تستحق التكريم والتبجيل والاحترام .

وراح يقلب وجهه فى رجال مكة وشبابها ونسائها وفتيانها ، وما كان مأخوذا بسحر الملموس والمرئى والمسموع بل كان يركز ذهنه ويصيخ السمع إلى ما يثيره عقله الراغب فى المعرفة ويحاول أن يحلل البواعث ويزن الظروف ويغوص فى أعماق النفس البشرية ليكشف عن الدوافع والأهواء والنزوات .

إنه يرى الناس يعملون ما يحلو لهم دون اكتراث استجابة لعواطفهم وميولهم وأهوائهم ، دون تدبر وروية ، تلبية لأول دافع يخطر لهم على بال . وهو يحس فى أعماق أعماقه أن العمل ينبغى أن يعمل بعد تدبر

وتفكير وأن يستهدف التخلص من كل شر ومن كل كراهية وأن يتحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، فالإنسان ليس حرا إلا بقدر ما يسمو بنفسه فوق الأهواء .

كان المفهوم الأخلاقى يتعمق فى ذاته كلما مرت الأيام وفكر وتدبر وتفاعل مع مجتمعه وقاسى من معاناة الحياة ، فبات يؤمن أن الحياة الإنسانية الصحيحة إنما تبدأ حيث تنتهى الحياة الحيوانية ، وأن المرء لا يحيا حياة إنسانية خالصة إلا بقدر ما يتحرر من الضرورة العمياء ، وإن إمكان وضع الأصابع فى الآذان كلما هتفت نوازع الشر فى أعماق النفس والإعراض عن نداءات الشهوات الدنسة إن هى إلا بصيص النور لإشراق الوجود .

وحان أوان الرحيل فمشى الرجال إلى الرجال يتعانقون مودعين ووقفت الأمهات والزوجات والبنون والبنات وفى العيون دموع ، وخف أبو طالب وبنوه والعباس وحمزة لتوديع الزبير ومحمد بن عبد الله . وقبل أن تنطلق القافلة فى معبد الكون جاءت بركة الحبشية وضمت محمداً إلى صدرها وعبراتها تسيل على خدها ، فأحس محمد رقة وطفرت الدموع من مآقيه .

وسارت القافلة لتخرج من مكة إلى الصحراء متجهة صوب الجنوب وعلى رأسها الزبير بن عبد المطلب وقد ركب معه على بعيره محمد ابن أخيه ، وقد كان الزبير يغمر محمدا بعطفه ولكنه لم يكن فى عين اللحظة يحس خطر ذلك الغلام الصامت الذى يعيش فى قوقعة ذاته ، فما كانت العين بقادرة على أن ترى المشاعر الغنية التى تموج فى وجدانه ، ولا الآراء الناضجة التى تعتمل فى رأسه ، ولا البصيرة النفاذة التى تجول فى الكون

والمجتمع وأعماق نفوس البشر للبحث عن سر الوجود .

وسرت القافلة فى الفضاء ومحمد هائم فى الوجود ؛ إنه قاسى كثيرا من العذاب وذاق ألوانا من الألم وتحمل مرارة اليتم والغربة وإن كان أعمامه وعماته وكل بنى هاشم يغمرونه بالعطف والحنان ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يائسا من وجوده بل كان مبتهجا به ، يتهلل بالفرح كلما اندمج فى الكون وأحس تعاطفا مع ذلك العالم الكبير الذى يعيش فيه .

كان طوال الرحلة يجد نفسه وحيدا وإن كانت القافلة تموج بالناس ، قد خلّى بينه وبين نفسه إلا أنه كان فى صميم وجدانه يحس أن هناك قوة عليا تحميه ، تلقى فى ضميره حكمة تنير له سبله . إنها قوة خلاقة مبدعة ، وإنه ليستشعر قوة عارمة كلما صفت ذاته وحاولت أن تختلط بتلك القوة العلية ، وكثيرا ما كان يهيم ليذوب فى روح الروح فيسمو على الوجود البشرى مخلفا وراءه دنيا السلب والشر والهدم والعدم والفناء .

إنه ما كان يقنع بما يحقق كل يوم من كسب روحى ، ولا يستنيم إلى ما يحرز من نصر على ما فى طبيعته البشرية من نقص ، بل كان يحاول كل يوم أن يزيد فى الروابط التى تربط بينه وبين الطبيعة ، بل ويرتفع إلى ما فوق الطبيعة لكى يمضى نحو تطور روحى يجعله أهلا لأن يندمج ذات يوم فى ذات الذوات .

إنه لم يصارع الطبيعة يوما و لم يشن عليها حربا ، بل كان يحاول أن يفهم مغاليقها فى رفق ، فإذا ما فتحت له بابا من أبوابها لم يصح صيحات ظفر وانتصار بل كان يتقدم ليطرق بابا آخر ملتمسا من قلبها الحنون أن تفتح له ذلك الباب ، وقد كانت الطبيعة تبادله حبا بحب فما كانت تغلق فى وجهه نوافذها وأبوابها ، بل كانت تفتح له كل قلبها بل وتكشف عن

وجه أسرارها النقاب .

إنه بالحب استولى على قلوب الناس ، وبالحب وحده شد الأواصر بينه وبين الوجود ، وبذلك الحب وحده سيتحرر من أسر ذاته ليقوم بعمل عظيم يستمد أصوله من السماء لإسعاد البشرية جمعاء مستهينا بكل ألم وكل عذاب ، فقد كان حبه الكبير للبشرية يعلو على الألم والعذاب ، وقد كان ذلك الحب هو سلاحه الذى فتح به القلوب جميعا : قلوب الناس وقلوب الأسرار والألغاز .

ونزلت القافلة فى واحة لتستريح ، وكان أول ما فعله رجال القافلة أن أخرج الكاهن تمثال الإله فراح الرجال يتمسحون به ويطوفون حوله كطوافهم بالكعبة ويذبحون عنده ، وقد ذهب محمد بعيدا يرنو إلى الوجود فى وجد فيحس أن الكون كله محرابه وأنه قدس أقداسه ، وظل شاخصا ببصره إلى السماء يستشعر أنه يصلى أعمق صلاة وإن لم تتحرك شفتاه بالابتهالات والدعوات ، فقد عرفت روحه طريق الوصول إلى القوة العليا التى تمد السموات والأرض بروح خفاقة بين جنبات الوجود .

ومدت الموائد والتف رجال القافلة حول الذبائح ، وجلس الزبير وابن أخيه محمد بن عبد الله بن الجالسين فراح الرجال ينتهبون ويزدردون اللحم ازدرادا ، بينا تناول محمد بعض لقيمات ليقمن صلبه ثم قام ، فقد كره أن يكون عبدا لشهوة بطنه أو شهوات نفسه ، فقد كان يجاهد ليرتفع بروحه عن أن تغرق فى ماديات ضرورة الأبدان .

كان فى صراع مستمر وجهاد شاق مع نفسه ، وإنه ليتعلم على مر الأيام أن أشق الجهاد جهاد النفس ، وأن قول : « لا » لميوله ونزواته

ونوازع الشر هو أول خطوات نموه النفسى والخلقى ، وأنه السبيل إلى سر الوجود ؛ فلا يسلك ذلك الطريق من ثقل بطنه بالطعام وثقل ضميره بالخطايا والأوزار .

وكان مفتوح العين مفتوح الوجدان مفتوح العقل ، يرقب الناس ويرصد تصرفات الناس ويفكر ويتدبر ويتأمل ويحلل دوافع النفوس ، وما كان يقيس الأفعال بالعرف والتقاليد وما اصطلح عليه قومه بل كان يزن كل فعل بما ينبغى أن يكون ، وكان يعمل وفقا لنصائح عقله مستعينا بذلك النور الذى يضئ جوانبه كلما سرى فى الكون العريض والذى كان يقتبسه من نور النور .

إنه فى رحلة دائمة مذ فتح عينيه على نور الوجود ، وإنه ولما يتجاوز العاشرة قد عاش فى أرض هوازن وضرب فى الشمال إلى يثرب ، وهو الآن فى طريقه إلى اليمن مع قافلة قريش فى رحلة الشتاء ، إن نفسه متعطشة إلى أن تهيم فى العالم لتروى ظمأها إلى المعرفة ، لتزيد كنوزها عواطفها غنى ، إنه فى سعى مستمر ليتجاوز حاضره بل ليتجاوز ذلك العالم المحدود ليسمو إلى ما فوق الواقع ، إلى ما وراء الطبيعة ، إلى روح الروح .

إنه يعيش فى داخل نفسه.يتأمل ويبحث ويفكر ويطيل التفكير وينفذ إلى صميم العالم الخارجى فيحقق بين ذاته وبين الكون ضربا من الألفة والتوافق ، بل ومن الحب العميق ، ويرنو دائما إلى السماء يستمد منها العون والتأييد فكان بأبعاده الثلاثة ؛ داخل ذاته وخارج ذاته وفوق ذاته يحقق أهدافا سامية خيرة تتهلل لها نفسه بالفرح ، وكثيرا ما كان يحس أن البعد العلوى قد تلاشى ، وأن حكمة السماء تسرى فيه مسرى الدم

تلقى أضواء على أسرار النفوس وأحاجى الوجود .

وتأهبت القافلة لاستئناف رحلتها فابتهجت نفس محمد ، فهو يحب السير فى ذلك المعبد الواسع العريض معبد الكون الذى ينبض فيه قلب الوجود ، إنه فى حالة نهم مستمر للمعرفة ، وتعطش دائب إلى الغيث الروحى الذى ينزل عليه من السماء ، ورغبة عارمة فى الاتحاد مع القوة العليا التى بات يحسها فى داخل ذاته وفى الكون الذى يسرى فيه وفوق كل أرض وسماء ، ولو كان الجسد يحتمل رغبات الروح لظل على ظهر بعيره يهيم يرشف رحيق الكمال غذاء الروح .

وانطلقت القافلة نحو الجنوب ، وارتفع صوت الحادى بالحداء فأغذت الإبل السير ، وأطلق الرجال لأخيلتهم العنان يفكرون فيما سيكسبون من أموال وما سيشترون للأهل من هدايا ، بينا ظل محمد خاشعا يحس أنه فى محراب يؤدى صلاة ، وقد صارت غاية وجوده أن يفنى فى الحقيقة المتعالية ، فى القوة التى وهبت ذلك الكون العريض الحياة ، فقد فطن إلى أنه لم يخلق نفسه ، وأن هناك خالقا لهذه الإبل التى تطوى الأرض ، وهؤلاء الرجال الذين ينطلقون وفى صدورهم آمال ، ولهذه الشمس المبصرة التى تبعث الدفء والحرارة والضياء ، وذلك القمر والكواكب والنجوم التى تهدى الضاربين فى الليل ، وهو الذى أنزل من السماء ماء منه شراب ومنه شجر ينبت به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، فوطد النفس على أن يغالب كل ما يقف فى سبيل الفناء فى روح الوجود ، وأن ينتصر على كل العقبات التى تعترض تحقيق هذه الغاية السامية .

أحس ولما يتجاوز سن الصبا أنه يريد أن يهيم بروحه فى الوجود وأن

ينطلق من سجن الجسد ، فاهتدى إلى أن الشبع يهيض جناح الروح ففرض على نفسه ألا يشبع من طعام أبدا حتى تظل روحه طليقة ترفرف فى السموات العلى ترشف الحكمة ويتجلى عليها نور النور .

وفطن ببصيرته النافذة أن معتقدات قومه وأسلوب تفكيرهم تعرقل انطلاق فكره وأنها عقبات فى سبيل تحرر إرادته ، فأشاح بوجهه عنها وأعرض عن أساطير وقرت فى ضمير العرب ، وأصم أذنيه عن أن يصغى إلى ما يدور فى حلقات السمار من مجون ، فاستطاع أن يجتاز الهوة السحيقة التى تفصل بين فطرته السليمة وبين أهله الذين غرقوا فى بحور الجهل حتى الآذان .

إنه أحس فى صميم ذاته وفى أعماق أعماقه وفى باطن وجدانه بتلك القوة الخالقة المبدعة وبالنور الذى تغمر به قلبه ، وبتلك الصلة التى باتت تربط بينه وبين روح الأرواح ، بيد أن ذلك الإحساس الغامض لم يتكشف بعد فى وضوح لعين عقله ، إنه إحساس عميق بالحقيقة الخالدة ، وسيتطور ذلك الإحساس على مر الأيام إلى نور وهدى ورحمة للعالمين .

وبلغت القافلة واديا ضيقا بين جبلين وإذا بفحل من الإبل يمنع من يجتازه ، فوقف رجال القافلة لا يتقدمون . وإذا بمحمد الفتى الحالم الذى كان يعيش طوال الرحلة فى ذاته فى صحبة نفسه يتأمل الكون والحياة ينزل عن ظهر بعيره ويتقدم فى خطى ثابتة نحو ذلك الفحل ، وقد لاح الهلع فى وجه عمه الزبير وكتمت أنفاس الناس .

لم يكن أحد من رجال القافلة يدور بخلده أن الفتى الذى يعيش فى قوقعة نفسه يقدم على مثل هذه المخاطرة التى يقدم عليها الساعة ، فقد

عرف فيهم بدماثة خلقه وعدم حبه للصخب وميله إلى العزلة وطول التأمل والتفكير ، أما أن يمشي إلى الخطر فى مثل هذه الشجاعة فذلك شيء جديد لم يكشف الفتى عنه من قبل .

كان الفحل هائجا مائجا فراح محمد يتقدم منه فى حرص وأناة ، والفحل يلف ويدور ويهدر فى غضب فتتجاوب الجبال هديره فتسرى الرهبة فى قلوب الناس ، إلا قلب ذلك الفتى الذى نزلت عليه سكينة وراح ينظر إلى الفحل بعينين فيهما حب وعطف وحنان .

وظل الفحل يقبل ويدبر ويعدو ويروح ومحمد فى أثره ، حتى إذا دنا منه ارتفعت صيحات خوف من القافلة ، ولكن محمدا أصم أذنيه عنها ومد يده وراح يمسح بها بطن الفحل الهائج ، فإذا به يطمئن إلى اليد الحانية فتسكن سورته وتهدأ حركته ويطأطىء رأسه معلنا أنه قد أسلس للفتى قياده ، فاستمر محمد فى الربت على الفحل فى رفق فأحس الفحل بالعطف السابغ الذى غمره الفتى بعه فبرك وحك الأرض بكلكله .

وتقدم محمد وركب البعير وقد ملأ الدهش قلوب كل من فى القافلة ، وراح عمه الزبير يحييه فى فرح وابتهاج وقد نسى وقاره وأنه سيد الناس ، ونهض الجمل بحمله الغالى وسار حتى جاوز الوادى ، وقد كان محمد فى تلك اللحظة فارسا أشبه بجده إسماعيل صادق الوعد الأمين يوم أن روض فى فيافى تهامة الخيل لأول مرة .

جمع محمد صفات إبراهيم الخليل وصفات إسماعيل ، وكان كأبيه الخليل يحب العزلة والتأمل والنظر فى الكون ، وورث عن إسماعيل الفروسية وحب الخيل والصبر والامتثال لمشيئة السماء ، بل جمع كل ما عرفت الأرض من جليل الخصال .

ونزل محمد عن الفحل ثم خلى عنه ، وتقدمت القافلة فى الوادى فى أمن وسلام ، وكأن ذلك الذى حدث فى الوادى كشف الغطاء عما سيقوم به فى مستقبل الأيام ، إنه يواجه المخاطر وحده ويزيل العوائق والعقبات ويتحمل كل الآلام فى سبيل أن تنطلق قافلة البشرية فى أمن وسلام .

— ١٢ —

كان عبد الله بن جُدعان سيد بنى تيم نديم عبد المطلب ، وكان يمضى النهار فى ظل الكعبة يحاور شيخ بنى هاشم وزعيم قريش ، وكان يزور نديمه فى البيت الكبير . وكثيرا ما كان عبد المطلب يذهب فى الليل إلى دار ابن جدعان يسمر مع السمار بعد أن حرم عبد الله على نفسه الخمر ، فقد كان يسمى بحاسى الذهب لأنه كان يشرب فى إناء من الذهب ، وذات ليلة سكر فصار يمد يديه ويقبض على ضوء القمر ليأخذه فضحك منه جلساؤه ، فأخبر بذلك حين صحا فحلف ألا يشربها أبدا .

ومات عبد المطلب فظلت الصلة وثيقة بين أبناء عبد المطلب وعبد الله ابن جدعان وقومه من بنى تيم ، فكان يختلف إلى دار ابن جدعان أبو طالب والزبير وحمزة والعباس ، وكان أبو طالب يحب ابن أخيه محمدا حبا شديدا فكان يصحبه أحيانا حينما يذهب إلى دار ابن جدعان ، ولما كان أبو قحافة والد عتيق (أبو بكر) ابن عم عبد الله بن جدعان فقد كان يمضى أغلب أوقاته فى دار ابن جدعان ، وكان أبو بكر يحب أن يصغى إلى أحاديث سادات قريش التى تدور فى دار ابن عم أبيه فكان

يذهب إليها كلما عرف أن هناك اجتماعا . وكانت نفسه تتفتح لأحاديث أنساب قريش وقضاء قضاة مكة فى الديات ، وقد أتيحت له الفرصة فى دار ابن جدعان أن يصغى إلى حكام قريش . أبى طالب بن عبد المطلب والعاص بن وائل والقلمس الكنانى ومالك بن جبير .

والتقى محمد بأبى بكر فى دار ابن جدعان وألقيا أسماعهما إلى أحاديث أشراف قريش وسادات دار الندوة ، فأبو طالب زعيم الهاشميين وصاحب السقاية والرفادة كان يروى قصائد من شعره ، وحرب بن أمية صاحب لواء قريش كان يقص أنباء الحروب التى خاضتها قريش والحروب التى سمع بها أثناء خروجه فى القوافل ، تلك الحروب التى كانت دائرة بين الشرق والغرب بين الفرس والروم ، والعاص بن وائل يروى الأحكام التى قضى بها فى القضايا التى ارتضى المتخاصمان أن يكون فيها حكما ، والقلمس الكنانى يروى أحكامه فيتذكر محمد وأبو بكر موقفه عند جمرة العقبة فى موسم الحج وهو يقول : « اللهم إنى ناسىء الشهور وواضعُها مواضعِهَا ولا أعاب ولا أجاب ، اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر » . فقد كان أحد حكام العرب وناسئا من نسأة الشهور ، يحل شهرا من الأشهر الحرم عاما ويحرمه عاما .

وكان محمد وأبو بكر من قريش ويجتمع نسبهما عند مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ؛ قريش العظيم . وكانا كثيرا ما يجتمعان فى دار ابن جدعان أو فى دار من دور شيوخ بنى هاشم أو فى الحرم أو فى المواسم ، فتوطدت بين الغلامين صداقة متينة . وقد كان محمد يصغى إلى كل ما يقال فى مجتمعه وينظر إلى كل ما تقع عليه عيناه بذهن صاف وفؤاد مفتوح ، يرى ما فى أفعال قومه من متناقضات وما يفعله سفهاء

الناس من سيئات فيفكر فيما ينبغى أن يكون عليه الإنسان الفاضل ، فيؤمن بوجوب سيطرة العقل على المادة وضرورة انتصار الروح على الجسد ، بينا كان أبو بكر يلقى سمعه إلى شيوخ قريش وهو مفتون بحديث البطولة والأبطال ، يحفظ ما يسمع من أشعار ويختزن فى أوعيته أنساب القبائل والبطون .

وكان اعجاب ابى بكر بالأبطال هو الدافع له بالإعجاب بمحمد ، ذلك الفتى المستقيم الذى لا يسجد لأصنام قومه والذى يمقت الكذب ويكره السيئات ويثور على الظلم ويجاهد ذاته جهاداً شاقا ليتحلى بمكارم الأخلاق ، فاتخذه قدوة ومعلما وصديقا .

واهتم محمد بالعبادات التى يمارسها قومه فرأى أن بعض قبائل لخم وخزاعة وقريش قد عبدوا « الشعرى » ، وعلم أن أول من سن ذلك لهم هو أبو كبشة بن غالب بن عامر بن الحرث بن غبشان الخزاعى جد وهب ابن عبد مناف أبو أمه آمنة . وسمع فى الكعبة ولا ريب ذلك الحوار الذى كان يدور بين الصابئة أصحاب الروحانيات القائلين بأن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن سمات الحدثان ، وأنهم عاجزون عن الوصول إلى جلاله وإنما يتقربون إليه بالمتوسطات المقربين لديه الذين يستمدون القوة من « الحضرة القدسية » ويفيضون الفيض على « الموجودات السفلية » ، فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها وهى هياكلها ، فلكل روحانى هيكل ولكل هيكل فلك ونسبة الروحانى إلى ذلك الهيكل الذى اختصر به نسبة الروح إلى الجسد ، فهو ربه ومدبره ومديره . وبين الأحناف الذين لم يكونوا جماعة معينة لها دين خاص بل كانوا أناسا من العرب نبذوا الشرك و لم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية و لم

يعبدوا ما كان يعبد قومهم ، بل راح كل منهم يبحث عن دين إبراهيم الخليل ويعبد الله على قدر ما يصل إليه من العلم .

وألقى سمعه ولا ريب إلى المناظرات التى كانت تقوم بين الصابئين وبين الحنفاء ، فالصابئون كانوا يقولون ان الأنبياء أمثالنا فى النوع وأشكالنا فى الصورة ، يشاركوننا فى المادة ، يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ، ويشبهوننا فى الصورة ، أناس وبشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم وبأية مزية لهم لزمت متابعتهم ، بينا الحنفاء كانوا يقولون : بم عرفتم — معاشر الصابئة — وجود هذه الروحانيات التى أبدعت إبداعا ، لا من شيء ، لا مادة ولا هيولى ، وهى كلها جوهر واحد ، من سنخ (أصل) واحد ، وجواهرها أنوار محضة لا ظلام فيها ، وهى من شدة ضيائها لا يدركها الحس ولا ينالها البصر ، ومن غاية لطافتها يحار فيها العقل ولا يجول فيها الخيال ، والحس ما دلكم عليه ، والدليل ما أرشدكم إليه ؟. أجابت الصابئة بأن قالت : عرفنا وجودها وتعرفنا أحوالها من عازيمون وهرمس ، شيث وإدريس عليهما السلام . قالت الحنفاء : لقد ناقضتم وضع مذهبكم ، فإن غرضكم فى ترجيح الروحانى على الجسمانى فى « المتوسط البشرى » فصار نفيكم إثباتا وعاد إنكاركم إقراراً .

ورأى محمد وأبو بكر المنافرات التى كانت تثور بين سادات القوم بين الحين والحين ، وكيف كان الرجل يقول لصاحبه : أنا أشرف منك حسبا وأثبت منك نسبا وإن شئت نافرتك ، فيقول الآخر : أنافرك وإنى لبر وإنك لفاجر ، وإنى لواف وإنك لغادر . وقد سمع محمد وأبو بكر بعض ما قيل من فخر تلك المنافرات وما قضى به القاضى الذى تراضى

به الطرفان ، فكان محمد يضيق صدره بذلك التنابذ بالألقاب بينا أبو بكر يهتم بحفظ الأنساب وقضاء القضاة .

وكان محمد يروض نفسه على أن يزداد كل يوم قربا من القوة الإلٰهية وأن يعلو على وجوده البشرى وأن يتناسق مع الكون ، ليهتدى إلى السبيل الذى يقوده ليطبع العالم بطابعه الذى يستمد أدبه من فوق السموات العلى بينا كان أبو بكر يروض نفسه على السمت (الاعتدال والوقار) والكرم ومحاكاة محمد والإعجاب به .

وكان محمد يحب أن يرتمى فى أحضان الكون فقد كان يرى فى الطبيعة غايته ، فهى ترشده إلى الحقيقة التى تسمو فوقها وتسرى فيها كالروح فى أجساد البشر . إنه كلما تأمل فى الوجود أحس بأن وجوده هو شىء أكثر من مجرد حياته ، فالموت ليس نهاية كل شىء بل هو بداية الاندماج فى حقيقة عالية على الإنسان وعلى الكون وعلى الحياة نفسها .

إنه كلما قلب وجهه فى السماء استشعر أن روحه صارت مجنحة وأنها تعلو ما فوق الطبيعة ، وأنها تتطلع إلى الاتصال بخالق السماء والأرض الذى نفخ من روحه فى كل شىء . وأن قلبه يمتلىء بهجة وأن روحه لتتهلل بالفرح كلما أحس أن روحه تعرج فى سموها لتذوب فى روح الروح ، وأن فؤاده بدأ يشرق بنور من نور النور .

لابد من الصراع لحظة لحظة ومجاهدة النفس يوما بعد يوم للوصول إلى الكائن المثالى بكماله وسموه ، وإن محمداً ليصارع نزواته ودوافعه فى كل لحظة ، ويجاهد ذاته فى سبيل الكشف عن الحقيقة . وكان يثبت قلبه شعوره بأن هناك قوة عليا تأخذ بيده وتعينه على جهاده وتحسن تأديبه ، ليكون الإنسان الكامل الذى ينقل إرادة السماء إلى أهل الأرض .

إنه منذ ولد وضع فى الطريق الذى ينتهى به إلى الله ، كتب عليه اليتم لينصهر فى بوتقة الألم ، فالألم وحده هو الذى أتاح له فرصة معاناة تجربة الوحدة والانطواء على ذاته ليكتشف جوهر نفسه . وكتب عليه أن يطوف فى الأرض ؛ أن يرضع فى بنى سعد بهوازن ، وأن ينطلق إلى يثرب ليزور قبر أبيه ، وأن يذهب مع عمه الزبير إلى اليمن ليلقى بنفسه فى أحضان الكون ليتناسق مع الوجود ، وليفكر فيما وراء الطبيعة ، ويستشعر ذات الذوات فى نفسه . وكتب عليه أن يشب فقيراً ليموج وجدانه بشعور الفقراء . إنه يسير فى طريقه وطريق الرسالة ليس طريقا محفوفا بالورود ولكنه طريق وعر شائك ملىء بالعوائق والصعوبات ، ولن تثنيه المخاطر عن أن يسمو وأن ينتشل الإنسانية جمعاء من الضلالة لتسمو معه إلى الرفعة وسلام الروح والخلود .

وكان أبو بكر يجاهد أن يثرى نفسه بالأخلاق الحميدة ، فكان يصون عرضه ويحفظ مروءته ويتقى كل ما يورده موارد الشبهات . وكان يعمل على تنمية ملكاته الروحية فكان يرعى حق غيره ويحسن ولا يسىء ويعتصم بالصدق ليحفظ كرامة الشرف الذى ينتمى إليه ، فقد كان معتزاً بقرشيته وإن كانت قبيلته بنى تيم ليست فى قوة بنى هاشم أو بنى أمية أو بنى المغيرة أو فى وفرة عددها .

كان أليفا ودوداً حسن المعاشرة سريع التأثر إلى الرحمة والرفق ، فطنا ذكيا . وكان على الرغم من حداثة سنه يحفظ كل ما يرويه أشراف قومه فى مجالسهم وينفعل بأخبار البطولة والأبطال .

كان أبيض تخالطه صفرة ، وسيما غزير شعر الرأس خفيف العارضين ناتىء الجبهة غائر العينين ، نحيفا دقيق الساقين ممحوص الفخذين خفيف

اللحم فى سائر جسمه . وعلى الرغم من ضآلته كان شجاعا يبدى رأيه دون وجل ولا خوف ، فهو يحس فى قلبه جيشان الروح والضمير . وراح يروض نفسه على ألا يقابل الأمور بفتور المستخف فهو حى الفؤاد مطبوع على الحماسة لما يؤمن به والإعجاب بمن يستحق عنده الإعجاب .

كان يرتمى فى أحضان مجتمعه أكثر مما يرتمى فى أحضان الطبيعة ، فهو لا يطمع إلا فى مكارم الأخلاق التى يتحلى بها أشراف قومه ، فلم تتجاوز أحلامه العالم الذى يعيش فيه ؛ فما خطر له على قلب أن تحلق روحه لترتفع إلى ما فوق السموات وتتصل بالقوة المتعالية التى تسير مع الوجود ، ولم يفكر يوما فى أن تذوب روحه فى روح الكون أو أن يبحث عن حقيقة الحقيقة .

وكان المجتمع المكى يخفق بآمال صبيان وفتيان يأملون أن يصلوا إلى مراكز الصدارة ذات يوم وإن كان الرجال فى غفلة عنهم ، فالحكم بن هشام (أبو جهل) يحلم بأن يكون سيداً من سادات دار الندوة فى شبابه ، وإن كان على يقين أنه من المحظور أن يكون بين رجال دار الندوة من لم يبلغ الأربعين .

كان أبو جهل عالى الهمة واسع الأطماع قد وضع نصب عينيه أن يكون سيد قومه ، صاحب الكلمة المسموعة فى مكة مثل كعب بن لؤى أو قصى أو هاشم بن عبد مناف أو عبد المطلب بن هاشم ، وقد التصق منذ طفولته بالرجال الكبار الذين يسيرون أمور المجتمع المكى من دار الندوة يلتقط منهم الحكمة ويكتسب من تجاربهم حنكة .

وكان حمزة بن عبد المطلب مغرما بالطعن والنزال ، فكان رمى

السهام هوايته والقتال لعبته والشجاعة صفته . وكانت غاية أمانيه أن يخرج ولما يشب عن الطوق للصيد أو للغارة على قافلة من القوافل ، وكان يرهف سمعه للقصص الذى يروى عن بطولات الرجال ، وما كان يتأفف من مجالس الشراب تأفف محمد أو أبى بكر ، فهو يرى أن احتساء الخمر صفة الفحول على عكس أبى بكر الذى وقر فى ضميره أن من شرب الخمر كان مُضَيِّعا فى عقله ومروءته .

وكان العباس قد بلغ الرابعة عشرة وكان يتطلع إلى أن يئول إليه شرف رفادة حجيج بيت الله وسقايتهم ، وقد قوى أمله لما وجد أن أبا طالب نضب ماله وأنه ليس بمستطيع أن يستمر فى الإنفاق على إطعام فقراء الحجاج وحمل الماء إليهم . إن هى إلا رحلة أو رحلتان يشترك فيهما بماله الذى ورثه عن أبيه عبد المطلب حتى يربو ذلك المال ، ثم يقرضه للمحتاجين بالربا فيصبح من أغنياء مكة ويئول إليه شرف الرفادة والسقاية وإن كان من أصغر أبناء عبد المطلب .

وكان صبيان مكة وفتيانها يجتمعون فى المواسم والأعياد والأسواق ويتسابقون إلى موائد أجواد قريش ، وذات ليلة راح مناد ينادى على ظهر الكعبة :

— هلموا إلى جفنة ابن جُدعان .

كان قول أمية بن أبى الصلت قد ذاع فى مكة :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم فرأيت أكرمهم بنى الديان

البرُّ يُلبك بالشِّهاد طعامهم لا ما يعللنا بنو جُدعان

وكان حديث سفر ابن جُدعان إلى فارس وأكله الفالوذج عند كسرى قد انتشر فى دور مكة ، فابن جدعان قد تعجب منه وسأل عن

حقيقته فقيل له هو لباب البر يُلْبك مع العسل ، فابتاع من عند كسرى غلاما يصنعه وقدم به مكة ، وذاع أن ابن جدعان أرسل إلى الشام ألفى بعير تحمل البر والشهد والسمن .

كان صوت المنادى يتردد فى جنبات مكة :

— من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر .

ومس الصوت آذان الذين يعيشون على لحوم الصيد والسويق والألبان مساً رقيقا فاندفعوا إلى حيث وضعت الموائد بالأبطح إلى باب الحرم ، وتزاحم محمد وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) على المأدبة ، فدفع محمد أبا جهل فسقط على ركبته فانهشمت . فألقى أبو جهل على محمد نظرة ملؤها الغيظ والغضب ثم راح يضمد جراحه .

وكان تزاحم محمد وأبو الحكم بن هشام على مأدبة ابن جدعان بداية التزاحم بينهما فى معترك الحياة ، فما كان محمد فى معسكر إلا كان أبو الحكم بن هشام فى المعسكر الآخر . وما قال محمد رأيا إلا سفهه ، وما اعتنق مذهبا إلا كان من أعدائه .

وكان أمية بن أبى الصلت ممن حضر المأدبة ، فقال مادحا ابن جدعان سيد بنى تيم :

لكـــل قبيلـــة رأس وهـــادى ... وأنت الرأسُ تقدم كل هـــادى
لـه داع بمكـــة مُشمَعـــل(١) ... وآخـر فـوق كعـبتها ينـــادى
إلى رُدح(٢) من الشيزى(٣) ملاء ... لبـــاب البر يلـــبك بالشهـــاد

---

(١) اشمعل : أشرف .
(٢) الردحة : سترة تكون فى مؤخر البيت .
(٣) الشيزى : خشب أسود يتخذ منه القصاع .

شردت أسماء بنت مُخَرِّبَة تفكر وقد أرخى الليل سدوله . وجاءت أصوات القيان وهن يرفعن أصواتهن بالغناء من بعيد من دار عبد الله بن جُدعان سيد بنى تيم . إنها تزوجت فى صباها أبا ربيعة حذيفة بن عبد الله . ابن عمر بن مخزوم وقد أنجبت منه عبد الله بن أبى ربيعة ، فشب عبد الله تاجراًموسراً من أكثر أهل مكة مالا ، وقد لقبته قريش « العِدْل » لأن قريشا كانت تكسو الكعبة بأجمعها من أموالها سنة ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا بذلك أنه وحده عدل لهم جميعا .

إن له عبيداً من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وله سلطانا وسطوة وستئول إليه زعامة بنى المغيرة يوما ، وهى ترجو أن يكون سيد مكة فهو أكفأ من أخيه عيَّاش . وسرعان ما تذكرت أبا الحكم بن هشام ، فقد تزوجها هشام بن المغيرة أيضا وأنجبت منه أبا الحكم (أبا جهل) والحارث .

إن أبا الحكم (أبا جهل) فطن ذكى وهو قريب إلى قلبها ، وأقرب بنى المغيرة إلى قلب جدته ريطة بنت سعيد بن سَهْم أم بنى المغيرة ، وقد كان أبوه هشام بن المغيرة جليلا فى مكة حتى إن قريشا أرخت بموته وقد كانت تؤرخ بموت كعب بن لؤى . ثم أرخت بعام الفيل إلى أن مات هشام فأرخت بذلك الحادث الجلل .

إن أبا جهل على الرغم من حداثة سنه له آمال وأطماع ، وإنه كلما انفرد بها لا يحدثها عن العطر الذى يأتيها من اليمن فقد كانت عطَّارة تفوق

عطارتها عطارة أبى طالب زعيم بنى هاشم ، بل كان يحدثها عن شيوخ دار الندوة وعن عزمه على أن يكون سيداً من ساداتها الذين يسيرون أمور المجتمع المكى قبل أن يبلغ الأربعين .

كانت دار الندوة مكان الحكومة المكية وكانت أشبه بمجلس الشيوخ فى روما ، وما كان يسمح لقرشى أن يكون عضواً فيها قبل أن يبلغ الأربعين ، ولكن أبا جهل وطن النفس على ألا تمنعه الحداثة عن السؤدد ، وأن يدخل دار الندوة قبل أن يطر شاربه وتستوى لحيته .

أخذت مكة كثيراً من الروم ومن الفرس عن وعى أو عن غير وعى ، فقد كان تجار القوافل يحتكون بحضارة فارس وحضارة الرومان ، وكانوا يتأثرون بثقافة الدولتين العظيمتين وبعاداتهما وتقاليدهما بل وبدياناتهما ، وقد جلبوا إلى الكعبة كل ما عثروا عليه من تماثيل حتى أن أبوللو إلـٰه الشعر عند الرومان صار إلههم هبل العظيم ووضعوه فى جوف الكعبة ، وعلقوا أروع ما أنتجته قرائح شعرائهم عنده !

ووضع العرب الذين تنصروا تمثالا للعذراء وهى تحمل المسيح فى الكعبة ، ولم يغضب العرب الوثنيون لذلك فالحرية الدينية مكفولة للجميع ، فإن كان الخطّاب قد أغرى بعض الشباب بزيد بن عمرو بن نفيل فما ذلك إلا لأن زيداً قد سفه أحلامهم وزعم أنه وحده الذى كان على دين أبيهم إبراهيم .

وفكرت أسماء بنت مخربة فى الوليد بن المغيرة فهو يتطلع إلى أن يسود بنى المغيرة بل بنى مخزوم كلهم ، وهو كفء لمنافسة عبد الله بن أبى ربيعة وأبى الحكم بن هشام (أبى جهل) ، فماله ممدود ، وهو مسموع الكلمة فى قومه ، وهو قوى الشكيمة له هيبة وسلطان ، وهو فى طريقه

إلى دار الندوة ليكون شيخا من شيوخها . ولم يخطر لها على قلب خالد ابن الوليد فما كان قد بلغ من العمر شهوراً ، وما دار بخلدها أن تخترق حجب الغيب لتفكر فى حفيدها عمر بن أبى ربيعة فقد كان يفصل بينها وبين مولده عشرات السنين .

كانت دائرة تفكيرها تنحصر فى بنى المغيرة ، ولكن قريشا لم تكن بنى مخزوم وحدهم فهناك بنو هاشم وبنو أمية وبنو زهرة وبنو تيم وبنو أسد بن عبد العزى وبنو عبد الدار وكثير من القرشيين . إلا أن المنافسة على زعامة مكة كانت مشتعلة بين بنى هاشم وبنى أمية ، وكانت تطمع فى أن يدخل ولداها عبد الله وأبو جهل مضمار هذه المنافسة ، بل كانت آمالها تمتد إلى أن ترى بعين أمانيها أحدهما على رأس قومه قد قبض فى يديه السقاية والرفادة والسدانة والحجابة واللواء كقصى العظيم . فانداحت دائرة تفكيرها وراحت تزن ابنيها بأبناء بنى هاشم وبنى أمية والنابهين من أبناء القرشيين .

فكرت فى طالب وفى جعفر وفى عقيل أبناء أبى طالب شيخ بنى هاشم الذى ينوء بأعباء الرفادة والسقاية ، فاهتدت إلى أن أموال منافسها فى العطارة تذوب فى إطعام فقراء الحجاج وتوفير الماء لهم ، وأن أبا طالب لن يورثهم إلا الشرف وحده دون المال ، فهو ينحدر فى طريق الفقر ، وما كان لشريف أن يسود قومه إذا لم يكن ذا مال وعبيد .

وطاف بذهنها طاهر بن الزبير بن عبد المطلب ؛ إنه فتى خفيف الظل قد يصبح قطب الرحى فى نادى قومه ، وقد يمسى محط الأنظار إذا ما أسمر ذات ليلة مع السمار ، إلا أنه لن يكون سيداً فى بنى هاشم يتطلع ذات يوم إلى زعامة مكة . وراحت تزن ولديها بالعباس بن عبد المطلب

فرأت أن العباس يحلم بالغنى ، بأن يكون من أثرياء مكة ، فعبد الله بن جُدعان مثله الأعلى ، ولم يطمع عبد الله يوما فى أكثر من أن يكون نديما لعبد المطلب ، وإن العباس ليصلح أن يكون نديما لعبد الله بن ربيعة أو أبى الحكم بن هشام !

وراحت تعقد المقارنات بين ولديها وحمزة بن عبد المطلب ؛ إنه فتى شجاع وكل الدلائل تشير إلى أنه فى طريقه إلى أن يصبح فارس قريش ، فهو يهوى الصيد ويميل إلى القتال ويحب الخيل ويتعجل الأيام ليطوف بأماكن اللهو ، يسنده أعظم حيين فى قريش بنو هاشم وأخواله من بنى زهرة ، فإن أولع بالتجارة وتدفقت عليه الأموال كان منافسا خطيرا لبنى المغيرة جميعا ، بل ولكل فتيان قريش من هاشميين وأمويين ومخزوميين وتيميين .

وراحت تعجم أعواد فتيان بنى هاشم جميعا فوجدت عبد الله بن أبى ربيعة وأبا الحكم بن هشام أصلب منهم عودا ، وأن فرصتهما أكبر من أى من الهاشميين للتربع على ذروة المجد فى مكة ، وما لبثت أن أطلقت لخيالها العنان ليجرى فى أثر فتيان بنى أمية .

كان صخر (أبو سفيان) أعلى فتيان بنى أمية ذكراً فهو ابن حرب بن أمية صاحب لواء قريش ، وهو أمل حرب فى أن يرث مكانته ، بل هو أمل الأمويين جميعا فى أن ينتزع لهم زعامة قريش ، ولكن عينى أسماء وقعت على مثالبه فهو بخيل غاية البخل وإن كان من سلالة غنية ، وهو عاهر يمضى أغلب لياليه فى أحضان صاحبات الرايات الحمر وما كان البخل والعهر ليرفعا من يتصف بهما إلى مكان السؤدد .

وزحف إلى رأس أسماء ما كان يتحدث عنه المجتمع المكى من أن أبا

سفيان والعاص بن وائل والعباس وأبناء أشراف قريش كانوا يدخلون جميعا على النابغة أشهر بغى فى مكة ، وأنها حملت ووضعت ما فى بطنها وأسمته عمراً وألحقته بالعاص بن وائل فقد كان أكرمهم وأكثرهم سخاء ، و لم يبد الاستياء على وجهها فذلك من تقاليد المجتمع المكى وما كانت تجد فيها غضاضة .

وكان العاص بن وائل والأسود بن المطلب وبعض الشباب المكى يحرض إماءه على البغاء فى سبيل الحصول على المال ، و لم تستهجن أسماء ذلك و لم يدخل فى حسابها بل كانت توازن بين ولديها وهؤلاء الفتيان ، فكانت كفة ولديها هى الراجحة على الدوام .

وخطر على بالها عثمان بن عفان ذلك الفتى الذى يغلب عليه حياؤه ؛ إنه سليم الطوية لين الجانب هادىء النفس قد يصبح ذات يوم تاجراً من أكبر تجار قريش . ولكن أين سماحة عثمان من طموح أبى الحكم بن هشام ؟

وقفز ذهنها إلى بنى أسد بن عبد العزى . إن ورقة بن نوفل لم يعقب وأن عثمان بن الحويرث لا عقب له . إنه كان يطمع أن يملك قريشا وقد ذهب إلى قيصر وعاد من القسطنطينية بعد أن كتب قيصر بتوليته من قبله على قريش ، ولكن قريشا أبت أن توليه فخرج عثمان إلى قيصر ولا تدرى أسماء ما قال لقيصر وما قال له قيصر ، كل ما تدريه أن بنى أسد بن عبد العزى ليس فيهم غير المطلب بن الحويرث ، وما هو بكفء لأبى الحكم أو لابن أبى ربيعة .

وارتفع صوت الغناء من دار عبد الله بن جدعان ليعلو على صوت ضميرها فألقت إلى الأصوات العذبة سمعها ، كانت الجرادتان جاريتاه

تشدوان فتنفثان فى ربوع مكة سحراً ، وكانت أصوات الرجال تهتك أستار السكون من النشوة ، ولكنها عادت إلى نفسها ، فما لبثت أن عادت إلى الشرود تنقب عن منافسين لولديها فى بنى تيم .

كانت على علم بالعداوة الناشبة بين بنى تيم وبنى مخزوم ، ففى حلف المطيبين عبيت بنو تيم لبنى مخزوم ، وكانت تعجب فى وجدانها من المنافسة بين الحيين فأين بنو تيم من بنى مخزوم ! ولم يخطر عتيق (أبو بكر) على قلبها بل استمرت فى احصاء فتيان أشراف قريش الذين قد يتطاولون يوما لمنافسة أبى الحكم أو ابن أبى ربيعة على زعامة مكة ، وكانت تفضل ولديها فى كل موازنة . واحتلت صورة محمد بن عبد الله صفحة ذهنها برهة فثارت فى نفسها دهشة وراحت تسأل ذاتها فى استنكار : كيف يخطر لها على بال أن يتيم قريش كفء لمنافسة أبى الحكم بن هشام أو عبد الله بن أبى ربيعة ؟ ومن أين لفقير قريش المال الذى يرفعه إلى الصدارة وإلى السؤدد والسلطان ؟

كان شباب مكة وفتيانها فى أحضان البغايا يحتسون الخمر أو يلعبون الميسر أو يصغون إلى غناء القيان أو يلقون أسماعهم إلى الشعراء الماجنين فى حلقات السمار ، فقد كانوا يحبون اللهو وكان غايتهم من الحياة ؛ بينا كان محمد بن عبد الله وحده يهيم فى الوجود طليقا من كل قيد ينظر بابتهاج متهلل النفس يمتص رحيق الحكمة ، ويجاهد أن يرى بنور النور وأن يتصل بذات الذوات ليحقق تلك الرغبة الجياشة فى ضميره ؛ أن يذوب فى الكون وأن ينال الحرية الكبرى التى ما بعدها حرية .

كان يرعى السماء وكانت السماء ترعاه ، وكان يتحرق شوقا إلى

الحقيقة الأزلية التى كانت قبل الوجود والتى ستكون بعد الوجود ، فإذا به يحس أنها تتجلى عليه وأنها تحفر فى أعماق ذاته إيمانا له حلاوة تطغى على مرارة الألم ووخزات القلق وحيرة الدهشة ، وتضفى على النفس أمنا ورضا وسلاما .

كان يروض نفسه على أن تعرج روحه إلى ما فوق السماء لتنعم بالوصال وتشرق بنور ربها ، وإذا به يستشعر فى صميم ذاته أن روح الأرواح تنزل عليه بالبركات ، وأنه بالعمل والجهاد والصبر وطهارة النفس وسلامة القلب يفتح سبل ذاته للذات العلوية لتسرى فيه مسرى الدم ، فوطد العزم على أن يستمر فى رياضة النفس للقضاء على ذلك البعد الذى يفصل بينه وبين تلك القوة المتعالية التى بات يحس أنها أقرب إليه من حبل الوريد ، حتى يرى بنور الله .

كان شاخصا إلى الأفق البعيد فبدا له أن الكون كله يؤدى صلاة وأنه ساجد فى محراب إلٰه قادر عظيم ، رب السموات ورب الأرض ، رب العالمين . فامتلأ فؤاده بالجلال والخشية والسرور بذلك الإشراق الذى بدا فى القلب وأخذ ينداح ليغمر كل الوجود ، فإذا به يخر ساجدا ودموعه تتساقط على الأرض .

مر محمد بن عبد الله ببال أسماء بنت مخربة وهى تزن ولديها ابن أبى ربيعة وابن هشام بن المغيرة بشباب مكة وفتيانها ، ولم يقف ذهنها طويلا عند محمد فما كانت بقادرة على أن تتصور أن فقيرا فى قريش أو يتيما يكفله جده ثم أعمامه من بعده يمكن أن يصل إلى زعامة قومه . ولو اخترقت بصيرتها أسجاف المستقبل أو لو كانت تملك مفتاحا من مفاتيح الغيب لرأت أن الحجر الذى رفضه البناءون سيصير حجر الزاوية .

تأهبت قريش لرحلة الصيف ، وغص بيت أبى طالب بالرجال والنساء الذين سيشتركون ببضاعتهم فى القافلة دون أن يسافروا معها ليسلموا أبا طالب وأمناء الرحلة سلعهم ويتسلموا صكوكا تثبت نوع البضاعة ووزنها ، فأبو طالب هو الذى سيخرج إلى الشام على رأس القافلة .

وماج الناس بعضهم فى بعض ، واستمرت الدواب والرواحل فى غدو ورواح ، وأدبر النهار وجن الليل والحركة دائبة لا تنقطع ، وقد أنيرت المسالك بالمشاعل وأوقدت النيران على رءوس الجبال فتبدل ليل مكة نهارا ، فرحلة الشتاء والصيف موسمان من أجل مواسم قريش .

وراح أبو طالب يتأهب للرحلة ويتزود من أبنائه وأهل بيته بالحديث الشجى والنظرات الحانية ويغمرهم بحنانه الدافق ، وكانت نظراته تتوقف لحظات على وجه محمد ابن أخيه عبد الله فقد صب به صبابة وأحبه حبا يفوق حبه لبنيه فبات لا يطيق فراقه .

صار يحس خواء فى حياته كلما ابتعد عن ابن عبد الله فقد شعر أن الحياة أقفرت من مباهجها طوال الأيام الطويلة التى غابها عنه محمد لما سافر إلى اليمن مع عمه الزبير فراح يتعجل الزمن ليعود إليه محمد الحبيب ويرد الروح إلى دنياه التى ران عليها كآبة وظلام وخمول . ترى أتنسيه مشقة الرحلة وتشغله مسئولياته عن ابن أخيه الذى تغلغل حبه فى سويداء فؤاده ؟

كان أبو طالب يبيع فى دكانه العطر لنساء مكة والطيب للمتطيبين والبخور للمعابد والكهان ، وكان ما يكسبه يكفيه ويكفى أهل بيته ، ولكن رفادة حجيج بيت الله وسقايتهم تحتاج إلى أموال . فالرفادة والسقاية شرف يهون فى سبيله كل إنفاق ، فعزم على أن يخرج إلى الشام يتجر ليجود بما يعود به من مكاسب على الحجاج .

وكان العباس يرنو إلى ذلك الشرف فهو يحلم بميراث السقاية وإطعام الناس ، وهو يقنع نفسه بأن السقاية والرفادة لو آلت إليه فسيرفع عن كاهل أخيه أبى طالب عبئا ينوء بحمله ، فأبو طالب كثير العيال وأمواله تكاد تكفى عياله وعبيده ليس بها فضل ينفقه على الفقراء الذين تهوى أفئدتهم إلى البيت الحرام ، فراح العباس يبذل كل جهد ليصبح من أثرياء قريش ، ليصير أهلا لذلك الشرف .

إنه اشترك بما عنده من مال فى القافلة التى انطلقت إلى اليمن واشترى له أخوه الزبير العطر والطيب . وإنه سيبعث مع أخيه أبى طالب بما جلب من بضائع ليبيعها فى أسواق بصرى لرهبان النصارى وخدمة الكنائس ، فالبخور سلعة رائجة يقبل عليها المسيحيون . وهو يرجو أن يربو ماله وبعدها يقرضه للمحتاجين بالربا فيصبح من الموسرين القادرين على الإنفاق ، دون أن يخشى الفقر أو أن يقل ماله .

وآن أوان السفر فخرجت القبائل من أحيائها : بنو هاشم من دورهم وعلى رأسهم أبو طالب وقد التصق به محمد الحبيب ومن حوله الزبير والعباس وحمزة وأبو لهب وشيوخ بنى هاشم وشبابهم ، وبنو أمية من دورهم وعلى رأسهم حرب بن أمية وفى رفقته عثمان بن عفان وصخر (أبو سفيان) وشيوخ بنى أمية وشبابهم ، وبنو المغيرة يتقدمهم الوليد

ابن المغيرة ومن حوله الحكم بن هشام وعبد الله بن أبى ربيعة وشيوخ بنى مخزوم وشبابهم ، وبنو تيم وزعيمهم عبد الله بن جدعان ومن حوله أبو قحافة وابنه عتيق (أبو بكر) وسادات بنى تيم ، وامتلأت شعاب مكة بالقرشيين الذين كانوا يتدفقون كالسيل من كل حدب وصوب إلى حيث أناخت القافلة بالقرب من دار الندوة على بعد خطوات من الكعبة .

وركب المسافرون رواحلهم ، وركب أبو بكر مع أبيه أبى قحافة ليتدرب على التجارة فهى وسيلة العيش الكريم للمكيين الذين كانوا يعيشون فى واد غير ذى زرع عند البيت المقدس ، وراح أبو بكر إلى حيث وقف صديقه محمد ليودعه ، فمحمد سيمكث مع أبناء عمه ولن يخرج فى هذه الرحلة .

كان أبو بكر فى العاشرة ، وكان محمد قد بلغ الثانية عشرة وقد وقف بالقرب من ناقة عمه جليلا مهيبا يبدو فى عينى أبى بكر أكبر من سنه ، وكان من فرط إعجابه به لا يكاد يرى غيره وإن كان المكان زاخرا بالشيوخ والرجال والصبيان والعجائز والشابات والغانيات والعبيد من الروم والفرس وبالوثنيين وباليهود والنصارى والحنفاء والمجوس .

ودع بنو هشام أبا طالب زعيم القافلة ، وتقدم أبو طالب وركب راحلته وما كادت تنهض حتى تقدم محمد منها وأمسك بزمام الناقة وقال فى صوت متهدج مبلل بالدموع :

— يا عم ، إلى من تكلنى لا أب لى ولا أم ؟

وأحس أبو طالب فى مثل لمح البصر أن عبراته تكاد أن تطفر من مآقيه ، وأن رقة قد اجتاحته ، فالتفت إلى بنى هاشم وقال :

— والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا .

وأردفه خلفه ، فلما رأى أبو بكر ذلك أشرق وجهه بابتسامة وتهلل قلبه بالفرح .

وسارت القافلة فى معبد الكون فراح ربيب الفكر يتأمل الطبيعة ، وحليف الأخلاق يرصد سلوك الناس ، ينأى عن الشرور والآثام ويسارع للخيرات ويبذل الجهد فى إخلاص ليعاون على تكوين قيم جديدة إنسانية سامية ترفع قومه من حمأة الرذيلة إلى طهارة الفضيلة ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور .

كان يمد عينيه إلى الكون ببصره وبصيرته وعقله ووجدانه فيمتلئ بروعة الطبيعة ، ويسمو به ذلك الإعجاب فوق الأهواء والنزوات ورغبات الجسد ليستغرق فى الحقيقة الكلية التى ترفعه من الأرض للسماء .

إنه وفى للطبيعة لأنها صنيعة اليد الإلٰهية ، آية من آيات قدرتها ، فإعجابه بها هو أجنحة روحه التى ترفرف به لتقربه إلى ربه ، وكل ما فيها من عظمة وجلال إن هو إلا إشعاعات إلٰهية آتية من فوق السموات . وأن ذلك الإعجاب ليسمو بذاته نحو آفاق عليا هى الجو الروحى الأوحد الذى تستطيع روحه أن تتنفس فيه .

كان يحس أنه لا يتلقى الحب والرعاية من الطبيعة بل من فوق الطبيعة ومن ورائها . إنه مأخوذ بسحر الطبيعة وجمالها ، ولكن الحنان الذى يغمره والعطف الذى يسبغ عليه كان يأتيه من فوق السموات من روح الوجود وروح الأرواح .

إنه ليس ذرة تافهة حقيرة قد ضلت سواء السبيل فى وسط خضم هائل جبار ، إنه ليس حليف القلق والجزع والهم وعدم الاطمئنان ، إنه

ليس فى صراع مستمر مع الطبيعة ، بل إنه يحس بفضل نور الله أنه عالم أصغر فيه كل ما فى العالم الأكبر من روعة وجلال ، وأنه حليف الرضا والسعادة والاستقرار والأمن والسلام ما دام مع تلك القوة المتعالية التى ترعاه ، وإنه ليعمل على زيادة حظه من التوافق مع الطبيعة ليعمر كل السبل التى تقوده إلى الله ، وإنه ليطمع أن يكون كاتم أسرار القدرة الإلٰهية ، بل الوسيط الذى يحمل أوامر السماء إلى الناس لإسعاد البشرية جمعاء .

إنه يلقى سمعه لرسالة الطبيعة ويصغى إلى صوتها الهادئ الذى يتردد فى أغوار نفسه ويتعمق فى وجدانه ، ليفتح أمام روحه أبواب السموات لتنعم بالوصال وتتذوق المتع الدائمة وتستمتع بغاية المسرات بل بغاية الغايات .

كان جمال الطبيعة وروعتها وجلالها يغذى ذلك الحب الكبير الذى شب بينه وبين الله ، ويعمق فيه روح الإيمان ويقوده إلى الحقيقة المطلقة اللامتناهية التى لا حقيقة بعدها ، وإنه ليبذل نفسه فى سبيل أن تشرق عليه الحقيقة الغامضة بنورها فيتبدد كل ظلام فى نفوس الناس .

أصبح يحس أنه ليس وحده وأنه مع تلك الحقيقة المطلقة ، بل صار يستشعر أنها تسرى فى عروقه وشرايينه وفى ضميره وفى وجدانه ، وأنها فى صميم ذاته ومن أمامه ومن خلفه وعن يمينه وشماله وحيثما أرسل البصر أو شرد الخيال ، وأنها تحدب عليه وترعاه وتؤيده وتأخذ بيده لتصل به إلى ما تريد .

حبب الله إليه الإيمان وزينه فى قلبه ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، وكتب عليه اليتم ليعتمد على نفسه ويعيش فى قوقعة ذاته

ليسبر غور ضمير ويزيد فى خصب حياته الباطنية وليتلقى العلم النافع من الله وحده ، وكتب عليه السياحة فى الأرض ليرتمى فى أحضان الطبيعة ويعجب بها وليقوده ذلك الإعجاب إلى أعتاب الأسرار العلوية ، وليخفق قلبه بحب كبير للوجود وروح الوجود ، ليتمكن بذلك الحب من فتح مغاليق ألغاز الحياة وما بعد الحياة .

وانطلقت القافلة تصغى إلى الحادى مرة وتشرد عنه مرات ، وكانت الأفكار تجرى وراء رغبات الجسد والشهوات ، وإذا ما تحركت العواطف النبيلة كانت تهفو إلى الأهل والأوطان . ولم تحاول روح واحدة أن تهيم فى الوجود أو تشارك فى الكون أو تندمج فى العالم ، بينا كان محمد فى كفاح مستمر لذاته يروضها على السمو والتعالى والاندماج فى الطبيعة والتحليق إلى ما وراء الطبيعة ليتجلى له ذات يوم رب السموات والأرض ورب العالمين .

وعند دير فى الصحراء نزلت القافلة ، وخرج صاحب الدير يتفرس فى الوجوه ويصغى إلى أحاديث الناس ، إنه يرى فيما عنده من كتب وعلم أن نبيا عربيا يوشك أن يبعث وإنه ليرجو أن يقوده حسن طالعه إلى ذلك النبى أو تشنف أذنيه أنباء ظهوره .

ووقعت عينا صاحب الدير على محمد فأطال النظر إليه وقد لاح فى وجهه دهش ، فهو يرى فيه صفات ذلك الذى بشرت به الأنبياء ، وإن شيئا غامضا فى أغوار ذاته يؤكد له أن ذلك الفتى هو النبى الأمى الذى سيبعثه الله فى الأميين لا فى بنى إسرائيل ، فدنا الرجل من محمد وراح يجاذبه الحديث فإذا بالفتى يؤكد له أنه لم يسجد لصنم ولم يحلف بأصنام قومه قط ، وجاء أبو طالب وراح يغمر ابن أخيه بحنانه فالتفت صاحب

الدير إلى أبى طالب وقال :

— ما هذا الغلام منك ؟

— ابنى .

— ما هو بابنك وما ينبغى أن يكون له أب حى .

وصمت الرجل قليلا وهو يرنو إلى عينى محمد الحمراوين ، ثم قال فى صوت كأنما كان آتيا من وراء السماء :

— هذا نبى .

ولاحت الحيرة فى وجه أبى طالب ، وراح يقلب عينيه بين ابن أخيه وصاحب الدير ثم قال :

— وما النبى ؟

— الذى يأتى إليه الخبر من السماء فينبئ أهل الأرض .

ولم يستطع أبو طالب أن يتصور أن إنسانا يستطيع أن يسمو بإنسانيته ليأتى إليه الخبر من السماء فينبئ أهل الأرض ، فقال فى إنكار :

— الله أجل مما تقول .

كان أبو طالب من قوم لم يبعث الله إليهم من قبل رسلا ولا أنبياء فكان عسيرا عليه أن يقر حقيقة قدرة البشر على الاتصال بالله ، ولم يكن قد سمع بعد باصطفاء الله من يشاء من الملائكة والناس ليكونوا رسله إلى الإنسانية يحملون أوامره ونواهيه لصلاح عباده ، فأعرض عن نبوءة صاحب الدير ، ولو كان صدقه فى بشارته لحق عليه أن يتبعه فى دينه وأن يهجر دين الآباء .

واستأنفت القافلة رحلتها حتى إذا ما بلغت قرية الكفو وبينها وبين بصرى ستة أميال ، نزل الركب عند شجرة أمام صومعة بحيرا الراهب

وكانت الصومعة مغلقة يرفرف عليها سكون عميق ، ولم ينتظر أحد ممن كان فى القافلة أن يفتح باب الصومعة فلطالما مروا بها وهى غارقة فى الصمت لا نأمة ولا حركة وكأنها قد لفظت أنفاسها فى سجدة !

وراح بحيرا يرصد القافلة من وراء ستار ، إنه ليرى اليوم عجبا ، يرى غمامة تظل فتى من بين القوم ، وقد اختلط عليه الأمر من دهشته حتى لم يعد يدرى أيرى الغمامة ببصره أم ببصيرته ، بعينيه أم بوحى خفى انبعث فى أعمق أعماقه ، إنه يرنو إلى الفتى لا يستطيع أن يرفع عينيه عنه ، وإن صوتا يرن فى صميم ذاته : إنه هو .. إنه هو .

كان بحيرا راهبا متعبدا يقضى كل وقته فى الصلاة وفى قراءة الكتب وقد انتهى إليه علم النصرانية ووعى بشارات السيد المسيح « بالفراقليط » وعرف أنه سيبعث فى العرب ، فكان يجتهد فى العبادة لعله يهتدى إلى زمان ذلك الذى سيمكث دينه مع الناس إلى الأبد ، وقد أنار الله بصيرته فعلم أن أوان ذلك النبى قد آن ، فكانت أقصى أمانيه أن يرى ذلك النبى الذى سيبعثه الله رحمة للعالمين .

إنه كان يحس فى تلك اللحظة ذلك الإحساس الذى نزل بقلوب الحواريين لما أوحى الله إليهم أن آمنو بى وبرسولى ، ألقى فى روعه أن على بعد خطوات منه النبى المنتظر ، فأشرقت جنباته بسرور روحى يفوق كل السرور ، فهو سعيد الحظ ميمون الطالع إذ يلقى خاتم الأنبياء والمرسلين .

إنه شرف لبحيرا وأى شرف لو أتيحت له فرصة التحدث إلى محمد ، فسيخلد اسمه على مر السنين وسيرفع ذكره بعد أن كان مقدرا أن يطمس كآلاف الرهبان الذين انقطعوا فى صوامعهم من قبله ومن بعده .

وأرسل إليهم :

ـــ إنى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم .

وجاءوه وقال رجل منهم :

ـــ يا بحيرا إن لك اليوم لشأنا . ما كنت تصنع هذا بنا وكنا نمر عليك كثيرا فما شأنك اليوم ؟

ـــ صدقت . قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه وراح يتفرس فى وجوه الصبيان ، نظر إلى عتيق (أبى بكر) فقد كان إلى جوار أبيه ، ونظر إلى كل صبى وفتى فلم يجد محمدا بين القوم ، فقد كان فى رحال قومه تحت الشجرة يرنو إلى السماء وتهيم روحه فى الوجود ، فقال :

ـــ لا يتخلف أحد منكم عن طعامى .

ـــ يا بحيرا ما تخلف عن طعامك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنا .

ـــ لا تفعلوا ، ادعوه ليحضر هذا الغلام معكم ، فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أنى أراه من أنفسكم .

ـــ هو والله أوسطنا نسبا ، وهو من ولد عبد المطلب .

فقال رجل من قريش :

ـــ واللات والعزى أن كان للؤما بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا .

ثم قام إليه وجاء به وأجلسه مع القوم ، فجعل بحيرا يلحظه لحظا

شديدا وينظر إلى أشياء من جسمه ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له :

ـ أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

فقال محمد فى رقة :

ـ لا تسألنى باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغض شيئا قط بغضهما .

ودار الحديث بين بحيرا ومحمد ، بحيرا يسأل ومحمد يجيب ، إنه يسأله عما يرى فى منامه وعما إذا كانت رؤياه تتحقق فيخبره محمد أن ما يراه يتحقق كفلق الصبح فرؤياه صادقة ، ويسأله عن آلهة قومه فيجيب محمد ببغضه للشرك ، ويستمر الحوار بين محمد الهادئ وبحيرا المنفعل ، بين النبى المنتظر والراهب الذى أمضى سنين حياته يقرأ البشارات والنبوءات بالنبى الأمى الذى يجده مكتوبا عنده فى التوراة والإنجيل فقد كان يعرفه كما يعرف نفسه ، ولكنه لم يكن ليحلم بأن الله سيكرمه بلقاء رسوله .

إن الله سيرعى من اصطفاه لرسالته ، وإن الله بالغ أمره ، وسيظهر دينه على الدين كله ، وسيرفع ذكر محمد . وإنه لمن رضا الله على بحيرا أن يسرّ له كشف أمر نبيه ، وقد أحس بحيرا تلك المكرمة فى نفسه فسجدت روحه لربه وإن لم يخر ساجدا وباكيا .

كانت كل الدلائل الروحية تدل على أن الغلام الكريم هو النبى المنتظر ، ولم يبق إلا دليل مادى ملموس ذلك هو خاتم النبوة ، فطلب بحيرا من محمد أن يكشف عن ظهره ، فلما رأى خاتم النبوة مشت قشعريرة فى بدنه ولم يتمالك الشيخ الجليل إلا أن ينحنى ويقبل فى إجلال موضع الخاتم .

ورأى رجال قريش ما ارتسم على وجه الراهب من رضاء ، وظل أبو بكر ينظر وهو مأخوذ ، ثم قالت قريش :

ـــ إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرا .

وسار بحيرا إلى حيث كان أبو طالب وقال له :

ـــ ما هذا الغلام منك ؟

ـــ ابنى .

ـــ ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا .

ـــ فإنه ابن أخى .

ـــ فما فعل أبوه ؟

ـــ مات وأمه حبلى به .

ـــ صدقت .

ـــ وما فعلت أمه ؟

ـــ توفيت قريبا .

ـــ صدقت . فارجع بابن أخيك إلى بلاده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . واعلم أنى قد أديت إليك النصيحة فأسرع به إلى بلاده .

كان أبو طالب يسمع نبوءات الكهان فى مكة وفى كل مدن الحجاز وما كان يصدقها ، وقد سمع نبوءات الرهبان وألقاها دبر أذنه ، ورأى أن يفحم بحيرا فقال له :

ـــ إن كان الأمر كما وصفت فهو فى حصن من الله .

كان بحيرا على يقين من أن محمدا فى حماية الله ورعايته ، ولكنه كان

يطلب التوقى والحذر فلم يزل يناشد أبا طالب حتى قبل أن يرده خشية أن يصيب ابن أخيه مكروه فتقول قريش حذره الراهب وأبى إلا أن يركب رأسه .

ونادى أبو طالب على بعض غلمانه وأمرهم أن يعودوا إلى مكة بابن أخيه ، فلما رأى عتيق (أبو بكر) أن صديقه الحميم سيعود قبل أن تنتهى الرحلة طلب من أبيه أن يعود معه ، ووافق أبو قحافة على عودة ابنه فقفل الركب الصغير عائدا بمحمد وأبى بكر ، وكانت أول صحبة بين الصديقين .

— ١٥ —

راحت الشمس تنحدر فى الأفق الغربى ، ففتحت الدور التى بنيت على سفوح الجبال المطلة على الحرم ، وبدأ الناس ينحدرون إلى الكعبة ليطوفوا بالبيت العتيق قبل أن ينطلقوا إلى حلقات السمر يصغون إلى الشعراء أو يشنفون آذانهم بغناء القيان بين كئوس الخمر وأحضان الحسان ، أو ليلعبوا الميسر بالأموال التى كسبوها من التجارة أو من إكراه فتياتهم على البغاء أو من عرق عبيدهم الذين يقومون بالحدادة والنجارة والنسيج والصياغة وكل الحرف طوال النهار ليجلبوا لساداتهم ما كسبت أيديهم .

وفتح الرعاة أبواب الحظائر فانسابت الغنم والأنعام إلى الآبار وإلى المراعى فأثارت النقع ، وارتفعت أصواتها تملأ أجواء مكة ، ودبت الحياة فى ربوع أم القرى وفى الوادى المقدس ، فإقبال الليل إيذان بحياة صاخبة

قد تمتد فى دور الأجواد وطلاب اللهو ، وما أكثرهم فى مكة ، إلى تنفس الصبح .

وخرج زيد بن عمرو بن نفيل من غار حراء فهو يختبىء به من اضطهاد عمه الخطاب بن نفيل ، فإذا أراد أن يدخل مكة دخلها متسترا بالليل أو مستخفيا حتى لا يراه الشبان الذين وكل إليهم الخطاب أمر اضطهاده خشية أن يفتن أهل مكة عن دينهم .

كان الشباب وسفهاء القوم إذا رأوه أمطروه بالحجارة حتى يلجئوه إلى الجبال ، فكان يلوذ بها ثم يقصد إلى غار حراء يحتمى به ويمضى أغلب وقته فيه ، وما كان يذهب إلى دار زوجه صفية بنت الحضرمى فقد كرهت منه انسلاخه عن دين الآباء ومحاولته إثارة الفتن بين قومها الذين اطمأنوا إلى حياتهم الناعمة ، فكان إذا ذهب إليها بعثت إلى الخطاب أن ابن أخيه فى دارها فيأتى الخطاب وهو غاضب حانق فيطرده من الدار ، بل من مكة كلها .

وانطلق زيد يترقب ، ثم وقف على سفح جبل أبى قبيس ينظر إلى الكعبة والناس يتدفقون إليها من كل فج ومن كل سفح كالسيل ، يطوفون بها ويتمسحون بالأصنام التى وضعت حولها ، فأحس شوقا إلى الطواف بالبيت وتمنى لو كان له جناحان يحلق بهما كحمام الحمى حول أول بيت وضع للناس دون أن تقع عيناه على الأصنام التى بات يكرهها أشد الكره .

وراح يرقب الشمس وهى تغيب وراء الجبال فأحس ابتهاجا يملأ جوانحه وأنه مفعم بروح الله ، وتمنى لو أنه أوتى قوة ليصيح بقومه أن اعبدوا الله وحده ، ولكنه كان أضعف من أن يواجه الثورة العارمة التى

ستشب فى وجهه ، وكان يقشعر جلده كلما فكر فى أن يصمد للتحدى وأن يصبر على العدوان .

إنه لما طاف بالأرض سمع من الأحبار والرهبان أن النبى الذى سيظهر فى مكة قد أظل الأرض زمانه ، وأن ذلك النبى سينشر دين الله ، فعاد إلى مكة يلتمس الحنيفية دين إبراهيم وينتظر ذلك النبى فى لهفة لينصره ويؤيده حتى يظهر الحق ويغمر نوره العالمين .

وشخص ببصره إلى السماء وقال :

ــ اللهم إنى أشهد أنى على دين إبراهيم عليه أحيا وعليه أموت .

ثم التفت إلى الكعبة وقال :

ــ هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل ، لا أعبد حجراً ولا أصلى له ولا آكل ما ذبح له ولا أستقسم الأزلام وإنما أصلى لهذا البيت حتى أموت .

وانحدر مع الليل إلى الوادى المقدس وراح يطوف مع الطائفين وهو يعجب لاضطهاد عمه إياه ، فورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وكثير من قومه قد اعتنقو النصرانية وجلبوا تمثال العذراء وهى تحمل المسيح من أرض الروم ووضعوه بين التماثيل حول الكعبة فلم يضطهدهم المكيون بل كفلوا لهم حرية العبادة ، وإن العبيد والإماء من روم وفرس وأحباش ووثنيين يمارسون شعائر دينهم فى حرية وسماحة فما بال الخطاب يتعقبه ويغرى به سفهاء قومه ؟

أوسعت رحمة قريش اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الحجارة وضاقت بالحنفاء الذين يطلبون دين إبراهيم الخليل وإسماعيل ؟ إن فى مكة حنفاء آخرين يعبدون الله وحده على قدر علمهم ويسيرون فى الأرض دون أن يقع عليهم اضطهاد أو تعذيب ، وما ذلك إلا لأنهم لم يسفهوا

أحلام قومهم و لم يسبوا آلهتهم ، فلماذا لا يمسك زيد لسانه عن عيب ما يعبدون وأن يعيش فى سلام مع أهله ، لهم دينهم وله دينه القويم ؟!

لم يكن مكلفا برسالة و لم يعده الله لحمل ما ينوء به أولو العزم من الرجال ، فقلبه أشرق باليقين وملأت أنوار الله جوانح صدره ، ولكنه لم يروض ليكون أقوى الناس يقينا وأشدهم عزما وأوفرهم علما وفهما وأرقهم قلبا ، و لم يؤته الله حِكمة وحكما ليفتح به أعينا عميا وقلوبا غلفا وآذانا صما ، فاطمأن إلى مسالمة قومه التماسا للنجاة والسلامة .

ووقعت عينا شاب من شباب قريش على زيد بن عمرو وهو يطوف بالبيت فراح يتفرس فيه ، حتى إذا ما تحقق منه طار إلى الخطاب بالنبأ ليأتى الخطاب وسفهاء القوم ويطردوه من الحرم قبل أن يفسد ضعاف النفوس من قومه .

كان الخطاب فى داره يغدو ويروح فزوجه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة كانت تضع ما فى بطنها ، إنها وضعت أنثى أول ما وضعت ولما بشر بها اسود وجهه وهو كظيم وأمسكها على هون و لم يدسها فى التراب وسماها فاطمة .

إن زوجه مخزومية وأبناء عمها سادات بنى المغيرة أبو جهل وعبد الله ابن أبى ربيعة والوليد بن المغيرة ، وهو فى حيرة من أمره لا يدرى ماذا يفعل لو وضعت امرأته أنثى مرة ثانية ، أيئدها ويغضب بنى مخزوم أم يمسكها وقد تجلب له العار كما جلبت ابنة قيس بن عاصم العار لقومها ؟

وأحس أن رأسه يكاد ينفجر فغادر الدار وانطلق إلى دار عبد الله بن جدعان ليسمر مع السمار حتى تضع زوجه ويأتيه البشير أو النذير ، فلم يعد يستطيع صبرا على الانفعالات الموارة بين جوانحه ، وقد زاد فى إغرائه

على التوجه إلى دار ابن جدعان أنه علم أن أمية بن أبى الصلت هناك وأنه سيعود فى الصباح إلى أهله فى الطائف .

وذهب الخطاب فى سكون الليل إلى دار ابن جدعان فإذا الموائد قد مدت ، وجلست الجرادتان على شرف عال وراحتا تغنيان أعذب الألحان ، وإذا بابن جدعان وعن يمينه أمية بن أبى الصلت وعن يساره ومن حوله سادات قريش : أمية بن خلف والعاص بن وائل وأبو لهب بن عبد المطلب والوليد بن المغيرة وأبو زمعة الأسود بن عبد المطلب وحرب ابن أمية ، فلما رأى ابن جدعان إقبال الخطاب قام إليه وأجلسه إلى جواره .

وبدأ الناس يأكلون فقال قائل :

ـــ أهذه الوليمة تحفة أم قرى أم مأدبة ؟

كانت التحفة ما يصنع للزائر والقرى ما يصنع للضيف والمأدبة ما ليس له سبب ، فقال آخر :

ـــ أيام ابن جدعان كلها ولائم .

ودارت الكئوس على الحاضرين وقد ملئت من نبيذ الشام ، وما أن رفع أبو لهب كأسه حتى تذكر تلك الليلة التى سرق فيها غزالة الكعبة ليشترى بها نبيذا .

كان ابن جدعان أكثر القرشيين طلبا للغزالة كأنما كان يخشى أن يغضب رب الكعبة فيذهب ماله ، و لم يهدأ له بال حتى عثر عليها وأعادها إلى مكانها . كانت فعلة منكرة من أبى لهب ومن أصحابه وقد وصم بها إلى الأبد ، فقد سماه قومه « سارق غزالة الكعبة » ، وإنهم ليهمسون بتلك التسمية وإن لم يجرؤ أحد على أن يلقى بها فى وجهه .

إن ابن جدعان قد حرم على نفسه الخمر ولكنه كان يقدمها إلى ندمائه وكان يرى من فعالهم لما تلعب الخمر برءوسهم ما يزيده عزما على ألا يقرب الخمر أبداً ، فقد كانوا يأتون من الأعمال ما لا يليق بكرامة البشر .

ومال أمية بن خلف على جاره وراح يؤكد له أن صوت عبده الحبشى بلال بن رباح أندى من صوت الجرادتين ، فإنه إذا ارتفع صوته بالحداء يضفى على القافلة كلها راحة وبشرا .

وانتهت المغنيتان من غنائهما فقام الشعراء وراح كل منهم يلقى على أسماع السكارى ما معه من الشعر ، ثم قام الزبير بن عبد المطلب فأرهفت الآذان فقد كان الزبير شاعراً مقذعا ترهبه القبائل ويخشى الشعراء لذعه وسخريته وهجاءه وكانوا جميعا يتحاشون التعرض لآل عبد المطلب بل لبنى هاشم جميعا خوفا من لسان الزبير الذى كان أقسى من ضربات السياط على الظهور العارية .

وراح أمية بن أبى الصلت يتحدث ، وكان أمية قد ساح فى الأرض حتى بلغ فارس وسمع قصص « كليلة ودمنة » التى نقلها برزويه طبيب أنو شروان إلى البهلوية ، وكان برزويه قد أتى بأصلها الهندى أثناء رحلة له إلى بلاد الهند ، وقد دعى أمية كثيراً من تلك القصص التى انتشرت انتشاراً عظيما فى فارس وفى الحيرة ، فكان يروى ما تسعفه به الذاكرة فى مجالسه ، وكثيراً ما كان يترك بصمات فكره على ما يروى منها .

واعتدل أمية بن أبى الصلت وصمت قليلا حتى أذا ما اطمأن إلى أنه صار قبلة الأنظار ، قال :

ـــ كان الديك نديما للغراب ، فرهنه على الخمر وغدر به ، وتركه

عند الخمار رهينة ، فجعله الخمار حارسا .

ودخل الشاب الذى رأى زيد بن عمرو فى الحرم يتلفت ، حتى إذا ما وقعت عيناه على الخطاب ذهب إليه والتقم أذنه وهمس قائلا :

ـــ عاد زيد إلى مكة .

فاربد وجه الخطاب وهب واقفا وقد ثارت فى صدره ثورة حانقة ، ثم انطلق لا يلوى على شيء والشاب فى أثره ، فلما بلغ الكعبة راح ينقب بعينيه عن ابن أخيه حتى إذا ما رآه ناداه بصوت فيه غضب ووعيد ، فلما هوى الصوت على أذنى زيد ارتجف وسرعان ما دار على عقبيه ووسع من خطوه ليختفى فى شعاب مكة .

كان زيد يطلب السلام بينه وبين قومه وكان أمله أن يكف عمه عن اضطهاده ، ولكن ما إن أصبح أمام الخطاب وجها لوجه حتى ارتعدت فرائصه وفر من أمامه مفضلا أن يبعث إلى الرجل العنيف سفيراً يصلح بينهما ، على ألا يسب زيد الآلهة ولا يسفه الأحلام وعلى أن يترك زيد حراً يعبد ما يشاء فهو لا يطلب حرية أكثر من الحرية المكفولة لليهود والنصارى والمجوس ، بل وللعبيد والإماء من كل أمة ومن كل جنس وعلى أى دين .

لم يكن زيد بن عمرو بن نفيل معداً لأعباء الرسالة ، فلم يقل لعمه ما قاله محمد بن عبد الله لعمه بعد ذلك بثلاثين سنة : « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه » ، ولكنه آثر السلامة والفرار بدينه والاكتفاء بأنه قد رشد وحده .

وتذكر الخطاب زوجه حنتمة التى تركها وهى تلد فرأى أن يعود إلى

داره ليعلم ماذا وضعت له المخزومية ، فسار خافق القلب يخشى أن يبشر بالأنثى فيسود وجهه . ولكنه ما إن أشرف على الدار حتى هرع إليه البشير يقول :

— ولد .. ولد ..

وانبسطت أسارير الخطاب وتهلل فؤاده بالفرح واندفع إلى حيث كانت زوجه وهو فى غاية الانفعال ، ونظر نظرة طويلة كلها حب وحنان ورحمة وفكرّ ..

— بماذا أسميه ؟

سأسميه عمر .. عمر بن الخطاب .

— ١٦ —

بدت جبال مكة والوادى المقدس كأنها قطع من لجين ، فقد كان القمر فى ليلة تمامه يريق أشعته الفضية على الكون فيضفى على الوجود سحراً ويملأ الصدور انشراحا ويطلق الأخيلة للرؤى المجنحة التى تهيم فى دنيا الأحلام والأمانى والآمال .

وانعقدت حلقات السمر فى الدور وعلى روابى الجبال وفى دار الندوة وفى الحرم ، وراح المكيون يتحاورون ويروون أساطير الأولين تارة ويقصون قصص كليلة ودمنة التى انتشرت فى فارس وفى الحيرة وفى كل القبائل العربية التى كانت على صلة بفارس والحيرة انتشار الريح تارة أخرى ، ويتدارسون دياناتهم وكرامات آلهتهم وقد نسوا دين أبيهم إبراهيم بعد أن مضت بينهم وبينه قرون فتطاول عليهم العمر وقست

قلوبهم ، أو يلقون سمعهم إلى شعرائهم فالشعراء هم قطب الرحى فى كل سامر وفى كل ناد ، وما زال القوم فى سمرهم حتى ظهرت تباشير الصباح .

وجاء محمد بن عبد الله يطوف بالحرم قبل أن ينطلق ليرعى غنم أهله ، فألفى بيت الله كأنما دثر بمخمل نسج بأسلاك من فضة وقد شع منه ضياء لطيف أنار روحه بفيض من نور انشرح له كل وجدانه ، إنه حرم آمن يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدن إلٰه كريم .

ووقعت عيناه على الأصنام التى نصبت حول البيت العتيق فإذا الصورة الرائعة التى رآها بعين بصيرته تهتز ، وإذا بالانشراح الذى ملأ جوانحه ينحسر أمام الانقباض الذى زحف لينزل بصدره . وإذا بالحب العميق الذى أحسه للبيت ينقلب فى غمضة عين إلى كراهية لتلك الحجارة التى لا ترى ولا تسمع ولا تملك لنفسها نفعا أو ضرا .

وسمع ما يدور بين الجالسين فى الحرم من لغو فأعرض عنه وراح يبتعد عن أحب مكان إلى قلبه ، فالأصنام قد دنسته ، وهى كلما مد بصره إليها تهيض جناح روحه التى استمرأت السمو إلى ما وراء الوجود ، وذلك اللغو الذى يتردد فى الوادى المقدس يؤذيه بل يرهقه إرهاقا . إنه يريد أن يلقى بنفسه فى أحضان الطبيعة قبل أن تمتد إليها يد الإنسان العابث . فما أجمل الطبيعة قبل أن تشوه وجهها أيدى البشر ! وما أروع ما توحى به ! إنها ترفع الراغب فى الوصال إلى ما وراءها ليتهلل بالفرح وينعم بالتجلى .

وجعل الكعبة بما فيها من أصنام ولغو دبر أذنه ، وذهب إلى حيث كانت غنم قومه فخرج بها قاصداً المرعى ، وقد أتت من بعيد أصوات

القيان بالغناء فقد كان هناك عرس فى مكة .

كان يحب الغنم ويغمرها بعطفه ، وكان إذا ما رأى سخلة ، — وهى ولد الشاة حين تضعه ذكراً كان أو أنثى — كان يحملها ويمرر يده عليها فى شفقة ويضمها إليه فى حنان وقد امتلأ قلبه رحمة . وكانت إذا شردت شاردة يعيدها إلى القطيع فى رفق ، وإذا قفز حمل أو عنزة فى الفضاء فى مرح ، ترف ابتسامة رضا على شفتيه ، وما كان يجهد غنمه فى السير بل كان يترفق بها ، فهو برعايته للغنم يتدرب على رعاية الناس .

وألقى نفسه فى الفضاء ، إنه أمام الوجود وجها لوجه ، فراح يتلفت فى ابتهاج وقد أحس فى أعماق ذاته أن ذلك العالم الذى يراه عالم ناقص لا يستطيع أن ينهض على قدميه دون الموجود الأسمى ، الحقيقة المقدسة ، ذات الذوات وروح الأرواح وحقيقة الحقيقة .

كان القمر يغمر الكون بالضياء ، وكانت الغنم ترعى الكلأ ، فراح يتأمل ويفكر ويتدبر فيحس كأن حكمة من فوق السموات تتدفق إلى قلبه ؛ لو أن روح الكون جعل الليل سرمداً إلى الأبد من إلـٰه غيره يأتى بالضياء ؟ وإن جعل النهار سرمداً إلى الأبد من إلـٰه غيره يأتى بليل يسكن الناس فيه ؟

ومد عينيه إلى المرعى وراح يفكر فى الإلـٰه الذى ينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، أهبل الذى يسوق الرياح ؟ آللات والعزى ومناة اللاتى يملكن للناس رزقا ؟ إن هبل عاجز وكل الأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة ومن حولها ليس لها من الأمر شىء ، إن إلـٰه هذا الكون هو صانع ما فيه من آيات وصاحب ما فى الوجود من أسرار وعنده مفاتيح الغيب .

هذا القمر المتألق فى السماء شاهد بوجوده ، وهذا الفضاء الواسع العريض شاهد بوجوده ، وهذه الغنم وهذا الكلأ وزفيف النسيم وخفقان قلب الكون وتعاقب الليل والنهار شاهد بوجوده ، وإنه بكل كيانه منحة من القدرة الإلٰهية ، من الحقيقة المتعالية .

وأحس رغبة فى النزوع إلى الحقيقة الخالدة ، أن يرتفع إلى ما وراء عالم التجربة البشرية الناقصة أن يتصل بالخير الأسمى وأن يقف منه موقف العبد من المعبود . ولم يدر بخلده ما يدور بخلد الكهنة والسحرة من أن يتخذوا من هذه القوة المتعالية قوة سحرية يستغلونها لمصلحتهم ، بل إنه أراد أن يسلم لله وجهه وأن يستعين به وأن يتوكل عليه .

أيستطيع أن ينفذ إلى جوهر الحقيقة ؟ أن يغوص فى أعماق « السر الإلٰهى » ؟ أم يكفيه ذلك الإشراق الذى أمسى يحسه فى صميم ذاته ؛ وأن يكف عقله عن الجرى وراء استجلاء الحقيقة المستغلقة ؟

إنه يستشعر الجوهر الأسمى فى كل ما يمد إليه عينيه ، وإنه ليسمع صوته فى كل صوت يتجاوب فى أرجاء الوجود ، وإنه من أمامه ومن خلفه ومن فوقه وحيثما يوجه البصر ، بل إنه فى قلب قلبه وفى نور عينيه وفى كل جارحة من جوارحه وفى أعماق أعماقه . وهو روح الروح .

إنه يحس نشوة تنبعث من صميم إحساسه بمن ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، وأنسا وبهجة وانبهارا كلما شاهد عجائب ملكوته وآثار قدرته ، وإنه ليخر ساجدا وقد تهلل بالفرح لعظمته وإن كانت روحه فى سجود دائم لا تعرف قياما ، فقد ملأه السرور أن قد عرف الخير المطلق والعدالة المطلقة والحق المطلق .

إن شجرة الإيمان تترعرع فى ضميره ، وإن عليه أن يرعاها بالمجاهدة

وأن يسقيها بالتأمل والتدبر والتفكير وإلقاء السمع إلى من ليس دونه منتهى . وأن يرقى ذاته بالصبر الطويل وتحمل ألم الوحدة والحزن العميق حتى ينعم بفيض علوى من السعادة ، وحتى يشرق الله قلبه بأنوار اليقين .

إن الوجود شيء أكثر مما نراه ونحسه ونلمسه ونشمه ونتذوقه أو يتخيله العقل ، إنه الطبيعة وما وراء الطبيعة ، إنه الكون وروح الكون ، إنه العالم والله ، وإن قلب الحقيقة إرادة الله ، وإن محمداً ليحس أن الله يهبه قلبا جديدا ناصعا كلما هام فى ملكوته وفكر فيه .

وجاء فتى من فتيان قريش فى غنم لأهله يرعاها ، فلما رأى محمدا راح يجاذبه أطراف الحديث ، وفيما هما يتحاوران تذكر محمد أصوات القيان التى مست أذنيه وهو منطلق بالغنم إلى أعلى مكة ، فخطر له خاطر : لم لا يسمر الليلة كما يسمر الفتيان وإنه لسمر برىء لا شيء بعده ، واستراح لذلك الوسواس فالتفت إلى الفتى وقال :

ـــ انظر إلى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان .

قال الفتى :

ـــ نعم .

وترك محمد غنمه فى رعاية ذلك الفتى ثم سار يتكفأ مسرورا ، فهو مقدم على تجربة جديدة لم يمارسها من قبل ، فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير فقال :

ـــ ما هذا ؟

ـــ فلان قد تزوج من فلانة .

فجلس وتأهب ليسمع ، ولكن الله ضرب على أذنيه فراح فى سبات

ولم ير شيئا ولم يسمع شيئا ، فالسماء تعده لرسالة ليس سبيلها السمر وإلقاء السمع إلى الغناء وأصوات الدفوف والمزامير والألحان .

وانقضى الليل وهو غارق فى نومه ، وانفض السامر وأشرقت الشمس فلما أحس حرها استيقظ وراح يتلفت فى عجب ، فهو لا يدرى كيف غلبه النوم وما كان فى عينيه نعاس ، بل كان نشيطا يمنى النفس بليلة من ليالى السمر التى يسعد بها فتيان مكة .

ورجع إلى صاحبه فهرع إليه الفتى وقال :

ـــ ما فعلت .

وترقب الفتى أن يسمع وصفا مسهبا لتلك الليلة من محمد الذى اشتهر بفصاحته ، ولم يمن النفس بأن تهز الليلة محمدا فيصوغ شعرا فقد عرف أن محمدا يكره أوزان الشعر ولا يتبع الشعراء الذين يهيمون فى وديان مكة وشعابها .

وقال محمد فى اقتضاب :

ـــ خرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير ، فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتنى عيناى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس .

وعاد محمد بغنم أهله وهو يفكر فيما كان فى أمسه ، فإن كان النوم قد غلبه فسينام النهار حتى يقوى على أن يسهر الليل يسمر كما يسمر الفتيان، فهو مذ تفتحت عيناه على نور الدنيا لم يعرف اللهو ولا السمر، وإن كل ما يذكره تلك الأيام والليالى التى قضاها فى بنى سعد فى أحضان حليمة ، يشارك إخوته الشيماء وعبد الله وأنيسة لعبهم ، وكانت لعبته المفضلة « العظمة البيضاء » وكان كلما لعبها مع أنيسة وعبد الله يفوز

عليهما فهو يطوحها أبعد من أخويه ، وكان يراها فى ظلمة الليل قبل أن تقع أعينهما عليها .

وإنه ليذكر تلك الأيام التى قضاها فى يثرب عند أخوال جده من بنى النجار ، كانت أياما مترعة بالمتعة ، خرج فيها مع صبيان أخواله يجوس خلال آطام اليهود وأسواقهم ، ويقف على العداوة الناشبة بين الأوس والخزرج ، وقد تعلم العوم هناك كشفا عن حبه للمخاطرة والترقى والسمو على بيئته المكية التى ما كانت تعرف العوم أو تفكر فيه .

وإنه ليذكر أنيسة تلك الجارية من بنى النجار التى كانت تلعب معه على أطم من آطام عدى بن النجار ، وكان فى ذلك الوقت فى السابعة من عمره ، ومضى على ذلك ست سنوات لم يعرف فيها اللعب بل عرف التأمل والتدبر والتفكير فى ذلك الكون الرحيم الذى يحس توافقا بينه وبينه ، والذى يرفعه فى رفق إلى ما وراءه ليتصل بمن ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

كان ذلك كل ما عرفه من لعب ، وما كان فيه شيء قبيح مما كان متفشيا فى أهل الجاهلية . وقد هفت نفسه إلى أن يسمر ذلك السمر البريء الذى يسعد به كل فتيان مكة دون حرج أو تثريب ، ولكن الله عصمه فى الليلة الأولى ، وهو عازم على أن يتأهب للسمر فى الليلة التالية ليعوض ما فاته .

وانصرم النهار وجاء الليل وارتفع القمر يبعث أشعته لتكسو الأرض ببساط من فضة ، وسرى محمد يرعى غنمه فى أعالى مكة وصوت القيان والدفوف والمزامير يهمس فى الوجود همسا كله إغراء وفتنة كوسوسة الشياطين فى صدور الضالين .

والتفت محمد إلى صاحبه وقال :

ــ أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة .

ــ نعم .

وانطلق محمد نشيطا حتى جاء دارا من دور السادات الذين يمضون الليل فى سمر وحبور يصيخون السمع للغناء وصوت الدفوف والمزامير ، فجلس وتأهب ليشنف أذنيه بالأصوات العذبة ، بعد أن نام النهار ليسهر الليل كله مع الساهرين . ولكن ما كاد يستقر فى مكانه حتى غلبه النوم قبل أن يرى شيئا أو يسمع شيئا ، وانقضى الليل وهو غارق فى النوم وما أيقظه إلا حر الشمس ، فقام وهو يتلفت فى دهش ، وسرعان ما أحس رهبة وكأنما قد أضاء ذهنه فجأة بحقيقة كانت غائبة عنه أو غابت عن ضميره فى الليلتين اللتين فكر فيهما أن يسمر كما يسمر الفتيان .

إنه سائر فى طريق التأمل والتدبر والاتصال بروح الوجود ، وإنه ليستشعر أن ذات الذوات تدنو منه كلما دنا منها ، بل إنه ليستشعر أنها صارت قريبة منه أقرب من حبل الوريد ، فما الذى جعله يعرج إلى طريق اللهو والسمر ؟!

إنه آسف لأنه هم بقبيح مما هم به أهل الجاهلية ، وإنه لسعيد فى نفس الوقت لأنه اكتشف أن الحقيقة الخيرة ترعاه وتحول بينه وبين أن ينغمس فى حياة يتنكب بها الطريق القويم الذى يقوده إلى غاية الغايات .

إنه يجاهد ويجتهد ويتحمل الألم والعذاب والحرمان ليبلغ ما تصبو إليه نفسه من الوصال ، وإن اللطيف قد لطف به وعصمه عن أن يدخل من باب اللهو الذى يقوده إلى الضلالة ، فعزم على ألا يعود لشىء من ذلك بعد أن رأى ببصيرته برهان ربه .

خرج حكيم بن حزام بن خويلد من دار الندوة ليطوف بالبيت قبل أن ينطلق إلى دار عمته خديجة ، وكان حكيم آدم شديد الأدمة خفيف اللحم ولد قبل الفيل باثنتى عشرة سنة ، فقد دخلت أمه الكعبة مع نسوة من قريش وهى حامل مُتم به فضربها المخاض فى الكعبة ، فأُتيت بنطع حيث أعجلها الولاد ، فولدت حكيما فى الكعبة على النطّع .

وكان حكيم راجح العقل له دراية ورأى ، وقد عرف عنه ذلك وهو لا يزال حدثا ، ولم يدخل دار الندوة للرأى أحد حتى يبلغ الأربعين إلا حكيم بن حِزام فإنه دخلها للرأى وهو ابن خمس عشرة سنة ، وكانت له كلمة بين شيوخ قريش وساداتها ، وصار من وجوه قريش ولما يبلغ العشرين من عمره ، وقد كان ذلك سببا فى تأجيج مطامع أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) وأبى سفيان بن حرب ، فقد طمع كل منهما فى أن يدخل دار الندوة للرأى قبل أن يبلغ الأربعين كما فعل حكيم بن حزام .

وكان حكيم يعالج البر وإن كان يسجد لأصنام الكعبة ، وكان رجلا تاجرا يخرج إلى اليمن وإلى الشام فى رحلتى الشتاء والصيف فكان يربح أرباحا كثيرة فيعود على فقراء قومه يريد بذلك ثراء الأموال والمحبة فى العشيرة . وكان يحضر الأسواق ، وكانت سوق مجنّة تقوم عشرة أيام ، حتى إذا ما بدا هلال ذى الحجة انصرف العرب وانتهوا إلى سوق ذى المجاز فتقام ثمانية أيام ، ثم ينصرفون إلى أداء مناسك الحج والوقوف بعرفة .

كان دين إبراهيم قد اندثر و لم يبق منه إلا حج البيت وتقديس الحرم ، وإن كان الشرك قد دنس عقيدة التوحيد وإن كانت الأساطير قد طمست الدين القويم لما طال على الناس العمر بعد أن انقضت القرون ؛ فكان العرب جميعا وثنيين ويهود ونصارى أو حنفاء يحترمون البيت ، وإذا ما جاء أوان الحج يأتون على كل ضامر من كل فج عميق .

وكان حكيم يؤمن بالتجارة ويجد فيها عز العرب ، فكان لا يدع سوقا بمكة أو تهامة إلا حضرها ، وكان بتهامة أسواق أعظمها سوق حُباشة ، وقد رأى فيها محمد بن عبد الله مع أعمامه من آل عبد المطلب يشترى بزا من بز (ثياب) تهامة .

وانتهى حكيم من طوافه وخرج من الحرم قاصدا بيت عمته خديجة ، والناس ينظرون إليه وفى عيونهم حسد ، فهو رجل مجدود فى التجارة ما باع شيئا قط إلا ربح فيه ، ولقد كانت قريش تبعث بالأموال ويبعث بماله فلربما دعاه بعضهم إلى أن يخالطه بنفقته يريد بذلك الحظ فى ماله ، وذلك أنه كان كل ما ربح تحنث به (فعل البر ابتغاء التخفف من الإثم) أو بعامته ، ويريد بذلك البركة فى المال وتأليف قلوب عشيرته .

وكان ورقة بن نوفل عاكفا على التوراة والإنجيل يقرأ فيهما وينقل منهما وينقب فى ثناياهما عن النبى الأمى الذى فاضت بشارات الأنبياء به ، والذى أكد الرهبان والكهان والمنجمون أن زمانه قد أظل الأرض .

إنه يتحرق شوقا إلى ذلك النبى ، وإنه إنما دخل فى دين النصرانية انتظارا لبزوغ الدين القيم من مكة ، فقد قيل له أن النبى المنتظر من ذرية إبراهيم وإسماعيل وأنه من عند الحرم يبعث .

إنه وعبد الله بن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل قد تركوا عبادة

الأوثان ، وقد تنصر هو وعبد الله بينا راح زيد بن عمرو يبحث عن الحنيفية دين إبراهيم ، وإن كانوا جميعا يترقبون أن يشرق نور النبى الذى فاضت صوامع الرهبان وبيع المتعبدين بذكره .

إن ورقة بن نوفل الأسدى القرشي قد هجر الدنيا ومباهجها وكرس حياته للعبادة وترقب ذلك الحدث الجليل الذى ملأ وجدانه واستولى على كل مشاعره ، فهو يرجو أن يظهر رسول الله ليؤيده وينصره نصرا مؤزرا ، ولقد قال أشعارا فى هجر الدنيا وسارت بها الركبان وأنشدها رواة الشعر فى حلقات السمر :

رحلت قُتَيْلة عيرها قبل الضحى
وإخال أن شحطت بجارتك النوى

أو كلما رحلت قتيلة غُدْوةً
وغدت مُفارقة لأرضهمُ بكى

ولقد ركبت على السفينة مُلجحا(١)
أذرُ الصديق وأنتحى دار العِدى

ولقد دخلت البيت يُخشى أهلهُ
بعد الهدوء وبعدما سقط الندى

فوجدت فيه طفلةً قد زينت
بالحَلْيِ تحسبه بها جمر الغضا(٢)

فنعمت بالا إذ أتيتُ فراشها
وسقطت منها حين جئتُ على هدى

---

(١) على جانب منها .

(٢) أحسن الحطب نارا وأزهره .

فبتلك لذات الشباب قضيتُها
عنّى فسائل بعضهم ماذا قضى
قدح الذباب(١) فليس يورى قدحُه
لا حاجة قضّى ولا مالا نما
فارفع ضعيفك لا يحُل بك ضعفه
يوما فتدركه العواقبُ قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وإن من
أثنى عليكَ بما فعلت كمن جَزَى

كان ورقة شاعرا رقيقا وكانت المجالس ترحب به وتزهو وتزدهر لو أنه كان من الشعراء الذين يهرعون إلى حلقات السمر ، ولكنه آثر الاعتكاف والتعبد والتحنث وانتظار إشراق نور النبوة .

وأغلق ورقة الكتب التى يقرأ فيها ونهض فارتدى أفخر ثيابه وانطلق إلى بيت ابنة عمه خديجة الطاهرة .

وكان عدى بن نوفل بن أسد فى دار أمه أمية بنت جابر بن سفيان ، وكان خاله ثابت بن جابر هناك وقد عرف خاله بتأبط شرا ، ففى ذات يوم تأبط ثابت سيفا وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : لا أدرى تأبط شرا ، واشتهر بأنه من عدائى العرب ، وأنه إذا جاع نظر إلى الظباء فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه .

وكان تأبط شرا يروى مغامراته فى كل مجلس ، فما إن جلس عدى ابن نوفل حتى راح خاله يقول :

---

(١) قدح الذباب لا يوقد نارا .

ــ كنا ثلاثة ، أنا والشنفرى وعمرو بن برّاق ، ونحن أعدى العدائين في العرب لا تلحقنا الخيل ، وكان بيننا وبين بجيلة ثارات ، فوجدنا بجيلة قد أقعدوا لنا الماء رصدا ، فلما ملنا في جوف الليل قلت لصاحبي : « إن بالماء رصدا ، وإني لأسمع وجيب قلوب القوم » . قالوا : « والله ما نسمع شيئا ولا هو إلا قلبك يَجِب » .

فوضعت يدي على قلبي وقلت : « والله ما يجب وما كان وجّابا » . قالوا « فلا والله ما لنا بد من ورود الماء » .

فخرج الشنفرى ، فلما رآه الرصد عرفوه فتركوه فشرب ثم رجع إلينا ، فقال : « والله ما بالماء أحد لقد شربت من الحوض » . فقلت : « بلى لا يريدونك ولكن يريدونني » . ثم ذهب ابن براق فشرب ورجع فلم يعرضوا له ، فقال : « ليس بالماء أحد » فقلت : « بلى لا يريدونك ولكن يريدونني » .

ثم قلت للشنفرى : « إذا أنا كرعت في الحوض فإن القوم سيشدون علي فيأسروني ، فاذهب كأنك تهرب ثم ارجع فاستتر في أصل ذلك الجبل ، فإذا سمعتني أقول : خذوا خذوا ، فتعال فأطلقني .

وقلت لابن براق : « إني سآمرك أن تستأسر للقوم فلا تبعد منهم ولا تمكنهم من نفسك » . ثم أقبلت حتى وردت الماء فلما كرعت في الحوض شدوا علي فأخذوني وكتفوني بوتر ، وطار الشنفرى فأتى حيث أمرته وانحاز ابن براق حيث يرونه . فقلت : « يا بجيلة هل لكم في خير ! هل لكم أن تياسروا لنا في الفداء ويستأثر لكم ابن براق ؟ » . فقالوا : « نعم » فقلت لابن براق : « ويلك يا ابن براق ، إن الشنفرى قد طار

وهو يصطلى نار بنى فلان ، وقد علمت ما بيننا وبين أهلك فهل لك أن تستأسر ويياسروننا فى الفداء ؟ » .

فقال : « أما والله حتى أجرب نفسى شوطا أو شوطين » . فجعل يعدو فى سفح الجبل ثم يرجع ، حتى إذا رأوا أنه قد أعيا وطمعوا فيه اتبعوه .

وناديت : « خذوا خذوا » فذهبوا يسعون فى أثره يطمعهم ويبعد عنهم ، ورجع إلى الشنفرى فقطع وثاقى فلما رآنى ابن براق قد قطع عنى انطلق وكروا إلى فإذا أنا قائم ، فقلت : أعجبكم يا معشر بجيلة عدو ابن براق ؟ أما والله لأعدون لكم عدوا أنسيكموه .

ثم انطلقت أنا والشنفرى نسابق الريح .

كانت العداوة ناشبة بين قبائل العرب وكان القتال يثور لأتفه الأسباب ، وكانت السيوف تسل لكلمة فخر أو لكلمة هجاء ، وما أيسر أن تزهق روح فى مشادة بين سفيهين من سفهاء الأسرات فتقوم سلسلة لا نهاية لها من الثارات والخصومات وسفك الدماء .

وكان الشعراء ورواة الأخبار يؤججون نار العداوة والبغضاء بين القبائل يثيرون النخوة فى النفوس فتنطلق أصوات من الحناجر « يا لثارات فلان » وتسل السيوف من أغمادها لتهوى على أى برىء من أسرة العدو فى غدر وغفلة .

وراح تأبط شرا يروى مغامراته نثرا ونظما وعدى بن نوفل يصغى إلى خاله وهو معجب بحديثه لا يدرى ما إذا كان ما يرويه قد وقع حقا أو من وحى خياله ، وما كان يهمه أن يكون الحديث صدقا فقد كان يكفيه ما فيه من طلاوة وسحر ، وظل تأبط شرا ينتقل من حديث إلى حديث

حتى راح يصف الغول ويذكر أنه راودها عن نفسها فامتنعت عليه فقتلها ، وقال :

فأصبحت والغول لى جارة | فيا جارة أنت ما أغولا
وطالبتها بضعها فالتوت | فكان من الرأى أن تقتلا
فجللتها مرهفا صارما | أبان المرافق والمفصلا
فطار بقحف[١] ابنة الجن ذو | شقاشق قد أطلق المحملا
فمن يك يسأل عن جارتى | فإن لها باللوى منزلا
وغطاه أرض لها حلتا | ن من ورق الطلح لم تغزلا
وكنت إذا ما هممت اهتبلت[٢] | وأحرى إذا قلت أن أفعلا

ونهض عدى بن نوفل مستأذنا ، إنه كان مأخوذا بخاله معجبا به ، ولولا أنه كان منطلقا إلى دار خديجة بنت عمه لسره أن يلقى سمعه إلى خاله يروى ظمأه إلى الشعر وأيام العرب .

ودخل عدى دار خديجة فإذا بسادات بنى أسد بن عبد العزى جالسين ، خويلد وإلى جواره أخوه عمرو عم خديجة ، وورقة بن نوفل وحكيم بن حزام بن خويلد والأسود بن المطلب بن أسد ، وكان القيان يضربن على الدفوف فقد انتهت أيام خديجة مع عتيق بن عابد بعد أن ولدت له بنتا أسمتها هندا، وأنها ستتزوج اليوم سيدا من سادات قومها هو هند وستلد له ولدا وستسميه هالة إكراما لأختها هالة وسيعرف زوجها بأبى هالة ، ثم تلد له ولدا آخر اسمه هند وسيشتهر هند بن هند ويرتفع

---

(١) القحف : أعلى الدماغ .
(٢) أصل ما أريد .

ذكره لا لأنه ابن هند ، بل لأنه سينتسب إلى من ستعلو به عدنان بل إلى من سيشرف به العرب جميعا .

وأقبل العوام بن خويلد ومعه بعض سادات بنى عبد المطلب ، فهو زوج صفية بنت عبد المطلب ، وهو الذى شد الأواصر بين بنى أسد وبين بنى هاشم ، بل بين بنى خويلد بن أسد وبين بنى عبد المطلب بن هاشم . وهرع الموجودون إلى العوام يهنئونه بمولد ابنه الزبير بن العوام .

وقام أبو هند وألقى كلمة ذكر فيها فضل قومه ، ثم قام خويلد وراح يعدد مناقب بنى أسد ، وما انتهى الرجلان من إلقاء خطبتهما حتى تم زواج خديجة بنت خويلد من هند ، بينا كان الفتى الذى سيعلو به ذكر هؤلاء جميعا فى أحضان الطبيعة يسمو بروحه إلى ما فوق الكون ليتصل بذات الذوات ، حتى يوحى إليه بما فيه خير قومه ، بل بما فيه خير البشرية فى الدنيا وفى الآخرة .

— ١٨ —

جاءت الأشهر الحرم فتأهب الناس للخروج إلى الأسواق ، وكانوا ينطلقون إلى سوق مجنة فسوق ذى المجاز فموسم الحج الأكبر ، ولكن فى هذه السنة ظهرت سوق جديدة بينها وبين الطائف ليلة وبينها وبين مكة ثلاث ليال ، وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء . وكانت هذه السوق يُعرض فيها فى أول الأمر الأشياء المسروقة ، ثم اجتمع الناس فيها وتعاكظوا (تفاخروا) فسميت عكاظ ، وعلا ذكرها فراح بنو هاشم وبنو أمية وبنو المغيرة وبنو تيم وكل قبائل قريش يتأهبون ليفدوا إليها آمنين

يمنون النفس بأرباح وفيرة من التجارة ، فمن يريد الميرة أصبح يذهب إليها ، ومن فقد شيئا التمسه فيها لعله يجده فى سلعها ، ومن أراد أن يخطب أو ينشد ذهب إليها ليذهب الشعر فى الناس .

وتجهز بنو هاشم ثم امتطوا رواحلهم ، وكان محمد بن عبد الله فى رفقة أعمامه . إنه ذهب مع عمه الزبير إلى اليمن ومر بذلك السهل الواسع الذى انتشرت فيه أحجار كبيرة بيضاء من المرمر عرفت بالعُبيلات ، إلا أن ذلك كان قبل أن تصبح تلك الأرض الواسعة المطمئنة أشهر سوق من أسواق العرب .

وخرج عتيق (أبو بكر) مع بنى تيم إلى عكاظ وكان سعيدا غاية السعادة ، فسيلتقى فى عكاظ وفى مجنة وفى ذى المجاز وفى موسم الحج بصديقه محمد . وإن أسعد أيام حياته لتلك التى يمضيها فى رفقة صاحبه الذى كان يزداد إعجابا به على مر الأيام .

وانطلقت قافلة قريش فى معبد الله ومحمد يرى فى كل ما يوجه إليه بصره إرادة الله الحرة ، فيتهلل بالفرح بالحكمة التى كانت تنسكب فى روحه من فوق السموات ، حتى بات يحس أن شهيقه إن هو إلا مجد الله ، وأن الحياة التى تسرى فى الوجود إن هى إلا خفق قلب رحيم ، وأن شيئا آسرا ساحرا يجذبه إلى الجوهر الأسمى وينزعه من ذاته ويحفزه إلى تجاوز الطبيعة ويهيب به أن يتحد بالعالم وأن يستجيب للنداءات التى توصيه بأن يستمسك بمكارم الأخلاق .

كان الفضاء ممتدا أمامه ولكن نفسه كانت أكثر اتساعا من تلك البيداء التى تضرب فيها قوافل قريش ، إنه يحس حرية طاغية ولكنها لم تكن حرية مطلقة بل حرية واصلة توسع آفاق الروح المجنحة وتوهن

رغبات الجسد أو تكبح جماحها .

وقويت بصيرته حتى صار يرى بنور الله ، وانداحت موجات تفكيره حتى وسعت الوجود وما وراء الوجود ، وإن ذاته التى تتدبر وتتروى وتتأمل فى تدريب شاق مستمر ، وفى نزوع إلى غاية ليس بعدها غاية ، وإن هى تترقى كل يوم بل كل ساعة وكل لحظة لتبلغ أسمى ما تبلغه روح بشرية ، ألا هو الاتصال بالجوهر الأسمى وتلقى أوامر السماء لتبليغها إلى أهل الأرض .

وانقضت ليلة وقافلة قريش فى طريقها إلى عكاظ ، وانقضت الليلة الثانية وأدبرت الليلة الثالثة وقد أشرفت القافلة على سهل واسع به أحجار كبيرة من المرمر والرخام ، ومحمد يجاهد ليلحق نفسه الذكية بنفسه وبالوحى الذى بات يحس أنه ينزل بصدره وينير جوانحه بنور اليقين ، وباتصال روحه بذات الذوات .

ونزلت قافلة قريش برجالها وشبابها وعبيدها وتجارتها بالقرب من العُبيلات ، وراح محمد يتلفت فقد كانت أول مرة يفد فيها إلى عكاظ ، فرأى أرضا واسعة مطمئنة كانت مجتمع مياه السيل ، وإلى الشرق حرة كبيرة عالية ، فذهب إليها فإذا بها مشرفة على سهل واسع ، وإذا بأحجار بيضاء من المرمر عرفت بالعبيلات ، وإذا ببعض الرجال يطيفون بالعبيلات البيض وينحرون عندها .

ورمى ببصره شطر الجنوب فإذا جبل بعيد ينتهى إليه النظر ، إنه هضبة جلدان . وإلى الغرب والشمال من هذا الجبل البعيد أكمة بيضاء من رخام هى العُبيلا ، وإلى الشمال والغرب جبيل أدكن هو العرفا ، وطمح البصر إلى جبال بعيدة هى جبال عسير .

ويأتى من الجنوب والغرب وادى يشرب وتلتقى به أودية منها وادى الأخيضر به نخل لقبيلة عدوان ؛ إنها سوق لقيس عيلان وثقيف ، وقد جاء إليها الناس من مكة ومن الطائف ومن نجد ومن اليمن فقد كانت فى طريق أهل اليمن ونجد إلى مكة .

وهبط محمد من فوق الحرة وراح يجوس خلال السوق فألفى النابغة الذبيانى وقد ضربت له قبة من أدم ، واجتمع إليه الناس يصغون إلى ما يقول من الأشعار . وكان محمد يكره الشعر ويمقت ذلك الطواف الذى يمارسه الناس حول العبيلات ، وما كانت غير مرمر أبيض .

ونصبت هوازن صنما لها فى السوق كان يعرف بجُهار ، فراح الناس يطيفون به ويتمسحون به وينحرون عنده ويحلقون رءوسهم ، فضاق محمد بما يفعل قومه وذهب بعيداً ليناجى السماء تلك المناجاة الصامتة التى كانت أحر وأصفى من أى صلاة .

إنه بات لا يستشعر راحة نفسية إلا إذا ألقى بنفسه فى أحضان الطبيعة لترفعه إلى ما وراءها ، إلى الخير الأسمى وفيض النور . وإنه مذ تلك الليلة التى خرج فيها مع قومه فى عيد من أعيادهم إلى حيث تقام الأصنام ، ودنا من صنم بوانة فخيل إليه أن ماردا هائلا يحول بينه وبينه ، ثم جرى ليرتمى فى أحضان بركة الحبشية وهو يخشى أن يكون به مس من الشيطان ، إنه مذ تلك الليلة لم يدن من صنم ولم يحاول أن يمسه .

وإنه مذ خرج ليلتين متتاليتين ليسمر فى مكة كما يسمر الفتيان وعصمه الله بأن ألقى عليه النعاس لم يفكر قط فى السمر ، فحلقات السمر منتشرة فى كل مكان فى أرجاء عكاظ ، وأصوات الدفوف والمزامير وغناء القيان تسرى مع النسيم فى السهل الواسع، ولكن محمداً قد صم أذنيه

وفطم جوارحه عن كل لهو ، فهو غائب عن نفسه وعن كل ما حوله بالفيض الروحى الذى يغمره فيملأ عين وجود بالابتهاج .

وضربت خيمة لعامر بن الظرب العدوانى وكان من حكماء قيس لا تعدل العرب بفهمه فهما ولا بحكمه حكما ، ويتحاكمون إليه فى كل معضلة ، فما كان يغلظ فى حكمه ، وقد جاءه صعصعة بن معاوية يخطب إليه ابنته فقال :

ـــ يا صعصعة إنك جئت تشترى منى كبدى ، وأرحم ولدى عندى ، منعتك أو بعتك ، النكاح خير من الأيمة ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح يعد أبا ، قد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك .

ثم أقبل على قومه ، فقال :

ـــ يا معشر عدوان أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم ، ولكنه من خُطّ له شيء جاءه ، رب زارع لنفسه حاصد سواه . ولولا قسم الحظوظ على غير الجدود ما أدرك الآخر من الأول شيئا يعيش به ، ولكن الذى أرسل الحيا (المطر) أنبت المرعى ، ثم قسمه أكلا لكل فم بَقلة ، ومن الماء جرعة . إنكم ترون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذى قلب واع ، ولكل شيء راع ، ولكل رزق ساع ، ما أكيْس وما أحمق ! وما رأيت شيئا قط إلا سمعت حسه ، ووجدت مسه . وما رأيت موضوعا إلا مصنوعا ، وما رأيت جائيا إلا داعيا ، ولا غانما إلا خائبا ، ولا نعمة إلا ومعها بؤس ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ، فهل لكم فى العلم العليم ؟!

ـــ ما هو قد فات فأصبت ، وأخبرت فصدقت ؟

ـــ أرى أمورا شتى وشيئا شيا ، حتى يرجع الميت حيا ، ويعود

اللاشيء شيا ، ولذلك خلقت الأرض والسماء .

فتولوا عنه راجعين فقال :

ـــ ويْلمُهَّا نصيحة لو كان من يقبلها .

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث فكانوا يرون أن الموت نهاية وأنهم غير مبعوثين ، وأن البعث بعد الموت أمر لا يصدق فكانوا يقولون لكل من يقول بالبعث : إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . وأنكر البعث أقوام من كل قبيلة ، بل إن أناسا من قريش أنكروا الآخرة والربوبية ، أخذو زندقتهم هذه من الحيرة . وإن كانوا يقدمون القرابين للأصنام ويهدون إليها فإنهم لا يرجون ثوابا فى الآخرة بل لتمن عليهم بالنعم والخيرات فى هذه الحياة الدنيا .

وكانت فئة قليلة من الجاهليين يؤمن بالبعث وبالحشر بالأجساد بعد الموت ، فإذا ما مات أحد منهم عقروا ناقة أو جملا أو بقرة أو شاة عند قبره ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعا أو عطشا ، أو يحفر لها أو تترك فيها حتى تبلى ، فقد كانوا يعتقدون أن الناس ركبانا على البلايا ، وأن من لا بلية له يحشر ماشيا .

وكان فى السوق غيلان بن سلمة الثقفى وهو من حكماء قيس ، وكان عنده حرب بن أمية وأبو سفيان بن حرب فالصداقة بينه وبين بنى أمية كانت وثيقة ، وكثيراً ما اشترك غيلان فى تجارة بنى أمية . وكانت له ثلاثة أيام : يوم يحكم بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر فيه إلى جماله فقد كان جميلا آية فى الحسن وكان يسره أن يطيل النظر إلى جماله فى المرآة . وكانت عنده عشر نسوة غير الإماء ، فقد كان العربى يتزوج بلا حدود ولا قيود يأخذ من النساء ما يشاء ما دام قادراً على أن

يطعمهن ويقوم بنفقتهن .

والتقى محمد بصديقه عتيق (أبو بكر) فذهبا فى السوق ، أبو بكر يصغى إلى الأنساب وحكماء العرب من تميميين وعدوانيين وقرشيين ويهتم بالديات ، ومحمد يرصد فعال قومه ويقيسها على ما كان ينبغى أن تكون عليه ، وإذا بقيس بن ساعدة الأيادى يقبل على جمل أورق فيهرع الناس إليه ، فقس تضرب بحكمته الأمثال ، أيقن بالبعث والحساب وسلم بالقضاء وذكر النشور ووعظ دائبا وخوّف الدهر وشوّق إلى الحنيفية .

وألقى محمد سمعه إلى قس ، وراح أبو بكر يرنو إليه فى انتباه ، وقال قس بن ساعدة :

ــ يأيها الناس ، اجتمعوا واستمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا . مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . وأقسم قس قسما حقا ، لئن كان فى الأمر رضى ليكونن بعده سخط .

إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه . ما لى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون . أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟

وانفض الناس من حوله وبعضهم يروى شعره :

فى الذاهـــــبين الأوليــــــن من القرون لنـا بصائـر
لما رأيت مــــــــــواردا للمـــوت لــيس لها مصادر
ورأيت قومـــــى نحوهــــا يمضى الأصاغـر والأكابـر
لا مـــن مضى يــأتى إليـــك ولا مـن البـاقين غابـر
أيقـــــــنت أنى لا محا لـة حيث صار القـوم صائـر

ودار الحديث حول قس فقال قائل من إياد ، إن قساً وقف ذات يوم يعظهم فقال :

ـــ أما بعد ، فيا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد . يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الانفراد ، فى يوم التناد ، إذا نفخ فى الصور[١] ، ونقر فى الناقور ، وأشرقت الأرض ووعظ الواعظ ، فانتبذ وأبصر الملاحظ ، فويل لمن صرف عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، فى يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير .

وفى ناحية من السوق كان راوية ويروى شعر قس :

ذكر القلب من جواه ادكار ... وليال خلالهن نهار
وسجال هواطل من غمام ... ثرن ماء وفى جواهن نار
ضوءها يطمس العيون وأرعا ... د شداد فى الخافقين تطار
وقصور مشيدة حوت الخـ ... ـير وأخرى خلت بهن قفار
وجبال شوامخ راسيات ... وبحار مياههن غزار
ونجوم تلوح فى ظلم الليـ ... ـل نراها فى كل يوم تدار
ثم شمس يحثها قمر الليـ ... ـل وكل متابع موّار
وصغير وأشمط وكبير ... كلهم فى الصعيد يوما مزار
وكبير مما يقصر عنه ... حدسة الخاطر الذى لا يحار

---

(١) انظر التذييل .

فالذى قد ذكرت دل على اللـ ـه نفوسا لها هدًى واعتبار

وقام الشعراء فى السوق يتفاخرون ليذهب صيتهم فى الناس ، وكان بدر بن مَعْشر أحد بنى غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهو أبو أبى ذر الغفارى ، جعل له مجلس بسوق عكاظ ، وكان حدثا منيعا فى نفسه ، فقام فى المجلس وقام على رأسه قائم وأنشأ يقول :

نحن بنو مُدركة بن خِنْدف
من يَطعنوا فى عَينه لم تطْرف
ومن يكونوا قومه يُغَطْرف(١)
كأنهم لجة بحر مُسدف(٢)

ومد رجله وقال :

— أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز منى فليضربها .

فجاء الأَحيمر بن مازن ، أحدُ بنى دُهمان بن نصر بن معاوية وضربها بسيفه ضربة يسيرة شجت الجلد قليلا وقال :

خذها إليك أيها المُخندف
نحن بنى دُهمان ذو التغطرُف
بحر لبحر زاخر لم ينزف
نبنى على الأحياء بالمُعرَّف

وثارت كنانة لبدر ، وثارت هوازن القبيلة التى استرضع فيها محمد للأحيمر ، وكادت الحرب أن تنشب فى الأشهر الحرم بين الحيين ،

---

(١) يختال فى مشيته تكبرا .

(٢) مظلم .

وتحاور الرجال حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ، ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير ، وكان دم الغفارى هو أول دم سال فى عكاظ فى الشهر الحرام ، فكان ذلك أول يوم من أيام الفِجار .

وانتهت أيام عكاظ فرحلت القبائل إلى سوق مجنة ، وقد حسب الشعراء أن شعرهم سيرفع ذكرهم على مر الأيام ، وظن زعماء القبائل أن المناوشات التى تدور بين أحياء العرب والتى عرفت بأيام العرب ستخلد أعمالهم ، وما دار بخلد أحدهم أن محمد بن عبد الله ذلك الفتى الذى يبدو هادئا ساكنا ، والذى يسير إلى جوار صديقه عتيق (أبو بكر) هو الذى سيكتب تاريخهم ويحفر أسماءهم على جبين الزمن بأحرف من نور .

— ١٩ —

دبت الحياة فى بيت أبى طالب ، وقامت فاطمة تجهز الطعام لزوجها وأبنائها وللفتى محمد الذى كان أول من غادر فراشه وذهب إلى النافذة يرقب الأفق الشرقى فى الفجر ، لتبتهج نفسه بتأمل مولد النهار .

كان فى تطور روحى مستمر ، وكان الكون النابض بروح الله هو المنهل العذب الذى ترده روحه لتعب منه فى نهم واشتياق . وإنه يحس عطشا إلى المعرفة على الدوام ، فكانت الأواصر تشتد بينه وبين الوجود وروح الوجود على مر الأيام ، وكان البعد الذى بينه وبين الخير الأسمى يطوى مع الزمن ، فهو يسير فى طريق الحقيقة الخالدة ويدنو من الإشراق . إنه يرى أن غايته وراء هذه الطبيعة وفوق الكون : فهذا

الوجود لا يمكن أن يكون مبدع نفسه ومنظم نفسه . والأصنام التى فى جوف الكعبة ومن حولها إن هى إلا حجارة نحتتها يد البشر فكيف يسجد لها إنسان ؟ إن الأمر ليس فيه التباس ولا اشتباه ولا غموض ولا شك : بل يقين ما بعده يقين ، وتوازن وانسجام وتوافق مع مبدع الكون ومنظم الحياة ، مع الحقيقة الأزلية الأبدية ، مع الإرادة الخيرة المتعالية التى أصبح يحسها فى أعماق وجوده : مع الله .

ووضع الطعام فخف إليه بنو أبى طالب ينتهبون . بينا ذهب أبو طالب إلى محمد يقدم إليه طعامه فقد اهتدى أبو طالب إلى أن محمدا إذا ما جلس مع أبناء عمه على طعام لا ينتهب كما ينتهبون ، ويمنعه حياؤه ورقته بل ورحمته من أن يمد يده إلى ما تمتد إليه أيد قلما تشبع من طعام ، فكان أبو طالب يفرد له طعاما وما كان محمد يأتى عليه على الرغم من قلته ، فامتلاء المعدة يهيض جناح روحه بينا كانت سعادته فى أن تحلق روحه إلى ما فوق السموات ، لتقتبس نور الهداية من نور النور .

كان أبو طالب كثير العيال وكانت دكان العطارة لا تسد حاجات الأسرة التى يزيد عددها على مر السنين ، وكانت رفادة حجاج بيت الله وسقايتهم عبئا ثقيلا ينوء به الرجل الذى ورث ذلك الشرف عن أبيه ، وإن الأرباح التى جناها من رحلة الشام قد ذابت جميعها فى موسم الحج بل لقد اقترض من أخيه العباس مبلغا ليس باليسير لينفق منه على إطعام فقراء الحجاج وسقايتهم ، فالرفادة والسقاية شرف يهون فى سبيله كل مال .

بعث العباس بضاعته المتواضعة مع أخيه إلى الشام وقد حققت له أرباحا مكنته من أن يزيد فى تجارته التى بعث بها إلى سوق عكاظ وسوق

مجنة وذى مجاز . ولما لم يكن العباس رب أسرة كبيرة كأخيه أبى طالب فقد ربا له ماله واستطاع أن يقرض أخاه وإن كان على ثقة من أن أبا طالب لن يستطيع أن يردّ ما اقترض فهو يطمح فى أن تئول إليه السقاية والرفادة وإن كان من أحدث أبناء عبد المطلب سنا ، فذلك الشرف يستأهل أن يترك لأخيه كل ما اقترضه وكل ما سيقترضه من الأموال ، فإنها لأمنية عزيزة وشرف ما بعده شرف أن يتنازل له أخوه المعسر عن الرفادة والسقاية لقاء أن يتنازل له عن دَينه .

وكان محمد يحس إملاق أبى طالب فكان يرعى غنم أهله بقراريط وكان ينطلق إلى الأسواق فى المواسم مع أعمامه ليكسب قوته بجهده ، فما كان يرضى أن يكون عالة على أحد من أعمامه ، فكل ما ورثه عن أبيه جاريته الحبشية وبعض غنمات لا تغنى ولا تسمن من جوع .

كانت دور بنى هاشم متقاربة ، فدار الزبير عمه قريبة من دار أبى طالب ، وبيت عبد المطلب الكبير الذى ينزل فيه أعمامه حمزة والمقدّم وضرار ، ودار أبى لهب إلى جوار دور بنى عبد المطلب ، ولم تكن دور عماته بعيدة عن الحى فدار صفية زوجة العوام بن خويلد ، ودار أم حكيم البيضاء توأم أبيه عبد الله ، ودار ابنتها أروى بنت كريز التى تزوجت عفان بن أبى العاص بن أمية وولدت له عثمان بن عفان ، ودار عاتكة وأروى وأميمة وبرة كلها دور تطل على الحرم ، وهو يستطيع أن يدور عليها لو شاء ليجد الترحيب به والمبالغة فى تكريمه ، ولكنه كان يؤثر أن يفر بنفسه من أسر أسرته لينطلق حرا طليقا فى الوجود الذى أصبح يستريح كلما ارتمى فى أحضانه ، وأضحى بنشرح له صدره كلما أحس

بتوافق بينه وبينه ، وأمسى يبتهج لما تهيم ذاته لتتصل بذات الذوات ، وبات يتهلل بالفرح لما يحس كأنما الحكمة تنسكب من فوق السموات فى صميم وجوده وعين ذاته وأعماق أعماقه .

كان فى بنى هاشم كثيرون فى مثل سنه ، وكان فى قريش فتيان ظرفاء ممن يحب من كان وحيدا مثله أن يألفهم ويألفونه ، ليفر من وحدته ويقضى على ألم الانطواء فى قوقعة ذاته ، ولكنه لم يكن يستريح لصحبتهم فهم يطلبون اللهو وما كان طالب لهو ، وهم يسجدون للأصنام دون تفكير لأنهم وجدوا آباءهم على ذلك وهو تأبى عليه كرامته الإنسانية أن يخر ساجدا لحجر ، وهم يمضون النهار وطرفا من الليل فى اللغو وهو يمر باللغو مر الكرام ، وهم يرون فى آبائهم وأمهاتهم كل آمالهم وهو ينعطف إلى الذى ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ويستشعر بكل وجوده أن روح الأرواح تحنو عليه وترعاه وتؤتيه الحكمة وتعلمه ما لم يكن يعلم ، وأنه مفعم بروح الله .

كان يحب بركة جاريته الحبشية وكان يناديها بيا أماه ، وكان لا ينسى أن ثويبة جارية عمه أبى لهب قد أرضعته فكان يعطف عليها ويترفق بها ، وكان كلما رآها تذكر حليمة السعدية وإخوته الشيماء وأنيسة وعبد الله الذين أول ما تفتحت عيناه تفتحت عليهم وخفق قلبه الكبير بحبهم ، وكان يحب عمه الزبير فهو لا ينسى ما قالته له بركة من أن عمه الزبير كان يرقصه وهو طفل ويقول :

محمـــد بـــن عبـــد م	عشت بعـــيش أنعـــم
فى دولـــة ومغنـــم	دام سجـــيس[1] الأزلم

---

(١) الأزلم: الكريم من الإبل، والسجيس: بمعنى أبدا يريد دام له العيش الكريم.

وكان عمه أبو طالب فى سويداء قلبه ، أما زوجة عمه فاطمة فلا يدرى كيف يجازيها عن عطفها السابغ الذى غمرته به مذ ماتت آمنة وعوضته بحنانها عن حنان الأم الراحلة .

وكان عمه حمزة رفيق طفولته وصباه ولدا معا وترعرعا معا ، وكان ألمهما مشتركا لما مات عبد المطلب ، فقد ذاق حمزة مرارة أول يتم ، أما هو فقد تجرع فى صمت مرارة الألم للمرة الثانية ، فيتمه بعد عبد المطلب كان أقسى من يتمه بعد آمنة ، وقد جمع اليتم بين قلبيهما ؛ إنه يحب حمزة حب الشقيق للشقيق بل حب النفس لذاتها .

وكان عمه حجل يغدق عليه من ماله وعطفه كلما رآه ، فقد اشتهر حجل بكرمه حتى سمى الغيداق لإغداقه على قومه ، وهو يحب عمه وعماته وكل من اتصل بهم من قرشيين ومكيين وعبيد وإماء ، ولكن حبه للذات العلية التى صار يستشعرها فى صميم وجدانه يفوق كل حب أحس به لأهل الأرض .

إنه لو شاء أن يحيا حياة ناعمة راضية لوجد ذلك ميسورا ، فتيان قريش من هاشميين وأمويين ومخزوميين وتيميين وأسديين يمضون نهارهم يتسكعون فى الحرم يتمسحون بالأصنام ويطوفون بالكعبة ، ويدخلون إلى حيث كان هبل يرقبون الذين يستقسمون بالأزلام ، أو يسارعون إلى جفان الكرام الذين ينفقون الأموال ليذهب صيتهم فى القبائل ، أو يهرعون إلى حلقات المناقشات الدينية التى كانت تدور بين هواة التسكع الذهنى من حنفاء ومجوس ووثنيين ويهود ونصارى ، فإذا ما جن الليل انسلوا إلى السمار يمتعون العيون برقص الإماء ، ويشنفون الآذان بغناء القيان وشعر الشعراء .

كان عمه أبو طالب شاعرا من فحول شعراء قريش ، وكان عمه الزبير شاعرا مفلقا شديد العارضة قذع الهجاء ، وكانت دار أبى طالب موئل الشعراء فى الليل ، فلو شاء أن يسمر فما أيسر أن يسمر فى نادى قومه ، ولو شاء أن يلهو لذهب مع أبى لهب وأبى سفيان ، ولكنه لم يخلق للسمر أو اللهو أو العبث بل خلق ليكون نورا يقتبس نوره من نور النور ليشعه على العالمين .

وغادر محمد دار أبى طالب وانحدر إلى الحرم ، فإذا بسادات قريش قد أتوا بأبنائهم ليطوفوا بالبيت ثم ينطلق من ينطلق إلى دار الندوة ، ويذهب من يذهب إلى الأسواق ، ويجلس من شاء أن يجلس فى ظل الكعبة يبرم العقود ويوثق المواثيق ويعقد الصفقات التجارية .

كان أبو بكر فى رفقة أبيه أبى قحافة ، وكان خالد فى رفقة الوليد بن المغيرة ، وعثمان مع أبيه عفان بن أبى العاص ، وعمرو مع العاص بن وائل ، وصبيان قريش وفتيانها مع الآباء أو العبيد أو الأصدقاء ، وما طمع أحدهم فى أكثر من حياة مترعة بالمتعة ، وما خطر لهم على قلب أن يتجاوز صيتهم حدود مكة ، وكانت أقصى أمانيهم أن يأتى ذلك اليوم الذى يستقبلهم فيه البلاط الفارسى أو البلاط الرومانى فى القسطنطينية أو قصر الخورنق بالحيرة ، ولم يطف بأذهانهم أن أسماءهم ستخلد فى تاريخ البشرية بفضل ابن عبد الله الذى يسير فى الحرم هونا متواضعا لتلك القوة العلية التى صار يوقرها كل التوقير ، فقد كان ذلك بعيدا عن كل تصور ، وما كانت تتطال إليه الأحلام .

كان الناس يطوفون بأول بيت وضع للناس ولكنهم لم يكونوا على ملة واحدة ولا على قلب رجل واحد ، فمنهم من أنكروا الخالق والبعث

وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق وأنكروا البعث ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا ، ومنهم من يعتقدون التناسخ فيقولون إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصب طيرا « هامة » فيرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة .

ومنهم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة ، ومنهم من كان يعبد النار ويحسب أنه عل دين زرادشت ، ومنهم من اعتنق اليهودية ، ومنهم من كان على دين النصرانية ، وقد قالت امرأة تنهى ابنها عن الظلم فى الحرم :

أبنىّ لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير
أبنىّ من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور
أبنىّ قد جربتها فوجدت ظالمها يبور
أبنىّ ! أمّن طيرها والوحش يأمن فى ثبير

وما دروا أنهم أنفسهم يظلمون .

وطاف محمد بالبيت وإن كانت فى نفسه كراهية للأصنام التى حولها ، وما أتم طوافه حتى غادر المسجد إلى أعالى مكة ، إلى الصحراء المترامية ، حيث الحرية الراشدة والحياة الروحية الحقة التى تنتصر فيها الروح على الجسد ، وتندمج فى الخير الأسمى ، فى القوة الإلـٰهية نفسها .

إنه يتعاطف مع الوجود والموجود ، وينجذب إلى الكون ورب الكون ، ويحب العالمين ورب العالمين ، مفضلا العزلة على الإندماج فى

مجتمعه ، لا لأن الجحيم هو الغير ولا لينفصل انفصالا مطلقا عن دنيا الناس طلبا للسلامة وراحة البال ، بل ليستمد من الحق أفكارا جديدة وعواطف خيرة ومعتقدات سليمة ومبادىء رشيدة تخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وترتفع بالبشرية إلى ذروة العزة والكرامة والإنسانية .

إنه يفر من المجتمع لخير المجتمع ، وإنه وإن ذهب إلى البيداء ليتأمل ويفكر ويتدبر بعيدا عن الجماعة فهو فى قلب الجماعة ، فما لاذ بالقوة العلية ملتمسا الخير لنفسه وحده ، بل طلبا للحكمة التى سيسبغها على قومه وعلى العالم أجمع ، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

كان الإخلاص فى النية يملأ قلبه ، والتجرد من الغرض الدنيوى سمته ، لا يرغب إلا فى الخير ولا يطمح إلا إليه ، فسمت روحه وارتفعت واتصلت بروح الوجود ، فلم يعد الله عالما غامضا بل حقيقة حية تعيش فى ضميره ويراها ببصيرته ، وتدنو منه وتغمره بالبركات كلما خر ساجدا وباكيا .

— ٢٠ —

اجتمع الناس يتسامرون فى الدور وحول الحرم ينشدون الشعر ويروون ما وصل إليهم من كتاب كليلة ودمنة ، أو يحاكون قصصه ويتسلون بالأحاجى ، أو يقصون قصص ملوك فارس وما جرى بين شعرائهم وساداتهم وبين النعمان بن المنذر ملك الحيرة ؛ ومن ذهب إلى قصور ملوك الغساسنة كان يروى ما بهره فى تلك القصور من قيان وغناء

وخمور وحضارة تضاهى حضارة الروم ، أما الذين لم يسعدهم الحظ بالسياحة فى الأرض فقد كانوا يقصون قصصا تدور حول الوقائع الحربية التى وقعت بين القبائل والتى عرفت بأيام العرب .

كانت حلقة من السمار تصغى إلى قصص الحيوانات والأحاجى ، قال قائل :

ـــ ذهبت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين ، وذهب الغراب يتعلم مشية القطاة فلم يتعلمها ونسى مشيته فلذلك صار يحجل ، وأن الضفدع كان بلا ذنب لأن الضب سلبه إياه .

وقال آخر :

ـــ إن الهدهد لما ماتت أمه أراد أن يبرها فجعلها على رأسه يطلب موضعا فبقيت فى رأسه ، فالقُنْزَعة التى فى رأسه هى قبرها وإنما أنتنت ريحها لذلك .

ـــ الهَدِيل فرخ كان على عهد نوح فصاده جارح ، فما من حمامة إلا وهى تبكيه .

ـــ إن امرأ القيس الى على نفسه ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين ، فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن له أربعة عشر ، فبينما هو يسير فإذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمّه ، فأعجبته فقال لها : يا جارية ! ما ثمانية وأربعة واثنان ؟ فقالت : أما ثمانية فأطباء الكلبة ، وأما أربعة فأخلاف الناقة ، وأما اثنان فثديا المرأة . فخطبها من أبيها .

وراح رجل فى حلقة أخرى يروى ما جرى فى حرب البسوس قال :

ـــ كان كليب بن ربيعة سيدا على معد ، وقد اجتمعت عليه معد

كلها وجعلوا له قَسم الملك وتاجه وتحيته وطاعته بعد أن قضى على جموع اليمن وهزمهم ، ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معد له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حِماه ، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ويقول : وحش أرض كذا فى جوارى فلا يهاج ، ولا تورد إبل واحد مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، حتى قال العرب : أعز عن كليب وائل .

وكان بنو جُشم وبنو شَيبان فى دار واحدة بتهامة ، وكان كليب بن وائل قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان وأخوها جسَّاس بن مرة .

وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جسَّاس بن مرة ، وكانت نازلة فى بنى شيبان مجاورة لجساس ، وكانت لها ناقة يقال لها سراب ، فمرت إبل الكليب بسراب ناقة البسوس وهى مَعقولة بفناء بيتها فى جوار جساس بن مرة . فلما رأت سراب الإبل نازعت عِقالها حتى قطعته وتبعت الإبل واختلطت بها حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة ، فلما رآها أنكرها فانتزع لها سهما فخرم ضلعها ، فنفرت الناقة وهى ترغو .

فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت :

ــ واذلاه ! واجاراه !

وخرجت فأحمشت جساسا فركب فرسا له عريانة ، وأخذ آلته وتبعه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان على فرسه ومعه رمحه ، حتى دخلا على كليب الحمى فقال له :

ــ يا أبا الماجدة ! عمدت إلى ناقة جارتى فعقرتها .

— أتراك مانعى أن أذب عن حماى ؟

فأحسنه الغضب فطعنه جساس فقصم صُلبه ، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يفحص برجله وقال لجساس :

— أغثنى بشرية من ماء .

— هيهات تجاوزت شبيثا والأحص[١] .

فلما قتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلوا بماء يقال له النِّهى . وتشمر المهلهل أخو كليب وهو عَدى بن ربيعة ، وإنما قيل له المهلهل لأنه أول من هلهل الشعر (أرقه) ، واستعد لحرب بكر . وترك النساء والغزل وحرم القمار والشراب وجمع إليه قومه فأرسل رجالا منهم إلى بنى شيبان يعذر إليهم فيما وقع من الأمر .

فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان وهو فى نادى قومه فقالوا له :

— إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليبا بناب من الإبل ، فقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة ، وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الإعذار إليكم ، ونحن نعرض عليهم خلالا أربعا لكم فيها مخرج ولنا مقنع .

فقال مرة :

— وما هى ؟

— تحيى لنا كليبا أو تدفع إلينا جساسا قاتلة فنقتله به ، أو هماما فإنه كفء له ، أو تمكننا من نفسك من فإن فيك وفاء من دمه .

— أما احيائى كليبا فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فإنه غلام طعن

---

(١) غديران بمنازل ربيعة بنجد . أى ليس هذا الوقت لجلب الماء .

طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدرى أى البلاد احتوى عليه ، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومه ، فلن يُسلموه لى فأدفعه إليكم يقتل بجريرة غيره ، وأما أنا فهل هى إلا أن تجول الخيل جولة غدا فأكون أول قتيل بينها ، فما أتعجل من الموت ؟

ولكن لكم عندى خصلتان : أما أحدهما ، فهؤلاء بَنِىَّ الباقون فعلقوا فى عنق أيهم شئتم نسعه فانطلقوا به إلى رحالكم فاذبحوه ذبح الجذور ، وإلا فألف ناقة سوداء المُقل أقيم لكم بها كفيلا من بنى وائل .

فغضب القوم وقالوا :

ـــ لقد أسأت ، ترذل[١] لنا ولدك ، وتسومنا اللبن من دم كليب .

ووقعت الحرب بينهم .

ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها ودعت تغلب فانضمت إلى بنى كليب وساروا يدا معهم على بكر ، واعتزلت قبائل بكر بن وائل وكرهوا مُجامعة بنى شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم ، وأعظموا قتل جساس كليبا رئيسهم بناب من الإبل .

فظعنت لُجيم عنهم وكفت يشكر عن نصرتهم وانقبض الحارث بن عباد فى أهل بيته وهو أبو بجير وفارس النعامة . وقال المهلهل يرثى كليبا :

بت ليلى ، بالأنعمين[١] طويلا
أرقب النجم ساهرا أن يزولا
كيف أهدا ، ولا يزال قتيل

---

(١) ترذل : أى تعطينا الرذل من ولدك .

(٢) الأنعمان : واديان .

من بنى وائل يُنسِّى قتيلا
غَيت دارنا تهامة فى الدهر
وفيها بنو معد حلولا
فتساقوا كأسا ، أمرَّت عليهم
بينهم يقتل العزيز الذليلا
فصبَّحْنا بنى لُجيم بضرب
يترك الهام وقعه مفلولا
لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا
وأخو الحرب من أطاق النزولا
انتضوا معْجَس القسى وأبرقـ
ـنا كما تُوعد الفحول الفحولا
قتلوا ربَّهم كليبا سفاها
ثم قالوا : ما إن نخاف عويلا
كذبوا ، والحرام والحِلِّ ، حتى
تسلب الخدر بيضه المحجولا[1]
ويموت الجنين فى عاطف الرحم
ونروى رماحنا والخيولا

وراح الرجل يقص ما كان بين بكر وتغلب ابنى وائل من قتال ، ويروى أحداث يوم النهِّى ويوم الذنائب ويوم واردات ويوم عنيزة ويوم قضة ، يوم أسرف مهلهل فى القتل و لم يبال بأى قبيلة من قبائل بكر

---

(١) الذى فيه بياض

أوقع ، وكان أكثر بكر قعدت عن نصرة بني شيبان لقتلهم كليب بن وائل ، فكان الحارث بن عُباد قد اعتزل تلك الحروب حتى قتل ابنه بجير ابن الحارث ، فلما بلغ الحارث قتله قال :

ــ نعم القتيل ، أصلح بين ابني وائل .

وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفؤا له ، فقيل له :

ــ إنما قتله بشسع نعل كليب .

وراحوا يروون له أن المهلهل لما قتل بجيرا قال : بؤبشسع نعل كليب . فغضب الحارث بن عُباد وكانت له فرس يقال لها النعامة ، فركبها وتولى أمر بكر ، فقتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب ، فقال فى ذلك الحارث بن عُباد :

قرّبا مربط النعامة منى
لقحتْ حرب وائل عن حيالى(١)
لم أكن من جناتها ، علم الله ،
وإنى بحرها اليوم صالى

وأسر الحارث بن عباد المهلهل (عدى بن ربيعة) وهو لا يعرفه ، فقال له :

ــ دلنى على عدى بن ربيعة وأخلى عنك .

ــ عليك العهود بذلك إن دللتك عليه ؟

ــ نعم .

ــ فأنا عدى .

---

(١) أى قبالتى

فجز ناصيته وتركه وقال فيه :

لهف نفسى على عدى ولم أعرف
عديا ، إذ أمكنتنى اليدان

وفى حلقة من حلقات السمر فى دار سيد من سادات قريش الذين عادوا من فارس ، راح السيد يروى آخر أنباء الفرس ، قال :

ــ مات كسرى أنو شروان وتولى الملك من بعده هرمزد وهو يحاول أن يشتهر بالعدل كما اشتهر أنو شروان ، ولكن هيهات ! إن أنو شروان قد وضع على باب قصره سلسلة تنتهى بجرس عند الملك ليمكن لذوى المظالم ابلاغ الملك ظلاماتهم ، وقد ظلت السلسلة سبع سنوات ونصف سنة لم يمسسها إنسان . ثم دق الجرس فظهر أن حمارا أجرب قد تحكك بالسلسلة ، فأمر الملك بالبحث عن صاحب الحمار وأرغم على العناية بحماره .

ــ إن أمر أكاسرة الفرس عجيب ، فما من أحد يعرف أين ينامون خشية الاعتداء عليهم ، فإنه يفرش للملك منهم أربعون فراشا فى أربعين موضعا ليس منها فراش إلا ومن رآه من بعيد على الانفراد لا يشك أنه فراش الملك خاصة وأنه نائم فيه ، ولعله لا يكون على واحد منها بل لعله ينام على مجلس رقيق وربما توسد ذراعه ونام .

وليس لأحد الحق فى أن يدخل غرفة الملك الخاصة ، حتى ابن الملك عليه أن يستأذن قبل أن يدخل . وقد حدث ذات يوم أن رأى يزدجر ابنه بهرام وكان فى الثالثة عشرة بموضع لم يكن له فقال :

ــ مررتَ بالحاجب ؟

ــ نعم .

ـــ وعلم بدخولك ؟

ـــ نعم .

ـــ فاخرج إليه واضربه ثلاثين سوطا ونحه عن الستر ووكل بالحجابة آزاد مرد .

ففعل ذلك بهرام ، فلما جاء بهرام بعد ذلك ليدخل دفعه آزاد مرد فى صدره دفعة أوجعته كثيراً وقال :

ـــ إن رأيتك بهذا الموضع ثانية ضربتك ستين سوطا ، ثلاثين منها لجنايتك على الحاجب بالأمس وثلاثين لئلا تطمع فى الجناية على .

فبلغ ذلك يزدجر فدعا آزاد مرد فخلع عليه وأحسن إليه .

وفى حلقة من حلقات الشعراء راح كل منهم يتحدث عن الشيطان الذى يلقى إليه الشعر ، قال قائل :

إنى وإن كـــنت صغير السن　　فــإن فى الـعين نبـوًّا عنــى

فـــإن شيطـــانى أمير الجن　　يـذهـب بى فى الشعـر كل فـن

وقال آخر :

إنى وكل شاعــر مــن الـبشر　　شيطانـه أنثى وشيطانى ذكــر

وقال رجل لا ينظم الشعر :

ـــ أحقا ما يقال : إن الشعراء كلاب الجن ؟

ـــ ومن قال ذلك ؟

ـــ عمرو بن كلثوم فى معلقته ، إنه يقول :

وأنزلنا البيـوت بـذى طلـوح　　إلى الشامـات تنفـى الموعدينـا

وقـد هـرّت كـلاب الجن منـا　　وشذبنـا قتـادة مــن يلينـا

وراح الأعشى قيس بن ثعلبة يروى عن نفسه قال :

ـــ خرجت أريد قيس بن معديكرب بحضرموت ، فضللت فى أوائل أرض اليمن لأنى لم أكن سلكت ذلك الطريق قبل ، فأصابنى مطر فرميت ببصرى أطلب مكانا ألجأ إليه ، فوقعت عينى على خباء من شعر فقصدته ، وإذا أنا بشيخ على باب الخباء فسلمت عليه فردّ على السلام ، وأدخل ناقتى خباء آخر كان بجانب البيت فحططت رحلى وجلست فقال :

ـــ من أنت ؟ وأين تقصد ؟

ـــ أنا الأعشى أقصد قيس بن معديكرب .

ـــ حياك الإلٰه ، أظنك امتدحته بشعر .

ـــ نعم .

ـــ فأنشدنيه .

فابتدأت مطلع القصيدة :

رحلت سمية غدوة أجمالها غضبا عليك فما تقول بدالها

فلما أنشدته هذا المطلع منها قال :

ـــ حسبك . أهذه القصيدة لك ؟

ـــ نعم .

ـــ من سمية التى تنسب بها ؟

ـــ لا أعرفها ، إنما هو اسم ألقى فى روعى .

فنادى :

ـــ يا سمية اخرجى .

وإذا جارية خماسية قد خرجت فوقفت وقالت :

ـــ ماذا تريد يا أبت ؟

— أنشدى عمك قصيدتى التى مدحت بها قيس بن معديكرب ونسبت بك فى أولها .

فاندفعت تنشد القصيدة حتى أتت على آخرها لم تخرم منها حرفا ، فلما أتمتها قال :

— انصرفى .

ثم قال :

— هل قلت غير ذلك ؟

— نعم ، كان بينى وبين ابن عم لى يقال له يزيد بن مسهر يكنى أبا ثابت ما يكون بين بنى العم فهجانى وهجوته فأفحمته ، قال :

— ماذا قلت فيه ؟

قلت :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

فلما أنشدته البيت الأول قال :

— حسبك . من هريرة هذه التى نسبت بها ؟

— لا أعرفها وسبيلها سبيل التى قبلها .

فنادى :

— يا هريرة .

فإذا جارية قريبة السن من الأولى خرجت ، فقال :

— أنشدى عمك قصيدتى التى هجوت بها أبا ثابت يزيد بن مسهر .

فأنشدتها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفا ، فسُقط فى يدى وتحيرت وتغشتنى رعدة ، فلما رأى ما نزل بى قال :

— ليفرخ روعك يا أبا بصير ، أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذى

ألقى على لسانك الشعر .

وفى حلقة أخرى من حلقات السمر راح الشباب يتحدثون أحاديث الهوى وينشدون أشعار الغزل ، ويروون كيف شق المحب برقع حبيبته وكيف شقت الحبيبة رداء الحبيب ليصلح حبهما ويدوم ، وقال قائل منهم :

وكم قد شققنا من رداء محبر
ومن برقع عن طفلة غير عانس
إذا شق برد شق بالبرد برقع
دواليك حتى كلنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بُقيا على الهوى
وإلف الهوى يغرى بهذى الوساوس

كان الشعر هو محور السمر فى مكة ، وكانت الخمر تدور على السمار ، وكانت القيان يغنين شعر الفحول بما فيه من تهتك ومجون ، وكان شباب مكة فى أحضان البغايا أو يلعبون الميسر ، وكان أطهر سمر أن يقرأ المتعبدون من الشيوخ فى صحيفة لقمان حكمه ووصاياه لابنه ، أو يعكف الذين تنصروا على النظر فى التوراة والإنجيل .

ولم يؤم محمد نوادى قومه ولم يلق سمعه إلى أساطير الشعوب وقصص الأيام وشعر المُجّان وخلاعة الشبان المترفين الغارقين فى اللهو حتى الآذان ، فما خلق إلا ليتمم مكارم الأخلاق ، فحببت إليه العزلة ، فكان هناك فى بيداء مكة يعمل على تنقية وجدانه بمحاولة الاتصال بالله بتخلية القلب من كل من عداه وما عداه ، يستلهم من معارفه ويستضىء بأنواره وترفعه تأملاته العميقة إلى ما فوق السموات ليتحقق له الكمال

الخلقى الباطنى الذى ينشده .

إنه فى كفاح مستمر متجدد مع نفسه ، وإنه يحس أنه على مر الأيام يزداد دنواً من الذات العلية ، فحبه لله قد صار وجداً ، والتفكير فيه قد أصبح مراقبة . وقد أضاءت مصابيح أفكاره بفيض نوره ، وانتشرت فى جوانبه أشعة من الحقيقة الأزلية ، وتغلغلت فى أغوار ذاته لتتخذ أعماقا رصينة وأغواراً بعيدة تعده لما هو ميسر له .

لم يعد يرفع صوته بابتهالاته ولا بصلواته فقد اهتدى إلى أن الخير الأسمى يعلم ما فى نفسه وما تخفى الصدور ، وأنه يتولاه برعايته لينمى فيه القيم الأخلاقية ليبلغ غايته ، ولن يصل إلى نبع المعرفة قبل أن يوحى إليه فالوحى تاج المعرفة ، وإنه طريق شاق ، كله جهاد وكفاح وإن أشق الجهاد جهاد النفس .

— ٢١ —

شرد أبو طالب يفكر وقد لاح الهم فى وجهه ، فموسم الحج جاء وليس عنده من المال ما ينفقه على إطعام فقراء الحجاج وسقايتهم ، إنه اقترض من أخيه العباس ما أنفقه فى السقاية والرفادة فى العام الفائت ، وإن عليه أن يسدد دينه فى هذا العام وأن يحصل على مال وفير ينفقه على ضيفان بيت الله ، وإن تجارته تقصر عن سد الدين وإطعام الناس فى الموسم .

كان عبد المطلب يبث الزبيب فى مياه زمزم التى توضع فى أحواض من أدم هنا وهناك ، وكان ينحر الجزور للناس ويتركها للطير فى رءوس

الجبال حتى لقبوه بالفياض ، وإن أبا طالب يسير على سنة أبيه ليحافظ على الشرف الذى آل إليه ، ولكن أبا طالب كثير العيال وبيته مفتوح للقرشيين جميعا ولعابرى السبيل ، ويده مبسوطة لا يرد سائلا ولا محتاجا ، فذاب كل ما جنى من أرباح رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، ولم يبق عنده إلا بعض أنواع الطيب التى سيخرج بها إلى سوق عكاظ وذى المجنة وذى المجاز ، وهو على ثقة من أن ثمنها لن يكفى حاجة فقراء الحجيج ، وإنْ عُلل النفس بالتريث إلى أن تنتهى أيام الأسواق فمن يدرى فقد يأتى اليسر بعد العسر والفرج بعد الضيق .

كان أغنياء قريش يخرجون عن بعض مالهم لأبى طالب لينفق منه على إطعام الناس فى الموسم ، وكان أبو طالب يحمل العبء الأكبر فهو صاحب شرف السقاية والرفادة ، فراح يمنى نفسه بأن يجود الأجواد فى هذه السنة بمال أكثر مما جادوا به فى السنين الماضية يربأ الصدع ويسد العجز ويحول بينه وبين الاقتراض ، ويمر هذا الموسم بسلام .

وجاء ما جاد به الأجواد إلى الحظائر والمخازن ، وراح أبو طالب يحصى فى لهفة ما شارك به أثرياء قومه فى رعاية ضيف الله فإذا به نفس ما اشتركوا به فى العام الفائت بلا زيادة ولا نقصان ، فغام وجهه بسحابة من الكدر ، وفطن إلى أنه أعجز من أن ينهض بذلك الشرف شرف السقاية والرفادة التى انحدر إليه من هاشم العظيم وعبد المطلب مطعم الطير فى رءوس الجبال .

وهم بأن يذهب إلى أخيه العباس يقترض منه ما يحتاج إليه من مال ولكنه آثر أن يتريث حتى يعود من الأسواق انتظارا لما تأتى به الأيام فمن يدرى فقد يكسب غدا ما يغنيه عن الاقتراض .

وكانت سوق عكاظ تقوم صبح هلال ذى القعدة وتستمر عشرين يوما ، فخرجت قوافل قريش تحمل تجارتها من طيب وبخور وحرير وأسلحة وتوابل وحبوب وزيوت جلبت من اليمن والحبشة والشام ومصر وفارس وبلاد الروم ، يموج فيها ساداتها وعبيدها وإماؤها من عرب وأحباش وروم وفرس لتأخذ مكانها فى السوق التى ذاع صيتها ، حتى صار النعمان بن المنذر ملك الحيرة يبعث بها لطيمة (جمالا تحمل التجارة) فى جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له ، حتى تباع هناك ويشترى له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه .

وانسابت قوافل مكة ثلاث ليال فى طريق اليمن فى ظلام دامس ، حتى لاحت صخور المرمر البيضاء فصاح الناس فى ابتهاج .

— العبيلات .

واشتدت الإبل حتى إذا ما بلغت السهل العريض أناخت به ، وخف الرجال والنساء والولدان من سادة وعبيد إلى مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج ثم راحوا يطوفون بها ويذبحون عندها ، فهى صنم ذى الخلصة وكانت تتعبد له خثعم ودوس وبجيلة .

وراح الذين لا يؤمنون بالله ولا بعث ولا حساب يسخرون من الطائفين بالصنم ويتندرون بما كان بينه وبين امرىء القيس ، فإن امرأ القيس بن حجر حين وترته بنو أسد بقتل أبيه استقسم عند ذى الخلصة بثلاثة أزلام وهى الزاجر والآمر والمريض ، فخرج له الزاجر ينهاه عن الثأر لأبيه فسب الصنم ورماه بالحجر وقال له :

— اعضض ببظر أمك .

ومنذ ذلك الوقت لم يستقسم عنده بالأزلام وإن كان الناس يطوفون

به ويتمسحون .

وراحت القوافل تفد من كل حدب ، وضربت خيام حكام القبائل ، ونصبت خيمة النابغة الذبيانى لتكون قبلة الشعراء ، وكان كل شريف إنما يحضر سوق بلده إلا سوق عكاظ فإنهم كانوا يتوافون بها من كل جهة ، فكان يأتيها قريش وهوازن وسليم وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب .

ومن كان له أسير سعى فى فدائه ، ومن كانت له حكومة ، ارتفع إلى الذى يقوم بأمر الحكومة ، وكان الذى يقوم بأمر الحكومة فى هذه السوق أناس من بنى تميم ، وكان أحدهم الأقرع بن حابس .

وكانت قبيلة كلب قد أصابت رجلا من بجيلة يقال له مالك بن عتبة ، فوافوا عكاظ ، فمر مالك بابن عم له يقال له القاسم بن عقيل يأكل تمراً ، فتناول من ذلك التمر شيئا ليتحرم به ، فجذبه الكلبى فقال له القاسم :

ــ إنه رجل من عشيرتى .

فرماه الكلبى بنظرة احتقار وقال :

ــ لو كانت له عشيرة منعته .

فانطلق القاسم إلى بنى عمه بنى زيد بن الغوث فاستنجدهم فقالوا :

ــ نحن منقطعون فى العرب وليست لنا جماعة نقوى بها .

فانطلق إلى آخرين فاستنجدهم فقالوا :

ــ كلما طارت وبرة من بنى زيد فى أيدى العرب أردنا أن نتبعها !

وراح يفكر فى رجل ينجده فالتمعت الفكرة فى رأسه ، فانطلق يغذ السير إلى قسر ، حتى إذا ما لاحت له القباب الحمر ذهب إليها والتمس أن

يقابل جرير بن عبد الله البجلى سيد بنى مالك بن سعد بن زيد بن قسر ، فلما قابله قص عليه قصته ، وما انتهى منها حتى دعا جرير قومه إلى النهوض معه لانتزاع مالك من كلب فتبعوه .

خرج جرير فى ثياب مصبغة لم ير العرب مثلها من قبل ، ورجاله معه حتى هجم على منازل كلب بعكاظ فانتزع منهم مالك بن عتبة ، وقامت كلب دونه فقال جرير :

ـــ زعمتم أن قومه لا يمنعونه .

فقال كلب :

ـــ إن رجالنا خلوف .

فقال جرير :

ـــ لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئا .

فقالوا :

ـــ كأنك تستطيل على قضاعة . إن شئت قايسناكم المجد .

فقال جرير :

ـــ ميعادنا من قابل سوق عكاظ .

فجمعت كلب وجمعت قسر ووافوا عكاظ من قابل ، وصاحب أمر كلب خالد بن أرطأة . وانطلقوا إلى حيث كان الأقرع بن حابس ، وارتضى الحيان أن يكون حكما بينهما .

وجاء أشراف قريش ليشهدوا المنافرة بين كلب وبجيلة ؛ وقام خالد ابن أرطأة فقال لجرير :

ـــ ما تجعل ؟

ـــ الخطر فى يدك .

ـــ ألف ناقة حمراء فى ألف ناقة حمراء .

فقال جرير يزيد الرهان :

ـــ ألف قينة عذراء فى ألف قينة عذراء ، وأن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء .

كان النساء لا وزن لهن ، يرثهن الوريث ويلعب عليهن الرجال الميسر ، أو تقاد ألف منهن فى مفاخرة وما تساوى إحداهن من أوقية من الذهب ، وقال خالد :

ـــ من لى بالوفاء ؟

فقال جرير :

ـــ كفيلك اللات والعزى وأساف ونائلة ويعوق وذو الخلصة ونسر ، فمن عليك بالوفاء ؟

ـــ ود ومناة وفلس ورضا .

قال جرير :

ـــ لك بالوفاء سبعون غلاما مُعِمًّا مُخْوِلا يوضعون على أيدى الأكفاء من أهل الله .

ووضعوا الرهون على أيدى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وأشراف قريش أهل بيت الله .

وبدأت المنافرة لما قال الأقرع بن حابس لخالد :

ـــ ما عندك يا خالد ؟

وراح خالد يجمع شتات فكره ليذكر أفضل خصال قومه ، ثم قال :

ـــ ننزل البراح ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح .

فالتفت الأقرع وقال :

ـــ ما عندك يا جرير ؟

قال :

ـــ نحن أهل الذهب الأصفر والأحمر المعتصر ، نخيف ولا نخاف ، ونطعم ولا نستطعم ، ونحن حى لَقَاح ، نطعم ما هبت الرياح ، نطعم الشهر ، ونضمن الدهر ، ونحن الملوك القسر .

ووقف الأقراع ليعلن حكمه فحبست الأنفاس وأرهفت الآذان ، وتعلقت العيون بشفتيه فما سينطق به سيحمله الركبان إلى كل مكان ، ترى لمن يحكم ؟

وقال الأقرع فى صوت رن فى سوق عكاظ كرنين الذهب فى آذان بجيلة ، وكنعيب البوم فى آذان كلب :

ـــ واللات والعزى ، لو فاخرت يا جرير قيصر ملك الروم ، وكسرى عظيم فارس ، والنعمان ملك العرب ، لنصرتك عليهم .

وضجت السوق بصيحات فرح وصيحات إنكار ، وجاء رجل من بجيلة بفرس إلى جرير فركبه من فرط فرحه من الجانب الأيسر ، فقال الشانئون :

ـــ لم يحسن أن يركب الفرس .

فقال جرير :

ـــ الخيل ميامن ، وإنا لا نركب إلا من وجوهها .

وذهب الشعراء إلى خيمة النابغة ، وراح كل شاعر يلقى عليه ما عنده وهو يزعم أنه أشعر العرب ، ثم قام الشعراء ينشدون أشعارهم فى السوق فتعطل البيع والشراء ، وأقبل الناس من كل جانب يتزاحمون بالمناكب ، فقد كان الشعر أشجى عندهم من شدو المغنين وغناء القيان .

وانفض سامر الشعراء فراح الرواة يترنمون بما سمعوا كأنما قد حفرت القصائد فى ذاكرتهم ، ليذيعوه فى القبائل وليكون مادة السمر فى نواديهم يملئون به فراغ الليالى ويسدون به جوع الأرواح .

وانتشر الشباب يلهو ويمرح ويشتد فى اللهو أحيانا حتى يقسو على الناس ويجرح كرامتهم ويسيء إلى مشاعرهم ، وتنطلق الضحكات مجلجلة عقب كل إساءة كأنما لم يخلق الناس إلا ليكونوا هدفا للسخرية والأذى ووسيلة من وسائل الإضحاك .

وجاء فتية من قريش ورأوا امرأة من بنى عامر بن صعصعة وضيئة جميلة وعليها برقع ، وهى فى درع عليه تهاويل تجذب الأبصار فطافوا بها ثم قالوا :

— أسفرى عن وجهك .

فأبت عليهم ، فأتى أحدهم من خلفها فشد دبر درعها بشوكة فضحكوا وقالوا :

— منعتنا النظر إلى وجهها ، فقد رأينا دبرها .

فنادت المرأة فى فزع وغضب :

— يا لعامر !

وخف إليها بنو عامر بن صعصعة ، وما أن عرفوا ما حل بالعامرية حتى استلوا سيوفهم ، وجاء القرشيون ينصرون شبابهم ظالمين ، وتحاور الناس ، ثم نشب بينهم قتال سالت فيه دماء يسيرة . وقبل أن تشتعل نار الحرب بين الحيين جاء حرب بن أمية زعيم قريش وأعلن أنه يحمل ما سال من دماء ويعوض عنها ، وأصلح بينهم وبذلك انتهى الفجار الثانى .

وانقضت أيام عكاظ ، وحمل الناس ما بقى معهم من سلع وانطلقوا إلى سوق ذى المجنة للتجارة قبل أن يذهبوا إلى سوق ذى المجاز ، فموسم الحج الأعظم . وسار أبو طالب على راحلته شارد اللب يفكر فى أمره فقد نفدت بضاعته و لم تأت بالأرباح التى كان يرجوها ليسدد دينه وينفق منها على ضيف الله . فلم يبق أمامه إلا أن يأتى أخاه العباس يقترض منه ويعده أن يسدد دين السنة الماضية وهذه السنة فى العام القابل .

ومشى أبو طالب إلى أخيه العباس وطلب منه أن يقرضه قرضا ينفق منه على حجاج بيت الله ، فقال له العباس إنه لم يسدد قرض العام الفائت ، فوعد أبو طالب أن يسدد القرضين فى العام القابل ، فقال العباس لأخيه وهو يقرضه ما طلب :

ــ إن عجزت عن تسديد القرضين آخذ بدينى الرفادة والسقاية .

وقبل أبو طالب ذلك الشرط وهو يرجو أن تتحسن أحواله المالية ويسدد ما عليه ، حتى لا يخرج من يده ذلك الشرف الذى ورثه عن أبيه دون بنى عبد المطلب جميعا .

وانقضت أيام الأسواق ، وخلف الناس دنياهم وراء ظهورهم وراحوا يتدفقون إلى الحرم يطوفون بالبيت ويذبحون بين إساف ونائلة ويسعون بين الصفا والمروة ، ثم يذهبون إلى عرفة جميعا فى يوم واحد ويقفون المواقف ، وسرعان ما يعودون إلى اللعب واللهو والانغماس فى شهوات الدنيا .

كانت أيام التعبد أياما معدودات وكثيرًا ما كان العبث يتخللها ، وما كان أحد فى العرب يحتمل أن تكون حياته كلها لله وفى الله إلا فتى واحد هو محمد بن عبد الله ، فهو يتعالى عن أهوائه وأغراضه الخاصة ويعكف

على التأمل حتى لكأنه يشعر برنين الوجود يجلجل فى وجدانه ، إنه يسير من خلال الليل المظلم الجاثم على الأرض إلى الله ، ويعرج على أنوار النهار الى ما فوق السموات ، فمساؤه مع اليقين نهار ، ونهاره سعادة وأنس وانشراح .

إنه كله فى يد الله ، قد خرج من حوله إلى حول الله ، وغايته هى ذات الله ، ومحراب قلبه هو الله ، لا يتحول عنه لا فى زمان ولا إلى مكان ، فأحيا الله بمعرفته فؤاده ، وظهر بمراقبته أسراره ، وإنه سائر فى طريق الرقى ، وإنه ليطرب ويسعد لما يستشعر من نماء .

إنه يراقب نفسه ويدعو قلبه إلى أن يتنبه إلى النعم التى حباه الله بها على الدوام . وإن مراقبة النفس هى الأساس الذى سيقوم عليه كل البناء الشامخ الذى سيربط الأرض بالسماء ؛ وإن الإخلاص المطلق هو السبيل الذى سيقود إلى الرحاب الأسمى ، إلى لب الحقيقة ؛ وإن ما يفعم به قلبه من رضى وشكر ، وما يتسربل به من حياء ، وما يتحلى به من إيثار ، وما يتصف به من صدق ، وما يتزكى به من مكارم الأخلاق ، سيفتح له أبواب السموات ليكون خزانة أسرار الله وعلمه ، ورسول رب العالمين .

كانت يثرب تموج بالعداوات ، فما كان يمر عام دون أن ينشب قتال بين الأوس والخزرج ، أو بين أحد الحيين العربيين وبين يهود بنى النضير أو بنى قينقاع أو اليهود النازلين بخيبر أو تيماء . وفى أيام السلم كان شعراء كل طرف من أطراف النزاع يؤججون نار البغضاء بقصائد الفخر أو الهجو ، وكان ظهور شاعر فى إحدى القبائل يعتبر من الأحداث الهامة التى تحتفل بها القبيلة ، وقد احتفل الخزرج احتفالا رائعا اشتركت فيه القيان بالضرب على المزاهر والرقص والغناء يوم أن برز فيهم حسان بن ثابت .

شب حسان بين سادة قومه ، فأبوه ثابت بن حزام بن المنذر كان من حكام يثرب ، ولو أنه كان خزرجيا إلا أنه حكم بين الأوس والخزرج يوم سُمَير وحقن دم الحيين ، وإن حسان لا يفتأ يذكر ذلك الحدث ويفخر بأن أباه إذ حكموه أراد إطفاء الفتنة فيما بين القوم ولمَّ شعثهم ، فأخرج خمسا من الإبل من قبيلته حين أبت عليه الأوس أن يؤدى إلى طالب الدية أكثر من خمس ، وأبى صاحب الدية أن يأخذ دون عشر . فلما أخرج ثابت الخَمْس أرضى صاحب الدية بذلك ورضيت الأوس واصطلحوا بعهد وميثاق ألا يقتل رجل فى داره ولا فى معقله (نخله) ، فإذا خرج رجل من داره أو معقله فلا دية له ولا عقل ، وقال فى ذلك :

وأبى فى سُمَيْحة القائل الفا صل حين التفت عليه الخصوم

• قام فى الأوس قيس بن الخطيم يفخر بقومه وينال من أعدائهم ،

وكانت الخزرج العدو اللدود ، فما افتخر حسان بأبيه حتى رد عليه قيس بقصيدة طويلة :

ردَّ الخليطُ الجمالَ فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقفوا

ونشبت العداوة بين حسان وقيس ، بين شاعرى القبيلتين المتنافستين اللتين لم تهدأ الثارات بينهما .

قتل جدَّ قيس رجل من بنى عمرو بن عامر ين ربيعة بن عامر بن صعصعة يقال له مالك ، وقتل أباه الخطيم بن عدى رجل من عبد القيس ممن يسكن هَجرَ . وكان قيس يوم قتل أبواه صغيرًا ، وقتل الخطيم قبل أن يثأر بأبيه عدى ، فخشيت أم قيس على ابنها أن يخرج فيطلب بثأر أبيه وجده فيهلك ، فعمدت إلى كومة من تراب عند باب دارهم ، فوضعت عليها أحجارا ، وجعلت تقول لقيس : هذا قبر أبيك وجدك . فكان قيس لا يشك أن ذلك على ذلك .

ونشأ أيِّدا شديد الساعدين ، فنازع يوما فتى من فتيان بنى ظفر فقال له ذلك الفتى :

ـــ والله لو جعلت شدة ساعديك على قاتل أبيك وجدك لكان خيراً لك من أن تخرجها على .

ـــ ومن قاتل أبى وجدى ؟

ـــ سل أمك تخبرك .

فأخذ السيف ووضع قائمه على الأرض وذبابه بين ثدييه ، وقال لأمه :

ـــ أخبرينى من قتل أبى وجدى ؟

ـــ ماتا كما يموت الناس ، وهذان قبراهما بالفناء .

— والله لتخبرنّني من قتلهما أو أتحاملنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

— أما جدك فقتله رجل من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ، وأما أبوك فقتله رجل من عبد القيس .

— والله لا أنتهى حتى أقتل قاتل أبى وجدى .

— يا بنى إن مالكا قاتل جدك من قوم خداش بن زهير ، ولأبيك عند خداش نعمة هو لها شاكر ، فأته فاستشره فى أمرك واستعنه يُعنك .

فخرج قيس من ساعته حتى ناضحه (بعيره يسقى عليه الماء) وهو يسقى نخله ، فضرب الحبل بالسيف فقطعه ، فسقطت الدلو فى البئر ، وأخذ برأس الجمل فحمل عليه غِرارتين من تمر وقال :

— من يكفيني أمر هذه العجوز ؟ (يعنى أمه) فإن مت أنفق عليها من هذا الحائط (البستان) حتى تموت ، ثم هو له ، وإن عشتُ فمالى عائد إلىّ ، وله منه ما شاء أن يأكل من تمره .

فقال رجل من قومه :

— أنا له .

فأعطاه الحائط ثم خرج يسأل عن خداش بن زهير حتى دل عليه بمرّ الظهران بالقرب من مكة ، فصار إلى خبائه فلم يجده ، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافه ، ثم نادى امرأة خداش :

— هل من طعام ؟

فأطلّعت عليه فأعجبها جماله ، وكان من أحسن الناس وجها ! قالت :

— والله ما عندنا من نُزُل (ما يهيأ للضيف من قرى) نرضاه لك إلا

تمر .

ــ لا أبالى ، فأخرجى ما كان عندك .

فأرسلت إليه بمكيال كبير فيه تمر ، فأخذ منه تمرة فأكل شقها ورد شقها الباقى فى المكيال ، ثم أمر بالمكيال فأدخل على امرأة خداش ، ثم ذهب لبعض حاجته .

ورجع خداش فأخبرته امرأته خبر قيس فقال :

ــ هذا رجل متحرِّم (له عندنا حرمة وذمة) .

وأقبل قيس راجعا وكان خداش مع امرأته يأكل رطبا ، فلما رأى خداش رِجْله وهو على بعيره قال لامرأته .

ــ هذا ضيفك ؟

ــ نعم .

ــ كأن قدمه قدم الخطيم صديقى اليثربى .

فلما دنا قيس منه قرع طُنُب البيت بسنان رمحه واستأذن ، فأذن له خداش ، فدخل إليه ، فطلب إليه أن ينتسب فانتسب وأخبره بالذى جاء له ، وسأله أن يعينه وأن يشير عليه فى أمره ، فرحب به خداش وذكر نعمة أبيه عنده وقال :

ــ إن هذا الأمر مازلت أتوقعه منك منذ حين . فأما قاتل جدك فهو ابن عم لى وأنا أعينك عليه ، فإذا اجتمعنا فى نادينا جلستُ إلى جنبه وتحدثت معه ، فإذا ضربت فخِذَه فثِبْ إليه فاقتله .

وذهب قيس وخداش إلى حيث كان الزجل ، فلما جالسه خداش قام قيس على رأس غريمه ، فحين ضرب خداش فخذه ضرب قيس رأسه بسيف يقال له ذو الخُرصين ، فثار إليه القوم ليقتلوه ، فحال خداش

بينهم وبينه وقال :

ــ دعوه فإنه والله ما قتل إلا قاتل جده .

وهدأ الناس كأن لم يكن هناك قتيل ، فقد كانت الثارات بين العرب أمرا مألوفا لا غرابة فيه ، بل كانت الغرابة كل الغرابة والعار الذى ما بعده عار أن يسكت إنسان على ثأره ، وكانت دماء الأبرياء تسيل دون أن يستنكر أحد ذلك أو يرى فيه ظلما .

ودعا خداش بجمل من إبله فركبه ، وانطلق مع قيس إلى العبدى الذى قتل أباه ، حتى إذا كانا قريبا من هجر أشار عليه خداش أن ينطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه ، فإذا دل عليه قال له إن لصا من لصوص قومك عارضنى فأخذ متاعا لى ، فسألت من سيد قومه فدللت عليك ، فانطلق معى حتى تأخذ متاعى منه فإن اتبعك وحده فستنال ما تريد ، وإن أخرج معه غيره فاضحك ، فإن سألك مم ضحكت ؟ فقل : إن الشريف عندنا لا يصنع كما صنعت إذا دعى إلى اللص من قومه ، إنما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ، فإذا رآه اللص أعطى كل شيء أخذ هيبة له ، فإن أمر أصحابه بالرجوع فسبيل ذلك ، وإن أبى إلا أن يمضوا معه فأتنى به فإنى أرجو أن تقتله وتقتل أصحابه .

كان الخداع والكذب والخيانة متفشيا فى قبائل العرب جميعا ، وما كانت مكارم الأخلاق تتبع إذا ما كان الأمر يتعلق بثأر ، بل كان الأبرياء يقتلون غفلة فى ضعة وجبن ، وكان القتلة يفخرون بما أتوا من أعمال حقيرة ما داموا قد ثأروا لقتلاهم ورفعوا عن جباههم العار الذى يجللهم ، وما كان يدور بخلد أحد من العرب أن تحقن الدماء بينهم ذات يوم وأن تتعطل الثارات ، فذلك أبعد من خيال أى حالم من الحالمين بالسلام ، وما أقلهم فى قبائل يسودها قانون الغاب وعصبية الجاهلية .

ونزل خداش تحت ظل شجرة ، وخرج قيس حتى أتى العبدى فقال له ما أمره خداش فأحفظه ، فأمر أصحابه فرجعوا ومضى مع قيس ، فلما طلع على خداش قال له :

— اختر يا قيس إما أن أعينك وإما أن أكفيك .

— لا أريد واحدة منهما ، ولكن إن قتلنى فلا يُفلتك .

ثم ثار إليه فطعنه قيس بالحربة فى خاصرته فأنفذها من الجانب الآخر ، فمات فلما فرغ منه قال له خداش :

— إنا إن فررنا الآن طلبنا قومه، ولكن ادخل بنا مكانا قريبا من مقتله فإن قومه لا يظنون أنك قتلته وأقمت قريبا منه ولكنهم إذا افتقدونا اقتفوا أثره، فإذا وجدوه قتيلا خرجوا فى طلبنا فى كل وجه، فإذا يئسوا رجعوا.

فدخلا فى دارات من رمال هناك ، وافتقد العبدىَّ قومه فاقتفوا أثره فوجدوه قتيلا ، فخرجوا يطلبونهما فى كل وجه ثم رجعوا .

وأقام قيس وخداش مكانهما أياما ثم خرجا ، فلم يتكلما حتى أتيا منزل خداش ، ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى أهله وقال :

تذكّر ليلى حسنها وصفاءها
وبانت فما إن يستطيع لقاءها

ومثلك قد أصبيت ليس بكنّة
ولا جارة أفضت إلىّ خباءها

إذا ما اصطبحت أربعا خط مئزرى(١)
وأتبعت دلوى فى السماح رشاءها(٢)

(١) يريد أنه إذا شرب ربعا اختال حتى جر ثوبه من الخيلاء .

(٢) يريد أنه بلغ فى السماح منتهاه : يقال أتبع الدلو رشاءها وأتبع الفرس لجامها إذا بلغ آخر مجهوده .

ثـــأرت عديـــا والخطيم فلـــم أضع
وصيـــة أشيـــاخ جُعـــلتُ إزاءهـــا

وفرغ قيس من ثأره وعاد إلى قومه ليفخر بفضائلهم وليهجو الخزرج وحسان بن ثابت ، وقد قامت مشادة بين الأوس والخزرج فى الحديقة ، وهى قرية من أعراض المدينة فى طريق مكة ، وتراموا بالحجارة وتضاربوا بالخشب والرطائب والسعف ، ولكن ما انتهت المشادة حتى قال قيس ابن الخطيم :

أجالدهـــم يـــوم الحديقـــة حـــاسرا
كأن يـدى بالسيـف مِخـراق لاعبِ

فالشعراء يقولون ما لا يفعلون .

وتزوج حسان بن ثابت عمرة بنت الصامت الأوسية ، فكان كل واحد منهما معجبا بصاحبه ، ولكن حمية الجاهلية قد قطعت أواصر المحبة وقضت على غرام مشبوب ، فقد تكلم حسان بكلام نال به الأوس أغضب عمرة ، فعيرته بأخواله وفخرت عليه بالأوس ، فغضب لهم فطلقها ، فأصابها من ذلك ندم وشدة ، وندم هو بعد ، ولكن ماذا يفعل الندم فى مساوىء الجاهلية ؟

وشد حسان الرحال إلى الحيرة ، وانطلق إلى قصر الخورنق فقد كان النعمان بن المنذر يرحب بالشعراء . وما إن بلغ القصر حتى فتحت له أبوابه ، ودخل فألفى النعمان محمولا على أكتاف الرجال يتعاقبونه ، فقد كانت ملوك العرب إذا مرض أحدهم حملوه على الأعناق لأنه عندهم أوطأ له من الأرض .

وراح النعمان يحادث حسان بن ثابت ليقوى روحه وينسى مرضه ،

ويصغى إلى جيد شعره فيخفف عنه آلامه ، وكان النعمان يفضل النابغة الذبيانى على كل الشعراء ، وكأن خاطره يهمس وهو يستمع لحسان : ليت النابغة يقبل وينسى ما بيننا من جفاء .

كان النابغة عند النعمان كبيرا عنده خاصا به ، وكان من ندمائه وأهل أنسه فحسد على منزلته منه ، فاتهموه بأمر فغضب عليه النعمان وأراد البطش به ، وكان للنعمان بواب يقال له عِصام شَهبر الجرمى قال للنابغة :

— إن النعمان موقع بك فانطلق .

فهرب النابغة إلى ملوك غسان الشام فكان يمدحهم ، وترك النعمان فاشتد ذلك عليه ، وعرف أن الذى بلغه كذب فبعث إليه :

— إنك لم تعتذر من سخطة إن كانت بلغتك ، ولكنا تغيرنا لك عن شيء مما كنا لك عليه ، ولقد كان فى قومك ممتنع وحصن فتركته ثم انطلقت إلى قوم قتلوا جدى وبينى وبينهم ما قد علمت .

وكان النعمان وأبوه وجده قد أكرموا النابغة وشرفوه وأعطوه مالا عظيما ، وما كان يأكل ويشرب إلا فى آنية من الذهب والفضة من عطايا النعمان وأبيه وجده . وبلغ النابغة أن النعمان ثقيل من مرض أصابه ويخشى عليه منه ، فأتاه محمولا على رجلين ينقل ما بين الغمر وقصوره التى بين الحيرة ، فقال لبوابه عصام :

ألم أقسم علـــيك لتُخبـــرَنى

أمحمـــول على النـــعش[1] الهُمـــامُ

---

(١) المراد بالنعش هنا مركب شبه هودج .

فـــإنى لا ألـــومك فى دخـــول
ولكـــن مـــا وراءك يـــا عِصام
فـــإن يهلك أبـــو قابـــوس يهلك
ربيـــع النـــاس والشهـــر الحرام
ونأخـذ بعـده بذنـاب(١) عـيش
أجبَّ الظهـر لـيس لـه سنـام

ودخل النابغة فلما رآه النعمان أبو قابوس تهلل بالفرح ، وراح النابغة يروى شعره والنعمان يصغى إليه ، ثم نزل النعمان عن أعناق الرجال وأدنى النابغة منه ، ثم أمر له بمائة ناقة من نجائب له يقال لها العصافير ، وحسام وآنية من فضة ، وحسده حسان على ثلاث لا يدرى على أيتهن كان أشد حسدا: أعلى إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مائة بعير من عصافيره ؟

وانتهت زيارة حسان للحيرة فعاد إلى يثرب ، وما إن بلغ أرباض المدينة حتى ألفى مشادة بين اليهود والعرب فانكمش فهو يمقت القتال ، ولما خبت أوارها قال اليهود :

ــ إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

ولم تكن هذه أول مرة يسمع فيها حسان بن ثابت بذلك المبعوث ، فإنه خرج من داره مع أبيه وأخته ذات ليلة وكان ابن سبع سنين على صوت يهودى ينادى :

ــ يا قوم ! يا قوم !

---

(١) خيط يشد به ذنب البعير .

فلما اجتمع إليه الناس قال :

ـــ طلع الليلة نجم أحمد الذى يولد به .

وعرف أن أحمد هو النبى الذى يتوعدهم به اليهود ، وما دار بخلده أن ذلك النبى هو ذلك الغلام الذى جاء إلى دار عدى بن النجار ليزور قبر أبيه عبد الله ، وأن أخوال جده عبد المطلب هم آباؤه بنو النجار ، وأن الخئولة تربط بينه وبين ذلك النبى ، وأن كل ما قال من شعر لن يخلده على مر الأيام إلا فى ذلك النبى المنتظر ، فسيكون شاعره . ولو قيل لحسان فى ذلك الوقت الذى يخوض فيه فى الجاهلية إنه سيؤيد بروح القدس لما فقه شيئا من ذلك القول ، ولكن رسول الله سيقول لحسان لما يهجوه المشركون : أجب عنى « اللهم أيده بروح القدس » وسيقول « اهجم وجبريل معك » . « إن روح القدس مع حسان مادام ينافح عن رسول الله » .

إن حسان يتمرغ فى الجاهلية ، وسيسمو به الإسلام حتى يقف الجبان الرعديد للخليفة عمر بن الخطاب لما يمر عليه وهو ينشد فى المسجد ويقول له :

ـــ أفى مسجد رسول الله تنشد الشعر ؟

فيقول حسان فى ثابت :

ـــ كنت أنشد وفيه من هو خير منك .

استأجر خداش وهو رجل من قريش ، رجلا من بنى هاشم ، فانطلق معه فى إبله ، فمر به رجل من بنى هاشم قد انقطعت عروة جُوالقه فقال :

ــ أغثنى بعقال أشد به عروة جوالقى مخافة أن تنفر الإبل .

فأعطاه عقالا فشد به عروة جوالقه ، فلما نزلوا عقلت الإبل إلا بعيرا واحدا ، فقال خداش :

ــ ما شأن هذا البعير لم يعقل من بين الإبل ؟

ــ ليس له عقال .

ــ فأين عقاله ؟

ــ مر بى رجل من بنى هاشم قد انقطع عروة جوالقه ، واستغاث بى فأعطيته .

فحذفه (رماه) خداش بعصا كان فيها أجله ، فمر به رجل من أهل اليمن وهو يجود بأنفاسه وقال له :

ــ أتشهد الموسم ؟

كان موسم الحج قد آن وكانت قبائل العرب فى طريقها إلى عكاظ ، قال اليمنى :

ــ ما أشهد وربما شهدته .

ــ هل أنت مبلغ عنى رسالة من الدهر ؟

ــ نِعْمَ ذلك .

فكتب الرجل وهو فى النفس الأخير .

— إذا أنت شهدت الموسم فناد : يا آل قريش ، فإذا أجابوك فناد : يا آل بنى هاشم ، فإن أجابوك فاسأل عن أبى طالب فأخبره أن خداشا قتلنى فى عقال .

كان أبو طالب فى قوافل قريش المنطلقة إلى عكاظ ، وكان مطرقا مهموما فقد استدان من أخيه العباس السنتين الفائتتين لينفق على السقاية والرفادة على أمل أن تزدهر تجارته وتربو أرباحه فيتمكن من سداد دينه ويبقى من ماله فضل ينفقه على فقراء الحجاج ، وقد أرسل تجارته فى رحلة الشتاء إلى اليمن وفى رحلة الصيف إلى الشام ، وقد ربحت تجارته ولكن عياله وأهل بيته والضيفان أتوا على كل أرباحه فلم يبق معه ما يكفى سداد دين أخيه .

إن العباس أقرضه السنة الفائتة على شرط إن عجز عن سداد الدين أن تئول إليه السقاية والرفادة ، وهو عاجز هذه السنة عن أن يؤدى ما عليه ، ولا يحسب أنه قادر على أن يتشبث بهذا الشرف فأعباؤه المالية تتزايد على مر الأيام ، وقد صار العباس فى ثلاث سنين من أثرياء مكة يقرض من يشاء بالربا ، وهو قادر على أن ينهض بعبء سقاية حجيج بيت الله وإطعام فقرائهم .

وحطت قوافل قريش فى سوق عكاظ ، وذهب أبو طالب إلى أخيه العباس وقال له إنه لن يسدد ما عليه وأنه قد أصبح من حق العباس أن يأخذ السقاية والرفادة بما عليه من دين ، فكاد العباس أن يطير فرحا بهذا النبأ ، ففى غمضة عين صار سيدا من سادات قومه له من الشرف ما لحزام بن حكيم الذى دخل دار الندوة قبل أن يطر شاربه ، بل أنه تساوى

فى الشرف مع حرب بن أمية زعيم بنى أمية وهو لا يزال حدثا ، فحرب ابن أمية حامل لواء قريش ، وهو صاحب السقاية والرفادة فى قريش !

وضربت للنابغة الذبيانى فى السوق قبة حمراء من أدم ، وجاء إليه الأعشى وحسان بن ثابت والخنساء وشعراء العرب ، فراح الأعشى ينشد شعره وامرأة عربية ترقبه من بعيد. إنها امرأة المحلق فقد قدم الأعشى مكة قبل أن ينطلق إلى عكاظ ، وتسامع الناس به فقالت امرأة المحلق له :

ــ إن الأعشى قدم وهو رجل مفوه مجدود فى الشعر ، ما مدح أحدا إلا رفعه ولا هجا أحدا إلا وضعه ، وأنت رجل كما قد علمت فقير خامل الذكر ذو بنات ، وعندنا لقحة نعيش بها ، فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما تشترى به شرابا يتعاطاه ، لرجوت لك حسن العاقبة .

فسبق إليه المحلق فأنزل ونحر له ، فلما أكل الأعشى وأصحابه وكان فى عصابة قيسية ، قدم إليه الشراب واشتوى إليه من كبد الناقة وأطعمه من أطايبها ، فلما جرى فيه الشراب وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله ، فعرف البؤس فى كلامه وذكر البنات فقال الأعشى :

ــ كفيت أمرهن .

وها هو ذا الأعشى بعكاظ ، ترى أيذكر بنات المحلق ؟

وانتهى الأعشى من قصيدته وراح حسان ينشد :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابن محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فلما انتهى منها قال النابغة :

— أنت شاعر .

و لم يعجب الخنساء إطراء النابغة لحسان فقالت :

— أى فخر يكون فى أن له ولعشيرته ولمن ينضوى إليهم من الجفان ما نهايتها فى العدد عشرة وكذا من السيوف ؟ ألا استعمل جمع الكثرة : الجفان والسيوف ؟ وأى فخر فى أن تكون جفنة وقت الضحوة — وهو وقت تناول الطعام — غراء لامعة كجفان البائع ؟ أما يُشبه أن قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جفنات ؟ ثم أنى يصلح للمبالغة فى التمدح بالشجاعة وأنه فى مقامها يقطرن ؟ أما كان يجب أن يتركها إلى يَسِلن أو ما شاكل ذلك ؟

وراحت الخنساء تنشد شعرها وقد ألقى الشعراء إليها سمعهم فاستولت على ألبابهم ، ولا غرو فأبوها شاعر وخالها شاعر وأختها سلمى شاعرة وأخوها زهير بن أبى سلمى من فحول شعرائهم ، وما انتهت الخنساء من قصيدتها حتى راح أحد الحاضرين يترنم بقصيدة أخيها زهير أحكم حكماء العرب :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة
يُضرَّس بأنياب ويُوطأ بمنسم[1]

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

---

(١) خف الجمل .

ومن لم يذد عن حَوْضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفي على الناس تُعلم

وقال قائل :

— إن كعب بن زهير ينشد الشعر و لما يشب عن الطوق .

وانتهت ندوة الشعراء فى قبة النابغة ، وقام الأعشى ينشد قصيدته على الناس فخفق قلب امرأة المحلق وأصبحت كل حواسها آذانا ، قال :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق
وما بى من سقم وما بى تعشق

ورأى المحلق اجتماع الناس فوقف يستمع وهو لا يدرى أين يريد الأعشى بقوله ، إلى أن سمع :

نفى الذم عن آل المحلق جفنة
كجابية الشيخ العراقى تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم
مع القوم ولدان من النسل دردق(١)

(١) الدردق : الأطفال وصغار الإبل .

تشب لمقروريـــــن يصطليـــــانها
وبــات على النــار النــدى والمحلـــق
رضيعـــى لبـــان ثـــدى أم تحالفـــا
بأسحـم داج عـوض[1] لا نتفــرق
ترى الجود يجرى ظاهرا فوق وجهـه
كما زان متـــن الهنـــدوانى رونـــق

ووقف المحلق مذهولا ودموعه تترقرق فى عينيه ، فهو لا يكاد يصدق أذنيه ، وما أتم الأعشى قصيدته إلا والناس ينسلون إليه جريا يخطبون بناته .

ودبت الحياة فى عكاظ ، شعر ينشد هنا وجدال يشب هنـاك ، وشباب ماجن يطلق الضحكات ، وبيع وشراء ، وفخر وهجاء . وجاء رجل من بنى نصر بن معاوية من هوازن بقرد ، فأوقفه فى السوق وقال بصوت عال :

ــ من يبيعنى مثل هذا بمالى عند فلان ؟

وكان فلان هذا رجلا من بنى كنانة كان عليه دين للنصرى فأعدم وصار لا يقدر على سداد دينه ، واستمر النصرى يصيح تعييرا للكنانى ولقومه :

ــ من يبيعنى مثل هذا بمالى عند فلان ؟

فمر به رجل من بنى كنانة فضرب القرد بسيفه فقتله ، فهتـف النصرى :

---

(١) عوض : أبدا .

— يا لهوازن !

وهتف الكنانى :

— يا لكنانة !

فتهايج الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال ، ثم رأوا الخطب يسيرا فتراجعوا و لم يفهم الشر بينهم ، وكان ذلك الفِجار الثالث وبه انتهت أيام الفِجار الأول .

وانقضى عشرون يوما من صُبح هلال ذى القعدة ، فحمل الناس تجارتهم وأمتعتهم على رواحلهم وانطلقوا إلى سوق ذى مجنة ليستأنفوا تجارتهم ، وقبل غروب الشمس كان سهل عكاظ العريض الذى كان ينبض بالحياة قاعا صفصفا لا صوت ولا نأمة ، ولولا وسوسة نسيم الليل فى سعف النخيل وعواء كلب آت من بعيد لسكنت السوق سكون الرموس .

وانقضت أيام ذى المجنة وذى مجاز وتدفق الناس إلى مكة ليؤدوا فريضة الحج التى بقيت فى القبائل مذ أيام إبراهيم خليل الرحمن ، وإن تسلل إليها الشرك لما طال على الناس العمر .

كانوا يقفون المواقف كلها ، وكانوا يهدون الهدى ويرمون الجمار . وكان الرجل منهم إذا أحرم تقلد قلادة من شعر فلا يتعرض له أحد ، فإذا حج وقضى حجه تقلد قلادة من إذخر أو من لحاء شجر الحرم فلا يخاف من أحد ولا يتعرض له أحد بسوء .

كان الناس كلهم فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض ، ولم يكن فى العرب ملوك كذلك ، فجعل الله تعالى لهم البيت الحرام قياما يدفع به بعضهم عن بعض ، فلو لقى الرجل قاتل أبيه أو ابنه عنده ما قتله .

وقد كانت قريش ابتدعت رأى الحمس رأيا رأوه وأداروه ، فقالوا :

— نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وسكانها . فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم .

فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يعترفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم عليه السلام ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا :

— نحن أهل الحرم فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها ونحن الحمس أهل الحرم .

ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكنى الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم ، وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك .

ثم ابتدعوا أموراً لم تكن لهم حتى قالوا :

— لا ينبغى للحمس أن يأتقطوا الأقط (يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل) ولا يسلأوا السمن وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرما .

ثم رفعوا ذلك فقالوا :

— لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عماراً . ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت

عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة و لم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها و لم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً .

وسموا تلك الثياب « اللقى » فحملوا على ذلك العرب فدانت به ، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها وطافوا بالبيت عراة .

كان العرب يقاسون تنطع الحمس كما قاسى بنو إسرائيل من تنطع الصدوقيين والفريسيين . وكان محمد بن عبد الله يرى ذلك العنت فيضيق بذلك السخف ويرمى نفسه فى أحضان الكون ويرتفع إلى ما وراء الطبيعة ويسمو ليتصل بذات الذوات . وسيوحى إليه الله لما يبعثه إلى الناس رسولا ببطلان ما ابتدعوه : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » .

وأبطل الله ما ابتدعوه من تحريم الطعام واللبوس عند البيت حين طافوا عراة وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وراح خداش الذى قتل الهاشمى الذى استأجره يطوف بالبيت ، ووقعت عينا أبى طالب عليه فأتاه وقال له :

ــ ما فعل صاحبنا ؟

فقال خداش فى بساطة :

ــ مرض ، فأحسنت القيام عليه فوليت دفنه .

فقال أبو طالب فى أسى :

ــ قد كان أهل ذاك منك .

وصدقه أبو طالب وراح يغدو ويروح فى الحرم يسهر على راحة الحجيج ، فإن كانت الرفادة والسقاية قد خرجت من يده إلى يد العباس فهو يستطيع أن يؤدى إلى الحجاج بعض الخدمات وأن يبذل لهم من عطفه ورعايته .

ورن صوت فى الحرم ينادى :

ــ يا آل قريش .

قالوا :

ــ هذه قريش .

قال الرجل اليمانى الذى أوصى إليه المقتول أن يبلغ عنه :

ــ يا بنى هاشم .

ــ هذه بنو هاشم .

ــ من أبو طالب ؟

ــ هذا أبو طالب .

فذهب اليمانى إلى أبى طالب وقال :

ــ أمرنى فلان أن أبلغك رسالة أن خداشا قتله فى عقال .

فأتى أبو طالب خداشا وقال له :

ــ اختر منا إحدى ثلاث : إن شئت أن تؤدى مائة من الإبل فإنك قتلت صاحبنا ، وإن شئت حلف خمسون من قومك أنك لم تقتله ، فإن أبيت قتلناك به .

فأتى خداش قومه فقالوا :

ـــ نحلف .

وكان حويطب بن أبى قيس العامرى فيمن قبل أن يحلف ، وكانت أمه امرأة من بن هاشم ، فلما عرفت أن ابنها سيحلف قسامة على باطل بين الركن والمقام فزعت وخافت على ابنها فهى تسمع من قومها أن أناسا حلفوا عند البيت على باطل ثم خرجوا فنزلوا تحت صخرة فانهدمت عليهم ، فجاءت أمه إلى أبى طالب وقالت :

ـــ أحب أن تجيز ابنى هذا برجل من الخمسين ، ولا تصبر الأيمان (أى لا تلزمه أن يحلف بأعظم الأيمان) .

ففعل ، فأتاه رجل منهم فقال :

ـــ يا أبا طالبْ ، أردت خمسين رجلا أن يحلفوا مكان مائة من الإبل يصيب كل رجل بعيران ، فاقبلهما عنى ولا تصبر يمينى حيث يصبر الأيمان .

فقبلهما أبو طالب وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا بين الركن والمقام أن خداشا برىء من دم المقتول ، وبات الناس ينتظرون ما سيحل بالذين حلفوا عند البيت على باطل ، وقال قائل :

ـــ والذى نفسى بيده لن يحول الحول ومن الثمانية والأربعين عين تطرف .

كان أبو طالب راضيا عن حياته كل الرضا وإن قل ماله ، سيدا فى قومه مسموع الكلمة وإن خرج من يده شرف السقاية والرفادة ، وكان الزبير مرهوب الجانب تخشى القبائل قذعه وهجوه ، وكان أبو لهب غارقا فى اللهو والميسر والمجون وما كانت مثل هذه الأفعال تشين الرجل فى مكة ، بل كانت ترفع ذكره ويتغنى بها الشعراء فى المجلس ، وكان حمزة

يشب فارسا ويتحلى بأخلاق الفرسان من نجدة ومروءة وكرم وإن عرف الكأس والشراب ، وكان العباس متهللا بعد أن انقاد له شرف السقاية والرفادة حلمه الذى كان يحلم به مذ مات عبد المطلب .

وكانت قريش تزهو على القبائل بأنها أهل الحرم الذى يأمن فيه الطير وأنهم بنو إبراهيم وإسماعيل ، وكانت راضية بما ابتدع لهم الحمس من فضائل وتفضيل ، وكان النصارى منهم واليهود يعظمون البيت أكبر تعظيم ويؤمنون بما قام حوله من أساطير ، ولم يحاول منهم أحد أن يعيد قومه إلى الجادة ويزيل الخرافات عن جوهر الحقيقة ، حتى الحنفاء اكتفوا بأن بحثوا عن دين إبراهيم وعبد كل منهم ربه على طريقته ، واكتفى بهداية ذاته ولم يدع إلى ربه ويحتمل فى سبيل دعوته الاضطهاد والتعذيب .

كان محمد بن عبد الله وحده يحاول أن ينطلق من جسده وينفصل عن مجتمعه ليهيم فى الوجود ويتصل بالله ، وإن الاتصال لا ينفصل عن إرادة الاتصال ، فهو فى صميم ذاته يستشعر أن الوصال غاية الغايات ، فى سبيله جهاد وصراع وعقبات وألم وتضحيات ، ولكنه شىء ينبغى أن يكون .

إن الله هو المطلق الأوحد الذى يوجه إليه نفسه ويسلم له وجهه ، وإن عليه أن يسعى إليه وأن يجعله أمله الذى يبذل كل طاقاته ليبلغه ، وإن كل جهد يهون وكل ألم يستمرأ وكل تضحية تحتمل فى سبيل أن تتحقق الغاية التى ما بعدها غاية : الاتصال بجوهر الحقيقة ، والاقتباس من نور النور ، وخفق قلب اليقين فى جنبات صدره .

إنه لا يألو جهداً فى سبيل تحرير ذاته من أسر جاهلية قومه ، ويجاهد جهاداً دائبا لكيلا يجد ذاته أسير نظام اجتماعى تختنق فى نطاقه كل حرية

وكل شخصية . وإن ذلك أليم شاق ، فهو يهجر الدعة والهدوء حيث لا ألم ولا شقاء إلى صراع النفس ومجاهدة الرغبات والشهوات والسمو بالغرائز ليصل إلى الانتصار الروحى الذى جعله هدفه ومبتغاه .

إنه يعرض عن كل سعادة أرضية سهلة هينة ، ويحتمل كل حرمان فى صبر ، ويفطم جوارحه عن شهوات النفس ، وينأى بروحه عن مسرات قومه ، ويحيا الحياة الروحية الصحيحة ، ويتحرر من القيود التى تشده إلى الأرض مهما قاسى فى سبيل ذلك من ألم ومشقة ليصل إلى السعادة الحقة ،.سعادة الوصال التى تتهلل لها نفسه ، والتى يفيض بها وجدانه بفرح يفوق كل أفراح الأرض .

إنه أصبح يشعر بالحقيقة المطلقة فى باطن تأمله العقلى الذى صار طابعه ، فهو ينظر إلى السموات والأرض فيرى آيات الله التى ملأ الله بها أجواء الكائنات ، ويسير فى الأرض فيكون له قلب يعقل به ويحفزه إلى التطلع لما وراء العقول والحواس والطبيعة من أسرار . وإن طول التأمل ومداومة التدبر والنظر فى الكون هى مفتاح الإشراقات الروحية التى تزداد تألقا على مر الأيام .

إنه لا يريد أن يطفىء مصباح عقله ويتبع ما ألفى عليه آباءه ، فهو يهتدى إلى أن آباءه لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، بل إنه يريد أن يسمو عن مجتمعه بل ويسمو على ذاته وأن يسير فى طريق الترقى بالكفاح والجهاد والحرمان والتقشف والصبر الطويل ، حتى يصل إلى الروح المطلق ، روح الأرواح وذات الذوات .

كان أمية بن أبى الصلت من ثقيف ، وكان يمضى أغلب أيامه فى مكة فأمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف قرشية ، وهو يحب عبد الله بن جُدعان سيد بنى تيم لكرمه ، ويا طالما أمضى الأمسيات معه يصغى إلى مغنيتيه الجرادتين اللتين ذاع صيتهما فى مكة ، وكانت أحب أغانيهما إلى نفسه تلك الأغنيات التى تشدوان بها من شعره .

وكان ابن أبى الصلت يداعب ابن جدعان بشعره بين الحين والحين ، وكان يمدحه ويمدح طعامه وسمره ، وقد قال فيما قال :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى	حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع	لك الحسب المهذب والسناء
كريم لا يغيره صباح	عن الخلق الجميل ولا مساء
يبارى الريح مكرمة وجودا	إذا ما الكلب أجحره الشتاء
وأرضك أرض مكرمة بنتها	بنو تيم وأنت لها سماء
إذا أثنى عليك المرء يوما	كفاه من تعرضه الثناء

وكان أمية بن أبى الصلت يلقى أبا قحافة وابنه أبا بكر فى دار ابن جدعان ، وكان أبو قحافة يخرج فى تجارة قريش ، وكان ابن أبى الصلت يخرج فى قوافلها ، ولكن الصداقة لم تتوطد بين أبى قحافة وبين أمية ، بل اشتدت أواصرها بينه وبين أبى سفيان بن حرب .

كان بحكم مولده أميل فى شعوره إلى بنى أمية منه إلى بنى هاشم ، فهو وإن كان يصغى إلى شعر الزبير وأخيه أبى طالب ويشارك أبا لهب فى

سمره ، إلا أنه قد اتخذ أبا سفيان بن حرب خزانة أسراره ، وما كان يلتفت إلى محمد بن عبد الله فهو يراه غلاما من بنى هاشم يسير فى ركاب أعمامه إذا ما ذهبوا إلى الأسواق ، ويغيب عن مجالس السمر والشراب ، ولم يشتهر بالظرف كطاهر بن الزبير ولا بالخلاعة كأبى سفيان وأبى لهب ، بل عرف عنه الانطواء والحياء والفرار من نوادى قومه ، وما كان ميله إلى العزلة ليلفت نظر شاعر مثل أمية يحيا حياة صاخبة فى الدور وفى القصور وفى أسواق العرب .

وكان يؤم دار ربيعة بن عبد شمس خاله ، ويداعب ابنى خاله عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ويروى لمن فى الدار أبياتا من شعره ، ويحكى روائع ما رآه فى قصور اليمن والحيرة وحوران عاصمة الغساسنة"، فقد سافر مع عبد المطلب لتهنئة سيف بن ذى يزن لما انتصر على الحبشة. كان يومها فى مقتبل عمره ، وقد قال بين يدى ابن ذى يزن :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا
فى رأس (غُمدان) دار منك محلالا

وشد الرحال إلى النعمان بن المنذر فى قصر الخورنق ، وانطلق إلى أمراء الغساسنة ينشد أشعاره ويزين السؤال والعطاء ، ولا غرو فهو القائل :

عطاؤك زين لامرئ إن حبَوته
بخير وما كان العطاء يزين
وليس بشَين لامرئ بذل وجهه
إليك كما بعض السؤال يشين

وكان يروى نوادر الشعراء والأجواد ، ويقص أن أول ما ظهر من

جود حاتم الطائى أن أباه خلفه فى إبله وهو غلام ، فمر به جماعة من الشعراء فيهم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبى حازم والنابغة الذبيانى يريدون النعمان بن المنذر ، فقالوا له :

ـــ هل من قِرَى ؟

ولم يعرفهم فقال :

ـــ أتسألونى القرى وقد رأيتم الإبل والغنم ؟! انزلوا .

فنزلوا فنحر لكل واحد منهم وسألهم عن أسمائهم فأخبروه ، ففرق فيهم الإبل والغنم ، وجاء أبوه ولم يجد إبلا ولا غنما فقال :

ـــ ما فعلت ؟

ـــ طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة .

وعرفه القصة فقال أبوه :

ـــ إذا لا أساكنك بعدها أبدا ولا آويك .

ـــ إذاً لا أبالى .

وكان حديث حاتم يعيد إلى الأذهان ذكر أشعاره ، فكان أحدهم يروى ما قاله لزوجته ماوية بنت عبد الله :

أماوىَّ قد طال التجنب والهجر
وقد عذرتنا فى طلابكم العذر

أماوىّ إن المال غاد ورائح
ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوىّ إما مانع فمبين
وإما عطاء لا يُنَهْنِهه الزجر

أماوىّ إنى لا أقولُ لسائل
إذا جاء يوما حل فى مالى النَّزْر
أماوىّ لا يغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
أماوىّ إن يصبح صداى بقفرة
من الأرض لا ماء لدىّ ولا خمر
ترى أن ما انفقت لم يك ضرنى
وأن يدى مما بخلت به صفر
إذا أنا دلاّنى الذين يلوننى
بمظلمة لج جوانبها غبر
وراحوا سراعا ينفضون أكفهم
يقولون قد أدمى أظافرنا الحفر
أماوىّ إن المال مال بذلته
فأوله شكر وآخره ذكر
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتما
أراد ثراء المال كان له وفر
فإنى وجدى رب واحد أمة
أخذت فلا قتل عليه ولا أسر
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى
شهوداً وقد آوى بإخوته الدهر
غنينا زمانا بالتقصد والغنى
وكل سقانا وهو كاسبنا الدهر

فمـا زادنـا مـأوى على ذى قرابـة
غنانـا ولا أزرى بأحلامنـا الفقـر

وتأهبت قافلة قريش للانطلاق إلى الشام ، وخرج أمية بـن أبى الصلت فى تجارة ثقيف . إنه لا يفارق أبا سفيان بن حرب فى الليل أو فى النهار ، إنه يجاذبه أطراف الحديث ويروى شعره ويصغى إلى ما يردده أبو سفيان من أشعار غيره من الشعراء ، فقد كان الشعر غذاء الأرواح وراحة النفوس .

ونزلت القافلة بالقرب من صومعة راهب ، فإذا بأمية ينسل إلى الصومعة ويطرق الباب فى رفق ثم يستأذن فى الدخول ، فلما أذن له الراهب دلف إلى داخل الصومعة وأدار عينيه فى المكان وهو يعجب للبساطة التى تسود الصومعة ، ويمتلئ فؤاده خشوعا للروحانية التى تغمر كل شىء .

وجلس أمية إلى الراهب ودار بينهما حديث الدين ، فإذا بالراهب يذكر أن نبيا سيبعث من قبل بيت الله وأن زمانه قد آن ، وراح يصف ذلك النبى فسرت قشعريرة فى جسم أمية فبعض صفات النبى المنتظر هى صفاته ، وتدسس فى ضميره أنه قد يكون ذلك النبى ، فعزم على أن ينزل بصوامع الرهبان وأن يطوف بالكنائس يتدارس أمر الدين ، حتى إذا ما بعث إلى قومه كان على علم بالكتاب والإيمان وبمن سبقه من الأنبياء الصالحين .

واستأنفت القافلة رحلتها فشرد أمية يفكر فيما سمع من الراهب ، وكان يظل فى تأمله وتفكيره حتى تحط القافلة بالقرب من صومعة أو بيعة أو كنيسة فيهرع إلى رجال الدين يحاورهم ويحاورونه ويلقى إليهم سمعه .

وما انتهت الرحلة حتى كان أمية بن أبى الصلت قد تنصر ولبس مسوح الرهبان وعاد يحمل الكتاب المقدس ، وقد وطد النفس على أن يعكف عليه يلتهم ما فيه .

واعتزل أمية قومه الثقفيين وراح يقرأ فى التوراة ، حتى إذا ما وجد بشارة بالنبى المرتقب وقف عندها يستبطن أسرارها ، قرأ : « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » وترك الكتاب وأطلق لخياله العنان ؛ جاء الله من طور سيناء ، فإن مجىء الله هو مجىء كتابه وأمره ، وقد نزلت التوراة على موسى فى طور سيناء ؛ وأشرق من ساعير كناية عن ظهور أمره وكلامه ، وساعير جبل بالشام وبالقرب منه قرية الناصرة التى ولد فيها المسيح ونزل فيها الإنجيل على المسيح ؛ واستعلن من فاران أى سيظهر أمره من فاران ، وفاران هى مكة وليست الطائف . وكاد الأسى ينزل بقلب أمية ولكنه راح يقنع نفسه أن الطائف مصيف مكة وأنها قطعة منها !

واستأنف القراءة فى التوراة حتى توقف عند قول الله لموسى : « والله ربك يقيم نبيا من إخوتك ، فاستمع له كالذى سمعت ربك فى حُوريت يوم الاجتماع حين قلت : لا أعود أسمع صوت الله ربى لئلا أموت ، فقال الله لى : نعم ما قالوا : وسأقيم لهم نبيا مثلك من إخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيقول لهم كل شىء آمره به ، وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمى فإنى أنتقم منه » .

وشرد أمية يفكر فيما يقرأ ، فموسى وقومه من بنى إسحاق وإخوته بنو إسماعيل ، ولو كان الموعود من بنى إسحاق لكان من أنفسهم ، لا من إخوتهم ، وإنه ليذكر أنه قرأ فى التوراة : « لا يقوم فى بنى إسرائيل

أحد مثل موسى » فالنبى الموعود من بنى إسماعيل وهو من بنى إسماعيل ، وإنه ليتأهب بالاعتكاف والدراسة أن يوحى الله إليه بكلامه لينطق به .

وراح يقرأ فى زبور داود : « اللهم اجعل جاعل السُّنة يحيا ، يعلم الناس أنه بشر » . « إنه فاضت الرحمة على شفتيك ، من أجل ذلك أبارك عليك إلى الأبد . فتقلد السيف فإن بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك ، والأمم يخرون تحتك » .

وراح يقرأ فى أشعيا : « عبدى الذى سرت به فى نفسى ، أنزل عليه وحيى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العمى والآذان الصم ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطى أحدا . مشقع (محمد) يحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض . تفرح البرية ، وسكانها يهللون الله على كل شَرَف ويكرزونه على كل رابية ، ولا يضعُف ولا يغلب ولا يميل إلى الهوى ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوى الصديقين ، وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، أثر سلطانه على كتفيه »[1] .

وقرأ قول أشعيا : « قم نظَّارا فانظر ما ترى فأخبر به ، فقلت : أرى

---

(١) الأجزاء السابقة ذكرت البشارات حسب الترجمة العربية للكتاب المقدس التى طبعت بتكلفة جمعية التوراة الأمريكانية ، أما البشارات هنا فهى مأخوذة عن الترجمة الواردة فى « خير البشر » لابن ظفر والسيرة الحلبية والزرقانى .

راكبين مقبلين ، أحدهما على حمار والآخر على جمل ، يقول أحدهما لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها » .

وانفعل أمية بما قرأ أشد الانفعال ، فقد جاء عيسى على حمار و لم يبق إلا صاحب الجمل ولا يظن إلا أنه هو ، وبلغ به التأثر حتى طفرت الدموع من مآقيه وسالت تغسل وجهه .

وقرأ : « أيتها العاقر ! افرحي واهتزى وانطلقى بالتسبيح ، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلى » .

وفكر أمية فالعاقر مكة لأن الله لم يبعث بها نبيا ، وها هو أوان بعثه قد آن وسيكون أهلها أكثر من أهل أورشليم وقرأ قول شمعون : « جاء الله بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته » . .وقرأ كتاب حزقيل ، وكان يروى كفران اليهود للنعم فشبههم فيها بالكرمة حيث قال : لم تلبث تلك الكرمة أن قلعت بالسخطة ورمى بها على الأرض ، فأحرقت السمائم أثرها ، فعند ذلك غرس غرس فى البدو وفى الأرض المهملة العطشى ، فخرجت من أغصانه الفاضلة نار فأكلت تلك الكرمة حتى لم يوجد فيها قضيب » .

يا لها من بشارة ! وهل أرض البدو المهملة العطشى غير أرض العرب ، وهل سيُخزى الله اليهود بغيره ؟ وعكف أمية على التوراة يقرأ من كلام خيقوق : « إذا جاءت الأمة الآخرة يسبِّح بهم صاحب الجمل تسبيحا جديدا فى الكنائس الجدد ، فافرحوا وسيروا إلى صهيون بقلوب آمنة وأصوات عالية ، بالتسبيحة الجديدة التى أعطاكم الله فى الأيام الآخرة ، أمّة جديدة بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، فينتقمون من

الأمم الكافرة فى جميع الأقطار »[1] .

وملأت فكرة أنه النبى المنتظر وجدانه ، فراح ينظر فى الإنجيل ويقف طويلا عند البشارات وعند الفارقليط الذى بشر به المسيح : « إن أجبتمونى فاحفظوا وصيتى ، وأنا أطلب إلى أبى فيعطيكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله » . « إن هذا الكلام الذى سمعتموه ليس هو لى ، بل للأب الذى أرسلنى ، كلمكم بهذا وأنا معكم ، فأما الفارقليط روح القدس الذى يُرسِل أبى باسمى ، فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم جميع ما أقول لكم » .

« إذا قال الفارقليط الذى أرسل إليكم من عند أبى ، روح الحق الذى يخرج من الأب ، فهو يشهد لى وأنتم تشهدون لى أيضا لكينونتكم معى من أول الأمر » .

لمن يكن أمية بن أبى الصلت يعرف بماذا يشهد للمسيح ، فهو لا يدرى شيئا عما افترى عليه وبأنه روح الله وكلمته وصفيه ورسوله ، ولكنه لم يقف طويلا عند هذه البشارة وراح يقرأ قول المسيح : « إن انطلاقى خير لكم ، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط ، فإذا انطلقت أرسلتُ به إليكم ، فإذا جاء فند أهل العلم » . ترى ما الذى يفنده الرسول المرتقب ؟ إنه سيفند علماء اليهود النصارى فيما أطبقوا عليه من أن المسيح قتل وصلب بعد أن عذب ، وما انفرد به علماء اليهود من بهتانهم فى الطعن على السيد المسيح ، وما انفرد به علماء النصارى من الدعوة إلى ألوهية المسيح . إن الله سيوحى إلى عبده بالحقائق ، وكان أمية

(١) خير البشر لابن ظفر .

يؤمن بالصلب والقتل والبنوة !

« الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب ، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلّم به ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والغيوب » .

على أية خطيئة سيوبخ أمية العالم ، إنه لا يدرى ، وإنه يترقب أن يسمع من الله ما يقوله فى شأن هذه الخطيئة ، وما دار بخلده أن الخطيئة التى أوجبت توبيخ العالم هى قولهم اتخذ الرحمن ولدا ، وقولهم : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقولهم إن الله ثالث ثلاثة ، وسيوحى الله إلى رسوله « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة » ، « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » .

وأوهم أمية بن أبى الصلت نفسه أنه هو ذلك النبى الذى تنتظره بلاد العرب ، فخرج إلى نساء ثقيف وراح يحدثهن أن نبيا قد أوشك أن يبعث ، وأنه ذلك النبى المنتظر .

— ٢٥ —

كان النعمان بن المنذر فى قاعة العرش بقصر الخورنق ، وكان رجال من أشراف عرب الجزيرة عنده فيهم عروة الرحّال بن عتبة بن جعفر بن كلاب سيد هوازن ، والبرّاض من كنانة ، وكان موسم الحج قد أشرف ، وكان النعمان يبعث بسوق عكاظ فى كل عام قافلة تجارية فى جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له ، حتى تباع هناك . ويشترى له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه .

وكانت العرب تجتمع فى عكاظ للتجارة والتهيؤ للحج من أول ذى القعدة ، فجهز النعمان عير التجارة ثم قال :

— من يجيرها ؟

فقال البراض بن قيس النمرىّ :

— أنا أجيرها على بنى كنانة .

فقال النعمان :

— ما أريد إلا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة .

فقال عروة الرحّال وهو يومئذ رجل هوازن :

— أكلب خليع يجيرها لك أبيت اللعن ؟ أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد وتهامة .

فقال البراض فى غضب وإنكار :

— أعلى بنى كنانة تجيرها يا عروة ؟

— وعلى الناس كلهم .

فدفعها النعمان إلى عروة فخرج بها ، وتبعها البّراض وعروة لا يخشى منه شيئا لأنه كان بين ظهرانى قومه من غطفان إلى جانب فَدك إلى أرض يقال لها أوارة فى بلاد بنى تميم ، فنزل بها عروة فشرب من الخمر وغنته قينة ، ثم قام فنام . فجاء البراض فدخل عليه فناشده عروة وقال :

— كانت منى زلة ، وكانت الفعلة منى ضلّة .

فقتله وخرج يرتجز ويقول :

قد كانت الفعلة منى ضلّة

هلا على غيرى جعلت الزلة

فسوف أعلو بالحُسام القلة

وظل البرَّاص بفخر بقتل سيد هوازن ويقول :

وداهيـــــــة يهال النـــــــاسُ منها
شددتُ لها ، بنـــى بكـــر ، ضُلوعـــى
هتـــكت بها بيـــوتَ بنـــى كـــلاب
وأرضعت الموالى بـــــــــــالضُّروع
جمعت لـــه يـــدىّ بـــنصل سيـــف
أفـــلَّ ، فخـــر كالجذع الصريـــع

واستاق البرَّاض العير إلى خيبر ، واتبعه المُسلور بن مالك الغطفانى وأسد بنى خيثم الغنوى حتى دخل خيبر ، فكان البراض أول من لقيهما فقال لهما :

ــ من الرجلان ؟

ــ من غطفان وغنَىّ .

فقال البراض وقد أحس الخطر :

ــ ما شأن غطفان وغنى بهذه البلدة ؟

قالا :

ــ ومن أنت ؟

ــ من أهل خيبر .

ــ ألك علم بالبرَّاض ؟

ــ دخل علينا طريدا خليعا فلم يؤوه أحمد بخيبر ولا أدخله بيتا .

ــ فأين يكون ؟

ــ وهل لكما به طاقة إن دللتكما عليه ؟

ــ نعم .

ـــ فانزلا .

فنزلا وعقلا راحلتيْهما . قال :

ـــ فأيكما أجرأ عليه وأمضى مقدما وأحد سيفا ؟

قال الغطفانى :

ـــ أنا .

قال البراض :

ـــ فانطلق أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحلتيكما .

ففعل . فانطلق البراض يمشى بين يدى الغطفانى حتى انتهى إلى خربة فى جانب خيبر خارجة عن البيوت ، فقال البراض :

ـــ هو فى هذه الخربة وإليها يأوى ، فانظرنى حتى أنظر أثَمَّ هو أم لا .

فوقف له ودخل البراض ، ثم خرج إليه وقال :

ـــ هو نائم فى البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت ، فهل عندك سيف فيه صرامة ؟

ـــ نعم .

ـــ هات سيفك أنظر إليه أصارم هو ؟

فأعطاه إياه ، فهزه البرَّاض ثم ضربه حتى قتله ووضع السيف خلف الباب ، وأقبل على الرجل الآخر فقال الغنوى :

ـــ ما وراءك ؟

ـــ لم أرَ أجبن من صاحبك ، تركته قائما فى الباب الذى فيه الرجل والرجل نائم لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه .

قال الغنوى :

ـــ يا لهفاه ، لو كان أحد ينظر راحلتينا ؟

ـــ هما عليَّ إن ذهبت .

فانطلق الغنوى والبراض خلفه ، حتى إذا جاوز الغنوى باب الخربة أخذ البراض السيف من خلف الباب ، ثم ضربه حتى قتله ، وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق .

وكانت سوق عكاظ تموج بقريش وكنانة وهوازن وكل قبائل العرب .

وبلغ قريشا خبر البرَّاض فأيقنوا أن هوازن لن ترضى بقتل البراض بعروة ، فالبراض خليع من بنى كنانة وعروة الرحال سيد هوازن ولا بد من أن يقتلوا به عظيما من قريش ، فقر رأيهم على أن يعودوا إلى الحرم يلوذون به .

وبلغ قيس قتل زعيمهم وفرار قريش إلى مكة ، فخرجت فى أثرهم وعليهم أبو براء بن مالك فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ، ونادوهم :

ـــ يا معشر قريش ، إنا نعاهد الله أن لا ببطل دم عروة الرحال أبدا ونقتل به عظيما منكم ، وميعادنا وإياكم هذه الليالى من العام المقبل .

فقال حرب بن أمية لأبى سفيان ابنه :

ـــ قل لهم إن موعدكم قابل فى هذا اليوم .

فقال خداش بن زهير فى هذا اليوم وهو يوم نخلة :

يـــا شِدَّةً مـــا شددنـــا ، غير كاذبـــة
على سخينـــة[1] لـــولا البـــيت والحرم

---

(١) كانت العرب تسمى قريشا سخينة لأكلها السخن .

لما رأوا خيلنـــا ترجـــى أوائلهـــا
آساد غيـــل حمى أشبـــالها الأجَـــمُ
واستُقبلـــوا بضراب ، لا كفـــاءَ لـــه
يبـــدى العـــزّل الأكفـــال مـــا كتمـــوا
ولّـــوا شلالا ، وعُظـــمُ الخيـــل لاحقـــة
كما تخب إلى أوطـــانها النّعـــمُ
ولت بهم كل مِـــحْضار ململمـــة
كـــأنها لقـــوة(١) يحثهـــا ضَرَم

وحال الحول وتأهب الناس للانطلاق إلى عكاظ ، فجمعت كنانة قريشها وعبد منافها والأحابيش ومن لحق بهم من بنى أسد بن خزيمة ، وسلح يومئذ عبد الله بن جدعان مائة كمىٍّ بأداة كاملة سوى من سلح من قومه .

وجمعت سُليم وهوازن جموعهما وأحلافهما غير كلاب وبنى كعب فإنهما لم يشهدا يوما الفجار غير يوم نخلة ، فاجتمعوا بشمطة من عكاظ فى الأيام التى تواعدوا فيها على قرن الحول ، وعلى كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها ، وكذلك على قبائل قيس ، غير أن أمر كنانة كلها إلى حرب بن أمية ، وعلى إحدى مجنبتيها عبد الله بن جدعـان ، وعلى الأخرى كريز بن ربيعة ، وحرب بن أمية فى القلب ، وأمر هوازن كلها إلى مسعود بن معتب الثقفى .

فتناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض ، فكانت الدائرة فى أول

---

(١) اللقوة : الخفيفة السريعة .

النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت وانقشعت كنانة ، فاستحرَّ القتل فيهم فقتل منهم تحت رايتهم مائة رجل ، ولم يقتل من قريش أحد يذكر .

فكان يوم شمطة لهوازن على كنانة .

ومرت سنة وجمع هؤلاء وأولئك فالتقوا على قرن الحول فى اليوم الثالث من أيام عكاظ ، ودارت الحرب وقتل من قريش العوام بن خويلد والد الزبير بن العوام وشقيق خديجة ، وستحزن عليه خديجة حزنا يفوق حزنها على أبيها الذى مات فى نفس العام .

قتل مرة بن مُعتَب الثقفى العوام بن خويلد ، فقال رجل من ثقيف :

منَّا من اتَّرك العوام مُجندلا
تنتابه الطير لحما بين أحجار

وانتصرت فى هذا اليوم هوازن على كنانة ، ولما كانت الحرب قد دارت عند العبلاء فقد سمى ذلك اليوم يوم العبلاء ، وفيه يقول خداش ابن زهير :

ألم يبلغك ما لقيت قريش
وحى بنى كنانة إذ أُبيروا[1]
دهمناهم بأرعن مكفهرٍّ
فظل لنا ، بعَقْوتهم[2] زئير

وانصرم عام ، وخرجت قريش وكنانة وخرج آل عبد المطلب فيمن

(١) أهلكوا .

(٢) العقوة : شجر .

خرج إلى عكاظ . وقد أخذ أبو طالب ابن أخيه محمد بن عبد الله معه فهو يتفاءل به ويرجو أن يكون النصر حليفهم ببركته ، وحمل ابن جدعان مائة رجل على مائة بعير ممن لم تكن له حمولة ، وقد كان لهوازن على كنانة يومان ، يوم شمطة ويوم العبلاء ، وكانت قريش وكنانة تطمع فى النصر وإزالة ما لحق بهم من عار .

والتقى هؤلاء وأولئك على قرن الحول فى الثالث من أيام عكاظ بشَرِب ، فحميت قريش وكنانة ، وقيد أمية وحرب ابنا أمية بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب أنفسهم كيلا يفروا ، فسموا العنـابس (الأسود) . وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر ، وراح محمد بن عبد الله ينبل على أعمامه ، وراح أبو ربيعة بن المغيرة يقاتل برمحين فسمي بذى الرمحين ، واستبسل قصى بن المغيرة وهاشم بن المغيرة فى القتـال ، فانهزمت هوازن وقتلت قتلا ذريعا وأثلجت صدور القرشيين ، والتفت أبو طالب إلى ابن أخيه محمد بن عبد الله وقال له :

ـــ لا أبالك لا تغب عنا .

وقال عبد الله بن الزِّبعرى يمدح بنى المغيرة :

ألا لله قـــــوم وَ	لَدت أخت بنى سَهم
هشام وأبــو عبـــد	مناف مدره[1] الخصم
وذو الرمحين ، أشبـال	مـــن القـــوة والحزم
فهـــذان يـــذودان	وذا مِن كـثب يَرمـى

وقال جذل الطعان :

(١) المسيد : زعيم القوم .

جـــاءت هـــوازن ، أرسالا وإخـــوتها
بنـــو سليم ، فهابـــوا الموت وانصرفـــوا
فاستقبلـــــوا بضراب فضَّ جَمْعهـــــم
مثـل الحريـق ، فمـا عاجـوا ولا عطفـوا

وانقضت سنة وقريش سعيدة بنصرها وأبو طالب ينظر إلى ابن أخيه فى إكبار ، فقد وقر فى ضميره أن النصر كان ببركة ابن عبد الله . وخرجت قريش وأراد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أن يخرج مع الخارجين ولكن حرب بن أمية أشفق من خروجه ، فقد كان يتيما فى حجره فضن به .

والتقى القرشيون والكنانيون بهوازن وبنى سُليم بالحريرة وهى حَرَّة إلى جنب عكاظ ، ودار قتال رهيب ، فقتل أبو سفيان بن أمية أخو حرب بن أمية ، وقتل خلق من الجانبين ، وإذا برجـل بين الصفين ينادى :

ـــ يا معشر مضر علام تفانون ؟

فقالت هوازن : ما تدعو إليه ؟

ـــ الصلح ، الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم ونعفو عن دمائنا .

ـــ وكيف ؟

ـــ ندفع لكم رهنا منا إلى أن نوفى لكم ذلك .

ـــ ومن لنا بهذا ؟

ـــ أنا ؟

ـــ ومن أنت ؟

ـــ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

وراح حرب بن أمية ينظر إلى عتبة فى إعجاب وإن كان قد خرج بغير إذنه ، ورضيت بما حكم هوازن وكنانة وقريش ، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلا فيهم حكيم بن حزام ابن أخى خديجة بنت خويلد ، فلما رأت هوازن الرهن فى أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم ، وخشى الطرفان أن تثور حروب فى الأشهر الحرم فاتفقا على أن يترك كل من يرد إلى عكاظ سلاحه عند عبد الله بن جدعان ، حتى إذا ما انتهت أيام الموسم ، أعاد ابن جدعان إلى كل سلاحه ، وبذلك انقضت أيام الفجار التى قال فيها محمد بن عبد الله بعد أن بعث : « قد حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت » .

— ٢٦ —

تداعى الناس إلى الصلح بعد أن سالت دماء بريئة فى الفجار الآخر ، وعادت كنانة وقريش والأحابيش حلفاؤهم ، وراح الناس يطوفون بالبيت ويشكرون آلهتهم أن حقنت دماءهم .

كانت الأحابيش قوة عربية عسكرية تحمى القوافل وتخوض غمار القتال مع حلفائها ، وقد تحالفت قريش والأحابيش الأحلاف فصاروا حلفاء لقريش دون بنى كنانة ، والذين عقدوا معهم من قريش بنو عبد مناف بن قصى . والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والحيا والمصطلق من خزاعة والقارة بنو الهون بن خزيمة ، فكانت قريش والأحابيش أحلافا متعاقدين ، والأحابيش على بنى بكر بن عبد مناة وبنى مدلج ، فإن دهمهم أمر اجتمعوا فصاروا يدا واحدة . وكانت

هذيل مع قريش والأحابيش ، وكانت خزاعة كلها إلا الحيا والمصطلق مع بنى مدلج .

وتحالفت قريش وبنو الحارث بن عبد مناة والحيا والمصطلق من خزاعة بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة ، فسموا أحابيش قريش باسم الوادى . وكان تحالف قريش والأحابيش على الركن ، يقوم رجلان أحدهما من قريش والآخر من الأحابيش فيضعان أيديهما على الركن فيحلفان بالله القائل بحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام ، على النصر على الخلق جميعا ، وعلى التعاقل والتعاون وعلى من عاداهم من الناس جميعا ما بل بحر صدفة ، وما قام حراء وثبير ، وما طلعت الشمس من مشرقها وما غربت من مغربها .

وذهب رجال الحكومة إلى دار الندوة ، وأخذت كل أسرة مكانها عند البيت فالأسرة هى المجتمع عند المكيين ، والمال هو عصب الحياة ومقوم الرجال ، والرقيق هو نبع الثراء ومصدر الثروات ، ومن عجب أن ساد فى هذا المجتمع أبو طالب وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكانا أفلس من أبى المزلق ، وهو رجل من بنى عبد شمس لم يكن يجد مئونة ليلته ، وكذا أبوه وجده كلهم يعرفون بالأفلاس .

وعاد المجتمع المكى إلى لهوه وعبثه وسمره ، وراحت كل قبيلة تنصر بنيها فى مظالمهم ، فكان أشراف القوم يغتصبون حقوق الغرباء الوافدين إلى الحرم فلا يجد المظلومون ناصرا ولا وليا ، وراح الأرقاء يقومون بأشق الأعمال بالنهار والفتيات بأحط الأعمال فى الليل ، ليضعوا فى أيدى السادة أموالا ينفقونها على القيان والخمر والميسر وفى دور البغايا .

وهجر محمد بن عبد الله المجتمع المكى بشروره ووثنيته وعصبيته

ومظالمه . كان إذا ما انتهى من عمله اعتزل الناس وهام فى الوجود ليتطلع إلى عرش فوق تاج الشمس ، عرش النور الذى لا يأفل ولا يغيب يستلهم منه نور اليقين ، فقد اختار العزلة فى نور النور لينفرد بالأنس به والاتجاه إليه ، ويقتبس من فضله علما وحكمة .

كان يقلب وجهه فى السماء فى صمت ، وإن كانت كل جوارحه فى أعمق صلاة !، فما آن بعد أوان إزاحة الصمت عن فمه ، فشدو الطبيعة لم يزل فى سمعه صداحا ، وجمال الكون فى عينيه انبهارا ، بيد أن غايته فوق إدراك العيون كل العيون ، وفوق إدراك الخيال كل الخيال .

كان الوجود فى جوارحه ترنيمة قدسية ، ولو كان شاعرا لتغنى بما تهللت به الحواس . ولكنه كان وراء جوهر الحقيقة ، روح الحق ، ذات الذوات ، فراح يغوص فى أعماق الأعماق ويحلق فوق السموات لتسكن الجوارح إلى قواعد الأشياء وتسلم بها ، وليهمّ القلب إلى الحكمة والتفويض حتى يكون الرضا بما يكون كيفما يكون .

إن نفسه تواقة إلى طلب العلم الحق ، وهو يبغى أن يذوقه من منابعه الغزيرة التى تفيض بالسقى ، وقد بدأ يحس فى مصيم وجدانه أن رب الكون لا يعطى العلم من لا يسأله ، ولا يلهمه لمن لا يتقيه ، فراح يجتهد فى سؤاله ويجاهد فى سبيل تقواه والخضوع له والرغبة فيه ليشرح له صدره بالعلم . وينير له قلبه بالفهم ونور اليقين .

وفى عزلته راح يفكر فى الموت وما بعد الموت ، فى عبد الله وآمنة وعبد المطلب وكل الذين ذهبوا دون أوبة ، ترى ماذا بعد الموت ؟ إنه لايعجز عن إماطة اللثام عن ذلك السر وإن استشعر فى أعماق ذاته أن

أستار سر الوجود تكاد أن ترتفع عن الحقيقة ، إنه فى طريقه إلى الخير الأسمى وسينفذ إلى سر الأزلية ، وعندها سترتفع الحجب عن كل ما فى الوجود من أسرار .

إنه فى ساعات تأمله يعيد نسيج نفسه بالعلم والنور والحكمة التى يستمدها من الذات العلية ؛ من الحقيقة المقدسة ، وإنه ليتحمل كل مشقة وكل ألم وحرمان فى صبر عجيب ليصبح الإنسان الكامل ، خير البشرية ، الذى يتلقى وحى السماء ليبلغه لأهل الأرض .

وكان الفجار الآخر هو حديث النوادى فى مكة بعد أن تم الصلح بين كنانة وقريش وبين هوازن ، وكان كل رجل منهم يحدث حديثه فى فخر أو أسى أو ندم ويروى ما علق فى ذهنه من الأشعار الكثيرة التى أنشدت فى تلك الأيام .

كان ابن محمية أخو بنى الدئل بن بكر فى نادى قومه يروى فى ندم ما فعله يوم الحزيرة آخر أيام الفجار ، قال :

ـــ كان الرجل يلقى الرجل أو الرجلين أو أكثر من ذلك أو أقل فيقتتلون ويقتل بعضهم بعضا ، وبينا كنت سائرا لقيت أخا خداش بن زهير بالصفاح بين حنين وأنصاب الحرم على يسار الداخل إلى مكة من عرفات ، فتذكرت ما قاله خداش فينا من هجو ، فرفعت سيفى لأقتل الرجل فقال :

ـــ جئت معتمرا .

وكانت دماء الغضب قد ثارت فى عروق فقلت :

ـــ لا يلقى الذين أن قلت معتمرا .

وعدوت عليه فقتلته ، ولما رأيته جثة هامدة تحت قدمى اعترانى ندم ،

واقشعر جلدى خشية غضب الإلٰه أن قتلت من جاء معتمرا يبغى وجهه ، فقلت :

اللهم إن العامرى المعتمر لم آت فيه عُذرا لمعتذر

وراح ابن محمية يروى ما قال من شعر ، بينا كان رجل يقص فى ناد آخر حول الحرم بعض ما كان فى يوم الحزيرة قال :

— ثم إن الناس تداعوا إلى السلم على أن يُرى الفضل من القتلى التى فيهم أى الفريقين أفضل على الآخر ، فتواعدوا عكاظا ليتعادُّوا القتلى ، وتعاقدوا وتواثقوا على ذلك ، وجعلوا بينهما موعدا يلتقون فيه لذلك ، فأبى وهب بن متعب ما اتفق عليه الفريقان ، وحالف على قومه وجعل لا يرضى بالصلح حتى يدركوا ثأرهم ، فلما رأى أمية بن جُدعان بن الأشكر عناده قال :

المرء وهب وهب آل متعبة
مل الغواة وإن يماطل يملل
يسعى يعوذها بجزل وقودها
وإذا تعامَى صلح قومك فاعمل

واندس وهب يزين لهوازن نقض الصلح حتى مكرت هوازن بكنانة وهم على رأس الصلح ، فبعثت خيلا عليها سلمة بن شعل البكائى وخالد بن هوذة فيهم ناس من بنى هلال ، وريسهم ربيعة بن أبى طبان ، وناس من بنى نصر عليهم مالك بن عوف ، فأغاروا على بنى ليث بصحراء الغميم وهم غازون فقاتلوهم ، وجعل مالك يقاتل ويرتجز وهو أمرد يقول :

— أمرد يبدى حلة شيب اللحا .

فقتلت بنو مدلج يومئذ عبيد بن عوف البكائى وسبيع بن أبى المؤمل من بنى محارب ، ثم انهزمت بنو ليث فاستحرَّ القتل ببنى الملوح بن يعمر فقتلوا منهم ثلاثين رجلا ، وساقوا نعماً ، ثم أقبلوا فعرضت لهم خزاعة وطمعوا فيهم فقاتلوهم ، فلما رأوا أنه لا بد لهم منهم قالوا :

— عرضونا من غنيمتكم عراضة .

فأبوا فخلوا سبيلهم .

ثم إن الناس تداعوا إلى الصلح ورهنوا أرهانا للوفاء بديان من كان له المضل فى القتلى ، وتم الصلح ووضعت الحرب أوزارها .

وفى حلقة أخرى كان عتبة بن ربيعة وأخوة شيبة وعثمان بن عفان ورجال من بنى عبد شمس وبنى أمية يتحدثون عن فضل عتبة فى حقن الدماء ، ورثاء أبى سفيان بن أمية أخى حرب ، وسرعان ما طوى الرثاء ليتحدث الناس فى فخر عن العنابس أسود بنى أمية الذين أبوا أن يزولوا يوم شرب ، فكان لهم النصر فى ذلك اليوم .

وفى حلقة أخرى كان بنو مخزوم مجتمعين يتحدثون حديث الحرب وفيهم خالد بن الوليد ، وكان فتى لم يبلغ الحلم يصغى إلى الحديث فى انتباه ، فحديث القتال والكر والفر واللعب بالسيوف يستهويه ، فلعبة الفرسان كانت حتى ذلك الوقت لعبته المفضلة ، وهو فى شوق الآن إلى أن يخرج مع الرجال للقتال عوضا عن الخروج مع فتيان الحى إلى شعاب مكة وجبالها لممارسة لعبة الحرب .

وكان فى حجر الخطاب بن نفيل عمر بن الخطاب يصغى إلى حديث القوم ، فأبوه يصحبه إلى نوادى قومه وإلى الحرم وإلى أعياد الآلهة فشب متعصبا لدينه ، فهو يخشى عليه الفتنة التى يريد زيد بن عمرو بن نفيل أن

يبعثها فى صبيان بنى مخزوم وشبابها .

وراح الناس يتحدثون عما فعله أبو ربيعة وكيف حارب برمحين ، وراح الشعراء يتغنون بشجاعة ذى الرمحين وبنى المغيرة جميعا ، فانبسطت أسارير أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) فهو يزهو بنسبه ويطمع فى أن ترفع الأقدار قبيلته فوق بنى هاشم وبنى أمية ؛ الحيين اللذين ينافسان بنى المغيرة أشد المنافسة .

والتفت بنو تيم حول عبد الله بن جدعان وفيهم أبو قحافة وابنه عتيق ؛ عبد الكعبة (أبو بكر) وكانوا فى سرور ، فأيام الفجار قد انتهت بأن صالح الناس على أن تترك أسلحتهم عند ابن جدعان فى الأشهر الحرم حتى لا يكون فيها قتال ، فازداد بنو تيم شرفا على شرف .

وراح شيوخ بنى تيم يتحدثون فى الأنساب والديات ، فأدلى أبو بكر بدلوه بين الدلاء ، فلم يعد يكتفى بأن يلقى سمعه إلى الأحاديث بل أصبح يشارك فيها بآرائه ، بعد أن اشتهر بمعرفته للأنساب وحسن أحكامه فى الديات .

وفى ركن من الحرم اجتمع بنو أسد بن عبد العزى وكان حكيم بن حزام قطب الرحى ، فقد كان بين الرهائن الذين قدمتهم قريش لهوازن وفاء بعهدهما بعد أن عرض عتبة بن ربيعة الصلح ، وكان الزبير بن العوام طفلا صغيرا فى حجر عمه ، فقد قتل أبوه العوام بن خويلد فى أيام الفجار ، وحزن عليه بنو أسد وبنو هاشم حزن الثكلى على وحيدها .

واجتمع بنو هاشم فى ظل الكعبة حيث كان يجلس عبد المطلب ، وراح الزبير بن عبد المطلب يقص ما أهاج الفجار وما قيل فى كل يوم من أيامها من شعر ، وأبو لهب وحمزة والعباس وأبو طالب وبنوه وشيوخ بنى

هاشم وشبابهم يصغون إلى حديثه ويشاركون فيه .

وشرد أبو طالب طويلا ثم راح يتحدث عن بركة ابن أخيه عبد الله ، فما حضر محمد يوما من أيام قريش إلا كتب لها فيه النصر ، وما اشتكى قومه من الجفاف ورفع يديه إلى السماء حتى هطل الغيث بالحيا .

وراحت الأهواء تعبث بوقائع الأحداث كما تشاء ، تنسب فضلا إلى من ليس له فضل وتسلب الناس أشياءهم ، وراح الشعراء يتشدقون بما لم يفعلوه ، ويزجون المديح إلى كل من وضع الذهب فى أكفهم أو ملأ بالطعام بطونهم ، فما كان للحقائق وزن ، وكانت الأموال تهون فى سبيل وضع أكاليل الغار — وإن كانت من زيف — على هامات القبائل وساداتها .

وجاء رجل من زبيد إلى مكة بسلعة له فباعها من العاص بن وائل ، فظلمه ثمنها ، فراح يطوف على بنى عبد الدار وجمح وسهم ومخزوم وأمية ، فيسألهم أن يعينوه على العاص بن وائل ، فزجروه وعبسوا فى وجهه وأبوا أن يغلبوه على العاص ، فلما نظر إلى سلعته قد حيل دونها رقى على جبل أبى قبيس وقريش فى أنديتها فصاح بأعلى صوته :

يا لفهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
هل قائم من بنى سهم بخفرته وعادل أو ضلال مال معتمر

وبلغ الصوت آذان الزبير بن عبد المطلب فهب ثائرا وقال :

— إن هذا الأمر لا ينبغى لنا أن نمسك عنه .

وعزم ابن عبد المطلب أن يجمع قريش ليتحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، وأن لا يغبن ظالم مظلوما ، فراح يطوف فى بنى هاشم

وزهرة وأسد وتيم ومخزوم وأمية وهو يقول :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم وإن كنا جميعا أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا مقربة الغريب لذى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

واجتمع بنو هاشم وتيم وزهرة وأسد فى دار عبد الله بن جدعان ، وصنع لهم طعاما كثيرا . وكان فى القوم محمد بن عبد الله وأبو بكر صديقه الوفى الحميم ، وكان محمد منشرح الصدر فهو يشهد مولد حلف من أفضل أحلاف قريش ، فما اجتمعوا إلا ليتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلم حتى تدفع عنه مظلمته .

إنه يمقت البغى ويكره الظلم ، وإنه ليرى فى هذا الاجتماع خطوة نحو غاية أسمى وهى رفع الظلم عن أنفسهم بعد أن يرفعوه عن الناس ، فهم أنفسهم يظلمون بعبادة الأحجار التى لا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها شيئا .

إنه يحب العدل ، وإن اجتماع قومه على أن يتعاقدوا ويتحالفوا على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ويردوا له مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم ، يثلج صدره ويملأ جوانحه رضا .

وراحوا يقسمون بالله ليكونن يدا للمظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، وما رسا حراء وثبير فى مكانهما .

ثم عمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه فى جفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه ، ثم أتوا به فشربوه ، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل

والزبير بن عبد المطلب يقول :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا أن لا يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمظلوم فيهم سالم

ووقفوا على رأس العاص وقالوا :

ــ والله لا نفارقك حتى تؤدى إليه حقه .

فأعطى الرجل حقه ، فمكثوا كذلك لا يظلم أحد حقه بمكة إلا أخذوه له ، فكان عتبة بن ربيعة يظهر الندم لعدم دخول بنى عبد شمس فى ذلك الحلف بقوله :

ــ لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من بنى عبد شمس حتى أدخل فى حلف الفضول .

وقدم رجل من خثعم مكة تاجرا ومعه ابنة له يقال لها القبول ، أوضأ نساء العالمين ، فلما رآها نبيه بن الحجاج بن عامر السهمى بهره جمالها ، فراح يلف حولها ويدور ، ولم يبرح حتى نقلها إليه وغلب أباها عليها .

ولم يدر الرجل ماذا يفعل فى ذلك الغاصب فقيل له :

ــ عليك بحلف الفضول .

فأتاهم وشكا ذلك إليهم ، فأتوا نبيه بن الحجاج وهو بناحية مكة وهى معه ، وقالوا :

ــ أخرج ابنة هذا الرجل وإلا فإنا من قد عرفت .

فقال :

ــ يا قوم متعونى بها الليلة .

ــ قبحك الله ما أجهلك ! لا والله ولا شخب لقحة .

فأخرجها إليهم فأعطوها أباها ، وركب معهم الخثعمى .

لم تكن فى مكة حكومة ، كان القوى يلوى حق الضعيف ، وكان السيد يأكل ما يشتهى من حقوق ، وكانت القبائل تساند أبناءها فى ظلمهم ، فرأى محمد بن عبد الله فى حلف الفضول خطوة على طريق العدل والأمن والسلام ، فكان تأييده لذلك الحلف تأييدا مطلقا ، حتى إنه قال فيه بعد أن جاء لقومه بشريعة العدل المطلق والأمن الأسمى والسلام وسعادة الدارين :

— شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت .

التذييل

حاولت فى هذا الجزء كما حاولت فى الأجزاء السابقة على قدر جهدى أن أمحص الروايات المتباينة ، وأن أستبعد الآراء التى لا تتفق مع منطق الحوادث وجلال الرسول الكريم حتى فى أيام طفولته وشبابه قبل مبعثه ، وحاولت ألا أتأثر بأى رأى حتى لو أجمعت عليه كل كتب السيرة العربية أو أغلبها قبل أن أدرسه دراسة فاحصة مقارنة وأستريح إليه .

وقد استبعدت بعض الأحداث التى ليس لها أثر فى تكوين شخصية محمد ﷺ . قال : لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله فى رقبته يحمل عليها الحجارة ، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم (أى من الملائكة) ما أراها لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك . فأخذته فشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على من بين أصحابى .

ولم أرو فى السيرة مثل هذه الحادثة لأنها ليست ذات دلالة فى حياة الرسول ، ولوضوح أثر الوضع فيها ، فإن كانت قد وقعت فى طفولته فكيف تتكرر فى شبابه ، ثم قبل مبعثه بسنوات قليلة ؟

زعم كتاب السيرة أن قد وقع له ﷺ مثل ذلك عند إصلاح أبى طالب لزمزم ، فعن ابن إسحاق أيضا قال : كان أبو طالب يعالج زمزم ، وكان النبى (ﷺ) ينقل الحجارة وهو غلام ، فأخذ إزاره واتقى به

الحجارة فغشي عليه ، فلما أفاق سأله أبو طالب فقال : آتاني آت عليه ثياب بيض فقال لي : استتر . فما رؤيت عورته من يومئذ .

وعاد ابن إسحاق يروى كيف نهى (ﷺ) عن التعرى وكشف العورة ، من قبل أن يبعث بخمس سنين عند بنيان الكعبة .

والنهي عن التعري قد يكون مقبولا وهو في صباه ، أما وهو غلام . أما وهو رجل على أعتاب الرسالة فشيء غير مقبول ولا معقول . والحادثة في ذاتها غير ذات بال ، وقد سقتها لأدلل على أن ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة كانوا يسجلون كل ما يصل إليهم من آراء دون نقد أو تمحيص ، لذلك ماجت كل كتب السيرة بالقيم والغث ، بالراجح والمرجوح ، وبالصحيح والخطأ والضعيف .

ومن أمثلة التضارب في الروايات ما جاء عن بركة الحبشية جارية عبد الله ، فالجلال السيوطي يقول في الخصائص الصغرى : ترك عبد الله جاريته أم أيمن بركة الحبشية ، أسلمت قديما هي وولدها أيمن ، وكان من عبد حبشي يقال له عبيد . ويقول ابن الجوزي : إن النبي ﷺ أعتقها حين تزوج خديجة وزوجها عبيد الحبشي ابن زيد من بني الحارث ، فولدت له أيمن ، وجاء في الإصابة في تمييز الصحابة : كانت أم أيمن تزوجت في الجاهلية بمكة عبيدا الحبشي ابن زيد ، وكان قدم مكة وأقام بها ، ثم نقل أم أيمن إلى يثرب فولدت له أيمن ، ثم مات عنها فرجعت إلى مكة فتزوجها زيد بن حارثة . وقال البلاذري : وقد زوجها ﷺ مولاه زيد بن حارثة ، وإنما رغب زيد فيها لما سمعه ﷺ يقول : من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج بأم أيمن ، فجاءت منه بأسامة . فكان يقال له الحب ابن الحب . وقيل : أعتقها عبد الله قبل موته .

وقيل : كانت لأمه ﷺ .

وقد وقفت طويلا عند بركة الحبشية وقد خالجنى شك فى أن تكون بركة هى أم أيمن ، فقد قيل إن أم أيمن كانت من مراضعه وكانت حاضنته ، فلو وضعنا بركة على مقياس الزمن لوجدنا أنها كانت فى الرابعة عشرة على أقل تقدير يوم مولده ﷺ ، وإلا لتعذر عليها أن ترضعه ، فإذا كان الرسول ﷺ قد زوجها مولاه زيد بن حارثة بعد الإسلام ، فمعنى ذلك أن عمرها فى ذلك الوقت كان قريبا من الستين أو الخامسة والخمسين على أحسن الظروف ، والمألوف أن من كانت فى مثل هذه السن لا تصلح لإنجاب ذرية ، فكيف جاءت من زيد بأسامة ؟

هل بركة جارية حبشية لأبيه عبد الله وأنها غير أم أيمن ؟ هناك قول يقول : إن الحبشية إنما هى بركة أخرى جارية أم حبيبة قدمت معها من الحبشة ، وكانت تكنى أم يوسف ، كانت تخدم النبى ﷺ . ترى هل اختلط الأمر على الرواة ؟ أظن أن الأمر كذلك ، وقد حرصت فى هذا الجزء أن أروى قصة بركة الحبشية جارية عبد الله وحضانتها لمحمد ﷺ بعد موت أمه ، ولم أخلط بينها وبين أم أيمن ، وسأروى قصة أم أيمن عندما أقص قصة خديجة بنت خويلد .

قد يحتج على ذلك بأن رسول الله ﷺ كان يقول لأم أيمن : « أنت أمى بعد أمى » ويقول « أم أيمن أمى » وأظن أن ذلك الحديث ضعيف مثل ضعف الحديث الذى يروى عن عائشة أن الرسول ﷺ مر على قبر أمه بالحجون بمكة ، فالمعروف أن قبر آمنة بالأبواء ، ومن ذلك الحديث قال الطبرى : إن قبر آمنة بشعب أبى ذر بمكة . وقال آخر : إن آمنة دفنت بالحجون بشعب أبى ذؤيب .

ودارس السيرة يرتطم بالاختلاف البيِّن بين المؤرخين وكتاب السيرة ، فما من حادثة واحدة قبل مبعث الرسول ﷺ قد اتفقوا عليها ، فبينا أحدهم يقول إن محمدا (ﷺ) قد ولد بعد موت أبيه ، فهناك من يقول إن عبد الله قد مات وعمر ابنه سنتان . ويقول أحدهم إن آمنة ماتت قبل جده عبد المطلب . ويقول آخرون إن عبد المطلب مات قبل آمنة . ولهؤلاء الكتاب العذر كل العذر فقد كانوا يعتمدون على الرواة ، فما عرف العرب قبل الرسالة التدوين ، ولولا القرآن ما كان للعرب تاريخ .

وقد أخذت فى ترتيب الحوادث بالمشهور والمتواتر ، وتركت كل غريب ما لم يكن ذلك الغريب يتفق مع منطق الأحداث ، ففى هذه الحالة كنت أفضله على المتواتر الذى يتنافر مع الحوادث ولا يتلاءم مع طبيعة الرسالة والرسول .

واهتم كتّاب السيرة بقصة بحيرا الراهب وأفردوا لها فصولا وجعلوا مناديا (من الملائكة !) ينادى ويقول : ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة : رباب بن البراء ، وبحيرا الراهب ، والثالث المنتظر ، يعنى النبى (ﷺ) ؛ ذكره ابن قتيبة ، وكان قبر رباب وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طش وهو المطر الخفيف !

وإنى أحلف يمينا على عدم صحة هذا الكلام كما حلف الذهبى يمينا على عدم صحة حديث عائشة الذى جاء فيه أن النبى (ﷺ) قال : « ذهبت لقبر أمى فسألت ربى أن يحييها فأحياها فآمنت وردها الله » .

إن كتب السيرة تروى قصصا كثيرة كقصة بحيرا ، فما أكثر القصص التى تدور حول رهبان رأوا محمدا (ﷺ) فى صباه وعرفوا أنه النبى

المنتظر ، وإن قصة بحيرا لا تزيد ولا تنقص عن أية قصة من تلك القصص ، ولكن المستشرقين وقفوا طويلا عند قصة بحيرا وحاولوا أن يؤكدوا أن بحيرا هو الذى وضع فى رأس محمد (ﷺ) فكرة النبوة والرسالة . ومن الغريب أنهم حاولوا أن ينكروا قصص الإرهاصات بالنبوة كلها إلا قصة التقاء محمد بالراهب الذى كان فى صومعته على بعد ستة أميال من بصرى .

إذا كان المسلمون — كما يقول المستشرقون الذين درسوا حياة محمد — هم الذين وضعوا قصص الرهبان الذين تنبئوا برسالة محمد (ﷺ) ليؤكدوا دينهم ، فلماذا يصرون على تمحيص قصة لقائه ببحيرا ؟ إما أن تكون هذه القصص موضوعة كلها بما فيها قصة بحيرا ، وإما أن تكون صحيحة كلها بما فيها قصة بحيرا ، أما أن ننكر كل القصص إلا هذه القصة فأمر غير مفهوم ، ومن العجيب أن المستشرقين الذين ينكرون الإرهاصات التى سبقت مولد محمد ﷺ وبعثه ، هم أنفسهم الذين يتحدثون عن البشارات التى سبقت مولد السيد المسيح كأنما كانت البشارات وقفا على رسول دون رسول !

إنها مسألة إقرار مبدأ ، فإما أن نعترف بالإرهاصات كلها وإما أن ننكرها كلها ، مثلها مثل الوحى ، فإذا كان الوحى قد نزل على إبراهيم وموسى وعيسى ، فلماذا لا ينزل على محمد ؟

وعندى أن لقاء بحيرا بمحمد ﷺ لا أهمية له فى حياة محمد ، فقد كان محمد صغيرا وكان لقاء عابرا لم يتيسر فيه أن يلقن بحيرا محمدا (ﷺ) أصول دين قويم كالدين الإسلامى ! إنه لمن السخرية بالعقول أن يقال إن بحيرا قد ألهم محمدا الحكمة والإيمان والكتاب فى بضع ساعات تناولت

فيها قريش الطعام الذى أعده لهم بحيرا ؛ وإنى أعتقد أن من حسن طالع بحيرا أن التقى بالرسول الكريم ، وإلا لاندثر اسمه كما اندثرت أسماء آلاف الرهبان من قبله ومن بعده .

وسواء أكان بحيرا حقيقة واقعة أم كان من نسج خيال كتاب السيرة . فما كان له من أثر فى محمد بن عبد الله وما ألهمه الرسالة ، ولو كان عند بحيرا قبس من العلم الذى كان عند محمد ﷺ ، ما اعتكف فى صومعته ولخرج لهداية البشر .

وقد ظهرت طائفة من النساك قبيل بعثة محمد ﷺ كانت تبحث عن دين إبراهيم الخليل ، فعرفت الله الواحد وهجرت عبادة الأصنام ولم تعتنق اليهودية ولا النصرانية ، وعرفت هذه الطائفة بالحنفاء ، ولم يكن الحنفاء على رأى واحد ودين واحد ، بل كان كل منهم يجتهد فى الاهتداء إلى الله وعبادته على طريقته ، حتى إن زيد بن عمرو بن نفيل كان يقول : والله ما أحد على دين إبراهيم غيرى !

لم تكن كلمة الحنفاء تعنى ديانة معينة ولا جماعة معينة ، فهى ليست اسم علم إنما هى صفة أطلقت على من عرف بنبذه الشرك وميله للتوحيد ، ولو كانت ديانة خاصة كالصابئة واليهودية والمجوسية لذكرت فى القرآن مع هذه الديانات التى أشار إليها كثيرا القرآن الكريم .

ولم يكن لهؤلاء الحنفاء أثر أى أثر فى ظهور الإسلام ، ولكن قبائل هؤلاء الحنفاء قد أضافوا إليهم فى عصر التدوين بعد الإسلام بسنين أفعالا وأشعارا توحى بأن الإسلام قد تأثر بأقوال بعضهم ، أو اقتبس من أفكارهم وأخذ عنهم ، وقد يكون ذلك بحسن نية أو لإثبات فخر للقبيلة تتيه به على القبائل الأخرى . وقد كانت القبائل تنفق الأموال على الرواة

ليرووا أن شاعرا من شعرائها قد روى شعره أيام الرسول ﷺ ، وكان في ذلك شرف للشاعر وشرف للقبيلة التي تزهو به على القبائل كلها ، من ذلك ما جاء في الأغاني من أن أبا نهشل قال :

— قال لي أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وجئته أطلب منه مغرما : يا خال ، هذه أربعة آلاف درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة :

ألا لله قـــــوم وَ　　لدت أخت بني سَهم
هشام وأبــو عبــــد　　مناف مدره الـخَصم
وذو الـرمحين أشبـــال　　على القــــوة والحزم
فهـــذان يـــذودان　　وذا من كثب يرمي

وقل : سمعت حسان ينشدها رسول الله ﷺ ، فقلت : أعوذ بالله أن أفترى على الله ورسوله ، ولكن إن شئت أن أقول سمعت عائشة تنشدها فعلت ، فقال : لا ، إلا أن تقول : سمعت حسان ينشدها رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالس ، فأبي علي وأبيت عليه ، فأقمنا لذلك لا نتكلم عدة ليال ، فأرسل إلي فقال : قل أبياتا تمدح بها هشاما — يعني ابن المغيرة — وبني أمية ، فقلت : سمِّهم لي ، فسماهم وقال : اجعلها في عكاظ واجعلها لأبيك : فقلت :

ألا لله قــــــوم و　　لدت أخت بني سهم

ثم جئت فقلت : هذه قالها أبي ، فقال : لا ، ولكن قل : قاله ابن الزبعرى ، قال : فهي إلى الآن منسوبة في كتب الناس إلى ابن الزبعرى .

قال الزبير بن بكار : وأخبرني محمد بن الحسن المخزومي قال : أخبرني محمد بن طلحة أن عمر بن أبي ربيعة قائل هذه الأبيات .

وعمر بن أبى ربيعة هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة ، فمدحه لأهله آل المغيرة ليس كمدح غيره لهم ، ولو أن هذا الشعر قد نسب إلى حسان بن ثابت ، ولو أن الرواة قبلوا أن يقولوا إن حسان أنشد هذا الشعر رسول الله ﷺ ، لعلا ذكر بنى المغيرة ولكانوا كما قال عنهم حفيدهم عمر بن أبى ربيعة :

أسود تزدهى الأقـرا ... ن مناعـون للـهضم

وهم يومَ عكـاظِ مـا ... نعو النـاس مـن الهزْم

فإن كانت أربعة آلاف درهم تدفع ليقول قائل : إن أربعة أبيات من الشعر قد أنشدها حسان رسول الله ﷺ ، فكم يدفع للرواة لينسبوا أفعالا أو لينتحلوا أشعارا لأناس من قبائلهم عرفوا الله الواحد القهار قبل الإسلام ، بل وعرفوا الجنة والنار والبعث والحساب قبل أن ينزل بها القرآن !

وإنى سأحاول فى الصحفات التالية أن أثبت أثر الوضع فيما نسب لهؤلاء الحنفاء من أقوال ، وسأبدا بقس بن ساعدة .

جعل الإخباريون قس بن ساعدة الأيادى من المعمرين الذين عاشوا سبعمائة سنة أو خمسمائة سنة على أقل تقدير ، وقالوا إنه اتصل بسمعان رأس حواريى السيد المسيح ، ولو أخذنا بهذا الزعم لأخرجنا قسا من الحنفاء وجعلناه فى النصارى الذين كانوا على دين ، وقال بعض الإخباريين إن قس بن ساعدة انطلق إلى القيصر ، وأن القيصر أكرمه وسأله عن العلم ، قال :

— ما أفضل العلم ؟

قال قس :

ــ معرفة الرجل بنفسه .

ــ ما أفضل العقل ؟

ــ وقوف المرء عند علمه .

ــ فما أفضل الأدب ؟

ــ استبقاء المرء ماء وجهه .

ــ ما أفضل المروءة ؟

ــ قلة رغبة المرء فى إخلاف وعده .

ــ فما أفضل المال ؟

ــ ما قضى به الحق .

ومثل هذا الكلام منتشر فى كتب الأدب العربى ، وله أصل يرجع إلى فلاسفة اليونان ، وأثر الوضع فيه واضح .

وقيل : إن قس أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، ولا غرو فهو قد اتصل بحوارى السيد المسيح ونهل من الدين القيم قبل أن يختلط بأساطير الشعوب ، وأول من توكأ على سيف أو عصا ، وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول ما قال « أما بعد » ، وأول من كتب « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

وذكروا أن له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب ، لأن الرسول روى كلامه وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته ، وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه ، وأنه قال فيه : « يُحشر أمة وحده » .

وسأذكر الحديث من وجوهه المختلفة لنرى فيه رأيا .

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب هواتف الجان : حدثنا داود القنطرى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا

أبو عبد الله المشرق عن أبى الحارث الوراق عن ثور بن يزيد عن مورق العجلى عن عبادة بن الصامت ، قال : لما قدم وفد أياد على النبى ﷺ : قال : يا معشر وفد أياد ، ما فعل قيس بن ساعدة الأيادى ؟ هلك يا رسول الله . قال : لقد شهدته يوما بسوق عكاظ على جمل أحمر ، يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدنى أحفظه .

فقام إليه أعرابى من أقاصى القوم فقال : أنا أحفظه يا رسول الله . قال : فسر النبى ﷺ بذلك ، قال : فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر ، وهو يقول : يا معشر الناس اجتمعوا ، فكل من فات فات ، وكل شىء آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وبحر عجاج ، نجوم تزهر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا . ما لى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه ، أن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا ، ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأوليـ ـن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يمضى الأصاغر والأكابر
لا من مضى يأتى إليـ ـك ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا له حيث صار القوم صائر

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه ، وقد رواه الطبرانى من وجه آخر ، فقال فى كتابه المعجم الكبير :

حدثنا محمد بن السرى بن مهران بن الناقد البغدادى ، حدثنا محمد بن حسان السهمى ، حدثنا محمد بن الحجاج ، عن مجاهد عن الشعبى

عن ابن عباس ، قال :

قدم وفد عبد القيس على النبى ﷺ ، فقال : أيكم يعرف القس بن ساعدة الأيادى ؟ قالوا : كلنا يعرفه يا رسول الله . قال فما فعل ؟ قالوا هلك . قال : فما أنساه بعكاظ فى الشهر الحرام ، وهو على جمل أحمر ، وهو يخطب الناس وهو يقول : يا أيها الناس اجتمعوا ، واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . وأقسم قس قسما حقا لئن كان فى الأمر رضى ليكون بعده سخط . إن لله لدينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه . ما لى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ ثم قال رسول الله ﷺ : أفيكم من يروى شعره ؟ فأنشده بعضهم :

فى الذاهبين الأوليـ ـن من القرون لنا بصائر

وهكذا أورده الحافظ البيهقى فى كتابه دلائل النبوة من طريق محمد بن حسان السلمى به . وقد كذبه يحيى بن معين وأبو حاتم الرازى والدارقطنى ، واتهمه غير واحد منهم ابن عدى بوضع الحديث .

وقد رواه البزار وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج ، ورواه ابن درستويه وأبو نعيم من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، وفيه : إن أبا بكر هو الذى أورد القصة بكمالها نظمها ونثرها بين يدى الرسول .

وابن الكلبى عرف عنه أنه قصاص ، ولا أقول : كذاب كما يقول علماء الحديث .

وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبى طالب الحجار إجازة إن لم يكن سماعا ، قال : إجاز لنا جعفر بن على الهمدانى ، قال : أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفى سماعا ، وقرأت على شيخنا الحافظ أبى عبد الله الذهبى ، أخبرنا أبو على الحسن ابن على بن أبى بكر الخلال سماعا ، قال : حدثنا جعفر بن على سماعا ، قال : حدثنا السلفى سماعا ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازى ، حدثنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدى ، حدثنا أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن على المقرىء ، حدثنا أبو محمد عبد الله ابن جعفر بن درستويه النحوى ، قال : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد السعدى — قاضى فارس — حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائى من أهل حران ، أبو عمرو سعيد بن يربع عن محمد ابن إسحاق ، حدثنى بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبى الحسن البصرى أنه قال : كان الجارود بن المعلى بن حنش بن معلى العبدى نصرانيا ، حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها ، عالما بسير الفرس وأقاويلها ، بصيرا بالفلسفة والطب ، ظاهر الدهاء والأدب ، كامل الجمال ، ذا ثروة ومال ، وأنه قدم على النبى ﷺ وافدا فى رجال بنى عبد القيس ذوى آراء وأسنان ، وفصاحة وبيان ، وحجج وبرهان ، فلما قدم على النبى ﷺ وقف بين يديه ، وأشار إليه وأنشأ يقول :

يـــا نبـــى الهدى أتـــتك رجـــال
قطـــعت فدفـــدا وآلا فـــآلا

وطـــوت نحوك الصحـــاصح تهدى
لا تعـــد الكـــلال فـــيك كـــلالا

كل بهمـــاء قصَّر الطـــرف عنها
أرقـــلتها قلاصنـــا إرقـــالا
وطـــوتها العتـــاق يجمـــع فيها
بكمـــاة كـــأنجم تتـــلالا
تبتغـى دفـع بـأس يـوم عـظيم
هائـــل أوجـــع القلـــوب وهـــالا
ومـــزادا لمحشر الخلـــق طـــرا
وفراقـــــا لمن تمادى ضلالا
نحو نـــور مـــن الإلٰـــه وبرهـــا
نٍ وبـــر ونعمـــة أن تنـــالا
خصك الله يـا بـن آمنـة الخيـــ
ـــر بها إذ أتت سجـــالا سجـــالا
فاجعـــل الحظ منك ياحجـة اللـــ
ـــه جزيلا لا حـظ خلـف أحـالا

قال : فأدناه النبى ﷺ وقرب مجلسه ، وقال له : يا جارود لقد تأخر الموعود بك وبقومك . فقال الجارود : فداك أبى وأمى . أما من تأخر عنك فقد فاته حظه ، وتلك أعظم حوبة ، وأغلظ عقوبة ، وما كنت فيمن رآك ، أو سمع بك فعداك ، واتبع سواك ، وإنى الآن على دين قد علمت به قد جئتك ، وها أنا تاركه لدينك ، أفذلك مما يمحص الذنوب ، والمآثم والحوب ، ويرضى الرب على المربوب ؟ فقال له رسول الله ﷺ : أنا ضامن لك ذلك ، وأخلص الآن لله بالوحدانية ، ودع عنك دين النصرانية . فقال الجارود : فداك أبى وأمى ، مد يدك ،

فأنا أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك محمد عبده ورسوله . قال فأسلم وأسلم معه أناس من قومه ، فسر النبى (ﷺ) بإسلامهم وأظهر من إكرامهم ما سروا به وابتهجو به . ثم أقبل عليهم رسول الله (ﷺ) فقال : أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الأيادى ؟ فقال الجارود : فداك أبى وأمى كلنا نعرفه ، وإنى من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره . كان قس يا رسول الله سبطا من أسباط العرب عمر ستمائة سنة ، تقفز منه خمسة أعمار ، فى البرارى والقفار ، يضج بالتسبيح ، على مثال المسيح ، لا يقره قرار ، ولا تكنه دار ، ولا يستمتع به جار . كان يلبس الأمساح ، ويفوق السياح ، ولا يفتر من رهبانيته ، يتحسى فى سياحته بيض النعام ، ويأنس بالهوام ، ويستمتع بالظلام ، يبصر فيعتبر ، ويفكر فيختبر ، فصار لذلك واحدا تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأهوال ، أدرك رأس الحواريين سمعان ، وهو أول رجل تأله من العرب ووحّد ، وأقر وتعبد ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المآب ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، ووعظ بالموت ، وسلم بالقضا ، على السخط والرضا ، وزار القبور ، وذكر النشور ، وندب بالأشعار ، وفكر فى الأقدار،وأنبأ عن السماء والنماء ، وذكر النجوم وكشف الماء ، ووصف البحار ، وعرف الآثار ، وخطب راكبا ، ووعظ دائبا ، وحذر من الكرب ، ومن شدة الغضب ، ورسل الرسائل ، وذكر كل هائل ، وأرغم فى خطبه ، وبين فى كتبه ، وخوف الدهر ، وحذر الأزر ، وعظم الأمر ، وجنب الكفر ، وشوق فى الحنيفية ، ودعا إلى اللاهوتية ، وهو القائل فى يوم عكاظ :

شرق وغرب ، ويتم وضرب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ،

وأجاج وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليـل ونهار ، وإناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات فى إثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام ، لقد ضل الأنام ، نشوّ مولود ، ووأد مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغنى ، ومحسن ومسىء ، تبا لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله ، كلا بل هو إلـٰه واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أباد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثـى ، رب الآخرة والأولى ، أما بعد : فيا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ، وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد ، يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الانفراد ، فى يوم التناد ، إذا نفخ فى الصور ، ونقر فى الناقور ، وأشرقت الأرض ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ ، فويل لمن صرف عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، فى يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ؛ ففريق فى الجنة وفريق فى السعير .

إذا لم يكن هذا الكلام موضوعا فماذا يكون ؟ إنه يتضوع بأريج القرآن ، وإنه يصرخ بأعلى صوت يعلن أنه كتب فى عهد التدوين بعد الإسلام وبعد أن نزل القرآن ، وبعد أن عرف الناس يوم الفصل وميزان العدل والجنة والسعير .

إن بعض المستشرقين يرى أن قس بن ساعدة شخصية خرافية ، وإنى لا أرى هذا الرأى . ويروى بعض رواة الحديث أن الحديث ضعيف ، وإنى أرى أنه على الرغم من ضعفه أن له أصلا ، وأن قس بن ساعدة

شخصية حقيقية ، ولكن الرواة أضافوا إليه من المبالغات ما جعله قريبا من الأسطورة ، وأضافوا إلى حديثه ما وصل إليهم من علم الإسلام ، فجاء كأنما كان يستمد أصوله بل ألفاظه من القرآن الكريم .

وجعل لبيد لقمان دون قس فى الحكم ، قال :

وأخلف قسًّا ليتنى ولعلنى ... وأعيا على لقمان حكم التدبر

وقال الأعشى :

وأحلم من قس وأجرى من الذى
بذى الغيل من خفان أصبح جاردا

وقال الحطيئة :

وأقول من قس وأمضى إذا مضى
من الرمح إذ مس النفوس نكالها

وكان زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر من الحنفاء ، فهو من قريش من بنى عدى ، وهو شخصية لا شك فيها فابنه سعيد بن زيد تزوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب ، وكان زيد رابع من أسلم ، ولعل من أسباب سبقه إلى الدخول فى دين الله ما كان يسمعه من أبيه من تسفيه أحلام قومه ولومهم على عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

وقد قصصت قصة زيد بن عمرو فى هذا الجزء ، وسأقص باقى قصته فى الجزء التالى ، ويلاحظ أن حياته لم يكن فيها مثل المبالغات التى رويت عن قس بن ساعدة أو أمية بن أبى الصلت ، ولعل السبب أن قوم زيد بن عمرو قد حسن إسلامهم فطلبوا الآخرة وأعرضوا عن الدنيا وزينتها ، ولم يبحثوا عن مجد زائف للقبيلة بعد أن نبذوا عصبية الجاهلية ، ولو

كانوايبحثون عن فخر دنيوى فقد كان فى مجد عمر بن الخطاب ما يشبع نهم بنى عدى إلى المجد والفخار .

وكان أمية بن أبى الصلت أحسن الحنفاء حظا فى بقاء الذكر ، بقى كثير من شعره(١) وحفظ قسط لا بأس به من أخباره ، وسبب ذلك بقاؤه إلى ما بعد البعث واتصاله بتأريخ النبوة والإسلام اتصالا مباشرا ، وملاءمة شعره بوجه عام لروح الإسلام . لم يكن مسلما و لم يرض أن يدخل فى الإسلام لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه ، وأن ينزل الوحى عليه فيكون نبى العرب والعالم أجمعين ، فلما رأى النبوة فى الرسول حسده وأثار المشركين عليه ورثى قتلاهم فى معركة بدر وحرض قريشا عليه ، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الثقفيون ، و لم يمت مسلما و لم يمت على دين الوثنيين من قومه بل مات كافرا بالديانتين .

ورثاؤه قتلى معركة بدر ، محفوظ فى قصيدة حائية مطلعها :

هـلا بكـيت على الكـرا ... م بنى الكـرام أولى الممـادح
كبكـا الحمـام على فـرو ... ع الأيك فى الغصن الصوادح

وهى قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين ودفنهم فى القليب، وفيهم « عتبة » و « شيبة » ابنا « ربيعة بن عبد شمس » وهما ابنا خالة أمية . وقد ذكر بعض الرواة أن الذى حمله على قول هذا الشعر هو أنه لما وصل إلى القليب موضع مدفن قتلى قريش فى بدر وكان ذاهبا إلى

---

(١) من هنا حتى نهاية أمية بن أبى الصلت من كتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام » للدكتور جواد على .

المدينة يريد الدخول فى الإسلام ، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين : هل تدرى ما فى هذا القليب ؟ قال : لا ، قيل : فيه شيبة وعتبة وفلان وفلان . فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى وعاد إلى الطائف .

وذكر أن أمية نال فى بيتين من هذه القصيدة من أصحاب رسول الله ، ولذلك أهملهما « ابن هشام » صاحب السيرة ، وذكر أيضا أن النبى نهى عن روايتهما . ولكن الرواة رووهما وحفظوهما ودونوهما فى الكتب ، فكيف تجرءوا على حفظهما وتدوينهما لو صح أن النبى نهى عن روايتهما على نحو ما يزعمه أهل الأخبار .

وأمية مثل سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء ، سافر إلى الشام واتصل بأهلها ، وآوى إلى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عما يهمه من مشكلات دينية ، وعما كان يجول فى خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم . وكان تاجرا يذهب مع التجار فى قوافلهم إلى تلك الديار التى كانت فى أيدى الروم . ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات التى وردت فى ترجمته وسيرته قارئا كاتبا ، قرأ الكتب ووقف عليها ، ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين ، وشكه فى عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات . وقد بدا هذا التأثر فى الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة فى شعره ، وفى الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين العهد القديم والعهد الجديد ، ومن موارد عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب .

ومما ذكره الإخباريون ورواة شعر أمية لنا أمثلة على استعماله للكلام الغريب ، أنه استعمل « الساهور » للقمر وهى كلمة لا تعرفها العربية ،

وأنه ذكر « السلطيط » اسما لله تعالى ، وأنه أطلق كلمة « التغرور » على الله تعالى فى موضع آخره من شعره ، وأنه سمى السماء « صافورة » و « حاقورة » ، وأنه استعمل أشياء أخرى من هذا القبيل . ولولعه باستعمال الغريب رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره . وهذا الشعر المنسوب إلى أمية وغريبه خاصة مادة مهمة جدا تجب دراستها بعناية ، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء فى أخبار الرواة عن هذه الكلمات ، وعن أصولها ومواردها الأولى إن صح أنها من شعر تلك الأيام حقا . إذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات إلى معرفة المنابع التى استقى منها هذا الشاعر علمه وإلهامه ، ومدى تأثره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التى كانت فى مكة وفى خارج جزيرة العرب قبيل الإسلام .

ولا يمكن بالطبع دراسة هذه إلا بالوقوف على اللغات الأعجمية : الآرامية والعبرية واليونانية والحبشية ، وهى لغات أثرت فى الجاهليين بواسطة التجارة والدين ، لاستخراج أصول الكلمات المنسوبة إلى هذا الشاعر ومشابهاتها من تلك اللغات .

وقد روى الأخباريون قصصا عن التقاء أمية بالرهبان ، وعن توسمهم معالم النبوة فية ، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج أجوبتها فى نظرهم معالم النبوة . فلما كانوا يقفون على الأجوبة يقولون له : كادت النبوة تكون فيه لولا بعض النقص فى علاماتها عنده ، كما رووا قصصا عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر لتنظيفة وتهيئة النبوة فيه . ولكنهما عندما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له . وقد حاكى أهل الإخبار فى قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول . كذلك رووا أنه كان يتفرس فى لغات الحيوان فيعرف ما تقوله وما تريده ويقصه على الناس ،

وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب ، فجعلوه بأخبارهم هذه فى مرتبة تضاهى مرتبة سليمان .

وهذا القصص الوارد عن أمية ، هو — بالطبع — من القصص المصنوع الموضوع مثل كثير من أخباره وأخبار غيره ، قص على ذوى القلوب الطيبة من الرواة والأخباريين فأخذوه ونقلوه كما نقلوا ما شاء الله من الإسرائيليات والأساطير ، وروى على أنه مما كان يعلمه الأحبار والرهبان والخاصة من أهل الكتاب .

ولا أستبعد أن يكون هذا القصص قد ظهر فى أيام الحجاج عصبية وتقربا إليه ، فقد كان الحجاج من ثقيف وكان أمية من ثقيف كذلك . وقد أنتج الوضاعون فى أيامه شيئا كثيرا من الأخبار فى قبيلة ثقيف ، كما أنتجوا فى ذمها وفى ذم رجالها نكاية به .

ويذكرون عنه أنه بعد أن صبأ عن قومه وتحنف لبس المسوح على زى المترهبين الزاهدين فى هذه الدنيا ، ورافق الكتب ونظر فيها ليستلهم منها العلم والحكمة والرأى الصحيح ، ثم حرم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين ، وتجنب الأصنام وصام والتمس الدين وذكر إبراهيم وإسماعيل ، وأنه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة : « باسمك اللهم » وهى الجملة التى نسخت فى الإسلام بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وفى رواية أنه : « كان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن خرج إلى البحرين وتنبأ رسول الله ﷺ ، فى جماعة من أصحابه ، فدعاه إلى الإسلام وقرأ عليه (سورة يس) ، حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر

رجليه فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد أنه على الحق . قالوا : فهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر فى أمره . فخرج إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بها ترك الإسلام ، وقال : لو كان نبيا ما قتل ذوى قرابته ، فذهب إلى الطائف ومات .

وفى هذه الرواية المنسوبة إلى الزهرى عن سماع أمية بن أبى الصلت بنبوة النبى وهو فى البحرين ، ثم مجيئه إلى مكة والتقائه بالرسول ومحاجته له فى ظل الكعبة ، ثم انكسافه وتراجعه وذهابه إلى الشام ثم عودته منها ، تكلف ظاهر ، وفى تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضا .

وذكر أنه كان الشخص الذى نزلت فى حقه الآية « واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها »[1] وهى آية قيل أيضا إنها نزلت فى « بلعام بن باعر » أو فى زوج البسوس أو فى « النعمان بن صيفى الراهب » وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح ، فقدم المدينة فقال للنبى ﷺ : ما هذا الذى جئت به ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . قال : فأنا عليها . فقال عليه الصلاة والسلام : لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها ، فقال : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا ، ثم خرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا السلاح . ثم أتى قيصر وطلب منه جندا ليخرج النبى ﷺ من المدينة ، فمات بالشام طريدا وحيدا » .

وأمية كأكثر الشعراء له شعر فى المدح وله تعريض . وأكثر مدحه فى

---

(١) الأعراف : ١٧٥

« ابن جدعان » من أجواد العرب المعروفين المشهورين فى الجاهلية .

وهو فى المدح أو الرثاء أو فى كل مناسبة أخرى مستعمل لكلمات ذات صلة بالدين بالأفكار الدينية ، ولمصطلحات لا ترد إلا نادرا فى الأشعار المنسوبة إلى الشعراء الجاهليين ، مما يدل على غلبة التفكير الدينى عليه ، وتأثير ما قرأه أو ما أخذه من غير العرب فيه .

ويتلخص ما جاء فى شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء فى الاعتقاد بوجود إله واحد خلق الكون وسواه وعدله ، وأرسى الجبال على الأرض وأنبت النبات فيه ، وهو الذى يحيى ويميت ، ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم وليجازيهم بما كسبت أيديهم ، فريق فى الجنة وفريق فى النار ، يساق المجرمون عراة إلى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة والأغلال ، ثم يلقى بهم فى النار يصلونها يوم الدين يبقون فيها معذبين بها ، ليسوا بميتين ، لأن فى الموت راحة لهم ، بل قضى الله أن يمكثوا فيها خالدين أبدا .

وسيق المجرمون وهم عراة   إلى ذات المقامع والنكال

أما المتقون فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال ، لهم ما يشتهون ، فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفاح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم ، وفيها كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وحور لا يرين الشمس فيها ، نواعم فى الأرائك قاصرات ، على سرر متقابلات ، عليهم سندس وجياد رَيْط وديباج ، حلُّوا بأساور من لجين ومن ذهب وعسجد كريم ، لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولا غول فيها مليم ، وكأس لا تصدع شاربيها ، يلذ بحسن رؤيتها النديم ، تحتهم نمارق من دمقس ، فلا أحد

يرى فيها سئيم[١] .

ويروى أن النبى كان يسمع شعر أمية ، وأن « الشريد بن سويد » كان ينشد له شيئا منه فى أثناء أحد أسفاره ، فكان كلما أنشد له شيئا منه طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مائة بيت قال النبى له : كاد يسلم ، أو كاد ليسلم فى شعره . وذكر أن الرسول قال فى حديث له عنه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وأنه قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

وكاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم .

وللوقوف على آراء « أمية » وعلى معتقداته الدينية ، يجب الرجوع بالطبع إلى أشعاره وما نسب إليه من كلام . ففى هذا التراث الذى تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية ، نتمثل آراء ذاك الشاعر الجاهلى الذى أدرك أوائل البعث ، وهى آراء قريبة جدا من الإسلام ، وبعضها يكاد يكون قولا إسلاميا فى لفظة وفى معناه مسبوكا فى الشعر . وفى هذا الشعر قصص الرسل والأنبياء :

آدم ونوح وقصة طوفانه :

جزى الله الأجل المرء نوحا   جزاء البر ليس له كذاب

وقصة ذى القرنين :

---

(١) راجع القصيدة المنسوبة إليه فى وصف الجنة والنار :

جهنم تلك لا تبغى بغيا   وعدن لا يطالعها رجيم

ديوان أمية ص ٥٣ (يشير يموت)

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما ملكاً علا فى الأرض غير معبد

وبلقيس وحكاية الهدهد :

من قبله بلقيس كانت عمتى حتى تقضى ملكها بالهدهد

وقصة إبراهيم وتقديم ابنه للذبح وداود وفرعون وموسى وابن عاد :

حى داود وابن عاد وموسى وقريع بنيانه بالثقال

إننى زارد الحديد على النا س دروعا سوابغ الأذيال

وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به ، فوصف ذلك بانيا وصفه على نحو ما جاء فى القرآن الكريم عن تكون عيسى ، مضيفا إلى ذلك زيادات فى حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها ، كما أورد فى هذا الشعر قصة « لوط أخى سدوم » وهى من القصص المذكورة فى التوراة :

ثم لوط أخو سدوم أتاها إذ أتاها برشدها وهداها

وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل .

وفى أكثر ما نسب إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ، تشابه كبير وتطابق فى الرأى جملة وتفصيلا لما ورد عنها فى القرآن الكريم ، بل نجد فى شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة فى كتاب الله وفى الحديث النبوى فكيف وقع ذلك ؟ وكيف حدث هذا التشابه ؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق ، أو أن أمية أخذ مادته من القرآن الكريم ، أو كان العكس ، أى القرآن الكريم هو الذى أخذ من شعر أمية فظهرت الأفكار والألفاظ التى استعملها أمية فى آيات الله وسوره ، فكتاب الله إذن هو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المتأله ، أو أن هذا التشابه مرده شىء آخر هو تشابه الدعوتين واتفاقهما فى العقيدة والرأى ، أو اعتماد الاثنين على مورد أقدم هو

الكتابان المقدسان : التوراة والإنجيل وما لهما من شروح وتفاسير ، أو كتب أو موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقى أثرها فى القرآن وفى شعر أمية بن أبى الصلت ، أو أن كل شيء من هذا الذى نذكره ونفترضه افتراضا لم يقع ، وأن ما وقع ونشاهده سببه أن هذا الشعر وضع على لسان أمية فى الإسلام . وأن واضعيه حاكوا فى ذلك ما جاء فى القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه .

أما الاحتمال الأول وهو فرض أخذ أمية من القرآن ، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه وجب حصر هذا الجواز فى مدة معينة وفى فترة محدودة تبتدىء بمبعث الرسول وتنتهى فى السنة التاسعة من الهجرة ، وهى سنة وفاة أمية بن أبى الصلت . أما ما قبل المبعث فلا يمكن بالطبع أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن لأنه لم يكن منزلا يومئذ ، وأما ما بعد السنة التاسعة فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضا لأنه لم يكن حيا فلم يشهد بقية الوحى . ولن يكون هذا الفرض مقبولا معقولا فى هذه الحالة إلا إذا أثبتنا بصورة جازمة أن شعر أمية الموافق لمبادىء الإسلام قد نظم فى هذه المدة المذكورة ، أى بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة ، وإلا سقط الفرض . فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر أمية وما جاء فى معناه وفى موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحى على الرسول وبين السنة التاسعة ، أما الآيات التى نزلت بعد هذه السنة فلا تكون شاهدا على أخذ أمية منها ، لأنه كان قد توفى فى السنة التاسعة فلا يقع هذا الافتراض .

ولكن من فى استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه وتعيين أوقات نظمه ؟ إن فى استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذى قاله فى مدح

عبد الله بن جُدعان أو معركة بدر ، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه وهى غالبية لم يتطرق الرواة إلى ذكر المناسبات التى قيلت فيها . ثم إن بعض هذا الكثير مدسوس عليه مروى لغيره ، وبعضه إسلامى فيه مصطلحات لم تُعرف إلا فى الإسلام ، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة فى شعره هذا بهذه الطريقة . ثم إن أحدا من الرواة لم يذكر أن أمية كان ينتحل معانى القرآن الكريم وينسبها إلى نفسه ، ولو كان فعل لما سكت المسلمون عن ذلك ولكان الرسول نفسه أول الفاضحين له .

بقى لدينا افتراض آخر هو أخذ القرآن الكريم من أمية ، وهو افتراض ليس من الممكن تصوُّره ، فعلى قائله إثبات أن شعر أمية فى هذا الباب هو أقدم عهدا من القرآن الكريم ، وتلك قضية لا يمكن إثباتها أبدا . ثم إن قريشا ومن لف لفها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه لما سكتوا عنه ولقالوا له إنك تأخذ من أمية كما قالوا له : إنك تتعلم من غلام نصرانى كان مقيما بمكة ، وإليه أشير فى القرآن الكريم بقوله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »[1] ولقد أشار المفسرون إلى اسم الغلام ولم يشيروا إلى أمية بن أبى الصلت ، ثم إن أمية نفسه لو كان يعلم ذلك أن يظن أن محمدا إنما أخذ منه لما سكت عنه وهو خصم له منافس عنيد ، أراد أن تكون النبوة له وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحى عليه ثم يتبعه الناس فيؤمنوا بدعوته . أما هو فلا يتبعه أحد . هل يعقل سكوت أمية لو

---

(١) النحل : ١٠٣

كان قد وجد أى ظن وإن كان بعيدا يفيد أن الرسول قد أخذ فكرة منه أو من المورد الذى أخذ أمية نفسه منه ؟ لو كان شعر بذلك لنادى به حتما ولأعلن للناس أنه هو ومحمد أخذا من منبع واحد ، وأن محمدا أخذ منه ، فليس له من الدعوة شيء ، ولكانت قريش وثقيف أول القائلين بهذا القول والمنادين به .

نعم ، لقد ورد فى الحديث كما قلت قبل قليل أن الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية ، وأنه كان كلما أنشده شيئا منه طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مائة بيت قال له الرسول : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، ولكننا هنا بنا حاجة إلى تثبيت الإنشاد وإثبات صحة الرواية وتدقيق رجال السند ، لاثبات أن ما أنشد لم يكن قد نزل بمثله الوحى .

ومن ذهب إلى هذا الافتراض من المستشرقين « كليمان هوار » الفرنسى و« بور Porwe » . زعم بور « أنه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن الكريم فإن ذلك يدل على أن الرسول أخذ من (أمية) ، لأن أمية أقدم من الرسول » . وهذا الافتراض مقبول كما قلت لو أثبتنا أن هذا النظم شعر أصيل صحيح وأنه نظم قبل نزول مشابهه فى القرآن الكريم وأنه لم يضف إليه فى الإسلام ، فإن أثبتنا أنه له جاز لهما هذا الادعاء .

وأما الرأى الثالث ـــ وأعنى به رأى من يُرجع التشابه بين شعر أمية وما ورد من مثل معانيه فى القرآن الكريم إلى أحد الاثنين من التوراة والإنجيل وتفاسيرهما وإلى بعض « الصحف » و « المجلات » التى أشير

إلى وجودها عند العرب ــ فهو رأى قديم وليس بجديد ، رأى قيل عن الوحى كله لا عن القرآن وشعر أمية أو غير أمية قبل أن يخلق المستشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة ، فقد زعُم « أن النبى يتعلم من غلام نصرانى اسمه جبر !! » وقد أشير إلى هذا الزعم فى كتاب الله ، وجاء الرد عليه فى قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » . فلم يُخف القرآن الكريم ذلك الطعن والغمز ، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يعلمه ، فذكروا « جبرا » هذا وكان غلاما مقيما بمكة ، وقال بعضهم بل هو رجل رومى اسمه غير ذلك .

ولو كان الرسول وأمية قد أخذا من منهل واحد واستقيا من مورد واحد لما سكتت قريش عن القول به ولما سكت أمية نفسه وهو الغاضب الحاقد على الرسول عن الجهر به ، وكيف يعقل سكوته عن هذا وهو أمر مهم جدا بالنسبة إليه ، وسيف يحارب به الإسلام ؟ ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المتنبئين من الإشارة إليه فى أثناء حروب الردة ، وقد كانت فرصة سانحة لإظهار هذه المقالة .

ثم إن التشابه على ما يتبين من نقده وتمحيصه ليس من نوع ما يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين . إنما هو من قبيل ما يحدث من اعتماد أحد الشخصين على الآخر ، بدليل ورود أمور فى القرآن الكريم لم ترد فى التوراة ولا فى الإنجيل ولكنها وردت فى شعر أمية ، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات فى شعر أمية على شكل إسلامى لا على النحو الوارد عند أهل الكتاب ، واستعمال هذا الشعر لجمل وألفاظ وتراكيب إسلامية واردة فى القرآن الكريم وفى

الحديث لا فى الكتب السماوية المذكورة . فلو كان مرد هذا التشابه الأخذ من مورد واحد لوجب انحصار هذا التشابه فى الأمور المشتركة التى ترد فى الكتب المقدسة : التوراة والإنجيل والقرآن وفى شعر أمية وحسب ، لا فى المسائل التى ترد فى شعر أمية وفى القرآن الكريم ولا ترد فى الكتابين المقدسين أو فى الكتب الأخرى .

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة أصل أحدهما بالآخر وأخذ أحدهما من الآخر تستوجب التأكد من صحة نسب هذا الشعر لأمية . ففى هذا الشعر مقدار لا يمكن أن يشك فى وصفه وصنعه ، ومقدار نص العلماء نصا على أنه لغيره ، وهم إنما ذكروه فى شعر أمية لأن بعض أهل الأخبار نسبه إليه ، ولذلك استدركوا هذا الخبر بالإشارة إلى اسم قائله الصحيح . فلم يبق من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه وهو القليل الذى له صلة بعقيدة ودين . وهذا القليل هو فى الغالب أيضا تبع لما ورد فى القرآن وحده ، لا لما ورد فى الكتابين المقدسين . ولما كان القرآن محفوظا ثابتا فلم يرتق إليه الشك . أما شعر أمية فليس كذلك ، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخ النظم . فهذه المقابلة إن جازت فإنها تكون حجة على القائلين بالرأى المذكور لا لهم . وقد كان عليهم أن يثبتوا أولا إثباتا قاطعا صحة رأيهم فى أصالة هذا الشعر ، لا أن يفترضوا مقدما أنه شعر أصيل صحيح وأن يذهبوا رأسا إلى أنه هو والقرآن الكريم من وقت واحد ، بل إنه على حد قول بعضهم أقدم منه ، فكتاب الله منتزع منه . والحق أن العصبية تلعب بعقول بعض المستشرقين ، ومتى لعبت العصبية بعقل إنسان أبعدته عن فقه أبسط قواعد النقد .

ومن قال باحتمال أخذ القرآن الكريم وأمية من مورد مشترك واحد ،

« فردرش شولشيس » ناشر ديوان أمية . وقد زعم أيضا احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التى كانت منزلة يومئذ ونظمها فى شعره . استند فى زعمه القائل باقتباس الرسول من مورد مشترك إلى ورود بعض كلمات فى القرآن الكريم وفى الحديث وفى كتب السير يفهم منها على زعمه أن الرسول كان قارئا كاتبا ، ولكنه لم يشترط فى هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة بل ذهب إلى أنها « مجلة » و « صحيفة » تتضمن أحاديث وتفاسير وقصصا دينيا قديما . أما دليله فافتراض واحتمال وليس له غير هذين ولا يقوم علم إلا على دليل ملموس ، أما أنا[1] فأظن أن مرد هذا التشابه والاتفاق إلى الصنعة والافتعال . لقد كان أمية شاعرا ما فى ذلك شك لإجماع الرواة على القول به ، وقد كان ثائرا على قومه ناقما عليهم لتعبدهم للأوثان ، وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكن لا أظن أنه كان واقفا على كل التفاصيل المذكورة فى القرآن وفى الحديث عن العرش والكرسى وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . إن هذا الذى أذكره هو شيء إسلامى خالص لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ولا عند الأحناف ، فوروده فى شعر أمية وبالكلمات والتعابير الإسلامية هو عمل جماعة فعلته فى عهد الإسلام وضعته على لسانه ، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الإسلام ، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه وأنه لم يكن لذلك غريبا ، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب ، يعلمون بقرب ظهور

---

(١) الدكتور جواد على .

نبى عربى وأنهم لذلك بشروا به ، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا فى أيامه أو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا ، وأمثال ذلك من قصص راج أمثاله فى كل دين من الأديان .

ويتبين آية الوضع فى شعر أمية فى عدم اتساقه وفى اختلاف أسلوبه وروحه ، فبينما نجد المنسوب إليه فى المدح أو فى الرثاء أو فى الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين فى ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب إلى شعراء الجاهلية ، نجد القسم الدينى منه والحكمى فى أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب ، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين ، أسلوب يجعله قريبا من شعر الفقهاء والصوفيين المتزمتين ونساك النصارى ، فهو بعيد جدا من أسلوب الجاهليين ، حتى أسلوب مثل عدى بن زيد العبادى وبقية من نسب إلى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الإسلام . يضاف إلى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر إلى غيره من الشعراء . ولكن من الذى وضع هذا الشعر ثم أنكره على نفسه وأسنده إلى أمية ؟ ومن الذى رصع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ولكنها أبيات إسلامية ؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر فى ديوان نسبه إليه ؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ولكن أجوبتها مكانها كتاب يؤلف فى حياة هذا الشاعر وفى شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك مجال واسع للتنقيب عن هذه الأمور . رُوى أن الحجاج قال وهو على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية » فهل ذهب العالمون به حقا قبل أيام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضخما واسعا ؟ أو هو قول وزعم من زعم الرواة وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج إلى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيدا ، فالقصيدة التى مطلعها :

لك الحمد والمن رب العبا — د أنت المليك وأنت الحكَمْ
محمد أرسلته بالهدى — فعاش غنيا و لم يُهتضَم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطاء من الله أعطينه — وخصَّ به الله أهل الحرم
وقد علموا أنه خَيْرهم — وفى بيتهم ذى الندى والكرم
يعيبون ما قال لما دعا — وقد فرج الله إحدى البُهَمْ
به وهو يدعو بصدق الحديـ — ث إلى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عباد الإلـ — ـه تنجون من شر يوم ألَمْ
تنجون من ظلمات العذاب — ومن حرِّ نار على من ظلم
دعانا النبى به خاتم — فمن لم يجبه أسرَّ الندم
نبى هدًى صادق طيب — رحيم رءوف بوصل الرحم
به ختم الله من قبله — ومن بعده من نبى ختم
يموت كما مات من قد مضى — يرد إلى الله بارى النسم
مع الأنبيا فى جنان الخلود — هُمُ أهلها غير حل القسم
وقدس فينا بحب الصلاة — جميعا وعلم خط القلم
كتابا من الله نقرا به — فمن يعتريه فقدما أثم

أقرأ هذه المنظومة ثم احكم عل صاحبها ، هل تستطيع أن تقول إنه كان شاعرا مغاضبا للرسول وأنه مات كافرا وأن صاحبه رثى كفار قريش فى معركة بدر وأنه قال ما قال فى الإسلام وفى الرسول ؟ اللهم لا يمكن

أن يقال ذلك أبدا ، فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الإيمان ، هو واعظ مبشر يخاطب قومه فيدعوهم إلى الإسلام وإلى طاعة الله والرسول . إنه مؤمن قلبا ولسانا مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وأنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول . ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، مع أن أمية كان قد توفى فى السنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها إذن دليلا على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه فى شعر أمية . نحمد الله على أن صناعها لم يتقنوا صنعها ففضحوا أنفسهم بها ودلوا على مقاتل النظم .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية وهى فى وصف الجنة والنار ، استهلت بهذا البيت :

جهنم تلك لا تبقى بغيًّا ... وعدن لا يطالعها رجيمُ

ثم استمر فى قراءتها ، وفيما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم أنعم النظر فى عبارات هذه الأبيات :

فذا عسل وذا لبن وخمرٌ ... وقمح فى منابته صريم
ونخل ساقط الأكتاف عد ... خلال أصوله رطب قميم
وتفاحٌ ورمان وموز ... وماء بارد عذب سليمُ
وفيها لحم ساهرة وبحر ... وما فاهوا به لهُمُ مقيمُ
وحور لا يرين الشمس فيها ... على صور الدُّمى فيها سموم
نواعم فى الأرائك قاصرات ... فهن عقائلٌ وهمُ قروم
على سُرر تُرى متقابلات ... ألا ، ثم النضارةُ والنعيمُ

عليهم سندس وجياد رَيط ... وديباجٌ يرى فيها قتومُ
وحلوا من أساور من لُجين ... ومن ذهب وعَسْجده كريم
ولا لغوٌ ولا تأثيم فيها ... ولا غولٌ ولا فيها مُليمُ
وكأس لا تصَدع شاربيها ... يلذُّ بحسن رؤيتها النديم
تصفّق فى صحاف من لجين ... ومن ذهب مباركة رذوم

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هذه الأبيات . لقد حاول ناظمها إدخال بعض الكلمات الجاهلية فيها لإلباسها ثوبا جاهليا ولإظهارها بمظهر الشعر الجاهلى الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك بل صيرها فى الواقع نظما لوصف الجنة والنار فى الإسلام . وما بى حاجة إلى أن أحيلك على الآيات التى أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن الكريم .

ومن الغريب أن بعض الإخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلا أن العرب فى جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء ، وأن منهم من نظر فى الكتب وكان مقرا بالجنة والنار ، وحجته فى ذلك هذه المنظومة المنسوبة إلى أمية ، وقد نسى أن ما قاله على سبيل التعميم أو التغليب يناقض ما جاء فى القرآن الكريم وما أورده الإخباريون عن الجاهليين .

وقد كتبت قصة وكيع بن سلمة بن زهير الأيادى فى الجزء الرابع « العدنانيون » ، ورويت ما كان من تبان أسعد وسيف بن ذى يزن وهم ممن كانوا على دين فى الجاهلية ، وسأكتفى بهذا القدر عن الحنفاء فى هذا الجزء وسأعاود الكتابة عنهم إن شاء الله فى الجزء التالى « خديجة بنت خويلد » .

المراجـع

القرآن الكريم

صحيح البخارى

تارخ الأمم والملوك — للطبرى

جمهرة نسب قريش وأخبارها — للزبير بن بكار

إنسان العيون (السيرة الحلبية) — لعلى بن برهان الدين الحلبى

السيرة النبوية — لابن هشام

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفارسى

البداية والنهاية — لابن كثير

الأغانى — لأبى فرج الأصفهانى

نهاية الأرب — للنوريرى

بلوغ الأرب — للألوسى

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى — للسمهودى

تاريخ العرب قبل الإسلام — للدكتور جواد على

الروض الأنف — للسهيلى

Ency . Religion By Hastings

Philosophy 8 Theology ,

Rodwell .

فجر الإسلام — لأحمد أمين

مشكلة الإنسان	للدكتور زكريا إبراهيم
مشكلة الحرية	للدكتور زكريا إبراهيم
إيران فى عهد الساسانيين	لكريستينس — ترجمة يحيى الخشاب
موقع عكاظ	للدكتور عبد الوهاب عزام
الحضارة البيزنطية	لستيفن رنسيمان — ترجمة جاويد
الملل والنحل	للشهرستانى
مختصر للتاريخ	توينبى
العقد الفريد	لابن عبد ربه

للمؤلف

الطبعة الأولى

احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
ابو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن ابى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة اقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
ابناء ابى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
اهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
قميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

		الطبعة الأولى
ام العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
اذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨
ارملة من فلسطين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	اكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢

القصص الديني

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ »
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ »
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

محمد رسول الله والذين معه

رقم الإيداع ٢١٨٧
الرقم الدولى ٣ ــ ١١٥ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

السيرة النبوية



خديجة بنت خويلد

عبد الحميد جودة السحار



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

(قران كريم)

١

هطلت الأمطار على نجد فكست صحراءها ورودا ناعمة صفراء طيبة الأريج ، فتضوعت الرياح بالنسيم الطيب وهبت النفحات فى رياضها وأينعت ثمارها ، فطاب العيش وراح الناس يجتمعون فى رونق الضحى وفى فحمة الليل يتجاذبون أطراف الحديث ، فقد أقبل الربيع وتفتحت النفوس تفتح الزهور .

وارتدى جبل الشرى ثوبا أخضر يسر الناظرين ، وعلى سفحه وعند أقدامه امتدت ديار طيء ، وفى ليلة اكتمل فيها القمر بدراً اجتمع فى دار من هذه الدور حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن امرىء القيس القضاعى وإخوته وبعض رجال القبيلة يتحاورون وينشدون أشعار شعرائهم وشعراء عبس وذبيان وقيس عيلان ، فقد كانت تلك القبائل جيرانهم تقع مثلهم فى السافلة ، وهى ما ولى العراق من نجد .

وفى مكان منزو من الدار جلست سُعدى بنت ثعلبة زوجة حارثة تصغى إلى حديث الرجال ، وكان إلى جوارها ابنها زيد وكان غلاما يَفَعة قد بلغ العاشرة من عمره ، وكان شديد الأدمة أفطس الأنف ولكن النفوس تهوى إليه ، فقد كان أبوه يكن له حبا يزيد على حبه لابنه الأكبر جبلة ، وكانت أمه تحبه حبا يفوق حبها لابنها يزيد بن كعب ، فقد كانت سعدى عند كعب بن شراحيل قبل أن تتزوج حارثة .

كان حاتم الطائى قد صار أنشودة يشدو بها الرواة فى ربوع نجد ، فقال قائل منهم :

ـــ إن حاتما جواد يشبه جوده شعره ، وهو مظفر إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإن ضرب بالقداح فاز ، وإذا أسر أطلق ، لقد صار بجوده سيداً من أشرف ساداتنا .

فقال آخر :

ـــ أتذكر شعره الذى يخاطب به امرأته ماوية بنت عبد الله الذى يقول فيه :

أيــا بنـــة عبـــد الله وابنـــة مـــالك
ويا بنة ذى البردين والفرس الورد [١] .

ـــ أذكره وقد رويته بالأمس لما كنا نسمر عند زيد الخيل .

وشرد ببصره قليلا ثم راح ينشد :

أيــا بنـــة عبـــد الله وابنـــة مـــالك
ويا بنة ذى البردين والفرس الـورد[١]

إذا مـا صنـعت الـزاد فـالتمسى لـــه
أكيــلا فــإنى لست آكلـه وحـــدى

أخـا طارقـا أو جـار بـيت فإننـــى
أخاف مذاعات الأحاديث من بعـدى

وإنى لعبــد الضيــف مــا دام ثاويـــا
ومـا فىّ إلا تـلك من شيمـة العبــد

ـــ ومن يقصد بذى البردين ؟

ـــ عامر بن أحيمر بن بهدلة جد ماوية ، وكان من حديث البردين حين لقب به

---

(١) الورد من الخيل بين الكميت والأشقر .

أن الوفود اجتمعت بالحيرة عند المنذر أبى النعمان ، وأخرج المنذر بردين يوما يلو الوفود وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما .

فقام عامر بن أحيمر فأخذهما واتزر بأحدهما وارتدى بالآخر فقال له المنذر : أأنت أعز العرب قبيلة ؟ قال : العز والعدد فى معد ثم فى نزار ثم فى مضر ثم فى خندف ثم فى تميم ثم فى سعد ثم فى كعب ثم فى عوف ثم فى بهدلة ، فمن أنكر هذا فلينافرنى .

فسكت الناس ، فقال المنذر : هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى أهل بيتك وفى نفسك ؟ فقال : أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة ، وأما أنا فى نفسى فشاهد العز شاهدى .

ثم وضع قدمه على الأرض فقال : من أزالها عن مكانها فله مائة من الإبل . فلم يقم إليه أحد من الحاضرين ففاز بالبردتين .

ـــ سمعت ماوية تحدث أن الناس أصابتهم سنة فأذهبت الخف والظلف ، قالت : فبتنا ذات ليلة بأشد الجوع ، فأخذ حاتم عَديا وأخذت سفّانة فعللناهما حتى ناما ، ثم أخذ يعللنى بالحديث لأنام ، فرققت لما به من الجهد فأمسكت عن كلامه لينام ويظن أنى نائمة ، فقال لى : أنمت ؟ مرارا فلم أجبه ، فسكت ونظر من وراء الخباء فإذا شيء قد أقبل فرفع رأسه فإذا امرأة تقول :

ـــ يا أبا سفّانة قد أتيتك من عند صبية جياع .

فقال :

ـــ أحضرى صبيانك فوالله لأشبعنهم .

فقمت سريعا فقلت :

ـــ بماذا يا حاتم فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل ؟

فقام إلى فرسه فذبحه ، ثم أجّج نارا ورفع إليها شَفْره وقال :

ــ اشتوى وكلى وأطعمى ولدك .

وقال لى :

ــ أيقظى صبييك .

فأيقظتهما ثم قال :

ــ والله إن هذا للؤم أن تأكلوا وأهل الصِرم (أبيات من الناس) حالهم كحالكم .

فجعل يأتى الصرم بيتا بيتا ويقول :

ــ عليكم النار .

فاجتمعوا وأكلوا ، وتقنع بكسائه وقعد ناحية حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير و لم يذق منه شيئا .

فقال قائل منهم :

ــ والله إن أمر ماوية لغريب ، تلومه على كرمه مرة وتفخر بذلك الكرم مرات .

ــ إنه يروم الذكر وهى تروم الحياة ، وهو يعرف ذلك حق المعرفة فهو يقول لها :

وعاذلة قامت علىّ تلومنى
كأنى إذا أعطيت مالى أضيمُها

أعاذل إن الجود ليس بمُهلكى
ولا مُخلد النفس الشحيحة لؤمها

وتُذْكَر أخلاق الفتى وعظامه
مُغَيَّبَةٌ فى اللحد باد رميمها

ومن يبتدع ما ليس من خِيم نفسه
يَدعْه ويغلبه على النفس خيمها (١)

والتفت الحارثة بن شراحيل إلى أخيه وقال :

ـــ قلت إنك كنت تسمر بالأمس عند زيد الخيل ، فما أخبار زيد ؟

ـــ كان مِزيَد ، وهو رجل من بنى أسد ، يتمنى أن يلقى زيدا .

ـــ وماذا فعل به زيد الخيل ؟

ـــ ما فعله بجابر الغطفانى ، فقد كان جابر يتمنى أن يلقى زيدا حتى صبحه زيد . فقالت له نويرية امرأته : كنت تتمنى زيدا فعندك .

فالتقيا فاختلفا طعنتين وهما دارعان ، فاندق رمح جابر و لم يغن شيئا ، وطعنه زيد برمح له و كان على كعب من كعابه ضبة من حديد ، فانقلب ظهرا لبطن وانكسر ظهره ، فقالت امرأته وهى ترفعه منكسرا ظهره : كنت تتمنى زيدا فلاقيت أخا ثقة .

وقال زيد :

تمنى مِزيَدٌ زيدا فلاقى
أخا ثقة إذا اختلف العوالى

كمنية جابر إذ قال : ليتى
أصادفه وأتلف بعض مالى

تلاقينا فما كنا سواءً
ولكن خر عن حال لحال

---

(١) الخيم : الطبيعة والخلق .

ولـولا قولـه يـا زيـد قَـدْنى (١)
لقـد قـامت نويـرة بـالمآلى (٢)
شكـكت ثيابـه لما التقينـا
بمطـرد المهـزة كالخلال

فقال حارثة وهو يبتسم :

ــ أين صناديد أسد وذبيان من فارس طيء ؟ إن زيد الخيل يركب الفرس العظيم الطويل فتخط رجلاه فى الأرض كأنه راكب حمارا .

كان زيد بن حارثة إلى جوار أمه سُعدى يصغى إلى حديث الرجال ، فلما تحدث أبوه عن زيد الخيل ثار فى رأسه سؤال ، فقام إلى حيث كان حارثة ، فلما رآه بش له وأفسح له مكانا إلى جواره ، وقبل أن يستقر زيد فى مجلسه قال :

ــ لماذا يا أبت سمى زيد بزيد الخيل ؟

ــ لأن له خمسة أفراس لا يشق لها غبار ، إنه تكنّى أبا مكنف ولكن زيد الخيل غلبت عليه .

ــ ولماذا لم يكن أبا الحارث ؟

ــ لأن مكنفا أكبر من الحارث .

وفهم زيد بن حارثة لماذا يكنى حارثة بن شراحيل أبا جبلة ولا يكنى أبا زيد ، فجبلة أكبر منه ، والرجل يكنى بأكبر أولاده . وشرد زيد بن حارثة يفكر بماذا سيكنى ، كانت أحلامه مجنحة فكان يتخيل نفسه مرة جوادا مثل حاتم الطائى يكنى مثله « أبا سفّانة » ويطير اسمه فى القبائل كما طار اسم حاتم ، وكان يتمنى مرة أخرى

---

(١) قدنى : كفانى .

(٢) المآلى جمع مئلاة ، وهى الخرقة التى تكون مع النائحة تأخذ بها الدمع .

أن يكون فارسا كزيد الخيل يروى الرواة مغامراته فى إكبار ، ولكن ذلك الحلم قد تبخر فقد كان زيد الخيل شاعرا محسنا خطيبا لسنا شجاعا كريما طويلا جسيما حسن القامة مهيبا ، بينما هو أسمر أفطس الأنف . و لم يدر بخلد زيد أن القدر يخبيء له مجدا يفوق أمجاد حاتم وزيد الخيل والنابغة الذبيانى وعنترة العبسى وفرسان نجد وأجوادها . بل وفرسان العرب وأجوادهم و كل من طار له منهم ذكر .

ترى لو قيل لهؤلاء الذين اجتمعوا فى دار حارثة بن شراحيل يروون أمجاد بنى طىء أن اسم زيد ، ذلك الغلام اليفعة الذى يقف على أعتاب العاشرة من عمره ، سينزل به الوحى من فوق سموات سبع ، وأن اسمه سيخلد ما بقيت السموات والأرض ، كان فيهم من يصدق مثل ذلك القول ؟

وانفض السامر ودخل أهل البيت وأسلموا جنوبهم للرقاد ، وما أصبح الصباح حتى خرج حارثة بن شراحيل يسعى فى الأرض ، فألفى بعض الطير على أفنان الشجر فزجرها ليرى أتنطلق يمينا أو يسارا ليستطلع حظه فى يومه ، وكان العرب تختلف فى التيمن بالسانح والتشاؤم بالبارح ، وكان أهل نجد يتيمنون بالسانح ، فلما أخذ الطير طريقه تمثل حارثة بقول النابغة وهو مثله من نجد :

زعـم البـوارح أن رحلتنـا غـدا
وبـذاك تنعـاب الغـراب الأسود

وخرجت سُعدى وابنها زيد لتزور قومها من بنى معن من طيىء ، وما كادت تستقر فى دار أهلها حتى أغارت خيل لبنى القَين بن جِسْر على أبيات بنى معن ، فدب الذعر فى الدور وولولت النساء ورحن يهرولن هنا وهناك ، وحاولت سُعدى أن تهرب بابنها ولكن أين المفر ؟ إنها انزوت بعيدا عن العيون

وراح زيد يعدو ليلحق بها، ولكن رجال بنى القَيْن أبصروه فاحتملوه فيمن حملوا من نساء وغلمان.

وساد أبيات بنى معن حزن ووجوم بعد أن ذهب بنو القين بالأحبة وفلذات الأكباد ، وراحت سُعدى تعدو هنا وهناك وهى تنادى فى وله وانزعاج :

ـ زيد .. زيد .

وما من مجيب . فأحست كأن كبدها تكاد أن تتصدع أسى ، وأن الدموع قد تحجرت فى عينيها ، وأن حسك الأرض قد سد حلقومها ، فلما دب اليأس فى فؤادها عادت إلى ديار زوجها وهى تجر نفسها جرا ، وهى تكاد تغيب عن الوجود .

وهرعت النسوة إليها يسألنها فى لهفة :

ـ أين زيد ؟

فراحت تقص قصتها وعبراتها تغسل وجهها الحزين،وعاد حارثة وسمع بالنبأ الفاجع فلم يقو على ضبط عواطفه وطفرت من مآقيه الدموع ، ولم يقل كما قال يعقوب : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ، فما كان من أولى العزم المؤمنين ، وما كان النور قد أشرق بعد فى صدره بل قال :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
أحى يرجَّى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدرى وإن كنت سائلا
أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل

فياليت شعرى هل لك الدهر رجعة
فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل(١)

---

(١) بجل : بأمر عظيم

تذكرنيــه الشمس عنــد طلوعهــا
وتعــرض ذكــراه إذا غــربُها أَفَــلْ
وإن هـبت الأرواح هيـجـن ذكــره
فيا طول ما حـزنى عليـه ومـا وجُــل
سأعمل نص[1] العيس فى الأرض جاهدا
ولا أسأم التطـواف أو تسأم الإبــل
حياتــىَ أو تــأتى علــىَّ منيتــى
وكل امـرىء فـان وإن غـرَّه الأمــل
وأوصى بــه عمــرا وقــيسا كليهمــا
وأوصى يزيـدا ثم مـن بعدمــا جبــل

٢

تزوج العباس ، وتزوج حمزة وصار أبا عمارة ، وتزوج أبو بكر وأنجب أسماء ، ولم يتزوج محمد بن عبد الله وقد تجاوز العشرين من عمره ، ولم يكن ذلك مألوفا فى العرب فما الذى منعه من أن يتزوج ؟ أوَ لم يكن معه ما يتزوج به ؟ إن سادات بنى هاشم كانوا يفعمون بالفرح لو أن ابن عبد الله تقدم ليخطب إحدى عقيلاتهم ، وفتيات بنى هاشم كن يحلمن بالأمين الذى انتشر أريج طهارته فى قبائل قريش ، ولو أنه تقدم لبنى أمية يطلب إحدى بناتهم لرحبوا به كما رحبوا بعمه أبى لهب من قبل ، فقد تزوج أبو لهب أم جميل ابنة حـرب بــن أميــة وأخت أبى سفيــان بــن حــرب ، فــأشراف

---

(١) النص : أرفع السير .

أمية تنتفخ أوداجهم زهوا كلما صاهروا بنى هاشم ، فقد كان الشرف حليف ذلك الحى وإن حاول بنو أمية أن ينتزعوه منهم .

ولو تقدم إلى بنى أسد ليتزوج لزوجوه عن طيب خاطر ، فالعوام بن خويلد قد تزوج عمته لشرفها فى قومها ، وكان ورقة بن نوفل يزكيه فهو معجب به وبما اشتهر عنه من عزوفه عن دين قومه وإعراضه عن لهوهم وعبثهم وحبه للعزلة والتأمل والتدبر وتقليب وجهه فى السماء .

ولو تقدم إلى بنى تيم يلتمس زوجة لطار أبو بكر فرحا ، فهو صديقه الذى لا يفارقه والذى يزداد حبه له على مر الأيام ، إنه معجب بقدرته على كبح جماح عواطفه وبصدقه وأمانته وشجاعته فى إبداء رأيه ، فهو إذا ما طلب إليه أن يحلف باللات والعزى فى الحرم أو فى الأسواق يقول دون أن تختلج عيناه : إنى لم أحلف بهما قط .

إنه صادق فى تجارته ، صادق فى صداقته ، صادق فى قوله ، صادق فى جيرته ، صادق فى عزلته ، صادق فى علاقته بقومه ، صادق مع نفسه ، فالأمانة تجلله ، فلا غرو أن عرف فى قومه بالأمين ، ولا جرم أن أعجب أبو بكر به ، واتخذه قدوة يحذو حذوه .

ولو تقدم إلى بنى مخزوم ليتخذ له سكنا لفتح له بنو المغيرة أبوابهم على مصاريعها يختار من بناتهم من يشاء ، ولسكنت الغبطة قلب الوليد بن المغيرة وأفئدة أبناء عبد الله بن أبى ربيعة ، ولعرف السرور طريقه إلى صدر الفرع العدوى : الخطاب بن نفيل وزيد بن عمرو بن نفيل على الرغم مما بينهما من عداوة ، فمصاهرة بنى هاشم ترفع من قدر بنى مخزوم وتدنيهم من الحيين المتنافسين على زعامة مكة ، بنى هاشم وبنى أمية .

لم يكن فى قريش كلها بيت لا يرحب بأن يكون محمد بن عبد الله زوجا

لأشرف بناته على الرغم من فقره فى المال ، فقد كان غنيا بنسبه ، غنيا بشرفه ، غنيا بمكارم أخلاقه ، ولكن ابن عبد الله لم يتقدم إلى الزواج لأنه أصبح يحس أن سجدة فى محراب الكون أفضل من الدنيا وما فيها .

إنه بات يؤمن أن رب الكون هو خالق أفكاره ولذاته وآلامه ، فهو لا يطرف طرفة ولا يتنفس نفسا ولا يأتى بحركة إلا بقدرته ، وأنه بوصاله قد تحرر من كل عبودية إلا عبوديته ، إنه حر عن غيره ، عبد فى حقيقة الحقيقة ، هائم فى سعادة السعادة ، غائب عن وجوده بمحاولة الاندماج فى الخير المطلق .

إنه فى توافق مع ضميره وتناسق مع ذاته وصلح مع إرادته ، قد أغلق كل نوافذ نفسه التى تطل على مباذل قومه وشرورهم وتوجه بكل كيانه إلى القوة العلية ، فلم يشق بتوزيع ذهنه ، بل انصرف عن زلات قومه ليفنى فى الكل الطاهر ، ليفوز بسعادة النفس وراحة الضمير والغبطة الروحية التى تنسيه كل ما فى الأرض من لذات ، وكل ما تهفو إليه الأجساد .

إنه ينزع نحو السمو إلى ما فوق السموات ، وإن ذلك السمو جهاد ومعاناة وتحمل آلام الحرمان من كل ما فى الدنيا من مباهج أرضية ولذات حسية وفطام النفس عن الشهوات . إنه سائر فى طريقه إلى الله وهو طريق شاق كله مجاهدة وإرهاق ، إنه يريد أن يرتفع والارتقاء أصعب من الهبوط ، إنه يريد الفضيلة وما أيسر التردى فى الرذيلة ، إنه يريد أن يسير فى مواجهة قومه المتدفقين فى سبل الخطيئة ليصل إلى الآفاق العليا ، فهو يتسلح بأسلحة المقاومة والصمود والشجاعة التى تؤهله لأن يقاوم التيار .

إنه قد عرف طريقه ، فهو يفكر فى رب الكون ولا شىء غير روح الوجود ؛ ولا عربدة فكرية ولا تسكعا ذهنيا ، بل صارت الحقيقة غاية ، فلا

يحلق فى ضباب العدم الكثيف بل يهيم فى دنيا الخلود ويستشعر الأبدية فى أعماق أعماقه ، فحساسيته المرهفة العميقة قادرة على تذوق الآلام واللذات معا . قادرة على أن تحول ألم الجهاد إلى لذة صافية خالصة .

إنه قد فطن إلى أن الضمير هو نبع الألم واللذة ، مصدر الشقاء والغبطة ، وأن الشر ينحصر فى الخطيئة ، وأن أول مراتب الخطيئة إصاخة السمع إلى وسوسات الشيطان ، فراح يجاهد لينقى ضميره حتى يسعد بالفيض الروحى الذى يغمره بسرور دائم يفوق كل سرور زائل مبعثه الحس والجسد ، وجعل يصم أذنيه عن همزات الشيطان حتى لا يتسلل الشر إلى باطن ضميره فيخسر الأرض والسماء معا .

إن قومه فى تنافر وتشاحن واضطراب ونزاع وخصام وقتـال ، إنهم هائمون فى صحارى الضياع يعبون كئوس الرذيلة مترعة بالآثـام . إنهم غارقون فى الخطيئة حتى الآذان قد ملئت جوانحهم بالشرور . مأساة حياتهم أنهم لا يجدون السبيل إلى الخير الأسمى ، فلو استطاع إنسان أن يفتح أعينهم على الخير وأن يقودهم إلى الرشاد لأغلق نوافذ الشر فى ضمائرهم ، وأسدل الأسجاف بينهم وبين الخطايا ، وحول الطاقات الشريرة المدمرة التى تتفجر فى صميم وجودهم إلى طاقات خيرة بناءة ، تسمو بالبشرية إلى السماء لتنهل من نبع السرور وتسعد باللذة الصافية .

إن الإنسان يرى الوجود بعين ضميره ، فإذا كانت نفسه تمور بالشر والفوضى والاضطراب فإنه يرى العـالم مضطربـا حافـلا بكـل الشرور والآلام ، أما إذا كانت نفسه راضية مطمئنة تفيض بالخير فإنه يرى ما فى الكون من جمال ، وأن الجمال يقود إلى الحق ، ولن تعرف نفس الراحة والانسجام إلا إذا أسلمت وجهها لذات الذوات وربطت الأسباب بينها وبين السماء .

إن صدر محمد بن عبد الله يجيش بآمال عريضة مشرقة ، فهو يستشعر فى أعماقه أنه قادر على أن يذكى نفوس قومه ، وقد فطن إلى أن عدوهم الأكبر قابع فى أغوار نفوسهم يلهمهم الكذب ويزين لهم الفسوق ويمزق كل حجاب عن الإغراء ، فإن استطاع أن يوقظ فيهم إرادتهم الخيرة فإنه يكتم أنفاس الرذيلة التى تعربد بين ضلوعهم ويحقق الانتصار لبشريتهم السامية ، ولكن من أين يبدأ ؟ إنه لا يدرى ، وكيف يقنع أقواما جبلوا على إطلاق الحرية لعواطفهم المشبوبة أن يفطموا جوارحهم عن الشهوات ؟ إنه يستشعر فى أعماق ضميره أن ذلك لن يكون إلا بعون الله ونور من نور النور يبدد الظلام الذى ران بكهوف الصدور .

إنه يفكر فيما هو كائن وفيما ينبغى أن يكون ، فيما عليه قومه وفيما يرجو أن يكونوا عليه ، وإنه يعانى من مثل هذا التفكير معاناة شديدة ، وهذا الألم يُحقق تطوره الروحى ويُنمى حياته الباطنية ويقوده إلى الغاية التى صارت هدفه أن يسمو بمشاعر البشرية وأن يجعل الإنسان يستشعر سرورا أعمق من كل سرور مبعثه الجسد وإظهر من مباهج الدنيا .

إنه يخضع حياته الحسية لنشاط روحى يتزايد سموا على مر الأيام ، وإنه يتذوق لذة إشراق وجدانه بنور اليقين ، وإنه يغذى روحه بغذاء المعرفة وهو أشهى من كل غذاء عرف طريقه إلى جوفه ، ويلذ بصره الروحى كلما مده إلى الخير الأسمى وهذه اللذة تفوق كل لذة استشعرها من النظر إلى جمال الكون وروعة الوجود . وإنه لا يكتفى بأن وصل وحده إلى الطهارة القلبية الحقة ولكنه يريد أن يأخذ بيد أهله الذين يحبهم إلى ينبوع السعادة الروحية العميقة ، فما خلقه الله ليعيش لنفسه بل جعله رحمة للعالمين .

إنه يعيش فى عزلة روحية ويحيى حياة باطنية عميقة ، باحثا عن الذى ليس

دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، الباطن تقدما لا عدما ، خالق السموات والأرض بالحق الذى سخر للناس الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، من يعلم ما يسرون وما يعلنون .

كان محمد فى شغل يتأملاته وتفكيره وتقليب وجهه فى السماء عن دنيا الناس ، يحيى فى جو روحي يسمو به عن حاجة البدن وضرورة الجسد ، فلم يفكر فى الزواج وإن كان قبلة أنظار زهرات قريش المترقبات للأزواج .

لو أن محمدا تزوج قبل العشرين كمألوف عادة قومه فمن يدرى لعله كان يتزوج فتاة وضاءة غريرة بلا إيمان ولا تجارب ، فإذا ما جاءت فترة الوحى وإبلاغ الرسالة كانت تحاول أن تقعده عن الجهاد التماسا للسلام والعافية أو كانت تقف عقبة فى سبيله عوضا عن أن تكون له عونا . لكن السماء كانت به رحيمة . فقد كانت تدخر له زوجة ذات فطنة ورجاحة ، مفطورة على التدين ، متلهفة على ظهور الرسالة ، صباحة الوجه غنية اليد غنية النفس ، ذات حنكة وحنان ، تعرف أمانه الحق والفضيلة ، تهيىء لزوجها أصح جو وأطيبه ليؤدى رسالته ، تبذل له العطف والحنان والمال والتأييد ليبلغ أوامر ربه ، وقد توفرت كل هذه الصفات الحميدة فى الطاهرة ، سيدة نساء قريش التى احتضنت بشائر النبوة فى حب وعطف وحنان يفوق كل حب وعطف وحنان جاشت به صدور الأمهات لفلذت أكبادهن .

٣

أطبق ظلام الليل على مكة ولكن لم ينقطع الطواف حول الكعبة ، فسيدات الأسر العريقة كن فى الحرم يلذن بالبيت العتيق متسربلات بالظلام ، وقد راحت إماؤهن يسرن فى أعقابهن يلبين أية إشارة .

وكانت خديجة بنت خويلد تطوف مع الطائفات وتبتهل إلى رب البيت أن يبارك لها فى تجارتها . وكانت راضية النفس بما حققته من نجاح فقد صارت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش ، وكانت سعيدة بما بلغته من رفعة فى دنيا التجارة ، بيد أن سعادتها فى حياتها الزوجية قد تعثرت و لم تعرف طريقها إلى قلبها الكبير الذى كان يرنو إلى حياة زوجية رفيعة ، فيها سمو وبذل وتضحية وكفاح فى سبيل تحقيق غاية سامية ، وقد قصر الزوجان اللذان كتب عليها أن تتزوجهما أن تطمح آمالهما إلى التحليق لبلوغ ما ترجوه من أمجاد .

كانت عالية الهمة جياشة العواطف مفطورة على التدين ، تتهلل نفسها بالفرح كلما ألقت سمعها إلى حديث ابن عمها ورقة بن نوفل عن الأنبياء والدين ، وكثيرا ما كانت أحلامها المجنحة ترفرف فى سموات عالية من الفضيلة لم تصل إليها أمانى أهل عصرها من رجال ونساء ، وكانت تتمنى أن تكون حاضنة لأحداث كبار فى حياة زوجها ، فلما تزوجت عتيق بن عبد الله المخزومى ولما تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ، راحت تجاهد ليكون زوجها سيدا بين الرجال ، إلا أن الموت اختطفه قبل أن يصبح شيئا مذكورا .

وتزوجت ــ بعد موت زوجها الأول ــ هند بن زرارة وأنجبت منه هالة

ثم هند ، وعرف بأبى هالة ، ولم يدم ذلك الزواج طويلا فما استطاعت همته أن ترتفع إلى همتها ، وأصبحت الطاهرة وسيدة نساء قريش بلا زواج قبل أن تبلغ من عمرها الخامسة والعشرين .

وأتمت طوافها ثم اتخذت سبيلها إلى دارها وإماؤها من حولها . حتى إذا ما بلغت البيت سمعت أصوات السمار تنبعث من دار أبى لهب ودار عدى بن حمراء الثقفى ، فلم تخفف من خطوها لتسمع ما يدور فى بيوت جيرانها ، بل أسرعت وهبطت بضع درجات فى دارها ، فقد ارتفع عنها الطريق .

وسارت فى ممر عن يسارها حجر يرتفع عن الأرض بنحو قدم ، وطوله يزيد قليلا على عشر أذرع ، أما عرضه فأربع . وانطلق خلفها إماؤها حتى إذا بلغت بابا صغيرا عن يمينها دخلت منه ، ثم صعدت درجتين ، ثم سارت فى ممر طويل فيه ثلاثة أبواب أولها عن اليسار يؤدى إلى غرفة صغيرة ، وثانيها عن يمين يؤدى إلى غرفة مستطيلة ، وثالثها فى الوجه وقد اتجهت إليه وفتحته ، وقبل أن تدخل التفتت إلى إمائها وأمرتهن فى رقة أن يذهبن للنوم .

ودلفت خديجة إلى مخدعها ؛ إنه بهو متسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة ، ثم ألقت نظرة كلها حب وعطف وحنان على أبنائها الذين كانوا يغطون فى النوم ، وذهبت إلى سريرها ، وما أسلمت جنبها للرقاد حتى راحت فى سبات .

ورأت فيما يرى النائم شمسا عظيمة تهبط من سماء مكة لتستقر فى دارها وتملأ جوانب الدار نوراً ، ويفيض ذلك النور من دارها ليغمر كل ما حولها بضياء يبهر النفوس قبل أن يبهر الأبصار !

وهبت من نومها خائفة يخفق قلبها بين ضلوعها كجناح حمامة ، وراحت تدير عينيها فى المكان فى دهش فإذا بالظلام يجثم على الوجود ، ولكن ذلك

النور الذى بهرها فى المنام لا يزال مشرقا فى وجدانها . ومرت لحظات حتى إذا ما سكن روعها تمددت لتعاود رقادها ولكن الوسن لم يطف بعينيها ، بل صحا ذهنها وراح يستعيد الرؤيا وهى موزعة النفس بين الرهبة والأمل .

وغادرت فراشها وراحت تغدو وتروح فى مخدعها ، وتلك الشمس التى هبطت من السماء لتستقر فى دارها تتخايل لعين بصيرتها تكاد أن تحيل الليل السرمد إلى نهار ، و لم تستطع صبرا على الرؤى الجياشة فى رأسها والمشاعر الموارة فى صدرها فخرجت من مخدعها وسارت فى الممر الطويل وهبطت بضع درجات ثم عرجت إلى الباب الذى يفضى إلى الفناء الواسع الذى ارتفع عن الأرض بمقدار ذراع ، والذى تكدست بين جنباته ما كانت تتجر فيه من سلع ، وراحت تلقى نظرة على الحرير الآتى من الهند والطرف المجلوبة من منف والتوابل والطيب والبخور ، لعلها تشغل ببضاعتها عن حلمها الذى استولى على كل تفكيرها ، ولكن هيهات فهى تؤمن بالأحلام ، ولا تعرف نفسها الدعة قبل أن تنطلق إلى من يؤول لها ما ترى فى المنام .

وما أشرقت الشمس حتى كانت خديجة فى طريقها إلى دار ابن عمها الشيخ ورقة بن نوفل ، فلما دخلت عليه ألفته عاكفا على قراءة كتاب من الكتب السماوية التى شغف بها فألقت عليه تحية الصباح ، وما أن مس صوتها أذنيه حتى رفع رأسه وقال فى دهش :

ـــ الطاهرة ؟ ما جاء بك الساعة ؟

وراحت تقص عليه ما رأت فى منامها وورقة يصغى إليها فى اهتمام ، فلما انتهت من حديثها تهلل وجهه بالبشر وقال :

ـــ أبشرى يا بنة العم ، لو صدق الله رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك ، وليفيضن منها نور خاتم النبيين .

وسرت فى بدن خديجة قشعريرة وجاشت فى صدرها عواطف مشبوبة زاخرة بالأمل والرحمة والرجاء ، ولم تشأ أن توصد ذلك الباب الذى انفتح عن أعظم نبأ فراحت تسأل عن خاتم النبيين وعن صفته وورقة يجيب .

وعاشت خديجة على أمل أن يتحقق ما رأت فى حلمها فكانت إذا تقدم إليها سيد من سادات قومها لخطبتها تقيسه بمقياس صلاحيته للنبوة ، ولم تنطبق صفات النبى التى سمعتها من ابن عمها الشيخ الجليل على أى ممن تهافتوا على خطبتها من سادات قومها ، وباتت تنتظر وعد السماء .

وكان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فى الحرم ، ففتحت أبواب الدور وتدفقت النسوة إلى البيت العتيق ، وخرجت خديجة ومن حولها إماؤها إلى الكعبة ترفل فى ثياب من حرير يتألق وجهها بالنور ، ودخلت من باب إبراهيم تحس إحساساً غامضا أن القدر يخبىء لها شيئاً رائعاً لا تدرى ما هو ولكنها تستشعر أن فيه تحقيق الآمال العريضة التى باتت تتخايل لها فى يقظتها ومنامها .

وطافت بالبيت سبعا ثم وقفت عند الملتزم بين الحجر الأسود والكعبة وراحت تدعو الله وتبتهل إليه . إنها لم تسأله لأول مرة أن يبارك لها فى تجارتها بل كانت تسأله فى حرارة وصدق أن يحقق لها أحلامها .

وبين إساف ونائلة نحرت القرابين ووزعت لحومها على الفقراء ، وارتفعت الشمس فى كبد السماء وراحت تميل نحو الغرب ، والتف النسوة حلقات حول الموائد التى مدت ورحن يتناولن غداءهن .

وجاء يهودى وقال :

ـــ يا معشر نساء قريش !

ورن الصوت فى جنبات الحرم فالتفت النسوة إليه وقد أصخن السمع إليه ، فقال :

ـــ يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبى قرب وجوده فأيتكن استطاعت أن تكون فراشا له فلتفعل .

وثار النسوة فرماه بعضهن بالحصباء ، وألقى عليه أخريات سيلاً من الشتائم والسباب وقبحنه وأغلظن له ، بينا خفق قلب خديجة فى شدة فذلك الحديث أهاج ذكرياتها ، إنه أعاد إلى ذهنها حلمها الذى رأته وذلك الحديث الشجى العذب الذى دار بينها وبين ابن عمها ورقة بن نوفل حول خاتم الأنبياء .

أعلن اليهودى على الملأ أن نبيا قرب وجوده وهو يدعو من استطاعت من نساء قريش أن تكون فراشا له أن تفعل ، وهى قد رأت فى منامها أن الشمس هبطت من سماء مكة لتستقر فى دارها ، وقد فسر لها ورقة ذلك الحلم بأن نور النبوة سيشع من دارها ، إن ذلك كله ليس عبثا ، إنها تحس فى أغوار نفسها أن رؤياها حق . وأن نبوءة اليهودى صدق ، وأن ما قصه عليها ورقة من بشارات فى التوراة والإنجيل بالنبى المنتظر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إن ذلك كله حقيقة ساطعة ، ترى متى يتحقق الحلم الجميل !

٤

أصبح الناس بعكاظ يوم هلال ذى القعدة ، فراح رجال عبد الله بن جُدعان يجمعون من القبائل أسلحتهم حتى لا يكون بينهم قتال كقتال الفِجار الذى وقع فى الأشهر الحرم ، ثم نزل الناس على مراعيهم وراياتهم منحازين فى المنازل يضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها . وكان لكل قبيلة حكم يحكم فى قضاياها ، وكان حكام قريش فى ذلك اليوم أبا طالب فى بنى هاشم ، وحرب بن

أمية فى بنى أمية ، والعلاء بن حارثة الثقفى حليف بنى زهرة فى بنى زهرة ، والوليد بن المغيرة بن عبد الله فى بنى مخزوم ، والعاص بن وائل فى بنى سهم ، و لم يكن من هؤلاء مملكا على بقية قريش وإنما ذلك بتراض من قريش لما فيه من حسم مواد الشر .

وكان حكم تميم أكثم بن صيفى ، وكان فصيحا عالما بالأنساب ، وكانت أقواله تذهب فى قومه مذهب الأمثال فهم يحفظون له قوله فى وصيته لبنيه : تبارّوا فإن البزيقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه . إن قول الحق لم يدع لى صديقا . الصدق منجاة . لا ينفع التوقى مما هو واقع . وفى طلب المعالى يكون العناء . الاقتصاد فى السعى أبقى للحمام . من يأس على ما فاته ودع بدنه . ومن قنع بما هو فيه قرت عينه . التقدم قبل التندم . أن أصبح عند رأس الأمر أحب إلىّ من أن أصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظك . ويل من عا لم أمرءومن جاهله . يتشابه الأمر إذا أقبل ، وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق .

البطر عند الرخاء حمق . والعجز عند البلاء أفن (نقص) . لا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير . لا تجيبوا فيما لم تسألوا عنه . ولا تضحكوا مما لا يضحك منه . تناءوا فى الديار ولا تباغضوا ، فإنه من يجتمع يتقعقع عمده ، ألزموا النساء المهانة . نعم لهو المرأة المغزل . حيلة من لا حيلة له الصبر . إن تعش ترَ ما لم تره . المكثار كحاطب ليل . من أكثر أسقط . لا تجعلوا سرا إلى أمَة .

وكان عامر بن الظرب العدوانى من حكام قيس ، وكان العرب لا تعدل بفهمه فهما ولا بحكمه حكما وكان من الحنفاء . وكان يقول :

— إنى ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ،

ولا جائيا إلا ذاهبا ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء .

وكان قد زوج ابنته من ابن أخيه عامر بن الحارث بن الظرب ، فلما دخلت عليه نفرت منه فشكا إلى أبيها ، فقال :

ـــ لا أجمع عليك فراق أهلك ومالك ، وقد خلعتها منك بما أعطيتها .

فكان هذا أول خلع فى العرب .

كان عامر فى خيمته يقضى بين قومه إذا ما تشاجروا فى الفضل والمجد وعلو الحسب والنسب ، قد التف الناس حوله ، بينا كان المتلمس بن أمية الكنانى يسير فى السوق وحده ، فقد تفرقت عنه العرب حين وقف فى فناء الكعبة يخطب ويقول :

ـــ أطيعونى ترشدوا .

ـــ وما ذاك ؟

ـــ إنكم قد تفردتم بآلهة شتى وإنى لأعلم ما الله راض به ، وإن الله تعالى رب هذه الآلهة وإنه يحب أن يعبد وحده .

وكان فى السوق عبَيد بن الأبرص وهو من الحنفاء المتشائمين المؤمنين، بالمنايا وبالحتم المكتوب ، وقد قال :

من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب

بالله يدرك كل خير ... والقول فى بعضه تلغيب

والله ليس له شريك ... علام ما أخفت القلوب [(١)]

وقال فى المنايا :

فأبلغ بنىّ وأعمامهم ... بأن المنايا هى الواردة

---

(١) انظر التذييل .

لها مـدة فنفـوس العبـاد إليها وإن كـرهت قـاصدة
فـلا تجزعـوا والحمـام دنـا فللمـوت ما تلـد الوالـدة

كانت سوق عكاظ تموج بالتجار والشعراء والأحناف والنصارى واليهود والصابئة والمجوس والمشركين وطلاب اللهو والباحثات عن الذهب ، وكانت كل طائفة تجد فى حلقات السوق بغيتها . واجتمع الشعراء فى خيمة النابغة الذبيانى ينشدون الشعر ويتفاخرون بقبائلهم ويثيرون الخصومات ويوقظون ما نام من أحقاد ، وكان بين الشعراء حسان بن ثابت شاعر الخزرج وقيس بن الحطيم عدوه اللدود شاعر الأوس والخنساء شاعرة العرب ، فمال حسان عليها وقال :

ــ اهجى قيس بن الحطيم .

فقالت :

ــ لا أهجو أحدا أبدا حتى أراه .

فأشار حسان إليه وكان قاعدا فى الشمس ملتفا فى كساء له ، فذهبت إليه ونخسته برجلها وقالت :

ــ قم .

فقام وكان قيس مقرون الحاجبين أدعج العينين أحمر الشفتين براق الثنايا كأن بينها برقا ، ما رأته حليلة رجل قط إلا ذهب عقلها ، فقالت له :

ــ أدبر .

فأدبر ، ثم قالت :

ــ أقبل .

فأقبل ، وكأنها تستعرض عبدا تشتريه ، ثم عاد إلى حاله نائما فقالت :

ــ والله لا أهجو هذا أبدا .

وجاءت القبائل بالرجال والفتيان والفتيات الذين سلبوهم حريتهم فى الغارات

التى شنوها على القوافل والقبائل ليبيعوهم بضاعة فى السوق ، وجاء بنو القين ابن جسر بالنساء والرجال والغلمان الذين انتزعوهم من بنى معن لما أغاروا بخيلهم عليهم ، وكان فيهم زيد بن حارثة بن شراحيل فتى فى العاشرة من عمره ، قد علا ذل الأسر وجهه وانقبض قلبه ، بعد أن كان لا يعرف إلا خفق السرور أيام أن كان يمرح طليقا فى طيىء ثم يعود ليرتمى فى أحضان أمه سُعدى أو ليلصق صدره بصدر أبيه حارثة الحنون .

وارتفعت أصوات الذين كلفوا ببيع العبيد تجلجل فى جنبات السوق فكانت كأسواط تلهب ضمائر الأحرار الذين أمسوا رقيقا بين غمضة عين وانتباهتها ، فقد فقدوا حريتهم لما انقضت عليهم الخيل وانتشلهم الفرسان انتشال النسور الجوارح دون ذنب جنوه .

وجاء الرجال من كل حدب وصوب ينظرون فدبت المنافسة بين تجار العبيد فراح كل منهم يعدد مناقب سلعته ، وتهافت الرجال على شراء الإماء والرجال الأشداء ذوى السواعد القوية وأصحاب الحرف ليعملوا للسادة المترفين ، ويقدموا آخر النهار ثمرة جهدهم لمواليهم لينفقوا ما جاءهم فى يسر على البغايا والقمار .

وعرض بنو القين بن جسر زيد بن حارثة للبيع ، فأخذ حفنة من الرجال يتزايدون عليه وكان فيهم حكيم بن حزام ، وكان حريصا على أن يشتريه وما كان يدرى لذلك سببا ، وقد انتهى الأمر بأن ابتاع حكيم زيد بن حارثة أخذه بستمائة درهم! وصار زيد بن حارثة مولى لحكيم بعد أن كان الابن المدلل لأبيه وقرة عين أمه سُعدى ، وأصبح ذليلا بعد أن كان عزيزا طليقا كفراشة فى دور بنى طيىء .

وراحت أيام عكاظ تمر والشعراء ينشدون قصائدهم ويهجون منافسيهم ،

وقام عبد الله بن الزبعرى السهمى وراح يهجو بنى قصى فدب الرعب فى قلوب قومه ، خشوا من هجاء الزبير بن عبد المطلب فهو قذع الهجاء ، ولو هجا بنى سهم فسيذهب هجاؤه فى القبائل ، فرأوا أن خير ما يفعلونه أن يدفعوا ابن الزبعرى برمته إلى بنى قصى يفعلون به ما يرضيهم .

وجاء بنو سهم بعبد الله بن الزبعرى ودفعوه إلى عتبة بن ربيعة فأخذه إلى بنى هاشم وكان فيهم حمزة بن عبد المطلب ، فلما رأى حمزة أن من هجاهم أصبح فى أيديهم أطلقه وكساه ، فقال ابن الزبعرى :

لعمرك ما جاءت بنوبكر عشيرتى
وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فود جُناة الشر أن سيوفَنا
بأيماننا مسلولة لا نشيمُها
فإن قُصيا أهل عز ونجدة
وأهل فَعال لا يرام قديمها
همْ منعوا يومَى عكاظ نساءنا
كما منع الشول الهجان قرومها[1]

وانتهت أيام الحج وكان الزبير فى الطائف ، فلما عاد إلى مجالس بنى هاشم وسمع بما كان من ابن الزبعرى وهجوه لقصى وأن حمزة أطلقه وكساه ، قال :

فلولا نحن لم يلبس رجال
ثياب أعزة حتى يموتوا

---

(١) القروم : جمع قرم وهو الفحل . والشول الهجان : النياق الكريمة .

ثيـــــابهمُ سمالٌ أو طمـــــــار
بها دسم كما دسم الحمـــــــيت(١)
ولكنـــا خلقنـــا إذ خلقنـــا
لنـــا الحبرات(٢)والمسك الفتـــيت

٥

عاد محمد من عزلته إلى الحرم بعد أن فكر فى الذات العليا فازداد النور العقلى فيه تألقا وسمت حرية عقله وكملت إرادته ، بينا تقيدت حرية جسده فنأى بذاته عن التردى فى خطايا قومه ، فالخطيئة جهل وعدم اكتراث ، وقد أشرق وجهه بنور العلم وتحلى بإرادة حرة مبدعة جعلته يهتم بالوجود ويعتقد اعتقادا راسخا بإمكان النهوض بقومه بل بالبشرية كلها .

سلّحته عزلته وتأمله فى الكون ومحاولة اتصال روحه بروح الوجود الدائمة بمكارم الأخلاق ، فاشتهر بين قومه بالصدق والأمانة والسمو عن مواطن الزلل حتى عرف بالأمين ، فإذا أقبل على قوم قالوا : جاء الأمين . وإذا أدبر قالوا : ذهب الأمين . وإذا فعل شيئا قالوا : فعل الأمين ، وكان يقابل الناس بوجه متطلق فأحب قومه فيه تلك البشاشة وفتحوا له قلوبهم .

إنه فطر على النزوع إلى الاندماج فى الله ، إلى رغبة فى الخلود ، فليس أمامه إلا سبيل واحدة هى السير فى الطريق المؤدى إلى الله . وإن ما يشجعه على تحمل ما فى ذلك الطريق من مشاق وألم وحرمان أنه أصبح يستشعر أن العناية الإلهية

---

(١) السمال والطمار : الأثواب الخلقة البالية . والحميت : وعاء السمن .
(٢) الحبرة : ثوب يمانى من قطن أو كتان مخطط .

ترعاه ، وأنها تأخذ بيده إلى أعتاب الأسرار ، وأنها بلطفها ستكشف له عن جوهر الحقيقة وقدرة الله المطلقة .

كانت أيامه كلها صراعا بين الروح والجسد . جهادا لسيطرة العقل على المادة وفتح نوافذ النفس لأنوار اليقين ، وقد تحقق له ما أراد له الله ، فقد ارتفعت روحه على جسده ، وفتحت نوافذ نفسه لأنوار العلم والحكمة ، وصارت هناك صلة باطنية عميقة بينه وبين ربه ، ولم يبق إلا أن يندمج فى دنيا الناس يمارس البيع والشراء ويرصد عن كثب ما فى البشر من خير وشر ويعد خير إعداد للنهوض برسالة السماء ، فجعل الحق يمهد له الدواعى والبواعث والصوارف لتتحقق إرادة الله ومشيئته .

وانتهى من طوافه فغادر الكعبة قاصدا بيت عمه أبى طالب ، فقد شب فى ذلك البيت الكريم مع أبناء عمه طالب وجعفر وعقيل ، وكان عمه يفضله على بنيه ويحس فى أعماقه أن سيكون لابن أخيه شأن عظيم ، وقد سمع أبو طالب ما بشر به الكهان والعرافون من نبوءة محمد ، ولكن أبا طالب كان يؤمن فى قرارة نفسه أن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا ، فكان يعرض عن فكرة النبوة ويرى ابن عبد الله بعين خياله سيدا فى قومه كجده عبد المطلب ، وإذا ما شطح به الخيال يراه كقصى وقد جمع فى يده السقاية والرفادة والحجابة والسدانة والندوة والمشورة واللواء والسفارة والأيسار ، وكل ما فى بيوت قريش من شرف .

وكانت ابتسامة ساخرة ترف على شفتيه كلما فكر فى أن الأيسار قد تصبح يوما فى يد ابن أخيه ، فقد اشتهر عن محمد إعراضه عن الأزلام والقداح وكراهيته الشديدة للميسر ، وكانت تلك الابتسامة تزداد اتساعا إذا خطر على ذهنه أن الأموال المحتجزة قد تنتقل يوما إلى محمد ، فتلك الأموال

كانت للآلهة يصرف بعضها فى شراء القرابين للأرباب وينفق بعضها فى صيانة الأصنام أو جلب أصنام أخر أو عمارة البيت ، وقد عرف عن محمد مقته لأصنام قومه وبغضه الشديد لها .

وبلغ محمد دار عمه فألفى أبا طالب وأخته عاتكة بنت عبد المطلب يتحدثان ، وكانت عاتكة قد تزوجت أبا أمية بن المغيرة فربطت الأسباب بين بنى هاشم وبنى مخزوم ، كما شدت أختها صفية الأواصر بين الهاشميين وبنى أسد لما تزوجت العوام بن خويلد أخا خديجة ، وكان لعاتكة ابنان فى مثل سن محمد سمت أحدهما عبد الله والآخر زهيرا ، وكانا يحبان ابن خالهما حبا شديدا ، فما جاء محمد بعد بما يفرق به بين الأب والابن والزوج والزوجة وما يثير حفيظة من أحبوه .

وألقى محمد على عمه وعمته تحية الصباح ، وما كاد يستقر إلى جوارهما حتى التفت إليه أبو طالب وقال :

ــ أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان وألحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرانها فيتجرون لها فى مالها فيصيبون منافع ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك .

فقال محمد فى اقتضاب :

ــ فلعلها أن ترسل إلى فى ذلك .

وفطنت عاتكة إلى أن محمدا تأبى أنفته أن يعرض نفسه على أحد حتى لو كانت خديجة بنت خويلد التى يهرع إليها الرجال ليكون لهم شرف الاتجار لها فى مالها ، والتفتت إلى أخيها وقد ألقت إليه سمعها لتنظر ما يقول فقال أبو

طالب :

ـــ إنى أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمرا مدبرا .

فأطرق محمد و لم ينبس بكلمة ثم دار على عقبيه وانصرف ، وعاتكة ترقبه فى إكبار فقد أرضى كبرياءها أن ابن أخيها لا يريق ماء وجهه فى الطلب ، إنه عرف فى مكة كلها بالأمين ، أتجد خديجة خيرا منه لتضع بين يديه أموالها ؟ ولكن من أدرى خديجة أن محمدا يطلب عملا ؟ إن كان محمد يجد حرجا فى أن يفاتح بنت خويلد فى هذا الأمر فأى حرج فى أن تذهب هى إلى خديجة وتقص عليها ما دار بين أبى طالب وابن أخيه ؟

ونهضت عاتكة وانصرفت من دار أبى طالب وقد اتخذت سمتها إلى دار خديجة ، فلما جلست إليها راحت تقص عليها ما دار بين أبى طالب ومحمد بن عبد الله وهى ترنو إليها فى إعجاب ، فقد رزقت خديجة صباحة الوجه وخلقا جميلا يأسر الألباب ، وما انتهت عاتكة من حديثها حتى قالت خديجة فى صوت صادق :

ـــ ما علمت أنه يريد هذا .

كانت خديجة تعرف محمدا ﷺ حق المعرفة فعمته صفية زوجة أخيها العوام ، وقد ترامت إليها سيرته العطرة فودت لو أنه عمل لها ، ولكنها كانت تعتقد أن فى تجارة بنى هاشم منفسا له ، وما درت أن كثرة العيال قد ذهبت بتجارة أبى طالب ، وأن أبا لهب قد أعرض عن التجارة وانغمس فى اللهو والشراب ، وأن حمزة قد شغل بالقنص عن التجارة ، وأن العباس يفضل أن يخرج فى تجارته على أن يبعث رجالا يتجرون له فى ماله .

وأرسلت خديجة إلى الأمين فمشى إليها يتقلع كأنما ينحط من صبب ، ذريع الخطوة ، سائل الأطراف ، حتى إذا ما بلغ دارها هبط بضع درجات ثم

سار خلف إحدى إمائها حتى دخل مكان الضيافة .

كانت الغرفة مستطيلة قد وضعت فيها أرائك غطيت بطنافس فاخرة وقد زينت بطرف جلبت من أسواق بصرى وأسواق مكة وأسواق اليمن ، كان المكان ينم عن غنى صاحبته ورفيع ذوقها .

وساد السكون برهة ثم مزق غلالته وقع أقدام متئدة قادمة ، إنها خديجة ولا ريب قد أقبلت على الرجل الأبى الذى كره أن يعرض نفسه عليها وانتظر حتى أرسلت إليه ، وفتح الباب ومس أذنيه صوت رقيق وهى تلقى عليه التحية ، فرد عليها التحية فى هدوء وقد غض الطرف .

وجلست خديجة تحادثه ، كان فتى فى الخامسة والعشرين بعيد ما بين المنكبين غزير الشعر تلمس جُمَّته شحمة أذنيه ، شثن الكفين والقدمين ضخم الكراديس — أى ملتقى العظام — أدعج العينين أهدب الأشفار ، وكانت خديجة فى السابعة والعشرين (١) وضاءة يشع من عينيها بريق الفطنة والذكاء بصيرتها نافذة . وكانت أحكامها على الناس أقرب إلى الإلهام .

وطال الحديث بينهما ، إنه ضليع الفم يتكلم بكلام بين فصل مفسر ، إذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلَبها وإذا تحدث صحب كلامه بما يوافقه من حركتها ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت ، منطقة سليم وخلقه قويم .

كان محمد جميل الخلقة جميل النفس فاستشعرت خديجة بروحها تنجذب إليه ، وأحست أنها تتحدث إلى شخصية فذة تختلف كل الاختلاف عن كل من عرفت من سادات قومها وأشرافهم ، فهو نسيج وحده لا يسع المرء إلا أن

---

(١) انظر التذييل

يعجب به وتنبهر لجلالة ذاته لأول وهلة .

وقالت له خديجة فيما قالت :

— إنى دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك .

وانصرف محمد وخديجة مأخوذة بقوة شخصيته ، يرن فى أذنيها صوته عذبا حازما فيه سحر ، فحديثه ينسكب من الأذن إلى القلب ويتغلغل فى أغوار النفس ويشيع فيها ثقة وطمأنينة وسلاما .

إنه لم يملأ عينيه منها ، كان يطرق وهو يحدثها ، وكان كيِّسا فى كل تصرفاته يستأذن إذا دخل ويستأذن إذا ما هم بالانصراف ، يتحدث فى تواضع الواثق دون تكلف أو حذلقة بل يطلق نفسه على سجيتها ، وإن نفسه حلوة تشرح الصدور وتفتح مغاليق الأفئدة .

وأحست خديجة سعادة غامرة لذلك اللقاء . ولم تكن سعادة فتاة غريرة التقت لأول مرة بفتى الأحلام ، بل سعادة امرأة مجربة بذل لها سادات قومها الأموال لتقبل أن تكون لأحدهم زوجة ، ولكنها عزفت عنهم جميعا فلم تجد فى كل من تقدموا لخطبتها من يستطيع أن يحقق آمالها الكبار ، ولكنها وجدت فى ابن عبد الله شيئا مشرقا زاخرا بكنوز نفيسة تفوق كل كنوز قريش وأموالها .

إنها غنية ومالها ممدود فلم تكن فى حاجة إلى ثرى من أثرياء مكة يكدس ذهبه وفضته إلى ذهبها وفضتها ، بل كانت فى حاجة إلى رجل يسمو على أقرانه بكرم أخلاقه وحميد صفاته ، ولقد بلغها عن محمد صدق حديثه وعظم أمانته ولكنها كشفت فى هذا اللقاء عن معدن نفيس نادر هو جوهر مكارم الأخلاق .

إنه على خلق عظيم ، وورث الأريحية عن بنى هاشم وارتفع فوق كل بنى هاشم ، فلطالما التقت بأبى طالب والزبير وأبى لهب وحمزة وآل عبد المطلب أجمعين وأحست نحوهم إكبارا لجميل شمائلهم ، إلا أنها لم تحس مثل تلك الروعة التى غمرتها فى أثناء ذلك الحوار الذى دار بينها وبين محمد ، تلك الروعة التى لا تتلاشى وتتبخر بل تتغلغل فى سويداء القلب تغرس بذور الأمل .

إنه على خلق قويم .

والتقى محمد بعمه أبى طالب وقال له ما كان بينه وبين خديجة دون أن يتهلل بالفرح ، فهو لا يفرح بما أتاه ولا يأسى على ما فاته وإن كان يستشعر فى أعماقه شكرا لذات الذوات ، فقال أبو طالب فى انشراح :

— إن هذا لرزق ساقه الله إليك .

٦

كانت خديجة فى شرفتها ترقب رجالها وهم يضعون السلع على ظهور الجمال ، فكانت ترى محمد بن عبد الله وهو يعاون عبيدها ويربت على الإبل فى حنان دافق فتحس كأنما رقته قد أهاجت مكامن الرقة فى نفسها ، فإذا بكنوز فؤادها تنتشر فى جنباتها فتملؤها حبا لكل ما تمد إليه عينيها ، بل لكل ما تنبض به الحياة .

وراح محمد يغدو ويروح بين رجال القافلة ، وعينا خديجة لا تفارقانه فيزداد إعجابها بذلك الفتى الذى يخرج فى تجارتها لأول مرة ومع ذلك تطغى شخصيته على رجالها جميعا ، حتى غلامها ميسرة يبدو إلى جواره قميئا ،

فعظمة ابن عبد الله قد بهرت أنظار خديجة فلم تعد ترى فى المكان إلا ضياءه .

كانت خديجة ذات بصيرة نفاذة ففطنت إلى أن محمدا طراز وحده من الرجال ، صاحب شخصية قوية فى رقة ، حازمة فى غير قسوة ، كيسة فى غير ضعف ، فطرت على مكارم الأخلاق ، تستولى على مجامع القلوب دون تكلف أو عناء كأن اللطف الإلهى قد اختاره ليقود الناس إلى مصير أبدى سعيد بعيد عن الشقاء .

إن مجرد رؤيته من بعيد يهز أوتار فؤادها ، وإن صدى صوته لا يزال يتردد فى عين ذاتها مذ ذلك اليوم الذى جلست فيه إليه تعرض عليه أن يعمل لها وأن تعطيه ضعف ما تعطى رجلا من قومها ، وإن إشعاعات من روحه القوية تتدسس إلى روحها فتفيض جوانبها بسعادة ونشوة وفرح وإحساسات صافية ناعمة قد انسكبت من عالم علوى غير عالمها الأرضى فى وجدان وجدانها .

وعجبت لنفسها لأن التطلع إلى فتى بنى هاشم يخرجها من ماديتها ويرفعها إلى عالم مجنح تهيم فيه الروح طليقة حرة تنزع إلى غايات سامية ما كانت تخطر لها على قلب وهى ترصد رجالها وهم يقومون بتجهيز القافلة . إنها كانت كلما خرجت لها قافلة لا تتمنى إلا أن يعود إليها غلامها ميسرة بما حقق من أرباح وأن يشنف أذنيها بأحاديث التجارة والتجار ، أما فى ذلك اليوم فلم يخطر لها على بال ؛ كل ما كانت ترجوه أن يعود إليها ميسرة بأنباء محمد بن عبد الله ، فهى تحس بأن سيكون له شأن فى العرب ، فصار أملها أن يحقق محمد ما يحب من نجاح وأن تتفتح السبل أمام إرادته الحرة المبدعة .

وتم تجهيز القافلة ، وقبل أن تنطلق ذهب ميسرة إلى سيدته ليتلقى منها آخر أوامرها فألفاها شاردة فى سعادة تبدو على وجهها ، فقال فى صوت خافت أقرب إلى الهمس :

— مولاتى !

فالتفتت إليه خديجة فقال :

— أوامر مولاتى .

وهمت بأن توصيه بمحمد ولكنها أمسكت لسانها والكلمات تتراقص على شفتيها ؛ ثم قالت فى اقتضاب :

— باسمك اللهم نسير ، بارك لنا فى رحلتنا

وعاد ميسرة ليخرج بتجارة خديجة إلى سوق حباشة ، ومحمد بن عبد الله إلى جواره مرفوع الرأس عليه مهابة وورع وجلال وكأنه قد ولد ليكون زعيما فى قومه ، وظلت خديجة ترقبه وهى حالمة حتى غابت القافلة عن عينيها .

وعادت خديجة إلى مخدعها فراحت الأفكار تنثال على رأسها وكانت تدور كلها حول ابن عبد الله الذى أسرها بعذب حديثه وفضل منطقه وفصاحته وروحه القوية التى تبهر النفوس ، ولم تستطع أن تستقر فى دارها فخرجت إلى دار أخيها حكيم بن حزام .

كان حكيم يتأهب للخروج إلى السوق فهو رجل تاجر لا يدع سوقا بمكة ولا تهامة إلا حضرها ، وكان إلى جواره زيد بن حارثة مولاه الذى اشتراه من سوق عكاظ ، وكان زيد غلاما أفطس الأنف إلا أن روحه جذابه تتفتح لها القلوب .

ودخلت خديجة وحيت ابن أخيها فهرع حكيم إلى عمته يرحب بها ، ولما وقعت عيناها على زيد سألته عنه فقال لها :

— هذا غلام ابتعته من سوق عكاظ .

واستمرا يتجاذبان أطراف الحديث حتى أعد حكيم بن حزام كل شىء

ليخرج إلى سوق حباشة أعظم أسواق تهامة كلها ، فعادت خديجة إلى دارها وفى رفقتها زيد بن حارثة بعد أن وهبه لها ابن أخيها .

وبلغ حكيم السوق . فلما رأى عامر بن ظرب العدوانى حياه ، وإذا برجل من رجال قافلته ينشد شعر ذى الأصبع العدوانى فى مدح قومه :

ومنهم حكـــم يـــقضى فــلا ينـقض مـا يــقضى

فالتفت حكيم إليه وقال :

ــ صدق . إن عامر بن ظرب لا يرد قضاؤه . ما يكون بين العرب نائرة ولا عُضْلة (١)فى قضاء إلا أسندوا ذلك إليه ثم رضوا بما قضى فيه .

وراح رجال قافلة حكيم يقصون الحكم الذى حكم به عامر وذاع أمره بين قبائل العرب ، قالوا : اختصم إليه فى رجل خُنثى له ما للرجل وله ما للمرأة ، فقالوا له :

ــ أتجعله رجلا أو امرأة ؟

ولم يأتوه بأمر كان أعضل منه ، فقال :

ــ حتى أنظر فى أمركم ، فوالله ما نزل بى مثل هذه منكم يا معشر العرب !

فاستأخروا عنه . فبات ليلته ساهراً يقلب أمره وينظر فى شأنه لا يتوجه له منه وجه . وكانت له جارية يقال لها سُخيلة ترعى عليه غنمه وكان يعانيها إذا سرحت فيقول .

ــ صبحت والله يا سُخيل !

وإذا أراحت عليه قال :

ــ مسيت والله يا سُخيل !

وذلك أنها كانت تؤخر السرح حتى يسبقها بعض الناس . وتؤخر الإراحة حتى يسبقها بعض . فلما رأت سهره وقلة قراره على فراشه قالت له :

---

(١) عضلة : مشكلة غامضة .

ـــ مالك لا أبالك ! ما عراك فى ليلتك هذه ؟

ـــ ويلك ! دعينى ، أمر ليس من شأنك .

وبعدت عنه جاريته ، ثم عادت إليه وقالت :

ـــ ما عراك فى ليلتك هذه ؟

فقال فى نفسه : « عسى أن تأتى مما أنا فيه بفرج » فقال :

ـــ ويحك ! اختصم إلى فى ميراث خنثى ، أأجعله رجلا أو امرأة ؟ فوالله ما أدرى ما أصنع وما يتوجه لى فيه وجه .

ـــ لا أبا لك ! أتبع القضاء المبال ، أقعده فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل ، وإن بال من حيث تبول المرأة . فهى امرأة :

ـــ مسّى سُخيل بعدها أو صبّحى ، فرجتها والله .

وحطت قافلة حكيم وذهب يجوس خلال السوق فرأى ميسرة غلام عمته خديجة ومعه محمد بن عبد الله ، فذهب إليهما فألفاهما قد ابتاعا بزا من بزّ لجَند[1] وغيره مما فى السوق من التجارة ، فاشترى منهما بزا وراح يحادث ميسرة وابن عبد الله ويرقبهما ، فملأ الإعجاب بفتى بنى هاشم جوانحه .

وانقضت أيام السوق الثمانية ، وقفل ميسرة عائدا إلى مكة وهو مأخوذ بخلق محمد قد ملئت نفسه إعجابا بحسن تصرفه ، وكان فرحه برفقته أشد من فرحه بالأرباح الحسنة التى تحققت فى هذه الرحلة .

ودخل الرجال الحرم وطافوا بالبيت قبل أن يدخلوا دورهم ، وما انتهى الطواف حتى هرع ميسرة إلى دار خديجة فلما رأته خفت لاستقباله وقد انتشر فى صدرها شىء من القلق واللهفة ، ودهشت لذلك الذى اعتراها فما أكثر ما عاد إليها ميسرة بالأرباح والأنباء دون أن تضطرب أو تختلج منها خالجة .

---

(١) البز : الثياب . الجند : من أعمال اليمن .

وراح ميسرة يتحدث عن التجارة وعن الربح الحسن الذى تحقق فى الرحلة وخديجة تتململ فى جلستها كأنما تحثه أن ينتهى من ذلك الحديث وأن يخوض فى حديث الفتى الذى خرج معه فى تجارتها لأول مرة ، وكأنما قد قرأ غلامها ما يدور فى رأسها فراح يقص عليها فى إسهاب ما كان من محمد بن عبد الله وهى تصغى إليه فى اهتمام ، يعكس وجهها الجميل الصافى ما يعتمل فى صدرها من انفعالات .

وراح يصف لها خلقه ، إنه تاجر صادق لا يحلف أبدا ، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت ، عزيز فى غير قسوة ، كفء لأعظم الأعباء وأفدح الخطوب ، إذا تكلم أسر القلوب ، وإذا قال فقوله الفصل ، لا يدلس ولا يغش ، إذا كان فى البضاعة عيب أبرزه ، إنه الأمين حقا وصدقا .

واستمر ميسرة يتحدث عن ابن عبد الله فى حماسة وخديجة تلقى إليه سمعها وقد انداحت فى جوانبها غبطة وسرت فيها نشوة وطار بها الخيال لتهيم فى الرؤى العذاب التى أوحى بها الحديث عن الأمين : محمد بن عبد الله .



كان القصر خفيف البناء رشيقه ، له خمس قباب تحملها أعمدة فارعة ، فى وسطه محراب ، عليه المعبد قد حمل على أعمدة ؛ إنه قصر دهقان قرية جى من أصبهان .

وفتح باب فى القصر وخرج منه سلمان الفارسى وانطلق إلى حيث كان أبوه الدهقان ، فما أن وقعت عينا أبيه عليه حتى أشرق وجهه بالابتسام وخفق فؤاده بالحب وقال فى رقة :

ـــ كيف أصبحت يا سلمان ؟

وجلس سلمان إلى جوار أبيه يرشف من دنان الحنان ويصغى إلى أعذب الكلام ، فقد كان من أحب عباد الله إلى أبيه الشيخ الذى كان يرى فيه وارث الأرض ووارث مجد السماء ، فقد اجتهد سلمان فى المجوسية حتى كان قاطن النار المقدسة التى يوقدونها ولا يتركونها تخبو أبدا .

وغادر سلمان مجلس أبيه وذهب إلى بيت النار ليرتل الأدعية المقررة للأوقات الخمسة المحددة فى النهار ، ولما انتهى من دعاء مجد النار أخذ كتاب « الأوستا » كتاب زرادشت المقدس الذى فاض بالأساطير والخرافات لما طال على الناس الأمد ، وراح يقرأ فيه قصة بدء الخليقة :

« ظل زروان الإله الأقدم يقدم القرابين زهاء ألف سنة لكى يكون له ولد يسميه أهورا مزدا ، ولكنه فى آخر الأمر أخذ يشك فى فائدة ما قدم من قرابين ، وحينئذ ظهر ولدان فى بطنه [1] أحدهما أهورا مزدا لأنه قدم القرابين ، والثانى أهريمن لأنه شك فيما يفعل ، فوعد زروان من يبدأ بالمثول أمامه منهما بملك الدنيا ، فشق أهريمن بطن أبيه ومثل له فسأله زروان :

ـــ من أنت ؟

فأجابه أهريمن :

ـــ أنا ولدك .

فقال زروان :

ـــ إن ولدى ذكى الرائحة نورانى ، وأما أنت فظلمانى عفن .

(١) أو فى بطن زوجه خوشيرك (حسب الأناهيد) .

وفى تلك اللحظة مثل أهورا مزدا منورا ذكى الرائحة فعرف زروان أنه ولده ، وقال له :

ــ إنى كنت أقدم القرابين حتى الآن من أجلك ، فمنذ اليوم تقدمها أنت من أجلى .

ويتقدم أهريمن ليذكر أباه بوعده ، فيقول :

ــ وعدت أن تنصب من يمثل أمامك قبل أخيه على ملك الدنيا .

فقال زروان :

ــ سأهبك حكما مدته تسعه آلاف سنة .

وظل العالمان ، عالم أهورا مزدا عالم النور ، وعالم أهريمن عالم الظلمات ، متجاورين فى هدوء ، والعالمان لا متناهيان من جوانب ثلاثة ، ولكن كلا منهما يحد الآخر فى الجانب الرابع ، فعالم النور فى الجانب الأعلى وعالم الظلمات فى الجانب الأسفل وبينهما فراغ مملوء بالهواء .

ويعيش خلق أهورا مزدا ثلاثة آلاف سنة بالقوة ، وبعد ذلك يرى أهريمن النور ويضمر إبادته ، فيبادر أهورا مزدا الذى يعلم الغيب بأن يعرض عليه حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة ، فيقبل أهريمن وهو لا يعرف غير الماضى .

وينبئه أهورا مزدا بأن المعركة تنتهى بهزيمة عالم الظلمات ، فيفزع أهريمن فيسقط فى الظلمات ويبقى فيها مشلولا ثلاثة آلاف سنة ، فيبدأ أهورا مزدا بخلق الدنيا ، فلما أتمها خلق الثور الأول ، ثم خلق الإنسان الأول — كيومرد ــ الذى هو أول البشر . وحينئذ ألقى أهريمن بقوته ضد خلق أهورا مزدا فنجس العناصر وخلق طوائف من الزواحف والحشرات . فأقام أهورا مزدا خندقا أمام السماء ولكن أهريمن يكرر هجماته وينجح أخيرا فى قتل الثور

وكيومرد . وكانت بذور كيومرد مخبأة فى الأرض فنتج منها عند انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أول زوجين من البشر هما « مشيك » و « مشيانك » ، وبدأت بذلك فترة اختلاط الخير بالشر ، النور بالطين .

وأخذ البشر يلعبون دورا فى الحرب بين مملكتى النور والظلمة ، وذلك بانضمامهم حسب أعمالهم إلى جانب الخير أو جانب الشر ، فمن تبع منهم الصراط المستقيم يمر سالما بعد الموت على الصراط « جينوت » ثم يدخل الجنة ، وإذا مر على الصراط أحد الأشرار يدق الصراط ثم يدق حتى يصير كالسيف القاطع فيهوى المجرم إلى جهنم حيث يلقى من العذاب ما يعادل سيئاته .

أما من تعادلت موازينه وكانت حسناته مساوية لذنوبه ، فإنه يقيم فى الأعراف حيث لا عقاب ولا ثواب .

وبعد ثلاثة آلاف سنة من خلق العالم يظهر زرادشت فيهدى الناس إلى الدين الحق . وحينئذ لا يبقى للعالم فى الوجود غير ثلاثة آلاف سنة ، ففى نهاية كل ألف يظهر مخلص « سوشيانس » يولد من بذور زرادشت المخبأة فى إحدى البحيرات . وفى اللحظة التى يولد فيها آخر المخلصين الثلاثة ، المخلص الحقيقى ، تبدأ المعركة الأخيرة فيبعث الأبطال والتنانين الشيطانية لكى يتقاتلوا ، وأخيرا يبعث الموتى جميعا ويقع النجم المذنب على الأرض فتشتعل وتذيب جميع المعادن فتنتشر على الأرض كأنها سيل ملتهب . وعلى الناس جميعا الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا هذا السيل ؛ الذى يكون للأتقياء كاللبن الساخن فيطهرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنة .

وبعد المعركة الأخيرة بين الآلهة والشياطين ، تلك المعركة التى تنتهى بهزيمة الشياطين وهلاكهم ، يسقط الشر إلى الأبد فى الظلمات وتمد الأرض

وتبسط وتبقى الدنيا المطهرة إلى الأبد فى سكون لا يعكر صفوه .

وراح سلمان الفارسى يقرأ كيف ولدت الأجرام السماوية من زواج أهورا مزدا من أخواته ، وكيف ولد الآله ميترا ، آله العقد ونور الصباح ، الشمس التى لا تقهر من زواج أهورا مزدا من أمه نفسها : زواج زروان ، وراح يفكر فى ذلك الزواج الآلهى الذى جعل الإيرانيين يتزوجون من بناتهم وأمهاتهم وأخواتهم تشبهًا بآلهتهم .

كانت بذور الشك فى ذلك الدين الزرادشتى الذى فسد بما دخل عليه من أساطير وخرافات وشهوات قد بذرت فى صدر سلمان ، وكان يحاول أن يكتم أنفاس ذلك الشك الذى بدأ يعذبه ، ولكنه كان حر التفكير لا يعرف التعصب لدين الآباء بل كان يبغى وجه الحقيقة ، فأطلق لعقله العنان و لم يضع العراقيل فى وجه إرادته الحرة .

وقامت فى نفسه أسئلة راح يبحث فى بطون الكتب الدينية عن تفسير لها يطمئن إليه ذهنه المتوهج الوقاد : لمن كان يقدم الإله زروان القرابين إذا كان هو الزمان والمكان والقضاء والقدر والأول الذى لا أول قبله ؟ وكيف لا يعرف زروان وهو العالم بكل شيء ابنه أهريمان لما شق بطنه وخرج منه ومثل بين يديه فيسأله :

ـــ من أنت ؟!

وأين كان زروان لما شب القتال بين توأميه ، وكيف حفر أهورا مزدا خندقا فى السماء ليصد هجوم أخيه عليه ؟ إنه رأى الخنادق تحفر فى الأرض ولكن عقله قصر عن تصور حفر الخنادق فى الهواء .

أسئلة كثيرة لم يجد لها أجوبة مقنعة فى بطون الكتب الدينية التى قرأها ،

وقصص تموج بها كتب المجوس لا يمكن إلا أن تكون من وضع البشر ، فمولد الآلهة لايفترق فى قليل أو كثير عن مولد الناس ، ونظرة الدين إلى المرأة هى نظرة الرجل إليها ، أحقا عندما أعطى أهورا مزدا المتقين النساء هربن وذهبن إلى أهريمان الشيطان . فلما منح أهورا مزدا المتقين الهدوء والسعادة منح الشيطان النساء السعادة أيضا ، وقد أذن لهن الشيطان أن يطلبن ما يردن ، فخشى أهورا مزدا أن يطلبن الاتصال بالمتقين فيحملهم العذاب ، فبحث عن وسيلة ليبعدهن فخلق الإله نرسائى رسول الآلهة ، ثم وضعه عاريا خلف الشيطان وذلك لتراه النساء فيشتقن إليه ويطلبنه ، فرفع النساء أيديهن إلى الشيطان وقلن له : يا أبانا الشيطان هب لنا الإله نرسائى ؟

إن عقله الحر لا يسيغ هذه القصة ولا القصص الخرافية الكثيرة التى تفيض بها الأوستا ، فهو يرى أثر الوضع والفلسفة فى كل ما يقرأ . ولم يستطع أن يهضم أن لزروان أقانيم خمسة : الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة ، وأن لإله الظلمات عوالم خمسة : هى الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة . ولم يستطع أن يوفق بين هذه الأقانيم والتثليث والتربيع فى ديانته ، واحتار فى الأوامر والنواهى الكثيرة التى ينوء بها البشر ، فقد كان عليه أن يصلى للشمس أربع مرات فى أثناء النهار وعليه أن يصلى للقمر وللنار وللماء ، وعليه أن يرتل الأدعية قبيل النوم وحين يصحو ، وفى أثناء الاستحمام والتمنطق بالحزام ، وفى أثناء الأكل وحين يذهب إلى الضرورة ، وإذا عطس ، وإذا حلق شعر رأسه أو قلم أظافره ، وحين يضىء السراج ، ولا يجوز أن تخبو نار البيت ولا يجوز أن تقع الشمس على النار ، ولا يجوز أن يقترب الماء والنار ، وينبغى ألا تصدأ آنية المعادن فهى مقدسة .

ضاق صدر سلمان بكل هذه الأوامر والنواهى ، وبالمراسيم الضرورية

للتطهير من لمس ميت أو امرأة حائض أو نفساء وخاصة إذا وضعت طفلا ميتا، ويتدخل الدين فى أقل أمور الحياة اليومية شأنا وتعرض الناس ليلا ونهارا لأن يقعوا فى الإثم أو النجاسة لأقل غفلة تبدو منهم . ضاق سلمان بكل هذه التنطعات وهو رجل الدين الذى أصبح قاطن النار التى توقد ولا يتركونها تخبو أبدا .

وقرأ فى الإضافات التى أضافها مانى إلى الأوستا : « إن الحكمة والأعمال هى التى لم يزل رسُل الله يأتون بها فى زمن دون زمن ، فكان مجيئهم فى بعض القرون على يدى الرسول الذى هو « البدّ » إلى بلاد الهند ، وفى بعضها على يد « زرادشت » إلى أرض فارس ، وفى بعضها على يدى « عيسى » إلى أرض المغرب ، ثم نزل هذا الوحى ، وجاءت هذه النبوة فى هذا القرن الأخير على يدى أنا « مانى » رسول إله الحق إلى أرض بابل » .

وطافت بذهن سلمان الأغنية التى تقول على لسان مانى : « إنى جئت من بلاد بابل لأبلغ دعوتى للناس كافة » وتذكر ما قاله مانى من أنه « الفارقليط » الذى بشر به عيسى ، وكيف أن منافسيه وأعداءه كذبوه ، فود سلمان لو درس دين عيسى ليكشف النقاب عن وجه الحقيقة .

وذات يوم أرسله أبوه إلى ضيعته ، وبينا هو فى الطريق مر بكنيسة للنصارى ومس أذنيه صلاتهم مسا رقيقا ، فسار إليها كالمأخوذ فيا طالما تمنى أن تتاح له فرصة مناقشة هذا الدين .

ودخل من باب الكنيسة وراح ينظر ما يصنعون ، فأعجبه ما رأى من صلاتهم وقال لنفسه :

ـــ هذا خير من ديننا الذى نحن فيه .

واتصل برجال الكنيسة وراح يحاورهم ويصغى إلى ما يقولون وقد أفعم

بنشوة روحية أنسته الضيعة التى أرسله أبوه إليها . بل أنسته كل ما فى الدنيا إلا ذلك الحديث الذى أخذ بلبه ومجامع فؤاده .

وراح أبوه يغدو ويروح فى قصره فقد غابت الشمس و لم يعد سلمان ، واستبد به القلق فبعث فى أثره من يبحث عنه ويرى علة ذلك الغياب .

وأعجب سلمان أمر ذلك الدين الذى جاء به عيسى فقال :

ـــ أين أصل هذا الدين ؟

ـــ الشام .

ودخل الذين بعثهم أبوه فى أثره الكنيسة بعد أن أعياهم البحث عنه فألفوه بين يدى الرهبان وقد ألقى إليهم سمعه ولاح فى وجهه الاهتمام ، فنادوه فأفاق من نشوته ولاح الضيق فى وجهه كأنما هبط من السماء إلى الأرض .

وعاد معهم إلى القصر ، وما إن وقعت عينا أبيه عليه حتى قال فى غضب :

ـــ أين كنت ؟

فقال سلمان فى هدوء :

ـــ مررت على قوم يصلون فى كنيسة لهم فأعجبتنى صلاتهم ورأيت أن دينهم خير من ديننا .

وثار الدهقان وقد أحنقه أن ابنه الذى اجتهد فى المجوسية حتى صار قاطن النار ينطق ببساطة بهذا القول ، فراح يؤكد له أن الشيطان أضله وينصحه بأن يتوب عن فعلته الشنعاء ، إلا أن سلمان لم يستجب للنصح فراح أبوه ينهره ويهدده ويتوعده . و لم ينفع فى الراغب فى الحقيقة تهديد ولا وعيد ، بل أصر سلمان على أن دين النصارى خير من دين قومه ، فلم يجد أبوه إلا أن يجعل فى رجليه الحديد ويحبسه حتى يعود إلى ملة قومه وينسى تلك الأفكار المدمرة التى استولت على لبه .

ولم يحس سلمان قسوة السجن والقيود والأغلال فقد كانت روحه حرة طليقة تهيم فى الوجود ، كل ما كان يضايقه أنه لا يستطيع أن ينطلق إلى الشام مهوى ذلك الدين الذى تفتح له قلبه .

٨

انطلق محمد بن عبد الله من دار عمه أبى طالب ومشى يتقلع كأنما ينحط من صبب إلى دار خديجة ليخرج فى عيرها إلى الشام يتجر لها فى مالها . إنه خرج فى أول رجب مع غلامها إلى سوق حباشة بأرض اليمن بينه وبين مكة ست ليال فابتاعا منه بزا ورجعا إلى مكة فربحا ربحًا حسنًا وأنه أجر نفسه من خديجة سفرتين بقلوصين (الشابة من الإبل) . وقد انتهت السفرة الأولى وها هو ذا مقدم على الثانية هادىء النفس مطمئن البال ، فقد مارس التجارة من قبل وكان تاجرًا صدوقًا .

كان شريكًا للسائب بن أبى السائب صيفى ، وكان السائب إذا ما يحدث عنه الشريك لا يدارى (يرائى) ولا يمارى (يخاصم صاحبه) ولا يشارى[1] . إنه كان محظوظا فى سفرته الأولى وكان يأمل أن يزيد حظه فى سفرته هذه ، فهو من قريش وقريش تتمادح بكسب المال والنجاح فى التجارة .

وبلغ دار خديجة فراح مع غلامها ميسرة يعد العدة للرحلة الطويلة ، كان الجو حارًا والعرق يتفصد من الأجساد لكن الرجال كانوا فى غدو ورواح وقد

---

(١) المشاراة فى الأمر : المشاحة واللجاج فيه .

دب فيهم نشاط عجيب ، فابتسامة محمد الرقيقة وكلماته الحلوة ومعونته الصادقة تخفف عن نفوسهم وتمدها بقوة روحية تقهر كل تعب وتعلو على كل الصعاب .

ووقفت خديجة فى علية لها وإلى جوارها نفيسة بنت منية وبعض صويحباتها ومن خلفها الإماء ، وراحت ترقب رجالها وهم يجهزون القافلة فإذا بابن عبد الله يجذب إليه بصرها وانتباهها وخيالها .

وانتهى الرجال من تجهيز عيرات خديجة ، فذهب إليها غلامها ميسرة قبل أن يؤذن بالرحيل ومثل بين يديها يصغى إلى أوامرها ، فقالت له :

ـــ لا تعص لمحمد أمرا ولا تخالف له رأيا .

أحب ميسرة محمدا من قلبه لما خرج معه إلى سوق حباشة ، وكان يستشيره فى أموره كلها لما فطن إلى رجاحة عقله وحسن منطقه ، فما كان فى حاجة إلى وصية سيدته به ، بيد أن تلك الوصية قد كشفت عن مكانة محمد فى قلب خديجة ، فقد استطاع بعد سفرة واحدة أن يستحوذ على ثقتها ، ولم يعجب ميسرة لذلك فابن عبد الله أهل لكل ثقة ، إذا تحدث صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا اؤتمن أدى الأمانة ، فهو الصادق الأمين حقا .

وخرجت قافلة خديجة إلى حيث كانت قوافل قريش ، وكانت قافلتها تعدل قوافل قريش كلها ، وغص المكان بتجارة بنى هاشم وبنى أمية وبنى المغيرة وبنى تيم ، وكان أبو بكر فى قافلة قومه وكان ذلك مما سر له محمد فما كان الصديقان يفترقان وقد أحب كل منهما صاحبه حبا كبيرا .

وجاء أبو طالب والزبير وأبو لهب والعباس وحمزة والغيداق ورجال بنى هاشم ليودعوا الأمين ، وجعل عمومته يوصون به أهل العير ولو أنصفوا لأوصوه بهم ، فقلبه الكبير قادر على أن يسعهم جميعا .

وتعانق الرجال وخفقت القلوب فى الصدور وسالت العبرات على الخدود والوجنات ، وأذن بالرحيل ففصلت العير وانطلقت فى طريقها إلى الشام حتى أطبق عليها الأفق البعيد .

وانسابت القافلة فى ملكوت الله ومحمد وأبو بكر يسيران جنبا إلى جنب يرى كل منهما فى صاحبه الصديق الذى يتعاطف معه وينجذب إليه ويبادله حبا بحب . وكان أبو بكر يرى فى محمد قدوة تقتدى ويؤمن فى قرارة نفسه أنه فى هذه القافلة بل فى مكة كلها أجدر الناس بالاحترام وأولاها بالإجلال ، وكان محمد يحب فى أبى بكر دعته وتواضعه وشجاعته فى إبداء الرأى وعزوفه عن الشهوات وبعده عن الدنايا وحماسته للخير واستقامة ضميره ونقاء سريرته .

ونزلت القافلة منزلا فأخرج الكاهن تمثال الإله فراح رجال القافلة يطوفون به طوافهم بالكعبة ، ووقف محمد وأبو بكر بعيدا لا يتمسحان بالصنم ولا يطوفان به ولا يذبحان له ، وجعل ميسرة غلام خديجة يرقبهما و لم يبد فى وجهه الدهش ، فقد شاع فى مكة أن ابن عبد الله وابن أبى قحافة ممن يستخفون بالأصنام وبأحلام عابديها .

وخطر على ذهن أبى بكر ما كان بينه وبين أبيه لما ناهز الحلم . فقد أخذ أبو قحافة بيده فانطلق به إلى مخدع فيه الأصنام فقال :

ــ هذه آلهتك الشم العوالى .

وخلاه وذهب ، فدنا من الصنم وقال :

ــ إنى جائع فأطعمنى !

فلم يجبه ، فقال :

ــ إنى عار فاكسنى !

فلم يجبه ، فألقى عليه صخرة فخر لوجهه .

واستأنفت القافلة رحلتها فانطلق محمد فى أول الركب يقلب عينيه فى الكون بروح الإيمان والتدين فتمتلىء نفسه روعة وجلالا ويستشعر فى أعماقه أنه فى طريق الحقيقة وأنه قد وجد السبيل إلى إدراك المطلق ، إلى ينبوع السعادة الذى لا ينضب أبدا .

كان يسعد وهو فى الطريق بلذة صافية خالصة ، لذة روحية جعلته يتناسق مع الوجود ويوفق بين نفسه وبدنه ، بل يسمو بذاته فوق رغبات جسده ، فهو فى نزوعه إلى الموجود الأسمى ، إلى الحقيقة المقدسة ، يجعل كل المتاعب المادية دبر أذنه ويعلو على وجوده بفضل تحليقه إلى القوة المتعالية .

ونال التعب والكلال من الإبل والرجال ، ودب الإعياء فى بعيرين لخديجة فتخلفا عن الركب وتخلف معهما ميسرة وراح يحاول أن يحثهما على السير دون جدوى فخاف على نفسه وعلى البعيرين فانطلق يسعى إلى محمد فأخبره بذلك ، فأقبل محمد إلى البعيرين وراح يمسح بيده عليهما فى حنان دافق ، ثم وضع يده على أخفافهما فانطلقا فى أول الركب وميسرة يرنو إلى محمد وقد امتلأ قلبه حبا له وإعجابا به وثقة فيه .

ولاحت بصرى فى الأفق البعيد فصاح الرجال فى فرح :

— بصرى ! بصرى !

وأغذ الركب السير حتى إذا ما بلغت القافلة صومعة نسطورا الراهب نزلت بالقرب منها ، وذهب محمد وصديقه أبو بكر إلى شجرة ونزلا فى ظلها ، ثم ذهب أبو بكر لقضاء حاجة وبقى محمد تحت الشجرة وحده .

وأطل الراهب على قافلة قريش ووقعت عيناه على محمد بن عبد الله فجعل يتفرس فيه ، فرأى شابا وسيما ، معرب الملامح ، أزهر اللون ، ربعة فى

الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، مبسوط الجبين ، مرسل الذقن ، عالى العنق ، عريض الصدر ، غليظ الكفين والقدمين ، يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، فأحس كأنما ألقى فى روعه أن ذلك النازل تحت الشجرة هو النبى الأمى الذى بشرت به الأنبياء . وأراد أن يتحقق مما ألم به ، فراح يتلفت بعينيه حتى رأى ميسرة ، وكان يعرفه ، فخرج إليه وقال :

— يا ميسرة . من هذا الذى نزل تحت الشجرة ؟

— رجل من قريش من أهل الحرم .

— أفى عينيه حمرة ؟

— نعم لا تفارقه .

ولم يتمالك الراهب أن انحدر إلى حيث كان محمد وقال له :

— باللات والعزى ما اسمك ؟

وتغير وجه محمد وقال :

— إليك عنى ثكلتك أمك .

وراح نسطورا يحادث محمدا ، يسأله ومحمد يجيب حتى قال نسطورا :

— يا محمد ، قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة ، فأوضح لى عن كتفك .

فأوضح له ، فإذا هو بخاتم النبوة يتلألأ ، فأقبل عليه يقبله ، فظن بعض القوم أن الراهب يريد بمحمد مكرا فانتضى سيفه وصاح :

— يا آل غالب . يا آل غالب .

فأقبل الناس يهرعون إليه من كل ناحية ، وجاء أبو بكر ينظر ما يريد ذلك

الراهب بحبيبه محمد ، وقالوا :

ـــ ما الذى راعك ؟

فلما نظر الراهب إلى ذلك أقبل يسعى إلى صومعته فدخلها وأغلق عليه بابها ، ثم أشرف عليهم وفى يده صحيفة فقال :

ـــ يا قوم ، ما الذى راعكم منى ؟ فو الذى رفع السموات بغير عمد إنى لأجد فى هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين ، يبعثه الله بالسيف المسلول وبالربح الأكبر ، وهو خاتم النبيين فمن أطاعه نجا ومن عصاه غوى .

وانفض القوم غير مكترثين بقول الراهب . بينا ظل صوته يرن فى أعمق أعماق أبى بكر ويتردد فى أذنى ميسرة غلام خديجة .

٩

كان موظفو المكوس الرومان واقفين على أبواب مدينة بصرى ، وكانوا تابعين لوزير مالية الإمبراطورية الرومانية فى عهد الإمبراطور موريقيوس الذى ألغى نظام المرتزقة فى جيشه ، وكان يحمى عاصمته القسطنطينية والبلاد الخاضعة للنسر الرومانى . وكان الجنود الرومان عند أبواب المدينة يلبسون مغافر من الفولاذ ودروعا من الزرد عليهم عباءات من التيل ، سلاحهم السيف والخنجر والقوس والكنانة والرمح .

وعند باب المدينة الذى ينتهى إليه الطريق القادم من غزة وقفت قافلة قريش ، وتقدم رجالها الذين يجيدون اللغة الرومانية من رجال الحكومة ثم

راحوا يلتمسون الإذن بالدخول ، فأقبل موظفو المكوس يحصون ما فى العير من سلع ويقدرون ما عليها من ضرائب ، فلما اطمأن الموظفون إلى أن عير قريش لا تحمل بضائع محظورا استيرادها لكيلا تنافس البضائع التى تصنع فى الإمبراطورية راحوا يجبون ما قدروا من ضرائب ، فتقدم ميسرة ودفع ما فرض على بضاعة خديجة وتسلم إيصالا ختم بختم الدولة الرومانية .

وانسابت قافلة قريش فى المدينة حتى بلغت السوق فحطت رحالها ، وراح الرجال يتلفتون ؛ كان العلم الرومانى يرفرف على المكان وواجهات المحال قد زينت بالنسر الرومانى ، وغصت السوق بالحرائر والديباج الموشى والأقمشة المقصبة ، ومنتجات الصياغ من أقراط وأساور وأكواب الذهب ، وطرف وتحف ، وبضائع هندية وحراب عربية وسيوف يمنية وطنافس فارسية ، وتوابل من الشرق ، وقد خضع كل ما فى السوق من واردات لرسم العشرة فى المائة الذى حصله جباة المكوس عند مدخل المدينة التى أصبحت تنافس القسطنطينية .

وفاضت حوانيت الصياغ بالناس ، ولم يكونوا جميعا من الراغبين فى شراء الحلى بل كان أغلبهم من المقترضين الذين كانوا يقترضون بفائدة ثمانية فى المائة ، ولولا أن الدولة شرعت هذه النسبة لأكل الرومان الربا أضعافا مضاعفة كما فعل المرابون العرب .

وسقط الليل فانسل بعض رجال القافلة إلى الحانات ودور اللهو يسكرون برشف الكئوس ورشف شفاه بنات بنى الأصفر ، واجتمع بعض الرجال برجال من الشام والروم وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث يروى كل منهم بعض أخبار بلاده وطرفا من أدب قومه ، وراح بعض القرشيين ينشدون الشعر الذى ذاع فى قبائل العرب ، وجعل من يجيدون اللغات يقومون

بالترجمة من لغة لأخرى .

كان فى السوق حلقات سمر وحلقات أدب وحلقات لهو وحلقات للمناقشات الدينية ، وقد عزف محمد عن كل هذه الحلقات وانتحى بعيدا ليخلو بربه يدعوه ويناجيه ، فهو يحس غنى فى قلبه وتفجر ينابيع الحكمة فى جوفه ونقاوة فى فؤاده كلما أسلم وجهه لرب العالمين .

كانت أصوات اللاعبين فى السوق تصل إلى سمعه . وضحكات الماجنين تجلجل فى سكون الليل ، وصيحات السكارى من الرجال والبغايا تهتك غلالات الصمت ، ولكن محمدا أعرض عن كل ذلك المجون فقد كان غارقا فى صلاة فى محراب الوجود ينعم بسعادة روحية صافية تفوق كل ما فى الأرض من نشوة مادية ، إنه اختار جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ، وهو سعيد بذلك الزهد والورع فقد استوى عنده حجر الدنيا وذهبها .

وكان بابتهالاته يقوّى غريزة النور الإلٰهى فى قلبه وينعم بلذة العلم والمعرفة ، وكان علمه يجعل دموع الخوف تنهمر من عينيه ، فهو أخوف أهل الأرض للقوة المتعالية ، فهو أعرفهم بنفسه وبربه ليس له منه ملاذ إلا أن يهرب منه إليه . وإن ذلك الخوف يحرق الشهوات ويؤدب الجوارح ويمحق الكبر والحقد والحسد ويشحذ المراقبة والمحاسبة والمجاهدة ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات .

وظل محمد وحده بين يدى ربه يناجيه والساعات تمر ، وهو غافل عن نفسه وعن كل ما حوله وقد صفا قلبه وملأت النشوة وجدانه حتى طاف به النعاس فنامت عيناه و لم ينم فؤاده .

وأصبح الصباح فدبت الحياة فى السوق فراح محمد وميسرة يبيعان السلع

التى خرجا بها ، وعلى مرمى حجر منهما كان النخاسون يبيعون العبيد والجوارى الذين جلبوهم من الروم ومن الفرس ومن الحبشة ومن قبائل العرب .

وجاء رجل إلى محمد ليشترى منه سلعة وكان بينهما اختلاف فيها ، فقال له الرجل :

ـ احلف باللات والعزى .

فقال محمد فى حزم :

ـ ما حلفت بهما قط .

وقرأ الرجل الصدق فى وجهه فقال :

ـ القول قولك .

كان ميسرة يرقبه فيزداد به إعجابا على مر الأيام ، فهو لين فى البيع لين فى الشراء تتفتح له قلوب الناس ، وقد ألقى الله محبة محمد فى قلب ميسرة فكان كأنه عبده يلبى له أية إشارة وهو راضى النفس مستريح الضمير .

وباع محمد وميسرة ورجال قافلة خديجة متاعهم وربحوا ربحا ما ربحوا مثله من قبل ، فالتفت ميسرة إلى محمد وقال :

ـ يا محمد ، اتجرنا لخديجة أربعين سفرة ما ربحنا ربحا قط أكثر من هذا الربح على وجهك .

وانتهت أيام السوق فانصرف أهل العير جميعا راجعين إلى مكة ، وانطلق محمد وأبو بكر فى أول الركب ، كانا يأخذان بأطراف الحديث تارة ويلتزمان الصمت طويلا يهيمان وراء ما يدور فى رأسيهما من أفكار ، كان محمد يفكر فى فاطر الأرض والسماء بينا كان أبو بكر يفكر فى حديث الراهب نسطورا وفى ذلك القول الغريب المثير الذى قاله .

إنه أعلن على الملأ أن محمد بن عبد الله هو رسول رب العالمين ، سيبعثه الله بالسيف المسلول وبالربح الأكبر ، فإن كان من فى القافلة لم يحفلوا بذلك القول ، فإنه قد حفر فى ضمير أبى بكر ، ولا غرو فأبو بكر يؤمن بالغيب فيحفل كثيرا بأحلامه وينشرح صدره إذا فسر أحلام الآخرين و لم يكن كأبى طالب يرى أن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا بل كان على علم بأن كل الرسل كانوا من البشر .

وكان أبو بكر يلتفت إلى صديقه بين الفينة والفينة ويتفرس فى وجهه فيزداد إيمانا بقول نسطورا ، فالصدق فى محياه ، يعكس وجهه نقاء قلبه وتنم أفعاله عن خلق قويم ، بل خلق عظيم ، فإن بعث محمد بالرسالة لقد جعلت الرسالة حيث ينبغى أن تكون .

واستراحت القافلة فى غزة حيث قبر هاشم العظيم الذى ربط وشائج النسب بين بنى هاشم وبنى النجار من الخزرج وأقام جسرا من الصلات الطيبة بين مكة ويثرب ، وقد زاد تلك الصلة توكيدا جسد عبد الله الذى قبر فى دار بنى عدى بن النجار .

واستأنفت الرحلة حتى إذا ما بلغت القافلة أيلة (العقبة) نزلت بها وهى آخر منزل فى البلاد الخاضعة للنسر الرومانى ، فلما التقطت القافلة أنفاسها راحت تضرب فى البيداء حتى إذا ما بلغت مر الظهران ، وهو واد بين مكة وعسفان ، قال ميسرة لمحمد :

— هل لك أن تسبقنى إلى خديجة فتخبرها بما صنع الله لها على وجهك ؟

فركب محمد وتقدم حتى دخل مكة ساعة الظهيرة ، فطاف بالبيت ثم انطلق إلى دار خديجة ليخبرها بما ربحت .

كانت خديجة فى علية لها مع نساء ، فرأت محمدا حين دخل وهو راكب

على بعيره فخفق قلبها فى شدة ، وكأنما أرادت أن تؤكد لقلبها الواجف أنه هو . فأزته نساءها فقالوا إنه ابن عبد الله . فهرعت إليه لتستقبله وهى تضرب لا تدرى حقيقة ما اعتراها ، فلطالما عاد إليها الرجال من تجارتها بالأرباح دون أن تحس مثل هذه الإحساسات التى تهجس فى وجدانها .

ودخل عليها محمد ، إنه ظاهر الوضاءة أبلج الوجه وسيم قسيم فى عينيه دعج وفى أشفاره وطف وفى صوته صحل يخبرها بما ربحوا ، إنه ضعف ما كانت تربح . فبدا عليها السرور ، وتحدثت فأصغى ملتفتا إليها بكل جسمه ، فقد كان يحسن الإصغاء ويحسن الصمت ويحسن الكلام ، فإن صمت فعليه الوقار وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، تتألق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم .

وقالت :

— أين ميسرة ؟

قال :

— خلفته فى البادية .

فقالت فى لهفة :

— عجل إليه ليعجل بالإقبال .

كانت فى شوق لأن تسمع من غلامها ميسرة أخبار محمد وما فعل الأمين فى رحلته ، فقد فكرت فيه كثيرا مذ غادرها إلى أن عاد إليها ، فهى تحس إحساسا غامضا أن سيكون لابن عبد الله شأن عظيم ، شأن لم يبلغ مثله أحد من العرب .

ودخل عليها ميسرة فأقبلت عليه تسأله عن محمد ، فراح يقص عليها ما كان من نسطورا الراهب وما كان من الرجل الذى استحلفه فى البيع وما كان

من أمره مذ خرج معه إلى أن عاد إلى مكة . وما انتهى ميسرة من حديثه حتى ذهبت خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وأخذت تقص عليه ما حدثها به غلامها ميسرة ، فقال لها :

ــ إن كان هذا حقا يا خديجة ، إن محمدا نبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر هذا زمانه .

١٠

شغلت خديجة بحديث ميسرة عن محمد بن عبد الله ، وبقول ابن عمها ورقة إن محمدا نبى هذه الأمة ، واحتل الحلم الذى رأت فيه الشمس تهبط من سماء مكة لتستقر فى دارها أقطار رأسها ، وراح صوت ورقة يرن فى أعماقها : « أبشرى يا بنة العم ، لو صدق الله رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك ، وليفيضن منها نور خاتم االنبيين » .

وسرت فى بدن خديجة قشعريرة ، ومدت بصرها إلى مكة من خلال نافذتها فإذا بها ترى بعين بصيرتها أن النور قد فاض من دارها ليغمر أم القرى وكل ما يمكن أن يتصوره عقلها من آفاق ، فتحركت فيها مشاعر امتزجت فيها الرهبة بالنشوة بالرجاء ، مشاعر تتفتح لها النفس وتلذ الروح ،

وملأت صورة محمد صفحة خيالها ، وما كانت صورة مادية جميلة يتحرك لها الجسد ؛ بل كانت أقرب إلى هالة من نور تشرح الصدر وتملأ النفس نقاء وضياء وتوقظ فى الوجدان عوامل الخير ، فهى تحس ذاتها تسمو لتحلق فى عوالم فاضلة حرة طليقة .

وأرهفت حواسها فراحت تفكر فى محمد نبى هذه الأمة ، وتسبر أغوار نفسها : أأحبت فيه الشاب الوسيم القسيم أم أحبت ذلك المجد المرتقب ؟ إنها كلما جلست إليه شعرت كأن نورا ينسكب فى جوفها ، وكلما ألقت إليه سمعها أحست الحكمة تملأ فؤادها ، فهى تحب فيه روحه القوية التى تبهر كل الأرواح وتجذبها إليها طوعا .

إنه خلق ليكون سيدا ، راعيا للبشر ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، فهو لطيف المحضر ، يصل الرحم ويصدق الحديث ، فهو أصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، لكأنما قد خلق من مكارم الأخلاق فهو على خلق عظيم .

وطافت بذهنها ذكرى يوم العيد الذى خرجت فيه نساء مكة إلى الكعبة ، لقد جاء فى ذلك اليوم يهودى إلى الحرم وقال : « يا معشر نساء قريش ، إنه يوشك فيكن نبى قرب وجوده ، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشا له فلتفعل » . ومذ ذلك اليوم وهى ترجو أن تكون له فراشا ، بل لقد ألقى فى روعها أنها زوجة ذلك النبى المنتظر .

إنها رأت الشمس تهبط إلى سماء بيتها قبل أن يرن صوت اليهودى فى جنبات البيت العتيق ببشارته ، فلم يكن حلمها استجابة لرغبتها بل كانت رؤياها صادقة نزلت من السماء تمهد لها الطريق الذى اختارته لها ، ثم جاء ذلك اليهودى ليؤكد فى نفسها حقيقة الحلم الذى فسره لها ورقة ابن عمها .

كانت تطلق لخيالها العنان ليحلق كيف يشاء وراء ذلك النبى الأمى الذى طالما حدثها عنه ورقة ، وما كانت تتصور شخصا بعينه ، ولكن بعد أن حدثها غلامها ميسرة عما فعله محمد فى أثناء الرحلة وعما قاله عنه الراهب نسطورا صارت ترى محمدا فى يقظتها ومنامها ، وأصبحت على يقين من أن

الله سيجعل رسالته فى ابن عبد الله ، فهو خير أهل مكة وأفضل أهل الحرم ، فإذا لم تكن النبوة فيه ففيمن تكون ؟ فهى لا ترى غيره يصلح لها ، وكل الرهبان والكهان قد بشروا به حتى ابن عمها الذى أنفق عمره فى النظر فى الكتب المقدسة قال لها إنه نبى هذه الأمة .

وملأتها رغبة فى أن تكون له فراشا لتحقيق رؤاها وأحلام يقـظتها ، وطفقت تفكر فيما تفعله ، أتعرض عليه نفسها كما عرضت ابنة عمها رقيقة بنت نوفل نفسها على أبيه عبد الله ؟ رأت رقيقة فى وجه عبد الله شيئا غامضا جذابا يستولى على لبها ويشدها إلى ابن عمها عبد المطلب ، فلما نذر أبوه أن يذبحه ذهبت نفسها شعاعا وكادت كبدها أن تنفطر أسى ، ولكن سرعان ما عادت إليها بهجتها لما علمت أن ربه قد قبل أن يفديه بمائة من الإبل ، وعاد إليها الأمل فذهبت إلى الفتى الجميل وعرضت عليه أن يدخل بها الساعة وله مثل الإبل التى نحرت عنه فداء . ولكن عبد الله تزوج آمنة بنت وهب فى تلك الليلة ، ومرت أيام الخلوة ثم جاء إلى رقيقة يعرض عليها نفسه فلم تجد ما كانت تجد فيه من جاذبية وسحر .. فقد ذهبت آمنة بما كان يتلألأ فى وجهه ، وإن خديجة لتفطن وهى فى شرودها إلى أن نور النبوة قد انتقل من عبد الله فى ليالى الخلوة إلى زهرة بنى زهرة ، آمنة بنت وهب .

إن كان ذلك الشرف قد فات رقيقة بنت نوفل فهى حريصة على ألا يفوتها شرف أن تكون فراشا لرسول الله ، ولا غرو فهى مفطورة على الدين غرس فيها ابن عمها ورقة بن نوفل شغفها بالأديان ، فكثيرا ما كان يروى لها ما يطالع فى كتب اليهود والنصارى وكان أقرب الحديث إلى قلبها حديث الدين .

إنها تخاف إن عرضت نفسها على محمد أن يفلت منها كما أفلت أبوه عبد الله من رقيقة بنت عمها من قبل ، وإن خير ما تفعله أن تبعث إليه من يشجعه على

خطبتها ، ولكنها لم تعد تطيق الصبر فقد عاد إلى قلبها نبضه وحرارته بعد أن أغلقته دون أشراف قومها الذين سعوا إليها يلتمسون منها أن تكون لهم زوجة .

أصبحت ترى أن محمدا كفء لها ، بل صارت تحس أنها أسيرة روحه القوية التى تخشع لها روحها وتتهلل بالفرح فى نفس الوقت ؛ إنها خشية المنتشى وخضوع المحب واستسلام الراغب فى الفناء فيمن يعشق .

وهفت روحها إليه . واستبدت بها رغبة عارمة تحرضها على أن تبعث إليه تناجيه وتقضى إليه بمكنون نفسها ، إنها لا تريد أن تطارحه الهوى فهى الطاهرة وسيدة نساء قريش ، بل تريد أن تحدثه حديثا فيه تلميح يحضه على أن يطرح حياءه ويقدم على خطبتها .

ونادت إحدى جواريها وطلبت منها أن تنطلق إلى دار أبى طالب وأن تطلب من محمد أن يوافيها ، فذهبت جاريتها إلى الدار وسألت عن محمد بن عبد الله ، فلما جاءها بلغته رسالة مولاتها .

وذهب محمد إلى عمه أبى طالب واستأذنه فى أن يتوجه إلى خديجة فأذن له ، وما كاد محمد يغادر الدار حتى نادى أبو طالب جاريته تبعة وقال لها .

ـــ انظرى ما تقول له خديجة .

وانسلت الجارية فى أثرة تترقب خشية أن يكشف أمرها .

وسار محمد إلى غرفة الاستقبال فهو يعرف طريقه ، فكثيرا ما كان يقول لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما وكان محمد يعجب بغنى نفسها وحسن خلقها .

وجاءت خديجة خافقة القلب مضطربة النفس ، ثم أخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها ثم قالت :

— بأبى أنت وأمى ، والله لا أفعل هذا لشىء ولكنى أرجو أن تكون أنت النبى الذى سيبعث ، فإن تكن هو فاعرف حقى ومنزلتى وادع الإله الذى سيبعثك لى .

فقال محمد فى لهجة صادقة :

— والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندى ما لا أضيعه أبدا ، وإن يكن غيرى فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا .

ووقفت تبعة تنظر وهى مأخوذة ، فقد خيل إليها أن نورا لطيفا يغمر المكان وأن عبيرا طيبا قد ملأ روحه وظلت فى مكانها مشدوهة لا تريم ، حتى إذا ما انصرف محمد وقد أطرق حياء رجعت إلى أبى طالب لتقص عليه ذلك اللقاء العجيب .

١١

جعل والد سلمان فى رجلى ابنه قيدا مخافة أن يفر إلى الكنيسة وأن يعتنق النصرانية ويهجر المجوسية دين الآباء والأجداد ، وقد وقر فى ذهن الأب أن اضطهاد ابنه الحبيب سيشفيه مما ألم به ، ولم يدر دهقان قريته العارف بالفلاحة وما يصلح الأرض أن القهر لا يصلح النفوس الكبيرة التى تلتمس وجه الحقيقة بل يزيدها عزما وإرهافا .

واتخذ سلمان من أحد خدم أبيه الذين كانوا فى غدو ورواح بين القصر الصغير والضيعة العظيمة ، صديقا كان يحمل إليه أنباء الكنيسة التى يمر عليها فى ذهابه وإيابه ، وذات يوم بعث سلمان إلى النصارى ، بعد أن برحه الشوق إلى الانطلاق إلى الشام أصل الدين الذى استولى على كل تفكيره ، فقال لهم :

ـــ إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم .

ومرت الأيام وسلمان لا هم له إلا التفكير فيما سمع من رهبان الكنيسة وفيما قرأ فى أوستا زرادشت التى زخرت بخرافات البابليين والإيرانيين لما طال على الناس الأمد ، فيزداد إيمانا بأن دين النصرانية خير من دين آبائه ، ويزداد شوقا إلى الهجرة إلى الشام فى سبيل أن يميط اللثام عن الحقيقة .

وجاء إليه صديقه وقال :

ـــ قدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى .

فبعث مع صديقه رسالة إلى الكنيسة :

ـــ إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى بهم .

وراح التجار يبيعون منتجات الشام ويشترون حرير الصين والطنافس الفارسية والبضائع الهندية ، حتى إذا ما تأهبوا للرحيل بعث رجال الكنيسة إلى سلمان قائلين :

ـــ إن تجار الشام يتأهبون للرجعة إلى بلادهم .

فألقى سلمان الحديد من رجليه وفر من بيت أبيه وكان أحب خلق الله إليه ، لم يزل حبه إياه حتى حبسه فى بيته كما تحبس الجارية ، وانطلق إلى الكنيسة خافق القلب تملأ جوانحه نشوة ، يستشعر أنه يستنشق أول نسائم الحرية الروحية ، فقد كان أسير نظام روحى وقد كسر القيود التى تشده إلى ذلك النظام ليختار بمحض إختياره ما تطمئن إليه نفسه من عقائد ، فالحرية لا تنفصل عن إرادة الحرية .

إن الحرية لا تتطور ولا تنمو إلا بالعائق والاختبار والتضحية ، فهى فى صميمها جهاد دائب وصراع مستمر من أجل التحرر ، وقد تخطى سلمان أول عائق قام فى سبيل تحرير ذاته من أسر نظام روحى موروث تختنق فى نطاقه كل حرية وكل شخصية ، فهو يريد أن يحقق ذاته ودون ذلك آلام وجهاد ومشقة ، وقد وطد النفس على أن يتحمل كل ألم وكل عذاب فى سبيل أن يصل إلى جوهر الحقيقة .

إنه يرفض حياته الناعمة ويضحى بضيعة أبيه العظيمة وينتزع ذاته انتزاعا أليما من أرض منبتها ليهيم فى الوجود ، مخلفا وراءه سعادة مادية رخيصة ميسورة فى سبيل الحصول على سعادة روحية عالية تتقاصر أمامها كل سعادة .

إنه يريد أن يتحرر من عبودية حبه لأهله . من عبودية حبه لأرضه ، من عبودية خضوعه لتقاليد مجتمعه ، من عبودية دين آبائه وأجداده ، ليعلو على نفسه حتى يصل إلى غاية غاياته ، إلى انتصاره الروحى .

وخرجت قافلة التجار النصارى قاصدة الشام ، وخرج سلمان الفارسى

معهم و لم يحس بالقلق ولا بدوار الحرية ، ذلك الشعور الحاد الذى يغمر الإنسان حينما يتحقق من أنه قد قذف به إلى سلوك سبيل بدون إرادته ، لأن سلمان قد اختار طريقه بمحض اختياره ومطلق حريته ؛ بل كان يستشعر انشراحا تغمره تلك النشوة التى يسعد بها الحاج المؤمن المنطلق إلى قدس أقداسه .

وانسابت القافلة بين السهول وفى البيداء فى طريق معبد مهدته الدولة الساسانية لضمان مواصلات سريعة مريحة بين الحكومة المركزية وإدارة الأقاليم ، وبين وقت وآخر كانت خيل البريد تمرق بالقافلة مروق السهم وكان بعض العدائين يسابقون الريح ، إنهم سعاة للبريد يستخدمون فى الأقاليم الإيرانية الخالصة حيث المسافات بين المحطات أقصر كثيرا جدا مما هى فى البلاد السورية أو العربية .

وكان سلمان يتلفت وهو مشدوه ، إنه يلقى بنفسه فى أحضان الطبيعة الواسعة لأول مرة بعد أن كانت كل دنياه منزل أبيه الدهقان فى قرية جى وضيعته والطريق بين الدار والضيعة والفلاحين الذين يعملون فى أرض أبيه كالرقيق ، والعبيد الذين يبذلون العرق والنفس فى سبيل أن يكنز سيدهم الدهقان الذهب والفضة .

ونزلت القافلة منزلا فى الطريق فإذا بموظفى الدولة الساسانية يحصلون المكوس ، فقد كان ذلك آخر منزل بين حدود الدولة الفارسية والدولة الرومانية ، والتف التجار النصارى فى جنح الليل فى حلقة راحوا يتحدثون فى أمور الدنيا والدين وسلمان يصغى إليهم ، فقد كانت دنيا جديدة تتفتح أمام بصره وبصيرته بجمالها وسحرها وحكمتها .

واستأنفت القافلة رحلتها فراحت تضرب فى الصحراء الواسعة المترامية ،

والشمس والقمر يتعاقبان فى القبة الزرقاء التى كانت توشى بسحب بيضاء وأفق أحمر وظلال داكنة لا تثبت على حال . فتتابع صور رائعة تبده العقول وتسبى الألباب ابتدعتها يد الفنان الأعظم .

وفى الواحات كانت ترتفع أشجار النخيل سامقة جليلة ، وقد هزت روعة تلك الأشجار قلب سلمان وكان أثرها فى نفسه أعمق من أثر أبراج الآلهة العالية التى رآها فى أرض بابل ، فقد رأى فى النخيل قدرة الله بينا لم ير فى الأبراج التى عرجت إلى السماء فى ثمان طبقات متدرجة غير قدرة الإنسان .

وراح سلمان يقلب وجهه فى الكون العريض وهو مشدوه تهز الخضرة وجدانه وتملأ الصحراء الجرداء قلبه خشية من رب الأرض والسماء ، وانسابت القافلة فى أرض الشام فاستشعر كأنما قد ملىء بروح الله ، فخر ساجدا فى محراب الرب ودموعه تتساقط على الأرض .

وجاس سلمان خلال الديار ينظر ويتلفت ويلقى سمعه إلى أحاديث الناس ، حتى إذا بلغ كنيسة عظيمة وقف عندها وقال :

ـــ من أفضل أهل هذا الدين ؟

قالوا :

ـــ الأسقف فى الكنيسة .

كان متعطشا إلى المعرفة فأراد أن ينهل من نبع العلم ، فلما أرشد إلى الأسقف ذهب إليه وهو مأخوذ بالصلوات الحارة التى كانت تتردد فى جنبات الكنيسة فيحسها شذى عطرا فى روحه الهفهافة التى تود لو تنطلق لتعانق كل الوجود .

وجاء الأسقف وهو يضطرب من النشوة فقال له :

ـــ إنى قد رغبت فى هذا الدين ، فأحببت أن أكون معك وأخدمك فى

كنيستك فأتعلم منك وأصلى معك .

فراح الأسقف يصغى إليه ويتفرس فيه ، حتى إذا ما انتهى من حديثه قال له :

ـــ ادخل .

فدخل سلمان وهو يكاد يطير من الفرح ، كل أمانيه قد تحققت ، فما كان يريد إلا العلم ووجه الحقيقة وقد ساقه الله إلى أفضل أهل النصرانية علما ، ويسر له أن يمكث فى الكنيسة لا يشغله عن عبادته شاغل بعد أن وهب له نفسه .

وراح الأسقف يلقى مواعظه على الناس فتطفر الدموع من العيون ، وكان سلمان أكثرهم بكاء ، فبيان الرجل يمس كوامن الرحمة فى النفوس ، وأمرهم بالصدقة ورغبهم فيها حتى جادوا بأموالهم عن رضا طمعا فيما وعدهم من ثواب فى الآخرة .

وجمع الأسقف الذهب والورق وسلمان يتهلل فرحا فسيدخل ذلك المال السرور على قلوب الفقراء والمساكين ، وذهب الأسقف بما جمعه إلى غرفته فحسب سلمان أن الرجل أمين على مال الله حتى ينفقه فى وجهه .

وجاء الفقراء إلى الكنيسة يلتمسون العون فلم يعطهم الأسقف شيئا ، ولم يخامر سلمان الشك فيه فلعله لسبب لا يدريه آثر أن يبقى ما عنده من أموال ليعطيها الفقراء فى المواسم والأعياد .

وراح الأسقف يلقى المواعظ ويجمع الذهب والورق ولا يعطى الفقراء شيئا ، وفطن سلمان إلى أنه رجل سوء وأنه يكتنزه لنفسه ، وقد تأكد له جشعه لما وجد أنه قد جمع سبع قلال من ذهب وورق .

أيكفر سلمان بذلك الدين لأن أسقفا قد خان الأمانة ؟ إن العيب فى

الرجل لا فى الدين ، وبقى سلمان على دينه يجتهد فى عبادته وإن ألقيت كراهية ذلك الرجل فى قلبه ، وتلقى سلمان درسا أن لا خير فى علم لا يصدقه عمل وأن علم العالم للناس أما فجره فعليه .

ومات الأسقف فاجتمع رجال الدين ليدفنوه بما يليق به من مراسيم ، فأضيئت الشموع وألقيت العظات وأقيمت الصلوات وسلمان يعانى صراعا رهيبا فى نفسه . أيتكلم أم يصمت ؟ أيفضح الرجل أم يستره ؟ وإذا ستره ألا يكون منافقا آثما فى حق الله ؟ ولم يستطع أن يطوى خداع الأسقف وفجره فتقدم وقال :

ـــ إن هذا كان رجل سوء .

وصوبت أنظار الإنكار إلى سلمان ، ولاحت دهشة مشوبة بغضب فى الوجوه ، وقبل أن تنبعث أصوات الزجر قال سلمان فى انفعال :

ـــ يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها . فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئا .

فقالوا له :

ـــ وما علمك بذلك ؟

ـــ أنا أدلكم على كنزه .

ـــ فدلنا عليه .

وسار سلمان إلى غرفة الأسقف وهم خلفه فأراهم موضع الكنز ، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا ، فلما رأوها قالوا فى غضب :

ـــ والله لا ندفنه أبدا .

وصلبوا أفضل أهل النصرانية علما ورجموه بالحجارة .

وجاء أسقف جديد ليملأ مكان الأسقف الراحل ، فراح سلمان يرقبه فى

حذر فألفاه يستغرق فى صلاته زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة ، يتهجد الليل ويجتهد فى العبادة بالنهار ، فأحبه حبا لم يحبه شيئا قبله ، وأقبل عليه متفتح النفس يحسب أنه قد بلغ غايته ، و لم يدر فى خلده أنه لم يقطع إلا خطوة على طريق الحقيقة الخالدة .

١٢

خرج الإخوة ياسر والحارث ومالك من مذحج باليمن قاصدين مكة فى طلب أخ رابع لهم ، وقد أخذوا ينقبون عن أخيهم دون جدوى ، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن وبقى ياسر فى أم القرى إلى جوار البيت العتيق ، ولما كان غريبا عن الديار فكان عليه أن يحالف أسرة من الأسر القوية ليكون فى جوارها وحماها ، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومى .

وأحب بنو مخزوم ياسرا ، وكان أبو حذيفة ينادمه ، وتوطدت أواصر الصداقة بينهما حتى إن أبا حذيفة زوجه أمة له يقال لها سُمية بنت خياط فولدت له عمارا ، فأعتقه أبو حذيفة ، وعرف عمار بن ياسر بمولى بنى مخزوم .

وشب عمار فى دور بنى مخزوم ، ولكنه لم يصادق فتيانهم فقد كان أبو الحكم بن هشام (أبو جهل) أسن منه ، وكان عمر بن الخطاب أصغر منه ، ووجد فى محمد بن عبد الله الصديق الذى تفتح له قلبه .

كان عمار ترب محمد ، وكان يرافقه فى غدوه ورواحه ، وفى ذات يوم بينا كان محمد وعمار يسيران أمام دار هالة بنت خويلد إذا بهالة تنادى :

ـــ عمار .. عمار .

فانصرف عمار إليها ووقف له محمد ينتظر أوبته فقالت :

ـــ أما لصاحبك هذا من حاجة فى تزويج خديجة ؟

فانبسطت أسارير عمار وخف إلى محمد وقال :

ـــ أما لك من حاجة فى تزويج خديجة ؟

فخفق قلب محمد ، ورفت بسمة حلوة على شفتيه فتألقت أسنانه المفلجة البيضاء وقال :

ـــ بلى لعمرى .

فعاد عمار إلى هالة فذكر ذلك لها فأسرعت إلى أختها تزف إليها البشرى ، فما أن مس صوت هالة أذنيها حتى راحت أهازيج الفرح تشدو فى جنباتها ، وحلقت رؤاها المجنحة فى عوالم من الأمل والنشوة ، فها هى ذى أحلامها توشك أن تتحقق . إنها رأت الشمس تنحدر من سماء مكة لتستقر فى دارها لتشع منها نورا على ربوع أم القرى وتغمر كل الآفاق من حولها ، وإن هى إلا أن يغدو محمد عليها إذا أصبحت ويخطبها حتى يتبدل الخيال حقيقة واقعة ، فقد وقر فى عين ذاتها أن محمدا هو النور الذى أشرق في منامها .

وجاء الليل ولم يغمض لخديجة عين ، كانت تفكر فى محمد وتتعجل النهار ، وتراه بعين خيالها وهو قادم إليها يخطبها فيخفق الفؤاد وترفرف الروح فى أجواء النشوة ويمتلىء الوجدان بحب صوفى ينزع إلى التعالى ، حتى إنها من فرط سعادتها كان يخيل إليها أنها ارتفعت عن الوجود ، وأنها لا تستنشق هواء الأرض بل إن شهيقها قد بات عبير مجد الدنيا .

ورن فى جوفها صوت غلامها ميسرة رنينا عذبا كأنه هديل الحمام : وإنه يتحدث عن محمد حديثا يقطر رقة وإعجابا ودهشة وإجلالا ، وإنه لمن عجب

أن يحب ميسرة محمدا كل ذلك الحب وأن يستولى على فؤاده وهو الذى ينافسه فى تجارة خديجة . إنه كان سيد القافلة قبل أن يعمل محمد لها وإذا بها تقول له بعد أن صار محمد من رجالها : لا تعص له أمرا ولا تخالف له رأيا . فلا يكتفى بأن يمتثل لما يؤمر به بل يطيعه كأنه عبده ، ويحبه حبا يدفعه إلى أن يتهدج صوته وهو يروى لسيدته حسن خلقه وبركاته وما تنبأ به نسطورا .

وطفا ما قاله نسطورا على سطح ذهنها : فوالذى رفع السموات بغير عمد إنى لأجد فى هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين . فسرت فى بدنها رعدة واشتد وجيب قلبها وأحست أنها كلها تخفق كجناح حمامة .

كانت تخشى أن يحقد ميسرة على محمد وأن يحسده ، وإذا بمحمد يستولى على قلب غلامها بل على أفئدة كل رجال القافلة ، وسيدة نساء قريش الحازمة الجلدة الشريفة ! إنه لعلى خلق عظيم .

وجاء الصباح وانتظرت خديجة أن يغدو محمد ليخطبها ولكن الوقت راح يمر دون أن يقبل محمد ، فلم يتطرق إلى ذهنها أنه زاهد فيها وهى التى يحرص كل أشراف قومها على نكاحها لو قدروا على ذلك ، بل عزت ذلك إلى ما تعرفه فى محمد من حياء .

وجاءت إليها صديقتها نفيسة بنت مُنية فراحت تقص عليها ما كان بين عمار بن ياسر وأختها هالة وما كان من انتظارها لمحمد ، ثم عرضت عليها أن تذهب إلى محمد خفية تسأله عما يمنعه أن يتزوج .

وخرجت نفيسة إلى دار أبى طالب واستأذنت فى أن تلقى محمدا ، فجاء إليها فقالت له :

ـــ يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال :

ـــ ما بيدى ما أتزوج به .

قالت :

ـــ فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب ؟

قال :

ـــ فمن هى ؟

قالت :

ـــ خديجة .

قال :

ـــ وكيف لك بذلك ؟

قالت :

ـــ دعنى وأنا أفعل .

وعادت نفيسة إلى خديجة يتألق وجهها بالبشر وراحت تقص عليها ما كان بينها وبين محمد وخديجة تصغى إليها فى اهتمام ، حتى إذا ما قالت لها صديقتها إنه حريص على زواجها لم تستطع أن تتريث ؛ فأرسلت إليه مولاة لها تقول له : ائت الساعة .

كان محمد عائدا بعد طوافه بالكعبة فالتقى بكاهنة ، فلما رأته قالت :

ـــ جئت خاطبا يا محمد .

لم يكن محمد قد أطلق لأمانيه العنان و لم يكن يفكر فى الذهاب إلى دار خديجة فحياؤه يمنعه ، وهو لا يدرى إن كانت هالة قالت ما قالت من تلقاء نفسها أم من وحى أختها ، وما كان يعرف أن خديجة قد أرسلت نفيسة دسيسا

إليه فقال :

— لا .

فتفرست فيه طويلا ثم قالت :

— ولم ؟ فوالله ما فى قريش امرأة تليق بجلالك وبهائك غير خديجة ، وإنها تراك كفئا لها .

وذهب فى سبيله فإذا بمولاة خديجة تلقاه وتلتمس منه أن يوافى مولاتها الساعة .

فانطلق محمد إلى دار خديجة فإذا بها تقول له :

— يا محمد ألا تتزوج ؟

قال :

— من ؟

قالت :

— أنا .

قال :

— ومن لى بك ؟ أنت أيم قريش وأنا يتيم قريش .

قالت :

— يا بن عم ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسِطَتِك (١) فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك . اذهب إلى عمك فقل له تعجل إلينا بالغداة .

---

(١) مأخوذة من الوسط ، والوسط من أوصاف المدح والتفضيل .

وجاء أبو طالب ومعه ابن أخيه فقالت له :

ــ يا أبا طالب ، تدخل على عمى فكلمه يزوجنى من ابن أخيك محمد بن عبد الله .

فقال أبو طالب :

ــ يا خديجة لا تستهزئى .

فقالت فى انفعال :

ــ هذا صنع الله .

وجاء محمد وأعمامه أبو طالب وحمزة والعباس والزبير والغيداق ، وصديقاه أبو بكر وعمار بن ياسر ، ودخلوا على عمها عمرو بن أسد ، فإذا بابن عمها ورقة بن نوفل وابن أخيها حكيم بن حزام جالسين معه . وكان ابن أخيها الزبير بن العوام غلاما يلهو مع الغلمان ، وكانت أمه صفية وخالته عاتكة عند خديجة مع صويحباتها وإمائها ، وما كان أحد يقدر خطر تلك اللحظة مثل خديجة الطاهرة سيدة قريش ، فكأنما قد رفع عن بصيرتها الحجاب فرأت مستقبلها مع الأمين الذى تنتظر الأمم مبعثه .

وقام أبو طالب يخطب فقال :

ــ الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه ، وجعله لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا أحكام الناس . ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونشا .

فقام ورقة بن نوفل فقال :

ـ الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتهم وأنتم أهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، ورغبتنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا علىّ معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله .

فقال أبو طالب :

ـ قد أحببت أن يشركك عمها .

فقال عمها :

ـ اشهدوا علىّ معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد .

ونحر محمد جزورين وأطعم الناس ، وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف . وفرح أبو طالب فرحا شديدا وقال :

ـ الحمد لله الذى حبانا بالخير ، ووهبنا النعمة ، ورزق ابن أخى بأحسن ما يرزق به عباده المخلصين .

ثم سكت قليلا .. وقال :

ـ ليكونن لهذين الزوجين شأن عظيم !!

١٣

رفرفت السعادة بأجنحتها على بيت خديجة ، فقد وجدت الطاهرة فى محمد خير الأزواج ، فهو لطيف المعشر، سابغ العطف يحيط بـه كل

إنسان وكل حى وكل شىء ، قلما يغضب وإن غضب لا يخنه حلمه ، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين من أثر الغضب .

إنه ليس بفظ ولا غليظ القلب ، قد وسع حبه جاريته بركة الحبشية فأخذها معه لما انتقل إلى دار الزوجية وأكرمها وغمرها بحنانه ، وفاض قلبه الكبير رقة مست قلوب أبناء خديجة فإذا ما جاءوا لزيارتها هرعوا إليه وارتموا فى أحضانه فيضمهم إلى صدره الحنون الذى يعطف على كل الوجود .

وكان هند ابن خديجة عند أمه بعد زواجها من الأمين ، فكان ربيب محمد سعيدا غاية السعادة أن يشب فى كنف أصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة .

ووسع حبه زيد بن حارثة ، ذلك الفتى الذى اشتراه حكيم بن حزام من سوق عكاظ ووهبه لعمته خديجة ، وقد تعلق محمد بزيد وأحب زيد محمدا حبا لم يحب أحدا مثله من قبل ، وقد فطنت خديجة إلى ما بين زوجها الكريم ومولاها من حب أبوى فوهبت لزوجها زيدا فأعتقه ، ولم يكتف بأن رد إليه حريته السليبة بل شرفه بأن نسبه إلى نفسه فكان زيد بن محمد ﷺ .

وكان الزبير بن العوام ابن أخى خديجة إذا ما جاء إلى دار عمته يهرع إلى محمد يصغى إلى عذب حديثه ، فلم يكن محمد زوج عمته وحسب بل كان ابن خالة عبد الله ، فصفية أم الزبير بنت عبد المطلب كانت عمة الرجل الذى لا يملك من خالطه إلا أن يحبه .

وكان فتيان بنى أسد يطوفون ببيت خديجة ، وكانت أسعد أوقاتهم تلك السويعات التى يمضونها مع محمد بن عبد الله . وكان فتيان بنى هاشم يهرعون إلى الفتى الهاشمى الذى تزوج أيم قريش ، فتوطدت صداقات بين بنى

هاشم وبنى أسد . وكان أقرب الجميع إلى قلبه عمه حمزة بن عبد المطلب فهو رفيق صباه وأخوه فى الرضاعة وفى الحزن الذى تجرعاه معا لما مات عبد المطلب ، وكان أبو سفيان ابن عمه الحارث يشبهه وكان لا يفارقه فى غدو ورواح .

وأحبت خديجة زوجها حبا ملك عليها كل مشاعرها . حب الزوجة لزوجها الكريم الذى تمثلت فيه مكارم الأخلاق وحب الأمل الحلو المرتجى ، فقد كانت على مر الأيام وطول العشرة تزداد يقينا بأن الرجل الذى اختارته لنفسها هو أصلح أهل الأرض لأداء رسالته والنهوض بأمانته .

وكانت خديجة تهيىء له كل أسباب الراحة والنعيم ، إذا أشار لبت إشارته متهللة النفس مرتاحة الضمير ، بل إذا فطنت إلى أن رغبة ما قد طافت برأسه فما أسرع ما تعمل على تنفيذها وما كانت تبخل بعواطفها ومشاعرها وأموالها .

ولم يركن محمد إلى حياة الدعة التى هيأتها له الزوجة المحبة الغنية الشريفة بل كان يخرج إلى الأسواق يتجر لها فى مالها ، حتى إذا ما فرغ من عمله اعتكف فى غرفة من غرف الدار خصصت لعبادته ، فقد كانت على علم بأن العزلة حبيبة إلى قلبه فكانت تهيىء له الجو المناسب للتدبر والتأمل والتفكير فيسود المكان هدوء وسكون ، حتى أنفاسها كانت تحصيها .

إنه فى عزلته يطلق روحه لتهيم فى الوجود وما وراء السماء ، ويفتح عين بصيرته ليرى ما لا تراه العيون . إنه بات على ثقة من أن وجوده إنما هو هبة من رب الوجود ، وأنه يجاهد لا ليلحق ذاته بذاته (١) بل ليوسع آفاق ذاته ويرتقى

---

(١) هذا ما يقول به الوجوديون .

بها حتى تصبح أهلا لتلقى الحكمة من فوق السموات ، فهو لا يحس وجوده بعيدا عن ربه بل هو ثمرة ذلك الكفاح الروحى الدائم ليتصل بذات الذوات .

إن الله هو الينبوع الذى يرشف منه ماء الحياة ، وهو غذاء روحه ومصدر كل قوة جياشة فى وجدانه ، فهو يستشعر فى أعماقه أنه يستطيع أن يقف فى وجه العالم بأسره ما دام مع الله وما دام الله معه وما دام سائرا فى طريق الله .

إنه وهو مع الله يعلو الوجود ويرى بنور الله ، فيكشف أول ما يكشف ذاته الغنية بالمشاعر والإحساسات الفقيرة إلى عون السماء ، فهو يسمو بروحه طمعا فى الوصال ، وإن الخير الأسمى الذى يعرج إليه ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى . إنه فى كل يوم وفى كل صلاة بل وفى كل سجدة يستشعر أنه قد قطع فى سبيل الغاية التى ليس بعدها غاية خطوة ، وهو يتذرع بالصبر ويفعم بالأمل ما دام على الطريق .

إنه اختار الله وإن الله قد اصطفاه ، فهو متجه بكل وجوده إلى الذات العلية والذات العلية تأخذ بيده وترعاه ، وهو باتصاله الدائم بالغنى الوهاب يكتنز فى نفسه كنوزا من الحكمة والعلم والرحمة التى يفيض بها عليه الغنى الوهاب ، ليغمر بها فى مستقبل حياته الناس والحيوان والأشياء .

إنه وهو فى خشوعه وورعه وتقاه يحس أن الله قد تجلى عليه بالبركات ، وأنه يمده بالقوة والنور ، ويحطم عنه كل قيود العبودية إلا العبودية لذاته ، ويمنحه الحرية الحقة . وقد عرف بفطرته السليمة أن غاية الحرية المطلقة أن يندمج فى الله وأن الخلود هو أن يذوب فى روح الوجود .

إنه يعيش فى عالم من النور ، وهو فى جهاد متصل لا ليشرق ذلك النور فى فؤاده وحده فما أيسر ذلك على من انتصرت روحه على جسده ، بل إنه يريد أن يشرق ذلك النور من قلوب البشر ، رحمة للعالمين .

ضرب على نفسه عزلة شاقة مضنية ، وفطم جوارحه عن الشهوات ، واجتهد ووصل الليل بالنهار فى التماس رضوان الله ليصنعه على عينه ، ليكون الإنسان الكامل ومبدع القيم والنبراس الذى يضىء طريق الله للناس أجمعين .

إن ربه هو ركنه الركين ، وهو ملاذه الأمين ، وهو نور لنور عقله ، وهو روح الروح ، وهو المستعان ، لا يعتصم بحبل غير حبله ، ما له من إله غيره ، عليه يتوكل وإليه ينيب ، ومنه يرتجف خشية حتى لتقشعر منه الجلود ، وتتجلى عليه محبته حتى تتهلل النفس بفرح صاف فياض ، وينزل بها أمن يملأ الوجدان راحة وانشراحا .

ورث عن آبائه كل ما فيهم من نخوة وشهامة وكرم وخلق كريم ، ولكنه لم يكن ربيب بيئته ، فقد ظهر الفساد فى البر والبحر وراح القرشيون يقترفون المعاصى دون وازع من دين أو ضمير ، بينا أعرض عن جاهلية قومه وأسلم وجهه لله رب العالمين . وعبد آباؤه الأصنام والحجارة ولكنه تنكر لها وأبى أن يجعل لله أندادا ، ولم يرتض لنفسه أن يقول كما يقولون : وجدنا آباءنا لها عاكفين .

إنه يثور على دين قومه ويثور على عادات قومه ويثور على الفساد الذى استشرى فى قومه ، وإن كانت ثورته لا تزال مكبوتة فى نفسه فإنها يوم أن تبلغ ذروتها ستتفجر لتدمر حصون الشرك وأوكار الفساد وأنصار الرذيلة الذين ينشرون بين الناس الضياع والخسران المبين .

إنه يأبى أن ينعم بطمأنينة زائفة ، طمأنينة الإقرار بواقع الأمر الثابت الفاسد ، فهو يحس فى أعماقه أن عين وجوده يحتم عليه أن يقتلع كل جذور الفساد من الأرض الطيبة التى غرس البشر فيها الظلم والبهتان ، وأن أول ظلم بذر فى الأرض الشرك بالله ، وهو يرحب بكل تضحية فى سبيل القضاء على

ذلك الإثم الكبير .

إنه يشعر بالقلق ، وهو لا يخادع نفسه ليقضى عليه فقد عرف أن ذلك القلق هو الذى يحركه إلى غايته ، فالطريق أمامه ليس معبدا بل محفوفا بأشواك لا يخضدها إلا الأشواق .

قد فطن بتأمله وتفكيره وتدبره أن الكون متناسق متجانس ، وأن الإنسان بما يقترف من آثام يظلم نفسه ويسبب الإضطراب فى نسيج الوجود ، إنه علة شقائه وسبب تعاسته ، فلو سار على الجادة وقوى جوانب الخير فى وجدانه لتآلف مع ما حوله وفتح نوافذ ذاته للنور المنسكب من فوق السماوات لينير لبصيرته طريق الخير الأسمى . وسعادة الخلود .

إن الإنسان الشارد يصدع جدار الوجود ، وهو الدودة التى تنخر جوف ثمرة الإنسانية ، فلو أمكن هداية العصاة الآثمين إلى سواء السبيل لكان ذلك بمثابة بناء لبنات فى صرح مجد البشرية ، بل وضع أحجار الزاوية للسعادة الأبدية .

إن من يتنكب طريق النور فلن يجد إلا الظلام والصمت والضياع ، ظلام الليل السرمد وصمت الصحراوات المخيفة والهوات السحيقة وضياع القلق الموار والعدم والفناء والخوف الذى يخلع الأفئدة ، بينا يسعد من يسير فى طريق الله خالق الحقائق الأزلية ومبدع الخير بإشراق الروح ، وأنس القوة العلية الرحيمة التى تصاحبه ، وطمأنينة تشيع فى النفس تبعث الأمل والرجاء وتمنح السعادة التى ليس دونها سعادة ولا وراءها مرمى .

وأخذ القلق بمجامع نفس محمد وهو يتعبد فى غرفته بدار خديجة ، فهو يشعر بفداحة المسئولية التى يضعها على عاتقه لما يفكر فى هداية قومه الذين ظلموا أنفسهم وجعلوا مع الله إلها آخر ، أيستطيع وحده أن يقف فى

وجه تيار الجهل والفساد ، لا ليصد تدفق ذلك التيار بل ليحوله إلى قصد السبيل ؟ .

وحده ؟! لم يكن محمد وحده فى أية لحظة من ليل أو نهار مذ جاء إلى الوجود . إنه مع الله : ونور بصيرته ونور عقله ونور وجدانه وأنوار اليقين ، فقلبه المؤمن قد وسع الله بينا قد ضاقت عن أن تسع جلاله السموات والأرض وما بينهما .

وخرج محمد من حجرة عبادته مشرق الوجه متهلل النفس ووضع رداءه وجلس عليه ، فأقبلت خديجة هاشة باشة ، ثم راحت تحادثه حديثا رقيقا فانشرح صدرها ، فذلك الصحل[1] الذى فى صوته يمس أوتار فؤادها ، وتلك الحكمة المتدفقة من بين شفتيه تغمر روحها بسعادة عارمة مجنحة تسمو بها فوق وجودها الملموس .

وجاءت مولاة خديجة وقالت :

ــ حليمة السعدية .

فخفق قلب محمد حنانا وراحت الذكريات الحبيبة تطفو على سطح ذهنه ، ذكريات حبيبة وذكريات أليمة حفرت فى أعماق أعماقه . تذكر فى لحظة بيداء بنى سعد وأباه الحارث وإخوته الشيماء ونفيسة وعبد الله وجبال هوازن وأمه آمنة ، وسرعان ما احتلت صفحة ذهنه صورة أمه آمنة وهى مسجاة فى الصحراء ثم وهى تدلى فى حفرتها فى الأبواء .

كانت لحظة مفعمة بالمشاعر والإحساسات ، لحظة أحيت فى مثل لمح البصر أيام طفولته ومزجت بين صحراء بنى سعد والكعبة ومجلس جده عبد

(١) صحل : بحة أو خشونة .

المطلب ويثرب وقمة مأساة طفولته وهو فى طريقه إلى الأبواء وموت جده الحبيب .

وقامت خديجة وأدبرت لتنسل إلى غرفتها تاركة لزوجها حرية لقاء مرضعته التى طالما حدثها عنها حديثا يقطر حبا ورحمة ، وقبل أن تغيب فى الدار مس أذنيها صوت محمد الحنون وهو ينادى فى لهفة ووجد :

— أمى ! أمى !

فالتفتت خافقة القلب وقد تفجرت فى نفسها ينابيع الرقة والحنان والرحمة ، فصوت زوجها الصادق المعبر جعل كنوز فؤادها تتدفق بغير حساب ، فألفت محمدا يضم حليمة السعدية إلى صدره فى حب عميق ويمرر يده عليها فى حنان دافق وقد ترقرقت فى وجهه سعادة عارمة وتألق فى عينيه فرح فياض ، لكأنما كان يحتوى فى أحضانه آمنة بنت وهب وقد بعثت من القبور .

وعمد محمد إلى ردائه وبسطه لها فقعدت عليه ، وأقبل عليها بجسمه وكل مشاعره يرحب بها أحر ترحيب ويبش لها ويغمرها بوده الخالص ، فهز ذلك العطف وجدان خديجة فطفرت من مآقيها الدموع ، فانسلت إلى غرفتها تجفف عبراتها .

وفى غمرة اللقاء الحار والحنان السابغ نسيت حليمة آلامها وما جاءت من أجله ، بل كادت تنسى أن زوجها وابنها ينتظرانها عند الباب ، حتى إذا ما سألها محمد عن حالها راحت تشكو إليه قسوة الحياة والجدب الذى نزل بهوازن وضيق العيش ، وسألها عن أبيه الحارث وأخيه عبد الله فأنبأته أنهما فى الخارج ، فانطلق إليهما وعاد بهما وهو منبسط الأسارير ، ثم عمد إلى ردائه وبسطه فقعدا عليه إلى جوار حليمة وجلس أمامهم يصغى إلى أحاديثهم

وينفعل بها إنفعالا صادقا كريما .

وفاض عليهم من كرمه ، ثم ذهب إلى خديجة يحدثها فى تأثر بما ألم بحليمة من ضيق وما حاق بها من كرب فأعطتها عن طيب خاطر أربعين رأسا من الغنم والإبل ، وكانت خديجة متأهبة على الدوام لتجود بكل أموالها إرضاء لمحمد الأمل الحلو المرتجى ، فشكر لزوجه أريحيتها ثم انطلق ليضع بين يدى مرضعته ما جادت به خديجة .

وران على وجوه الحارث وحليمة وعبد الله فرح شديد ، وراح محمد يودعهم فى حب صادق وود صاف ووقف يرنو إليهم فى عطف وهم يسوقون أغنامهم حتى اختفوا عن عينيه فى دروب مكة ، وكانت خديجة ترقب زوجها العظيم وقد ملئت إعجابا بخلقه القويم ، ولا غرو فهو ربيب الخير الأسمى والجوهر الأسمى والحقيقة الأزلية ؛ رب العالمين .

١٤

كان الحارث بن كلدة الثقفى قد تزوج أخت آمنة بنت وهب فربط بين بنى ثقيف وبنى زهرة ، وقد كان محمد بن عبد الله ثمرة زواج عبد الله بآمنة ، وكان النضر بن الحارث ثمرة زواج الحارث بأخت آمنة ، فكان محمد والنضر ابنى خالة كما كان المسيح بن مريم ويحيى بن زكريا ، ولكن شتان ما كان بين محمد والنضر وما كان بين المسيح ويحيى ، فقد كان محمد ربيب السماء ، وكان النضر ربيب الأرض قد كرس حياته للطب والفلسفة ، بينا كان المسيح

وابن الخالة يحيى يسيران فى طريق واحد ، طريق النور يبشران باقتراب ملكوت السماء .

سافر الحارث إلى فارس وإلى اليمن وساح فى البلاد فى الوقت الذى طوى القبر عبد الله بن عبد المطلب ، وتعلم الطب وعرف الداء والدواء والضرب بالعود ، وقد وفد على كسرى أنوشروان قبل أن يذهب أنوشروان فى الغابرين ، وما كان بينه وبين كسرى قد تناقله الرواة كما يتناقلون الشعر ، فذاع فى القبائل وصار دستور العرب فى الطب ، وكان السمار فى ثقيف يقولون ويعيدون على مر الليالى ما كان بين طبيبهم وعاهل الفرس .

وفد الحارث على كسرى أنوشروان فأُذن له بالدخول عليه ، فلما وقف بين يديه منتصبا قال له :

— من أنت ؟

قال :

— أنا الحارث بن كلدة الثقفى .

فما صناعتك ؟

— الطب .

— أعرابى أنت ؟

— نعم من صميمها وبُحبوحة دارها .

— فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها وسوء أغذيتها ؟

— أيها الملك ، إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها

ويقيم عوجها ويسوس أبدانها ويعدل أمشاجها ، فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه .

ـ فكيف تعرف ما تورده عليها ، ولو عرفت الحلم لم تنسب إلـى الجهل ؟

ـ الطفل يناغى فيداوى ، والحية ترقى فتحاوى [(١)] .

أيها الملك ، العقل من قسم الله تعالى قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم ، فكل من قسمته أصاب وخص بها قوم وزاد ، فمنهم مثر ومعدم وجاهل وعالم وعاجز وحازم وذلك تقدير العزيز العليم [(٢)] .

فأعجب كسرى من كلامه ثم قال :

ـ فما الذى تحمده من أخلاقها ويعجبك من مذاهبها وسجاياها ؟

ـ أيها الملك ، لها أنفس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق الكلام من أفواههم مروق السهام من نبعة [(٣)] . رماتهم أعذب من هواء الربيع ، وألين من سلسبيل المعين ، مطعمو الطعام فى الجدب ، وضاربو الهام فى الحرب ، لا يرام عزهم ، ولا يضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يقرون

---

(١) التحوية : الفيض .

(٢) هذا الحوار يدل على أثر الوضع ، فكل ما فيه من وحى الإسلام وما كان الإسلام قد جاء زمن أنو شروان .

(٣) النبع : شجر تتخذ منه القسى وتتخذ من أغصانه السهام الواحدة : نبعة .

بفضل للأنام ، إلا للملك الهمام ، الذى لا يقاس به أحد ، ولا يوازيه سوقة ولا ملك !

فاستوى كسرى جالسا ، وجرى ماء رياضة الحلم فى وجهه لما سمع من محكم كلامه ، وقال لجلسائه : إنى وجدته راجحا ، ولقومه مادحا ، وبفضيلتهم ناطقا ، وبما يورده من لفظه صادقا ، وكذا العاقل من أحكمته التجارب !

ثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال :

ــ كيف بصرك بالطب ؟

ــ ناهيك !

ــ فما أصل الطب ؟

ــ الأزم (الحمية) .

ــ فما الأزم ؟

ــ ضبط الشفتين والرفق باليدين .

ــ أصبت ، فما الداء الدوى ؟

ــ إدخال الطعام على الطعام هو الذى يفنى البرية ، ويهلك السباع فى جوف البرية .

ــ فما الجمرة التى تصطلم منها الأدواء ؟

ــ هى التخمة ، وإن بقيت فى الجوف قتلت وإن تحللت أسقمت .

ــ صدقت ، فما تقول فى الحجامة ؟

ــ فى نقصان الهلال ، فى يوم صحو لا غيم فيه ، والنفس طيبة والعروق ساكنة ، لسرور يفاجئك وهمّ يباعدك .

ــ فما تقول فى دخول الحمام ؟

ـــ لا تدخله شبعان ، ولا تغش أهلك سكران ، ولا تقم بالليل عريان ، ولا تقعد على الطعام غضبان ، وارفق بنفسك يكن أرخى لبالك ، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك .

ـــ فما تقول فى الدواء ؟

ـــ ما لزمتك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت ، وأن تركتها خربت .

ـــ فما تقول فى الشراب ؟

ـــ أطيبه أهنأه ، وأرقه أمرأه ، وأعذبه أشهاه ، لا تشربه صرفا فيورث صداعا ، ويثير عليك من الأدواء أنواعا .

ـــ فأى اللحمان أفضل ؟

ـــ الضأن الفتى ، والقديد المالح مهلك للآكل ، واجتنب لحم الجزور والبقر .

ـــ فما تقول فى الفواكه ؟

ـــ كلها فى إقبالها وحين أوانها ، واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها ، وأفضل الفواكه الرمان والأترج ، وأفضل الرياحين الورود والبنفسج ، وأفضل البقول الهندباء والخس .

ـــ فما تقول فى شرب الماء ؟

ـــ هو حياة البدن وبه قوامه ، ينفع ما شرب منه بقدر الحاجة ، وشربه بعد النوم ضرر ، أفضله أمرأهُ ، وأرقه أصفاه .

ـــ فما طعمه ؟

ـــ لا يوهم له طعم إلا أنه مشتق من الحياة .

— فما لونه ؟

— اشتبه عن الأبصار لونه ، لأنه يحاكى لون كل شيء يكون فيه .

— أخبرنى عن أصل الإنسان ما هو ؟

— أصله من حيث شرب الماء .

— فما هذا النور الذى فى العينين ؟

— مركب من ثلاثة أشياء : فالبياض شحم ، والسواد ماء ، والناظر ريح .

— فعلى أىّ جُبل وطُبع هذا البدن ؟

— على أربع طبائع : المرة السوداء وهى باردة يابسة ، والمرة الصفراء وهى حارة يابسة ، والدم وهو حار رطب، والبلغم وهو بارد رطب .

— فلم لم يكن من طبع واحد ؟

— لو خلق من طبع واحد لم يأكل و لم يشرب و لم يمرض و لم يهلك !

— فمن طبيعتين لو كان اقتصر عليهما ؟

— لم يجز لأنهما ضدان يقتتلان !

— فحن ثلاث ؟

— لم يصلح موافقان ومخالف ! فالأربع هو الاعتدال والقيام .

— فأجمل لى الحار والبارد فى أحرف جامعة .

— كل حلو حار ، وكل حامض بارد ، وكل حريف حار ، وكل مر معتدل ، وفى المر حار وبارد .

— فأفضل ما عولج به المرة الصفراء ؟

— كل بارد لين .

ـــ فالمرة السوداء ؟

ـــ كل حار لين .

ـــ فالبلغم ؟

ـــ كل حار يابس .

ـــ فالدم ؟

ـــ إخراجه إذا زاد ، وتطفئته إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة .

ـــ فالرياح ؟

ـــ بالحقن اللينة ، والأدهان الحارة اللينة .

ـــ أفتأمر بالحقنة ؟

ـــ نعم ، قرأت فى بعض كتب الحكماء أن الحقنة تنقى الجوف وتكسح الأدواء عنه ، والعجب لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد ؟ وأن الجهل كل الجهل من أكل ما قد عرف مضرته ، ويؤثر شهوته على راحة بدنه .

ـــ فما الحِمية ؟

ـــ الاقتصاد فى كل شىء ، فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها ويسد مسامَّها .

ـــ فما تقول فى النساء وإتيانهن ؟

ـــ كثرة غشيانهن ردىء ، وإياك وإتيان المرأة المسنة فإنها كالشن [1] البالى تجذب قوتك وتسقم بدنك ، ماؤها سم قاتل ونقسها موت عاجل ، تأخذ منك الكل ولا تعطيك البعض ، والشابة ماؤها عذب زلال وعناقها غُنج ودلال ، فوها بارد وريقها عذب وريحها طيب وَهنُها ضيق تزيدك قوة إلى

(١) القربة الخلقة الصغيرة .

قوتك ونشاطا إلى نشاطك .

ـــ فأيهن القلب إليها أميل ، والعين برؤيتها أسر ؟

ـــ إذا أصبتها المديدة القامة، العظيمة الهامة، واسعة الجبين ، قنواء العزنين (الأنف) ، كحلاء لعساء (فى شفتها سواد) ، صافية الخد ، عريضة الصدر،مليحة النحر ، فى خدها رقة ، وفى شفيتها لعس ، مقرونة الحاجبين ، ناهدة الثديين ، لطيفة الخصر والقدمين ، بيضاء فرعاء ، جعدة غضة بضة ، تخالها فى الظلمة بدرا زاهرا ، تبسم عن أقحوان ، وعن مبسم كالأرجوان ، كأنها بيضة مكنونة ، ألين من الزبد ، وأحلى من الشهد ، وأنزه من الفردوس والخلد ، وأزكى ريحا من الياسمين والورد تفرح بقربها ، وتسرك الخلوة معها .

فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه وقال :

ـــ ففى أى الأوقات اتيانها أفضّل ؟

ـــ عند ادبار الليل يكون الجوف أخلى ، والنفس أهدأ ، والقلب أشهى ، والرحم أدفأ ، فإن أردت الاستمتاع بها نهارا تسرح عينيك فى جمال وجهها ، ويجتنى فوك من ثمرات حسنها ، ويعى سمعك من حلاوة لفظها ، وتسكن الجوارح كلها إليها .

ـــ لله درك من أعرابى ! أُعطيتَ علما ، وخصصت فطنة وفهما !

وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به .

كان هذا هو حديث الطب فى ثقيف وفى مكة وفى القبائل ، وكان الرواة يضيفون إليه تجاربهم على مر السنين . وكان حديث الجنس يستهوى الناس فأضاف الرواة ما شاءوا وشاء السامعون واستهواهم ، وكانت هذه الأحاديث وأمثالها هى الحكمة التى أوتوها ، وقد شب النضر بن الحارث ابن خالة محمد بن عبد الله فى هذه البيئة ، وسافر كأبيه فى البلاد ، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة ، وعاشر

الأحبار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة ما وصل إلى علمه ، واطلع على علوم الفلاسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه ما كان يعلمه من الطب ؛ فامتلأ النضر بن الحارث بن كلدة الثقفى غرورا ، حتى ظن أنه أفضل أهل أبيه وأمه ، بل أفضل شباب العرب أجمعين . وما كان يرضى لنفسه أن يقارنها بابن خالته الذى عرف فى قومه بالأمين ، والذى ذاع فى القبائل نبأ زواجه خديجة بنت خويلد ، من رفضت كل سادات قومها الذين تقدموا لخطبتها .

إنه وإن كان فى دهش لذلك الزواج إلا أنه أرجعه إلى جمال ابن خالته ، فما وجد سببا آخر يجذب أيم قريش الشريفة الغنية العفيفة نحو يتيم قريش الذى لا مال عنده ولا أمل فى سؤدد أو سلطان ، فقد كان يقيس الرجال بمقياس مادى وما كان صاحب نفس شفافة ليعرف حقيقة الأرواح .

كان محمد وابن خالته النضر يجتمعان فى المواسم وفى المناسبات التى تجمع بين أفراد الأسرة الواحدة ، وكان محمد منطويا على نفسه يلوذ بالصمت إعراضا عن اللغو ، يغلبه حياؤه بينما كان النضر مزهوا بنفسه وبعلمه الأرضى الذى حصله فى رحلاته وحكمته التى كسبها من قراءة كتب حكماء الفرس وفلاسفة اليونان ، فكان يتيه بعلمه على قومه ، وكان غاية ما ينتظره لمثل محمد ابن خالته أن يصير تاجرا صادقا بعد أن اشتهر بأمانته ، وما كان يتصور أن ذلك الرجل الذى يعيش فى قوقعة ذاته يمكن أن يصبح ذات يوم سيدا من سادات دار الندوة كحكيم بن حزام أو أبى الحكم بن هشام أو أبى سفيان بن حرب ، ولو دار بخلده أن السماء تدخر ابن خالته لأجل رسالة عرفها البشر لمات كمدا ، ولكفر بخالق الكون ، ولتمنى من كل قلبه أن تخر السماء على الأرض . فأين علم ابن عبد الله من علمه ؟ فما خطر له على قلب

أن هناك من يتلقى الحكمة من الله ، فقد كان ربيب الوجود ، وما استطاع أن يسمو يوما فوق واقعه ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

١٥

ظهر هلال شهر رمضان فى السماء ، فراح محمد بن عبد الله يتأهب للانطلاق إلى غار حراء ليعتكف شهرا يعبد الله فيه على دين أبيه إبراهيم ، وما كان محمد وحده يرقى إلى حراء فى ذلك الشهر بل كان كثير من الحنفاء يتحنفون فيه كل على قدر جهده واجتهاده ومحبته للذات العلية . ولنور اليقين الذى أشرق فى قلبه .

كانوا يتحنثون للخروج من الحنث وهو الإثم ، بينما كان محمد بن عبد الله يتحنث حبا فى الله ، لتزداد أنوار عشقه إشراقا ، بعد أن عرف الله وأحبه وصار الأنس به قرة عينه ولذة قلبه ونور بصيرته ووجدانه .

وراحت خديجة تعاونه وتعد له ما قد يحتاج إليه طوال ذلك الشهر الذى سيجاور فيه فى الغار ، وهى منشرحة النفس ، فقد رأت فيه مذ ذلك اليوم الذى دخل فيه عليها أنه تلك الشمس التى رأتها فى منامها تنحدر من سماء مكة لتستقر فى سماء دارها وتشرق منها لتغمر الدنيا بنورها ، وكان إيمانها بعظمة زوجها يربو على مر الأيام ، لم يخب حبها له يوما بل كان تقديرها لخلقه العظيم يزداد كلما طالت عشرتها له ، فقد كانت تكشف كل يوم جديدا من جوهره الثمين وكنوز نفسه التى كانت تفوق كنوز أنفس أهل الأرض جميعا ، ولا غرو فقد كانت ترى فيه ربيب السماء .

وغمرتها نشوة عارمة وهى تغدو وتروح تجهز له زاده ، فقد فاضت منه روحانية انسابت إلى روح زوجه جعلتها ترى فيه كمال نفسها وسعادتها وعين ما تتمنى من بهجة وفرح نفسى فياض فى دنياها التى كانت تخفق قبل أن تراه بالقلق والألم والحيرة والعذاب .

وجدت فيه المرفأ لسفينة حياتها المضطربة ، والواحة التى تستظل بها بل تستقر إلى جوار نبعها الصافى بعد رحلة طويلة شاقة فى صحراء قاسية جافة تهب عليها العواصف والأعاصير ، وكانت تحب مالها فقد كانت تؤمن أنه عصب وجودها وتاج حياتها ، فإذا بها بعد أن ألقت سمعها إلى محمد لم تعد تحفل بأموالها فهى عرض زائل عجزت عن أن تجلب سعادة فى تلك الأيام التى أمضتها مع زوجين من أشرف قومها ، مثل السعادة التى تشيع فى جوانبها وهى إلى جوار محمد الحبيب ، إنها جعلت الماديات دبر أذنها وتحت قدمها بعد أن ذاقت حلاوة الروحانيات .

أحبت فيه علمه وعقله وشجاعته وتقواه وكرمه ومروءته وخلقه القويم حتى جاوز حبها له حد العشق فباتت على استعداد لتنفق جميع مالها لنصرته والذب عنه ، بل إن روحها تهون فى سبيل مبادئه الصالحة التى يستمدها من الخير الأسمى ، وروح الروح .

أحبت خديجة الله وكانت تستشعر سعادة عارمة كلما سمعت حديث ابن عمها ورقة بن نوفل عن الله ورسله وأنبيائه ، وقد أصغت إلى زوجها وهو يحدثها عن الله فأحست كأنما أسجاف الظلام ترتفع عن قلبها ليشرق بالنور ، وكانت كلما ازدادت معرفة بالله ازدادت حبا لزوجها ويقينا بأن محبتها له إنما هو عين حب الله ، فمحب الحبيب حبيب ، ولا محبوب عند ذوى البصائر إلا الله ولا مستحق للمحبة سواه .

كانت خديجة أول مريدة فى مدرسة ابن عبد الله فتعلمت على يديه أنه لا وجود لها من ذاتها وإنما وجودها ودوام وجودها وكمال وجودها من الله وإلى الله وبالله ، فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ولا فى ذاته ، بل هو عدم صرف لولا فضل الله ، وأن ليس فى الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به ، يستمد منه الحياة والوجود .

عرفت خديجة ربما بعد أن فتح محمد أعين بصيرتها على النور فأحبته ، وعرفت منه حقيقة الدنيا وجوهرها الزائف فزهدت فيها ، واشتغل بحبها لله فذهلت عن المحسوسات بعالم الملكوت الذى أصبحت تهيم فيه وتحلق لتسعد بنشوة الروح والأنس بذات الذوات .

وألهم محمد صفات ربه قبل أن يوحى إليه ، فكان يحدث خديجة عن الجمال المطلق ، الواحد الذى لا ند له ، الغنى الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا يفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلى الذى لا أول لوجوده ، الأبدى الذى لا آخر لبقائه ، المنفرد بالعزة والجبروت ، ذى الفضل والجلال الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول ، فأحبت خديجة ربها لذاته وتعظيما لجلاله ، فغرست فى قلبها غريزة النور الإلهى فهى على نور من ربها ، فأصبحت تدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة ، وصارت لذتها وبغيتها فى إشراق نور اليقين فى فؤادها .

صارت ألذ المعارف عندها وأطيبها وأشهاها العلم بالله ، وأصبح حديث محمد عن الله أجدر ما يعظم به فرحها وارتياحها واستبشارها ، فاضحت لذة المعرفة عندها أقوى من سائر اللذات ، فكانت لا تضيق بحب

زوجها للعزلة بل كانت تهيىء له كل سبل الراحة ، فقد كانت على يقين من أنه فى جهاد ليتحقق له الوصال فتنسكب الحكمة فى فؤاده من فوق السموات .

وكان محمد يكشف لها عن بعض ما عرفه من أسرار ملك الله قبل أن يعرف ما الكتاب وما الإيمان ، فكانت تتهلل بالفرح وتمتلىء بالنشوة وتستشعر أنها تزداد كل يوم قربا من الله وشوقا إليه ، فهى فى الطريق إلى أن ينتهى صفاء قلبها إلى غايته التى ليس فوقها غاية ولا دونها منتهى .

نجح محمد فى أن يطهر قلبها من غير الله ؛ فاتسع ليشرق بمعرفة الله وحبه ، فانقطعت شواغل الدنيا عن قلبها فراح فكرها الصافى يشتغل بالتدبر فى ملكوت الله فيما ألقى محمد بذوره فى أعماق أعماقها فصارت ترى آيات كمال قدرة الله فى السموات وفى الأرض وفى كل ما تمد إليه البصر ، وفيما تراه بعين بصيرتها التى قويت حتى أصبحت قادرة على رؤية بعض ما وراء الحجاب .

أضحت ترى أن كل ما فى الوجود من فعل الله ، وعرفت أنه من فعل الله فأحبته من حيث أنه أثر من آثاره جل شأنه ، فلم تكن ناظرة إلا فى الله ولا عازمة إلا بالله ولا محبة إلا لنوره وجلاله ، ففنيت عن نفسها فى الله ، وباتت ترقب ما بشرت به من إشراق النور من دارها .

كانت خديجة تحس شوق محمد إلى ربه ، فهو فى شوق حار إلى استكمال الوصال ، وهو يجتهد ليتمم الله له نوره ، وقد أصبحت على يقين أن الله يحب محمدا حب محمد لربه بل أشد ، فلا شك أن الله محب لمن أحبه ، ومؤنس لمن أنس به ، وصاحب لمن صاحبه ، وإن ربه ليقذف من نوره فى قلبه فيفيض عليها بذلك العلم الذى يثير دهشتها وعجبها ، فما يحدثها به

محمد يفوق فى روعته أحاديث ورقة وعبيد الله ابن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل ، بل وكل من كان على دين من أهل الكتاب .

إن الله جعل لمحمد واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه ، وقد تولى الله أمره ظاهره وباطنه ، سره وجهره ، فهو المشير عليه والمدبر لأمره ، والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه ، والموحش له من غيره . والمؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته ، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته .

إن ثمار محبة محمد لربه تظهر فى قلبه ولسانه وجوارحه ، فهو يقوم الليل إلا قليلا حبا فى لقاء الحبيب ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، وإنه ليلقاه وهو فارغ القلب عن الشواغل ليكون كل قلبه لله لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، قد غلب حب الله على قلبه فأحب جميع خلقه ، وقد أحبته خديجة لله ورأت فيه كمال خلق الله .

إنه يتلذذ بالخلوة بربه وينعم بمناجاته ، وإنه ليأنس بالله فى غدواته وروحاته ، فى يقظته ومنامه ، وصارت الخلوة والمناجاة قرة عينه لا يطمئن قلبه إلا بذكر الله فشعت منه روحانية ملأت فؤاد خديجة نورا وأملا ورجاء وحيا فتعلمت أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، فكانت تكثر من مناجاة ربها تسأله أن ينزل السكينة على قلبها لتزداد إيمانا مع إيمانها .

وأتمت خديجة تجهيز زاد زوجها ومحمد يحنو على زيد ويسبغ على ابنها هند بن أبى هالة عطفه ، فأحست الدموع تبلل روحها ، فرحمته تمس أوتار قلبها ، إنه عظيم وهو على خلق كريم ، قد زاده الله من فضله حتى إنها لم تخالجها ريبة لحظة واحدة مذ عاشا معا تحت سقف واحد أنه المرتقب والموعود والمنتظر .

وحمل محمد زاده وودع خديجة وداعا رقيقا ، فسيمكث فى جوار ربه شهرا لا يشغل قلبه شاغل سواه ولا يفكر إلا فيه ولا يناجى إلا إياه ، وسيعيش معه وبه وله ، يفتح فؤاده لتنسكب فيه بعض حكمة الحكيم ، ويتزود من التقوى خير الزاد ، ويتهلل بفرح الأنس به والسعى للوصال .

وغادر محمد الدار وقبلته ذات الله ، وقد هاجت نار الحب والشوق فى صدره وانبعث القلب إلى الطلب ، واستبشر وفرح بقرب الانفراد والخلوة بذات الذوات ، فهى رأس العبادة وينبوع السعادة ومباشرة روح اليقين .

وراحت خديجة تتبعه بنظرها وهى خافضة القلب وملأ جوانحها استبشار وأمل ورجاء ، وغاب عن عينيها فى الظلام إلا أنها كانت تراه ببصيرتها كالنور فى سويداء الفؤاد . إنه هائم فى ملكوت الله ، قاصد وجه الله ، ومن يطرق الباب يفتح له ، وإنه لدائم الطرق على باب الله ، وإنه لواصل فمن قصد وصل إلى الغاية واطمأن قلبه إلى بلوغ المرام .

١٦

وفى سكون الليل طاف محمد بالبيت سبعا وقد قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والجاه والرفقاء والأصدقاء إلى الله . هجر زوجه الحبيبة وجاهها العريض والراحة التى يسرتها له ، وفارق آل عبد المطلب الأعزاء ، وأبا بكر الصديق الذى قلما أن يفترق عنه وابنى عمه الحبيبين جعفر ابن أبى طالب وأبا سفيان بن الحارث ، وكل الرفقاء والأصدقاء فى سبيل وجه الله .

وما أتم طوافه حتى انطلق فى الظلام إلى غار حراء مع الحنفاء من قريش الذين اعتادوا أن يتحنثوا فيه طوال شهر رمضان ، ولم يكن يفكر مثلهم فى وعورة المرتقى ، فقد غاب عن كل ما حوله إلا ربه بعد أن بذرت فى وجدانه من طول سهره مع الله بذور الإرادة والإخلاص ، فكان وحده عرضة لمهاب نسائم الرحمة وهو يشتد على الصراط المستقيم .

وبلغ مدخل الغار فألقى نظرة على مكة فبدت فى عينيه كأنها ذرة فى ملك الله ، وقلب وجهه فى الأرض والسماء فامتلأت جوانبه خشية امتزجت بفرح واستبشار ، وسرعان ما أحس أن عالمه أوسع من العالم الأرضى ، أنه ملكوت الأرض والسماء ، أنه دنيا المحسوسات ودنيا الغيب والروح ، وأن خفقة واحدة من روحه فى دنيا الله ألذ من كل لذات الحواس .

كان قد تعلم من أنسه بالله بأنها نفسه إن لم يشغلها شغلته ، فلم يدع قلبه فراغا لحظة من ليل أو نهار ، فهو مشغول بالله وهو يقظان ولا يغفل قلبه عن

ذكر الله إذا نام ، فهو يعيش بالله ولله وفى الله ، فهو أنفاسه التى تتردد فيه وهو خفقات قلبه ورفرفات روحه قد سرى فى ضميره مسرى الدم .

ودخل الغار وقد ران عليه ظلام ثقيل وضربت الوحشة فى جنباته ، ولكنه لم يحفل بالظلام فقد بات يرى بنور الله ، و لم يعد يستشعر وحشة بعد أن ذاق حلاوة الأنس بالله .

آثر العزله وجلس للمراقبة والذكر والفكر وراح ينظر إلى الله والنظر يحرك القلب إلى ذكر الله . فصفت نفسه وانبعث الابتهال وروح السجود من كل جوارحه ، فاختلجت خواطره بالذكر وفاضت عيناه بالدمع ، فانقطعت عن قلبه جواذب الدنيا لينجذب إلى السماء .

وفى لحظة من كرم الله وفيضه انكشف فى قلبه من أسرار الله فى ملكوت السموات والأرض ما لا ينكشف لعابد صادق فى سنوات طوال ، فقد استطاع بحسن نيته أن يستدر أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت . وأن يستقبل نفحات ربه المباركة أحسن استقبال وقد نزلت عليه من السماء كما ينزل الرزق على العباد .

وامتلأ حكمة من ربه فأشرقت أنوار المعارف من باطن قلبه ، فهو يذكر الله فيذكره الله ويفيض عليه من كرمه ، وكان لسانه الذاكر وقلبه الشاكر وصبره فى الله ومصابرته بالله ورباطه مع الله مفاتيح السعادة التى أنزلت الرحمة على فؤاده .

إن الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء ، وهجران الخلق فى حب الحق شديد . والسير مع النفس إلى الله صعب شديد ، والصبر مع الله أشد . ولما كان يطلب بقاء لا فناء فيه ، وعزاً لا ذل فيه ، وأمناً لا خوف فيه ، وغنًى لا فقر فيه ، وكمالاً لا نقصان فيه ،

وملكاً تضيق به أرجاء الأرض ، فقد صبر على طول المواظبة حتى صار يعبد الله على الرضا ، ثم انقلب الصبر والرضا إلى حب شديد حتى أصبح لا يحتمل العيش بعيدا عن الله ، فصار الله هو نور عينيه وفؤاده وبصيرته ، والهواء الذى يملأ فراغ قلبه ، وحديث النفس فى العزلة واختلاج الخواطر فى النوم واليقظة ، وجيشان العواطف ونور اليقين .

ماتت أمه وهو صغير فعرف الألم ولكنه صبر ، ومات جده عبد المطلب وفاض دمعه بيد أنه امتثل لأمر الله لم يجزع و لم يشق الجيوب بل طوى نفسه على ألم . وسار فى الطريق وشب موفور الصحة جميل الخلقة عذب الحديث : تتلهف المجالس على صحبته ، وتزدان به ليالى السمر ، كثير العشيرة من أكرم أسرة فى قريش ، إلا أنه ضبط نفسه عن الاسترسال وراء بواعث الهوى والركون إلى موفور الصحة والانهماك فى ملاذ قومه حتى المباحة منها ، فقد كان على يقين أن ذلك يخرجه إلى البطر والطغيان وتنكب الطريق .

وما أيسر الصبر على البلاء وما أصعب الصبر على العافية ، إنه تزوج خديجة الغنية الشريفة التى أحبته من كل قلبها ووفرت له أسباب الراحة والدعة ، فلم تفتنه أموال خديجة و لم يبطر جمالها على قلبه وهو الرجل القوى الذى لم يتجاوز الخامسة والعشرين ، فلم ينهمك فى التنعم واللذة واللعب ، و لم يركن للدعة بل هجر كل مباهج الدنيا فى سبيل وجه الله ، فصبر على فتنة الضراء وفتنة السراء على السواء ، و لم تلهه آلام الدنيا ومباهج المحسوسات عن ذكر ذى الجلال والإكرام .

إنه صبر ثم عمل الصالحات ثم راح يعبد الله على الرضا ، ثم هام فى المحبة متعرضا لنفحات ربه وجذباته فألهم حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات ، وأن خير لباس هو لباس الإيمان

يرجو الله ألا ينزعه عنه أبدا .

عرف أن النعمة من المنعم وأن النعم كلها من الله المقدس الذى لا مقدس غيره ، فكان يفرح بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام ، وكان أكثر فرحه بما يرد من الله إلى قلبه فذلك يقربه إلى ربه ، وغايته التوصل إلى القرب منه والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام ، وكان يعمل بموجب ذلك الفرح الحاصل من معرفة المنعم ، فكان يضمرر الخير لكل خلق الله فى قلبه ، وكان لسانه لا يكف عن أن يلهج بشكر الله ، وكانت جوارحه تنأى عن كل ما يغضب مكارم الأخلاق ، حتى إن عينيه كانتا تستران كل عيب تريانه ، وأذنيه تستران كل عيب تسمعانه ، وكان يشكر الله بلسانه وجوارحه وأفعاله ، حتى يفنى نفسه ولا يرى غير الله .

لم تصبح النعمة عنده كل خير ولذة وسعادة ، بل كل سبب يوصله إلى الله ، فالعلم وحسن الخلق وقمع الشهوات وإنفاق المال حبا لله ، ولذة النظر إلى وجه الله ، ولذة العقل ، وكل ما يزيد بالإنفاق ، نعمة تستوجب الشكر ، حتى يرزقه الله تمام النعمة .

وراح آناء الليل وأطراف النهار يتطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال ، فانبعث القلب إلى الطلب ، وتأججت فى وجدانه أنوار الأشواق والإشراق ، وامتلأ بفرح فياض واستبشار بالأنس بالله ، فعظم نعيمه ولذته وأحس بكل كيانه أن ذات الذوات يرعاه ، فلم تعد شهوته إلا الانفراد بروح الوجود والخلوة به .

وتعاقب الليل والنهار وهو مستأنس بالعظيم المتعال ، قد صفا الود واستغرق فى عذوبة الذكر ، وانجلت لبصيرته حقيقة الأمر ، فباشر روح اليقين ، واستلان ما استوعر المترفون ، وصحب الدنيا ببدن روحه معلقة

بالمحل الأعلى ، فصار جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ، ولذة معرفتها أغلب على فؤاده .

إنه هتك حجب الوجود بالصبر والرضا والشوق والشكر والأنس ، وتغلغل فى الغيب حتى دنا من اللب ، وعرف الجوهر الأسمى بعد أن طابت سريرته وأضاءت بصيرته بنور اليقين ، ولا غرو فهو ربيب الله يصنعه على عينه ليكون رسوله الكريم إلى الناس أجمعين .

وانقضى شهر رمضان وقد نسى محمد دنياه بالذكر والشكر والابتهال والسجود ، فأحس أنه قد ترقى فى معارج القرب درجات وأنه دنا فاقترب من روح الروح ، واستشعر أن رب السماوات والأرض رب العالمين قد تجلى عليه بالبركات فسكب الحكمة فى قلبه ، فأشرق ضميره بنور يبهر أنوار الشموس ، إنه فرح بما آتاه الله ، مستبشر بفضله ، فقد بات يستشعر أن نفسه قد ازدادت قوة بعد ذلك الشهر المبارك الذى سعد فيه بالأنس بربه ، وأن دعائمها قد قامت على تقوى من الله ورضوان .

وانقلب الذين كانوا يتحنثون فى غار حراء إلى أهليهم لتشغلهم أموالهم وأهلوهم عن نور النور ، بينا محمد ينحدر فى الجبل وهو متهلل بالفرح قد تعلق كل كيانه بربه ، وانجذب إلى السماء لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ويهديه ربه صراطا مستقيما .

وانطلق إلى مكة تخفق فى جنباته محبة وعشق للذات العلية ، تهيم روحه لتعرج إلى الكمال الأسمى ، حتى ذهل عن نفسه وعن كل ما حوله ، وشغل بذلك الفرح والاستبشار والإشراق الذى ومض فى وجدانه فأثار اختلاج خواطره وسويداء قلبه وكل كيانه .

ووقعت عيناه على الحرم والناس تطوف به ، وحمام الحمى يرفرف من

حوله مع الطائفين ، والشمس ترتفع إلى السماء تبعث أشعتها الحارة االلافحة تشوى الجلود ، وتفصد العرق من الأبدان تكاد تزهق الأرواح ، فراح يوسع من خطوه تضطرب روحه بنشوة صافية وقد هفت إلى أول بيت وضع للناس ، وبدا كل شيء جديدا لعين بصيرته كأنما يراه لأول مرة ، فالبيت غارق فى أنوار سماوية تغذى الوجدان وتضفى على النفس رحمة وأمنا وسلاما ، والكون من حوله يسبح لملك الناس تسبيحا يستشعره فى أعماق قلبه وإن لم تلتقط ذبذباته أذناه ، ولا عجب فقد صار يرى بالله ويسمع بالله ويفكر بنور الله .

طاف سبعا مع الطائفين وقد أشرقت سريرته بإحساسات صافيه انبعثت من كنوز معارفة التى استمدهامن خزائن الملكوت ، وربت بطول السهر مع الله والأنس به وفاضت بالبركات ، وربت بطول السهر مع الله والأنس به وفاضت بالبركات فجعلته يسمو إلى الكمال المطلق ، وينشرح صدره للنور المتدفق فى فؤاده من فوق الطبيعة من وراء حجب الغيب ، وكان سروره فياضا حتى إنه لم يحس حر الشمس فقد استظل بظل الله .

وخرج من الحرم بعد أن استمتع بلذة معرفة الله ، وهى لذة سرمدية تزكو على مر الأيام وتزداد تألقا واشتعالا ، إنه عرف كال الحب فصار الله محبوب قلبه ومعبود فؤاده ومقصود روحه ، فإذا طرب لطيب أصوات الطيور ، وإذا سعد بروح نسيم الأسحار ، فهو متفرح بجلال خلق الله ، فقد صار الله قبلته وصارت لذته إدامة النظر فى وجهه وكان ذلك فوزا عظيما .

ووقف أمام دار خديجة وطرق الباب ، وسرعان ما انفتح عن جارية من جوارى الطاهرة وسيدة نساء قريش ، وما أن وقعت عيناها عليه حتى صاحت فى فرح معلنة قدوم سيدها الكريم . وتردد صوتها فى جنبات الدار

كأجمل بشرى ، فهرع زيد بن محمد وهند بن هند وأمه خديجة وبركة الحبشية لاستقبال محمد الحبيب ، وفاضت الأشواق فانهمرت دموع الفرح من العيون فقد عاد إلى الدار روحها ونورها . وأطالت خديجة النظر إلى الأمين فرأت وجهه يتألق بنور انبهر له فؤادها قبل بصرها ، فذكرها ذلك الضياء بحلمها الذى رأت فيه الشمس تنحدر من السماء لتستقر فى سماء دارها . إنه لم يرتب قلبها لحظة فى أنه تأويل رؤياها ، ولكنها كانت على يقين وهى مستبشرة بالنظر إليه أنه من يرتقب ابن عمها ورقة بن نوفل ظهوره ، وأنه من بشَّر به كهان العرب ورهبان النصارى وأحبار اليهود .

١٧

راح أبو سفيان يطوف بالبيت قبل أن يخرج إلى الطائف ، فبنو أمية وبنو ثقيف حليفان بينهما مودة ، وكانت الزيارات مستمرة بين سادات الأمويين والثقفيين ، ومما زاد الصلات الطيبة بين الحيين أن عروة بن مسعود الثقفى صار عظيم ثقيف وكانت أمه من بنى عبد شمس .

وكانت الزيجات المتبادلة بين قريش وبين الثقفيين تشد الأواصر بين القريتين مكة والطائف ، فالحارث بن كلدة طبيب العرب تزوج أخت آمنة بنت وهب ، وقد أنجب النضر الطبيب والفيلسوف الذى ساح فى الأرض وراح يروى ظمأه إلى المعرفة من فلاسفة الفرس والرومان واليونان ، فراح يتيه بعلمه المستورد على الجميع ، وما كان يخطر له على قلب ابن خالته محمد بن عبد الله ، فما كان محمد يعرف القراءة ولا الكتابة ، فمن أين لمن كان مثله العلم الذى يجعله ندا لفيلسوف ثقيف !

وتزوج مسعود الثقفى من بنات عبد شمس وأنجب عروة ، فشب ابنه سيدا مطاعا فى قومه حتى صار سيد ثقيف ، فاشتد هوى الثقفيين إلى بنى أمية فحالفوهم دون بنى هاشم ، ومما زين ذلك الحلف أن أبا سفيان بن حرب كان صاحب لواء قريش كلها فلا تشن حرب إلا بأمره ، فهو مركز القوة فى قريش بينا كان للهاشميين رفادة الحجيج وسقايتهم ، وفى ذلك مغرم لا مغنم ما وراءه إلا الشرف وحسن الأحدوثة .

وراح أبو سفيان يتمسح بأصنام مكة ، فهو يتقرب إليها لتوفيه أجره فى الدنيا ولأن أباه حرب بن أمية كان يعبدها ، وهو لا يستطيع أن يتصور أن أباه

حربا كان على ضلال ، إنه يعيش فى الدنيا دون أن يجد الحياة لغزا أو سرا ، فهو لا يجهد نفسه فى البحث عن سر الحياة ولا يفكر فى أن يغير الدنيا ، فهو يسعد بأيامه فقد كان كل ما يبغيه أن يستمتع باللذات الحسية ، فهو مؤمن بالمادية الأرضية ونزعة إشباع اللذة .

كان لا يأبه بالخلق ولا مكارم الأخلاق ، فهو يريد مالا ممدودا يحسب أن ماله أخلده ، لا يقلقه من أين جاء ، ويريد أن يستمتع بالنساء وما جال بخاطره أبدا تنظيم الحياة الجنسية ، بل كان يشبعها أينما حل فى مكة أو ثقيف أو يثرب أو دومة الجندل أو فى الحيرة أو الشام ، وما طمع فى سيادة قومه إلا ليشبع نهمه إلى القوة والسلطان .

كانت المادية تسدل ستائرها السود على أفق الحياة فى مكة ، قد اضطرب فيها التوازن الاجتماعى ، فالعبيد يكدحون وينفقون الجهد والعرق فى سبيل إغناء السادة وما أقل ما كان يعود عليهم من ثمار كفاحهم ، إنهم يئنون تحت أقدام الأشراف ، ولكن أبا سفيان كان فى أذنيه وقر فما كان يسمع الأنين ، ولا يحس مأساة العبيد ، ولا يرى استشهاد الإنسانية الذى يقع تحت بصره وسمعه .

وكانت الثروة مكدسة فى أيدى نفر قليل من قومه بينما كان كل الناس يقاسون الحرمان ، فلم تحن منه التفاتة إلى سوء توزيع الثروة فى قومه ، وكان كل ما يفعله أن يطعم الفقراء حتى لا يذهب بنو هاشم بالشرف وحدهم .

وكان الربا الفاحش ينقض ظهر المجتمع المكى ، فلم يخطر له على قلب ، وهو سيد قومه أن يستنكر ذلك الاستغلال البشع بل كان يراه أمرا مشروعا ينبغى حمايته ، وكانت الثارات تزهق أرواحا بريئة والحروب بين القبائل تشن لأتفه الأسباب فانعدم الاستقرار فى أحياء العرب وساد قانون الغاب ، فلم

يتحرك لحقن الدماء و لم يرأن قافلة الحضارة المكية التى يقودها منطلقة إلى الهاوية ، فقد أسدلت المادية حجابا على بصره وبصيرته فعاش بنفسه ولنفسه ، وليضرب الآخرون فى تيه الحياة أو لينزلوا فى أعماق القبور .

إنه مرتبط بالأغنياء ، وكانت الحكومة فى مكة حكومة الأغنياء يحكمونها من دار الندوة وما كان يدخل تلك الدار فقير ، فكانت رابطة المال وحدها هى رابطة الإنسان بالإنسان ، فكانت عقدة المال هى الحاكمة للفوضى التى نظمت حيثما اتفق ، فلم يلتفت أبو سفيان لظلم الفقراء . و لم ير فى العدوان عليهم عدوانا على الإنسانية جمعاء .

كانت السعادة المادية هدف الحياة وغايتها ، فانفصمت عرى الروابط الإنسانية وانقلب الناس جميعا الذين لا يتطلعون إلى ما وراء الطبيعة إلى عبيد للمال ، فانعدم انسجام الجماعة وانطلقوا فوق قبور الأخلاق والقيم الإنسانية الخالدة إلى سراب الحياة ، لا يعرفون التقاء السماء بالأرض ولا الخير الأسمى ولا السعادة الحقة .

وخرج أبو سفيان من الحرم وهو يحس حرية مالك العبيد ، إنه إذا أمر صدع المكيون لأمره ، وإذا أشار لبوا إشارته ، فهو سيد مطاع فى قومه ، ولكنه كان فى أعماقه يرتجف من الحرية الحقة ، فهو عبد لدين آبائه ، أسيرلتقاليد أجداده ، أعمى لا يقوى على أن يرى ما فوق رأسه ، فبصره مشدود إلى الأرض بسلاسل المادية التى تعلّم أن تكون غايته التى ليس وراءها مرمى .

وكان كل علمه يقوده إلى الجهل فهو يعرف القراءة والكتابة ، فأبوه حرب بن أمية كانت له صحبة ببشر بن عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فقد كان يتاجر عندهم ، فتعلم حرب منه الكتابة ، فمن

البتَراء عاصمة النبطيين انتقلت الكتابة إلى كل بلاد العرب الشمالية ، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب فتعلم منه أبو سفيان وكثير من بنى أمية فكثر لذلك الكتاب فيهم ، ولكنه لم يستخدم ذلك العلم إلا فى حساب الربا وأرباح التجارة ومكاتبة العبيد ، ولم يفتح له سبيل الحرية المطلقة ولم يقده إلى طريق الله بل قاده فى الطريق المنحدر إلى الهاوية ، إلى الظلام الثقيل .

وكان كل ما يعرفه من أمر الدين أن اللات والعزى ومناة بنات الله يشفعن إليه ، وما كان يلتمس من الآلهة إلا أن ترزقه بالأموال وبما يشبع نهمه إلى الشهوات ، أما الموت فما كان يعتقد أنه يقربه من الله فهو يؤمن ألا حياة بعد حياته الدنيا ، فكان حليف اللذات الجسدية وما ذاق أبدا طعم أية لذة روحية ، فهو غارق فى الجهل والفساد قد كتم فى وجدانه أنفاس بصيص النور الإلهى الذى يولد مع الإنسان .

ووصل إلى الطائف وراح يسرح الطرف فى بساتينها وعيونها وفواكهها المختلفة الألوان ، وفى الجداول المنحدرة من الجبال فأحس نشوة عابرة ، فقد كان يرى الجمال بنور عينيه ، فلو أنه درب بصيرته على النظر وراء الحجب لرأى جمال الجمال ، ولا ستشعر بجلال الجلال ، ولنعم بنشوة يسعد بها الفؤاد على الدوام ، ولبذرت فيه بذور الفرح والاستبشار ، ولعرف الفناء عن النفس وحلاوة الوصال .

وذهب إلى معبد اللات وطاف بالصنم طوافه بالحرم ، وقدم القرابين ووضع فى الغبغب خزانة الصنم شيئا يسيرا ، فلم يستطع أن ينتصر على بخله حتى وهو بين أكبر بنات ربه .

وانتهى من الدعاء والابتهال ثم انطلق إلى دار عروة بن مسعود الثقفى سيد

بنى ثقيف ، فرحب الرجل بسيد بنى أمية أجمل ترحيب وقدم إليه الشراب فى أوانى من الذهب ، وقامت القيان بالرقص والغناء ، فقد كان عروة يجتهد فى أن تكون لياليه أروع من ليالى عبد الله بن جدعان .

ومرت ليال مترعة باللذة ولكنها لم تكن مثل الليالى التى أمضاها فى ضيافة الحارث بن كلدة طبيب العرب ، فقد كان الحارث يُقعد مولاته سمية للبغاء ، وكانت فتاة حلوة ظريفة وقد مال إليها قلب أبى سفيان فكان يكثر الدخول بها والتردد عليها ، فحملت ووضعت ما فى بطنها ثم أرسلت إلى أبى سفيان وقالت :

ـــ هذا ولدك .

فانكره أبو سفيان و لم يقبل أن يلحقه به كما فعل العاص ابن وائل يوم أن وضعت النابغة عمرا وقبل العاص عن رضا بنوة عمرو بن العاص ، وأقسمت سمية:

ـــ واللات والعزى إنه ابنك يا أبا سفيان .

وأبى أبو سفيان أن يلحق زياد بن سمية بنسبة ، وجاء علماء قيافة البشر من يستدلون بهيئة الإنسان وشكله على نسبته وأكدوا أن زياد ابن أبيه أبى سفيان ؛ ولكنه لج فى الخصام وأصر على إنكار ذلك التسب .

كان موقفه مشينا ، إنه وهو السيد العظيم لم يصل فى شجاعته الأدبية إلى ما وصل إليه عبد من عبيد الحارث بن كلدة ، فقد دخل الأزرق مولى الحارث بسمية فلما أنجبت منه سلمة لم يحاول الأزرق أن يفر من فعلته فرار الجبناء كما فعل سيد بنى أمية ، بل أقر بسلمة وعرف منذ ولادته بسلمة بن الأزرق .

كان أشراف مكة وأشراف الطائف يُكرهون فتياتهم على البغاء ليجلبن لهم الأموال من الدعارة وما كان ذلك يخدش شرف السادة . وكان كثير من العُهار يروغون من ثمرة متعهم ، وكان أبو سفيان عاهرا وما كانت مثل هذه المراوغات تسىء إلى العلاقات بين مولى البغى وطالب اللذة ، فقد ظلت الصلة وطيدة بين أبى سفيان وبين الحارث بن كلدة حتى بعد أن أنكر بنوته

لزياد ابن جاريتهم سمية .

وجاء أبو سفيان إلى دار الحارث فاستقبل بالترحيب وحرص على ألا يرى سمية ولا ابنها ، ودخل على النضر بن الحارث فألفاه غارقا فى كتب الفلسفة والطب ؛ كان عاكفا على كتاب يفرق بين الصحة الروحية والصحة الجسمانية ويتحدث عن أطباء يمارسون علاج الروح وآخرين صناعتهم علاج الجسد ، فالعناية بالناحية الروحية كانت تدخل فى ممارسة الطب .

كان الحارث يقرأ : هناك ثلاث طرق للعلاج ، فما لا تنجع فيه الأدوية يشفى بالحديد (الجراحة) ، وما لا ينجع فيه الحديد يشفى بالكى ، وأما المرض الذى لا يمكن علاجه بالكى فأنه مستعص لا علاج له ، وقبل أن ينتهى من قراءته مس أذنيه صوت أبى سفيان يقول :

ــ عم مساء .

فرفع النضر بن الحارث ابن خالة محمد بن عبد الله رأسه ، فلما رأى أبا سفيان نحى الكتاب جانبا وقام إليه يعانقه ، وجلس الرجلان يتسامران وما حدّث النضر ضيفه حديث الفلسفة ، فأبو سفيان يراها صعلكة فكرية وشعوذة ذهنية ، فهو لا يؤمن إلا بالمال الذى يزيد به ماله ، وبالجسد الذى يضمه إلى جسده ، وبأصحاب النفوذ الذين يدعمون سلطانه ، فهو فى قرارة نفسه يرى أن الفُجر دهاء ما دام يصل به إلى غايته .

وانتهت زيارة أبى سفيان لدار أشهر أطباء العرب فانطلق إلى دار صديقه أمية بن أبى الصلت أقرب الثقفيين إلى قلبه ، فهو نديمه ورفيقه فى تجارته ، فما انطلق إلى الشام أو إلى اليمن فى تجارة إلا كان أمية رفيق رحلته .

كان أمية قد قرأ فى الكتب أن نبيا يبعث فى الحجاز من العرب ، وكان يرجو أن يكون هو فلما رأى فيه بعض أحبار اليهود ورهبان النصارى بعض صفات

ذلك النبى المنتظر ، هجر شرب الخمر ومجالس عبد الله بن جدعان ولبس المسوح تعبدا وتجنب الأوثان وصام والتمس الدين طمعا فى النبوة .

كان يلتمس النور من الكتب و لم يطهر قلبه من الدنيا ، بل كان يجلس إلى نساء ثقيف يحدثهن عن نفسه وأنه النبى الموعود ، و لم يكن فكره صافيا ولا ذكره دائما ، و لم يعرف لذة النظر المستمر فى الله وفى ملكوت سمواته ، و لم يعرف ربه بربه بل عرفه من خلال الكتب .

إنه يفكر كثيرا فى تجارته فهى شغل قلبه وحظ نفسه ومدار تفكيره ، فإن فكر فى الله ساعة فهو يفكر فى شهوات الدنيا ساعات ، فقعد عن أن يسمو إلى آفاق الاتصال بذات الذوات ، فلم يشرق نور اليقين فى قلبه وإن داعب فكره كما تداعبه عرائس الشعر وشيطان القريض .

إنه كالفراش يتهافت على ضوء السراج وهو يحسب أنه يطلب النور ، فهو لا يحب الله لذاته بل طمعا فى النبوة التى تهفو إليها نفسه ؛ فأن يكون نبيا أعظم من أن يكون شاعرا مجيدا ، فالنبوة أخلد على الزمن من كل شعر الفطاحل والفحول ، وإن ذلك الجهل سيلقى به فى نار شهوة الرئاسة والسلطان وخلود الذكر ليخسر الدنيا والآخرة .

وما إن رأى صديقه أبا سفيان حتى أقبل عليه مستبشرا وقد طوى الكتب السماوية ونسى الله وراح يحدث صديقه وشريكه حديث التجارة وقد ألهته التجارة والبيع عن ذكر الله ، وفى الليل اجتمع السمار فقام ابن أبى الصلت ينشد شعره وقد انتفخت أوداجه غرورا .

وقبل أن تنتهى زيارة أبى سفيان للطائف اتفق مع صديقه الذى ينتظر النبوة أن ينطلقا إلى الحيرة ليوطدا الصداقة بينهما وبين ملك الحيرة ، فالنعمان حاكم قوى يكسبهما تأييده قوة وعزة ويزيد فى هيبتهما ، وما فكر ابن أبى الصلت

الذى تهفو نفسه إلى أن يكون رسول الله فى أن يتوكل على الله وأن يعتمد فى دينه ودنياه على شديد القوى .

١٨

كانت قصور الأكاسرة والقياصرة والملوك قبلة العرب الذين ينشدون ملكوت الأرض ، فكان كبار التجار والشعراء يشدون الرحال إلى الحيرة ملتمسين الجوائز أو القرب من النعمان ملك العرب العظيم ، وكان أصحاب الأطماع من أمثال أبى سفيان وأمية بن أبى الصلت يرون فى النعمان خير مؤيد فهو مفتاح قلب كسرى ملك ملوك الأرض، وكان آخرون يهرعون إلى القسطنطينية ابتغاء وجه إمبراطور الدولة الرومانية .

خرج عثمان بن الحويرث يوم أن طمع فى أن يملك قريشا حتى قدم على قيصر وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتجرهم ببلاده ، فذكر له مكة ورغبه فيها وقال : تكون زيادة فى ملكك كما ملك كسرى صنعاء . فملكه قيصر على العرب وكتب له إليهم ، فلما قدم عليهم قال : إن قيصر من قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم ، وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما آخذ الجراب من القَرَظ والعكة من السمن والإهاب فأجمع ذلك ثم أبعثه إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشآم فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه .

فلما قال لهم ذلك خافوا قيصر وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم فأجمعوا على أن يعقدوا على رأسه التاج عشية وفارقوه على ذلك ، فلما طافوا عشية

بعث الله عليه ابن عمه أبا زمعة الأسود بن المطلب بن أسد ، فصاح على أحفل ما كانت قريش فى الطواف : يا آل عباد الله ، ملك بتهامة ! فانحاشوا انحياش حمر الوحوش ثم قالوا : صدق واللات والعزى ! ما كان بتهامة ملك قط . فانتفضت قريش عما كانت قالت له ولحق بقيصر ليعلمه ، فكلم تجار من قريش بالشآم عمرو بن جفنة ملك غسان فى عثمان بن الحويرث ، وسألوه أن يفسد عليه أمره ، فكتب إلى ترجمان قيصر يُحوّل كلام عثمان ، فلما دخل عثمان على قيصر يكلمه قال للترجمان :

ــ ما قال ؟

ــ مجنون يشتم الملك .

فأراد قتله وأمر به فدُفع ، إلى أن مر برجل من أصحاب الملك فتمثل ببيت شعر ، فكلمه عثمان بن الحويرث وقال له :

ــ إنى أرى لسانك عربيا فمن أنت ؟

ــ رجل من بنى أسد ، وأنا أكره أن يزروا بنسبى .

ــ فما دهانى عنده ؟

ــ الترجمان ، كتب إليه عمرو بن جفنة أن يحول كلامك .

ــ فكيف الحيلة فى أن تدخلنى عليه مدخلا واحدا وخلاك ذم .

ــ أفعل .

فاحتال له حتى دخل عليه ، ودعا له قيصر الترجمان فقال له عثمان :

ــ إنى أفجر الناس .

فأعلم ذلك الترجمان قيصر .

ــ وأغدر الناس .

فأعلمه الترجمان قيصر أيضا .

ــ وأكذب الناس .

فذكر ذلك الترجمان لقيصر ، ثم أهوى عثمان فتشبث بالترجمان فقال قيصر :

ــ إن له لقصة ، فادعوا لى ترجمانا آخر .

فدعوه له فأفهمه قصته ، فعاقب قيصر الترجمان الأول وكتب لعثمان بن الحويرث إلى عمرو بن جفنة أن يحبس له من أراد حبسه من تجار قريش ، فقدم على ابن جفنة فوجد بالشام أبا أحيحة سعيد بن العاص وابن أخته أبا ذيب فحبسهما ، فوقعت العداوة بين عبد شمس وبين بنى أسد .

كان العالم منقسما إلى معسكرين : معسكر تحت حكم الفرس ومعسكر تحت حكم الرومان ، وكان الناس خارج هاتين الكتلتين هواهم مع كسرى أو مع قيصر ، وكانت ميول سادات العرب منقسمة فبينا فريق يميل إلى قيصر ويرجو منه الخير ، كان فريق آخر يميل إلى كسرى ويؤم الحيرة بل وينطلق إلى إيوان كسرى ويذهب فى تملقه إياه أو الإعجاب به إلى أن يفرض على قومه دين المجوسية .

ولم تقف أطماع أبى سفيان وشريكه أمية بن أبى الصلت عند قصر الخورنق بل عزما أن ينطلقا إلى العراق إلى قصر كسرى ، فخرج أبو سفيان فى نفر من قريش ومن ثقيف فوجهوا بتجارة إلى العراق ، فقال أبو سفيان :

ــ إنا نقدم على ملك جبار لم يأذن لنا فى دخول بلاده فاعدوا له جوابا .

وكان فى القوم غيلان بن سلمة الثقفى وكان أحد حكام قيس ، فقال :

ــ أنا أكفيكم على أن يكون نصف الربح لى .

ــ نعم .

واستأذنوا على كسرى فأذن لهم فى الدخول حتى كان بينهم وبينه شباك ،

وتقدم غيلان وكان جميلا فقال له الترجمان :

ـــ يقول لك الملك كيف قدمتم بلادى بغير إذنى ؟

فقال غيلان :

ـــ لسنا من أهل عداوتك ولا تجسسنا عليك وإنما جئنا بتجارة ، فإن صلحت لك فخذها وإلا فائذن لنا فى بيعها ، وإن شئت رجعنا .

فإنه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى فخر ساجدا ، فقال له الترجمان :

ـــ يقول لك الملك ما أسجدك ؟

ـــ سمعت صوتا مرتفعا حيث لا ترفع الأصوات ، فظننته صوت الملك فسجدت .

فشكر له ذلك وأمر بمرفقة فوضعت تحته ، فرأى فيها صورة الملك فوضعها على رأسه فقال له الحاجب :

ـــ إنا بعثنا بها إليك لتقعد عليها .

ـــ قد علمت ، ولكنى رأيت عليها صورة الملك فوضعتها على أكرم أعضائى .

فاستحسن كسرى ذلك أيضا ثم قال له :

ـــ ألك ولد ؟

ـــ نعم .

ـــ فأيهم أحب إليك ؟

ـــ الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يقدم .

ـــ أنت حكيم من قوم لا حكمة فيهم[1] .

---

(١) ارجع إلى كتاب « سعد بن أبى وقاص » للمؤلف ، قارن بين وفود العرب قبل الإسلام وبعده .

وبعث كسرى معه من يبنى له أطما بالطائف ، فكان أول أطم بنى بالطائف ، و لم يقف نفوذ الفرس عند هذا الحد ، فقد اعتنقت تميم المجوسية وعبد التميميون النار وقالوا كما قال الفرس : إنها أعظم العناصر جرما ، وأوسعها خيرا ، وأعلاها مكانا ، وأشرفها جوهرا ، وأقدرها ضياء وإشراقا ، وألطفها جسما وكيانا ، والاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع ، ولا كون للعالم إلا بها ، ولا حياة ولا نمو ولا انعقاد إلا بممازجتها .

وكانوا يحفرون أخدودا مربعا فى الأرض ويؤججون النار فيه ، ثم لا يدعون طعاما لذيذا ولا شرابا لطيفا ولا ثوبا فاخرا ولا عطرا فائحا ولا جوهرا نفيسا إلا طرحوه فيها ، تقربا إليها وتبركا بها .

وكانوا يحضون على الأخلاق الحسنة وينهون عن الكذب والحسد والحقد واللجاج والبغى والبطر ، فإذا تجرد الإنسان عنها قرب من النار وتقرب إليها .

ولم يكتف بنو تميم بعبادة النار بل أخذوا عن المجوس الزواج من المحارم ، فتزوج حاجب بن زرارة ابنته ثم ندم ، وسمى لقيط بن زرارة بنته دختنوس مستعيرا ذلك الاسم من الفرس ، ثم تزوجها ومات عنها فقال وهو يجود بأنفاسه :

يا ليت شعرى عنك دختنوس
إذا أتاها الخبر المرموس
أتحلق القرون أو تميس
لا ، بل تميس إنها عروس

كانت العرب شيعا متفرقين وفرقا مختلفين ، فالنصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة ، وكانت اليهودية فى حمير وبنى كنانة وبنى الحارس بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية فى تميم ، وكان عدم الإيمان بالآخرة والربوبية فى قريش وقد أخذوا ذلك من الحيرة ، وكان بنو حنيفة قد إتخذوا إلها من تمر خلط

بسمن فعبدوه دهرا طويلا ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ، فقال رجل من تميم :

أكــلت ربها حنيفــة مـــن جـــو
ع قـــديم بها ومـــن إعـــواز

كان العرب قبائل متنافرة لم يتفقوا فى دين ، وكانت قبلة كل قبيلة عرشا من عروش القياصرة أو الأكاسرة أو قصرا فى غسان أو الحيرة أو ملكا فى دومة الجندل أو الحبشة ، وكانت قلوبهم مختلفة لم يتفقوا فى الدين أو الاعتقاد ، فكانت قبائل تشد الرحال إلى اللات والعزى ومناة ، بينما كانت القبائل التى تدين بالمجوسية تحتفل بيوم النيروز ويعتقدون أنه اليوم الذى خلق الله فيه النور . وكانت القبائل التى تدين بالنصرانية تحتفل بيوم ، « البشارة » وهو يوم بشارة جبريل لمريم بميلاد عيسى عليه السلام ، وبعيد الشعانين وهو ركوب المسيح الأتان ودخوله القدس والناس يرحبون به بهز سعف النخل ، وبالفصح وهو يوم قيام المسيح بعد الصلب ، وبخميس الأربعين وهو يوم رفع المسيح إلى السماء ، وقد وعد حوارييه فى ذلك اليوم بإرسال (الفراقليط) ، وبعيد العنصرة وهو اليوم الذى حلت فيه روح القدس فى تلاميذه وتفرقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة ، وراح كل منهم إلى بلاد لسانه يدعوهم إلى دين المسيح عليه السلام .

واحتفلت القبائل التى دانت باليهودية بأعياد اليهود ، فكانوا يصومون الصوم العظيم ومدته خمس وعشرون ساعة ، يبدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرين وتختم بمضى ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر وهو تمام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام ، وكانوا يحتفلون بعيد المظال وعيد الفطير وعيد الأسابيع ، وهو عندهم اليوم الذى خاطب الله تعالى فيه بنى إسرائيل ، وعيد الفوريم وهو عيد إستر التى لعبت بعقل أخشويرش

إمبراطور الفرس فكتب لليهود بالأمان ، وهو عيد سرور ولهو وخلاعة يهدى بعضهم فيه إلى بعض ويصورون من الورق صورة عدوهم هامان ويملئون بطنها نخالة وملحا ويلقونها فى النار .

قبائل متنافرة لو أنفق زعيم ما فى الأرض جميعا ما ألف بين قلوبهم ، ومجتمع مريض يُكرِه فيه السادة إماءهم على البغاء ليملئوا خزائنهم ذهبا وفضة ، وشرك بالله ، واختلاط بين الآلهة والأوثان ، وعصبية للقبيلة بغيضة ، ووأد للبنات ، وقتل للأولاد خشية إملاق ، وإراقة دماء الأبرياء للأخذ بالثارات ، وعبيد يخرون صرعى تحت الأقدام ، وظلم للضعفاء والفقراء وتمزيق لأواصر الأخوة الإنسانية ، واطلاق عنان الشهوات ، وإباحة للحرية الجنسية وحرية التجارة وحرية الاستغلال ، وقافلة الجاهلية منطلقة إلى الهاوية .

إن قوانين الطبيعة كلها تؤكد أن هذا المجتمع المريض سائر فى طريق الموت فهو ينتحر بيده ويتحلل من داخله ، وما من قوة فى الأرض بقادرة على أن تصف له الدواء ، وما من رجل واحد بمستطيع وحده أن ينتشل ذلك المجتمع الذى يتردى فى الهاوية ، فلولا أن تتداركه رحمة من ربه لأدركه البوار .

إن الله ليدخر لجزيرة العرب التى تموج بالإحن والمثالب والجور أفضل رسالة ، ليشع النور من بلاد الظلمات ، ليكون ذلك آية من الله ، وإنه سيوحى إلى عبده محمد بن عبد الله بدين الإنسانية ، ليبرأ المجتمع المشرف على الهلاك من أمراضه بفضل الله وعنايته ليبزغ من أرض الرذيلة فجر التاريخ الجديد .

١٩

كان محمد يرابط مع الله على الدوام ويسير فى رفقته فى الليل أو فى النهار ، فى البيت أو فى الطريق أو فى الحرم أو فى الأسواق ، قد صبر على العزلة والانفراد وصبر على مخالطة الناس وأحب كل خلق الله ، فأشرقت أنوار المعارف من باطن فؤاده .

إنه قد اختبر عمق الحياة الباطنية وذاق حلاوة الأنس بالله والانجذاب إلى السماء ، وراح يرقب نموه الروحى وهو متهلل بالفرح مفعم بالاستبشار ، فهو يستشعر أنه قد مر على الجسر الذى يفصل بينه وبين الذات العلية حتى صار الله حديث النفس فى العزلة وفى مجتمعه الصغير وفى الخضم الزاخر بالناس وحيثما كان .

إنه يحس رحابة فى نفسه وحرية مطلقة استمدها من الجوهر الإلهى ، فهو لا يستشعر عبودية إلا لله ، فليس لأحد عليه سلطان إلا رب العالمين ، وما كانت الحرية التى ألهمها حرية هدامة تنخر فى قلب الوجود ، بل كانت حرية لا ترى كمال الحرية إلا فى أن تصبح كل البشرية حرة ، لتندمج فى صميم الضرورة الإلهية الصالحة الخيرة ، وذلك هو طريق الخلاص .

إن الصبر مع الله شديد ولكن الاندماج فى الله يزيل الحجب عن أسرار ملكوت الأرض والسماء ، ويسمو بالبشرية إلى ما وراء دنيا الحقد والحسد والظلم والطغيان . ويمد الناس بقلوب جديدة ناصعة تستبشر كل يوم بل كل لحظة بالمكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت .

إنه أحب النزوع إلى السماء . وإنه واقف على أعتاب الأسرار الإلهٰية قد عرف معنى السعادة الحقيقية ، ولكنه كان يحس فى صميم ذاته أن سعادته ناقصة لأنه لا يستمتع بطعم السعادة الكاملة إلا بسعادة الآخرين ، فهو لا يعيش لنفسه بل فطر على أن يبذل نفسه للعالمين .

إنه وهو فى عزلته يعيش مع الله بعقله ووجدانه وبصره وبصيرته ، وإنه وهو فى تعاطفه مع البشرية يعيش مع الناس وهو فى صحبة ربه بكل كيانه وجوارحه وعواطفه ومشاعره ، فهو فى رفقة الله على الدوام سواء أكان وحده أم مع الأغيار ، فى يقظته أو فى منامه ، فهو قاصد وجه الله ، وقد كساه ربه تقى وورعا وجلالا فانجذبت إليه قلوب الناس وانشرحت الصدور بحبه .

إنه يرغب فى الخير رغبة صادقة ، لنفسه ولمجتمعه وللبشرية جمعاء ، قد ألهم أن خير الأرض كلها إن هو إلا قبس من الخير الأسمى ، فهفت روحه إلى أن ترشف من النبع الصافى ، من ينبوع كمال الكمال ، فراح يستعين بالله ليصل إلى الله ، وإن الله ليأخذ بيده بقدرته اللامتناهية ليضعه على ذروة البشرية ، رحمة للعالمين ، فقد خلقه الله ليكون رسوله ومبشرا بدينه القويم .

شاءت الحكمة الإلهٰية أن يترقى محمد إلى الروحانيات وأن تلقى المعارف فى روعه على مر الأيام والسنين ، حتى إذا ما حان أوان نزول الروح الأمين عليه بأمر ربه يكون قد تأهب لذلك الحادث الجلل الذى تتزلزل له النفوس وتنفطر له القلوب ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

كان يفكر فى الغدو والآصال فى ملك الله فيصفو قلبه وتبذر بذور الحكمة فى وجدانه وتربو خزائن علمه ، وكان ينظر بعقله فى حقائق السموات والأرض فيرى كمال خلق الله وبهاء وجه الله وعظمة ملك الله وقدرة الله ، وأنه سخر كل شيء بمقدار وأن ليس لأحد فضل إلا من فضل الله ولا سلطان لعبد

من عباده إلا بتمكين الله له .

كان فيض من النور ينسكب فى قلبه من فوق السموات ، وكان تياره متصلا غير مقطوع يزيد الفؤاد إشراقا حتى تحين لحظة التنوير ، تلك اللحظة التى تسمو فيها روح محمد الأمين بإذن الله لتصبح أهلا للاتصال المباشر بروح القدس ، ليبلغ الناس رسالة السماء البلاغ المبين .

إعداد وجهاد ، وصبر على البلاء وصبر على العافية ، وأنس بالله ورحمة من الله ، وسمو وارتقاء ، وقصد ووصول واتصال ، وفرح واستبشار ودموع ، وتأديب من الله حتى تتحقق إرادة العليم الخبير .

وتأهب القرشيون للخروج إلى الأسواق ، فراح رجال ينزعون أسنة الحراب ويطوون السيوف حتى لا تراق الدماء فى الأشهر الحرم ، وراح رجال وعبيد يجهزون قوافل التجارة ، وجعل محمد يعد العدة للانطلاق إلى سوق مجنة فقد فطن منذ نعومة أظفاره أن الأسواق موائد الله يبسط الرزق عليها لمن يشاء ، فلم يركن إلى أموال خديجة ويعتزل الدنيا لعبادة ربه ، فقد نفث فى روعه أن العمل عبادة فكان يمشى فى الأسواق يبتغى من فضل الله .

والتقى بأبى بكر صديقه الذى يحبه ويألفه وينجذب إليه ، وراحا يتحاوران حوارا صادقا عميقا كله طهارة وسمو لا يتناسق مع مبازل القوم وجهلهم ، ووقعت عينا محمد على الطير تغدو فى طلب الرزق فانبسطت أساريره . فذلك الغدو الرقيق حرك قلبه إلى ذكر الله وزاد تألق أنوار اليقين فى صميم وجوده .

وكان يقرب أبا بكر إلى قلب محمد تواضعه وعزوفه عن الشهوات وحماسته لما فيه الخير والصلاح واستقامة ضميره ، واستخفافه بالأصنام وبأحلام عابديها ، وذهنه المتفتح للفهم والتفكير الرصين ، وإيمانه بالغيب

وقد قاده ذلك الإيمان إلى تفسير الرؤى والأحلام ، ووقر فى ضميره أن عجزه عن إدراك كنه الله إدراك .

وحطت القافلة فى السوق ، وظهرت مواكب الشعراء ، فهرع الغاوون إليهم وهاموا معهم فى الوديان يلقون إليهم أسماعهم ، وراح الشعراء يقولون ما لا يفعلون والناس بهم منفعلون قد امتلأت أفئدتهم بنشوة عارضة زائفة .

وبدأ البيع والشراء فأطل الجشع من العيون وبرز التنافس الخسيس بين التجار ، وطغت شهوة المال على أفعال الرجال والنساء ، وغصت السوق بمن يعيشون لأنهم يملكون وبمن يعيشون لأنهم يخضعون ، وتكدس الذهب والفضة لدى كبار التجار من قريش ، إنها كنوز ولكنها مثقلة بدموع العبيد .

وجاء الليل فدبت الحياة فى خيام صاحبات الرايات الحمر ، وكان أغلبهن من إماء السادة جاءوا بهن ليمارسن البغاء ابتغاء جمع المال لعبيد المال ، فقد صار المال معبود الجميع تنحر على مذبحه القيم الإنسانية المقدسة ، ويطلق له بخور الشهوات ، ويغسل بأنبذة الشام والخمور المجلوبة من كل مكان ، ويفرش له الطريق بدماء الضحايا وأنات المظلومين ودموع المساكين وقهقهات الطاغين .

وفى منتصف الليل بين الضحكات الماجنة والأنات المحزونة قام المجوس من تميم للصلاة الأولى ، فقضوا ساعات فى تلاوة الأناشيد يسترضون بها شياطين الظلام قبل انبثاق النور الأعظم عند الصباح ، كانوا يؤدون الصلاة بألسنتهم بينا كانوا أشحة على الخير قدت قلوبهم من فولاذ ، بل كانت أقسى من الفولاذ .

كان دين زرادشت قد فسد فقد امتزج دين التوحيد بالتنجيم والخرافة بالعبادة ، وصار أهورامزدا إلـه النور والنار المقدسة ، وبنيت لها بيوت وصار

لها كهنة وأدعية وطقوس وعبدت لذاتها ، ونسى عبادها الله الذى دعا إلى عبادته نبيهم الذين ظلموه .

وكان الذين اعتنقوا اليهودية من العرب يمشون فى الأسواق يأكلون الربا ويبخسون الناس أشياءهم ويستعلون على من عداهم ، فقد لقنوا أن الإله ملك لهم دون سائر عباده ، فقد جمدت اليهودية على النصوص وتحولت من دين يدعو إلى عبادة إله واحد إلى تنطع فى التفسير والتأويل حتى عبد اليهود أنفسهم غرورا .

كانوا فى شقاء روحى وتمزق وجدانى بين آراء الربانيين وآراء القرائين لا يدرون إلى أى فريق من الفريقين يميلون ، ومن أى منهل ينهلون ، وقد كثرت شروح التوارة وتضاربت وماجت بالأساطير .

وكان الذين اعتنقوا النصرانية يتأرجحون بين مذهب النساطرة ومذهب اليعاقبة قد لقنوا مبادىء تناقض روح الإنسانية ، فبولص الذى سلب عرش السيد المسيح يقول : « إنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان : واحد من الجارية والآخر من الحرة ، لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد ، وأن الذى بالحرة فبالموعد .. » إنه يدعو إلى التفرقة والعصبية ، يدعو إلى ما لا يدعو إليه إله رحيم ، فما كان الله ليسبغ رحمته على قوم لأنهم ولدوا من حرة ، وما كان ليقفل أبواب رحمته فى وجه أقوام لأنهم ولدوا من جارية !

نجح بولص فى أن يفسد الإسلام الذى دعا إليه السيد المسيح ، كما نجح الأحبار وحكماء صهيون فى أن يطمسوا معالم الإسلام الذى جاء به موسى عليه السلام ، وطمس المجوس معالم دين زرادشت ، فتقطعت أواصر الأخوة العالمية ، وقلعت من الأرض جذور التعاليم الإلهية التى أنزلها الله على رسله لسعادة البشر .

كان الخلاف بين أهل الكتاب من العرب محدودا بينا كان مشتعل الأوار فى الدولة الرومانية وفى الدول التى تدور فى فلكها ، فكنيسة الإسكندرية تكفر كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية وتطرد أتباعهما من حظيرة الإيمان ، وترمى كنيسة القسطنطينية كنيسة الإسكندرية بالكفر والإلحاد ، وقد نشبت الفرقة والعداوة بين أصحاب الديانة الواحدة ، وتنكبت المذاهب كلها سواء السبيل بعد أن صار الدين تعصبا وطقوسا وقشرة رقيقة تكسو سطح القلوب ، بينا كانت الضمائر فاسدة ، والآثام ترتكب على أعين الناس ، والقيم الإنسانية تحرك فى أتون الأنانية وتذرو هشيمها رياح الشهوات .

شغلت الأفئدة بحب الدنيا عن الله ، فاندلعت ألسنة الجشع ، وقوى سلطان المال ، واشتد نهم الشهوات وظمأ الأجساد إلى الحرام وسواعد جنود الشيطان ، واتسعت عيون الحسد ، وضاقت الصدور بالأحقاد ، فغرقت البشرية فى بحر الضلال .

وراح سوس الفساد ينخر فى دين الفرس وتهاوت عليه مطارق المفسدين باسم الدين فترنح ثم تهاوى لما شاعت فيه شيوعية المال والنساء بعد دعوة مزدك ، وقد حاول كسرى أنو شروان أن يقتلع أشجار الرذيلة التى غرسها من زعم أنه « الفراقليط » بيد أن ملك الملوك كان أعجز من أن يقضى على ما شاع فى النفوس من تنافر وتناحر وبغضاء وانقسام وعدوان وكراهية وطمع ونفاق ومادية طاغية .

ظهر الفساد فى البر والبحر ، واتبع الناس أهواءهم وصارت أفئدتهم هواء لا وازع من دين أو ضمير أو من قانون يحترم مكارم الأخلاق ، قد قست قلوبهم وطبع الله على أفئدة الكافرين ففقدت الثقة فى كل شىء ، وأكدت حوادث الوجود حاجة الدنيا إلى الإيمان : إلى رسالة من السماء تنتشل البشرية

التى تتمرغ فى الحضيض .

وتصرمت أيام سوق مجنة فانتقلت جموع الناس إلى سوق ذى مجاز ، فراح الشعراء يتفاخرون ويؤججون نيران العداوة بين القبائل ، ثم أقبل الناس على البيع والشراء حتى إذا ما مالت الشمس للغروب عاد رجال كل قبيلة إلى رايتهم ، فعاد القرشيون ليجتمعوا تحت الراية التى رفعها أبو سفيان .

ومدت الموائد التى زخرت بما لذ وطاب فانكب الناس على الطعام يلتهمونه فى نهم ، بينا اكتفى محمد بلقيمات يقمن صلبه ، فقد عرف أن امتلاء المعدة يلصقه بالأرض ويشد روحه بأثقال تعوقها عن أن تحلق لتنجذب إلى السماء ، وهو لا يطيق أن تمر لحظة دون أن ينظر إلى وجه ربه .

وتكونت حلقات السمار وانغمس الناس فى لهو لا حدود لحريته لا تقف أمامه سدود من حياء ، يسارعون فى الإثم والعدوان ويفسدون فى الأرض قد ضلوا عن سبيل الله وران على قلوبهم ظلام ثقيل .

وانسل محمد بعيدا عن مذبح الفضيلة ، بعيدا عن الأنفاس الضالة التى لوثت نقاء ما خلق الله ، حتى إذا ما واجه الصحراء ووقعت عيناه على تلألؤ النجوم فى السماء وزفير النسيم وحنان الصمت ورقة السكينة أحس أنه فى محراب الله ، فخر ساجدا لله رب العالمين .

وشد الناس الرحال إلى سوق عكاظ ، واجتمع الشعراء فى خيمة النابغة الذبيانى ليحكم بينهم ، وقد جاء حسان بن ثابت وغريمه قيس بن الحطيم من يثرب ، وجاء شعراء طيء وعبس وقيس عيلان وكندة وتميم وغطفان وهوازن ليتفاخروا ويتنابذوا بالألقاب وليهجو بعضهم بعضا ، أو ليتغزلوا فى كرائم النساء دون حياء فيذهب شعرهم فى القبائل .

وكان بعض الشعراء يفضلون أن يذهبوا إلى حيث كانت قريش لينشدوا

أشعارهم بين يدى أبى طالب والزبير بن عبد المطلب وحمزة والعباس وأبى سفيان وحكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة وأبى الحكم بن هشام وسادات أهل الحرم ، فقد كانت قريش تعلق فى الكعبة ما تجيزه من الشعر إلى جوار هبل إله الشعر العظيم ، وإنه لفخر ما يدانيه فخر أن يكون شعر شاعر من المعلقات .

ودبت الحياة فى سوق الرقيق فارتفعت أصوات الدلالين تنادى على رجال من الروم والفرس والعرب ، وعلى نساء بيض وسمر وسود ، وعلى غوانى راقصات ومغنيات ، وعلى ولدان من كل الأعمار ، فقبائل العرب كانت يغير بعضها على بعض أو تقطع طريق القوافل أو تغير على تخوم الدول الكبرى وتحمل الأسرى إلى الأسواق ليباعوا بيع الرقيق .

وجاء اللصوص إلى السوق العظمى بما سرقوه من متاع وعرضوه على الوافدين من كل فج عميق من الجزيرة العربية ، ونشطت حركة البيع والشراء والطواف بالعبيلات بالليل والنهار ، وتحريك الشفاه بصلوات تتراقص على أطراف الألسن دون أن تنبع من صميم القلوب .

واجتمع السمار للشراب وللعب الميسر واللهو ، وأطل الجشع من عيون الرجال وتراقصت الشهوة فى عيون النساء المتطلعات إلى الثراء ، وكانت السوق تموج بالباحثات عن الذهب من صواحب الرايات الحمر والمتعطشات إلى المغامرات ، فأريقت دماء الفضيلة على الأرض التى كانت طاهرة قبل أن تدنسها أقدام المفسدين .

وانتهت أيام سوق عكاظ بما فيها من ظلم وعدوان وفسق وتمزيق أواصر الأخوة البشرية واضطهاد للإنسانية والحط من قيمة الإنسان ، فانطلقت جموع العرب إلى مكة للطواف ببيت أبيهم إبراهيم وتأدية مناسك الحج الأعظم .

كانوا يزحفون إلى بيت الله وقد شغلت قلوبهم بالدنيا ، يفكرون فيما حققوا من أرباح أو ما حملوا من أوزار ، وكانوا فرحين بما ارتكبوه من خطايا ، بينا كان محمد يسير وقد نزع الله عنه الوحشة وأسكن الغنى قلبه ، لأنه لم يجعل بينه وبين ربه عالما يحجبه عن حبه ، فأنار الله قلبه وأضاء سريرته .

ووقف الحمس عند الطريق المؤدية إلى الكعبة يكرون ثيابهم الطاهـرة للأغنياء ، بينا راح الفقراء يخلعون ثيابهم التى اقترفوا فيها المعاصى ويلقونها على الأرض ليطوفوا عرايا ، وفى الليل خلع النساء ثيابهن وذهبـن إلى الحرم للطواف .

تقاليد ابتدعها الحمس ما أنزل الله بها من سلطان ، وما جاء بها أبوهم إبراهيم يوم أن شرع الحج وقام بتأدية مناسكه ، ولكن طال على العرب الأمد فقست قلوبهم ودسوا فى الدين القويم الخرافات وأشركوا بالله وجعلوا له أندادا .

وخرج الناس من الحرم ليؤدوا الحج فى منى والمزدلفة فما كانوا يذهبون إلى عرفة ، فضجت جنبات الجبال والوديان بتلبية الشرك .

ـــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

كانت تلبية تمزق كيان محمد ، فهو يضيق بتلك التلبية الظالمة التى جعلت مع الواحد الأحد إلها غيره ، وقد ضاق صدره من قبل بالجشع المادى الذى تبدى فى كل الأسواق وبالفسق وبالظلم وبالعدوان وبالرذائل التى كانت ترتكب فى كل مكان ؛ ولكن ماذا يستطيع محمد أن يفعل وحده لتقويم كل ذلك الاعوجاج ؟ إنه لا يستطيع إلا أن يستنكر ذلك بقلبه فما كان يتصور أنه قادر على أن يقف فى وجه تيار الفساد الجارف الذى غمر الحياة فى كل بلاد

العرب ، فتغيير ما جبلت عليه نفوس عرفت حرية الانطلاق وحرية الاضطهاد وحرية الطغيان وحرية الرذيلة شيء فوق طاقة البشر .

إنه شيء لا يقدر عليه إلا الله ، خالق تلك الأنفس الذى ألهمها فجورها وتقواها ، وإن محمدا الذى يقف مكتوف اليدين أمام سطوة الشرك بالله وسلطان المال وعصبية القبيلة وبطش الأقوياء ، لسوف يقف كالطود الأشم فى وجه ذلك التيار الفاسد لا ليصده وحسب ، بل ليغير مجراه إلى مجرى الخير والفضيلة وكرامة الإنسان ، يوم أن يؤيده الله بسلطانه ويبعثه رسولا للرحمة والمحبة وكرامة الناس أجمعين .

٢٠

كان بيت خديجة غارقا فى الصمت لا صوت ولا نأمة ، فمحمد رب البيت فى غرفته يناجى ربه ويدعوه ويحمده ، وقد جلس زيد بن حارثة وحده شاردا فرأى يوم أن خرج مع أمه ليزورا أهلها فأصابته خيل من بنى القين بن جسر فباعوه بيع الرقيق .

وترقرقت الدموع فى عينيه فهو يحن إلى أهله ، فصورة أمه سُعدى تملأ أقطار رأسه وتتخايل له فى نومه ويقظته ، وطيف أبيه حارثة لا ينثنى عن خياله ، وملاعب صباه حبيبة إلى نفسه حتى إن فؤاده يهوى دواما إليها ، وطالما تمنى أن يكون له جناحان ليطير إلى وطنه .

ورأى نفسه وهو يعيش فى دار حكيم بن حزام حياة الرقيق ، كانت حياة قاسية مرة لوصيف لم يتجاوز الثامنة من عمره ، بعد أن كان يقضى نهاره فى حجر أم تغمره بحنانها ، وإذا ما ارتمى فى أحضان أبيه يمطره بقبلات رقيقة صادرة من قلب رحيم .

ورأى خديجة بنت خويلد وهى تدخل على ابن أخيها حكيم فيقودها إلى حيث كان الرقيق ، ورن فى جوفه صوت حكيم وهو يقول :

ـــ اختارى يا عمة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك .

ورأى خديجة وهى تجول بعينيها فى وجوه الرقيق ، وطافت به نسمة من السرور لما تذكر أن عينى خديجة ثبتتا على وجهه ، إنه قرأ فى عينيها بعض ما تزخر به كنوز قلبها من رقة ورحمة ، وقد ألقى فى روعه أن تلك اللحظة حاسمة

فى حياته وتمنى بكل كيانه لو يقع عليه اختيارها .

وزخر صدره بأمنية أن يتعلق بعنقها كما كان يتعلق بعنق أمه ، بيد أنه كبح جماح نفسه وإن رفت على شفتيه بسمة عبرت عن مكنون صدره ، وأحست خديجة انجذابا إليه فاختارت وما اختارت إذ اختارت ولكن الله اختاره .

ورأى نفسه وهو ينطلق إلى جوارها فى طرقات مكة ، وهو يهبط بضع درجات ليصل إلى باب الدار ، وهو يسير فى ممر طويل عن يمينه عند مدخله حجر كبير ، وهو يصعد بضع درجات ليجد نفسه فى دار مؤثثة بفاخر الرياش ، و لم يعجب فقد عرف أنها دار أغنى امرأة فى قريش .

وخفق قلبه بين جنبيه كجناح حمامة وغمره سرور وانشراح وبهجة وهو فى مجلسه ، فقد رأى بعين خياله أول مقابلة كانت بينه وبين محمد بن عبد الله زوج خديجة التى اختارته .

إنه أول ما رآه أحبه من كل قلبه واستشعر كأن بردا وسلاما وأمنا نزل على فؤاده ، وحدثه حديثا رقيقا فأحس كأنما حنان الأرض ينسكب فى وجدانه ، وطافت به رغبة أن يستظل بظله لينعم برقة شمائله وحنانه الدافق وقلبه الكبير .

إنه ليذكر أحداث ذلك اليوم بكل تفاصيلها فهو يوم فاصل فى حياته ؛ إن محمدا التفت إلى زوجه خديجة واستوهبه منها فوهبته له عن طيب خاطر ، وقد لاح أن السعادة ترفرف على البيت الذى تنبض جوانبه بمحبة عارمة .

وهزه فرح فياض لما تذكر ذلك اليوم الذى أعتقه فيه محمد ، فهو لم يكتف بأن رد إليه حريته بل تبناه فصار أمام المجتمع المكى المتغطرس زيد بن محمد ، زيد ابن الأمين .

وشطح خيال زيد فرأى نفسه وهو يهرع إلى الحرم فى كل آن يطوف بالبيت العتيق الذى كانت زيارته تتخايل لأفئدة قبائل العرب كل العرب ، فهو البيت

الجامع الذى انصهرت فيه لغة العرب الشماليين ولغة العرب الجنوبيين ولغة العرب فى كل بقاع جزيرة العرب ، فمن اختلاط عرب غسان وعرب الحيرة وعرب نجران وعرب قريش تكونت اللغة التى سينزل بها القرآن .

جاءت لغة قريش الرقيقة العذبة من الشمال ، من البتراء عاصمة مملكة النبط أحفاد إسماعيل ، لما فر النبطيون ولاذوا بالحرم عندما قوض الرومان مملكتهم القوية التى كانت تنافس الفرس والروم ، والتى امتدت من العراق إلى شمال دلتا النيل ، وذهب سفراؤها إلى روما وإلى عاصمة الفرس . وفى أول بيت وضع للناس اجتمعت قبائل العرب وتفاهمت بلغة أهل الحرم ، فتسربت اللغة المكية إلى كل اللغات العربية الأخرى حتى صارت اللغة واحدة يفهمها كل العرب ، وكان لرحلة الشتاء والصيف التى سنتها قريش أثرها فى وحدة اللغة ووحدة الفخر بلسان مبين ، فحلت اللغة محل العرش والدولة : ربطت بين القبائل المتنافرة ويسرت وحدة أحكام حكام القبائل فى الدية والخلع والمغارم كلها ، وقامت الأسواق التى كانت تقام فى مكة وتهامة وأرض اليمن وبصرى بأرض الشام بدور رائع فى وحدة اللغة ، التى كانت خير تمهيد لمطلع النور الذى أشرق من الحرم .

ورأى زيد بعين خياله موسم الحج وقد ازدحم الحرم بأناس من غسان ومن الحيرة ومن نجران ومن كل فج عميق من بلاد العرب ، ولم تستطع عين الصبى أن تميز بين العرب المتهودين ولا العرب المتنصرين ولا من دان منهم بديانة المجوس ، فقد كانوا جميعا فى عينيه عربا يقدسون البيت غاية التقديس .

لم يحاول اليهود أن يكشفوا للعرب عن سخف الجاهلية ولم يعملوا على نشر الهداية وإن كان دينهم قد جمد على النصوص ونخر فيه سوس الفساد ، ولم يكونوا قدوة حسنة لمن اتبع دينهم أو لمن عاش فى جوارهم من العرب ، فهم

فى شقاق دائم تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، يمارسون الدس بين قبائل العرب ويضنون بدينهم على الأمم ، فحضن إبراهيم لهم وحدهم ، بل لقد اختلفوا فيما بينهم حول ذلك النعيم ، كل شيعة تدعى أن الرقاد الآمن فى حضن أبى الأنبياء من نصيبها وحدها ، فلم يكترثوا لأمر المتهودين من العرب إلا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم فى الطريق فلم يكن بين الجاهليين المتهودين والجاهليين الوثنيين فرق فى العادات والأخلاق والتقاليد .

ولم يستطع العرب المتنصرون أن يفهموا التثليث وفلسفة الأقانيم وأن الثلاثة أصبحوا واحدا ، وكادوا يضيعون بين الأريوسيين والنسطوريين واليعاقبة وما شاع من المذاهب فى كنائس روما والقسطنطينية والإسكندرية والرها ، لولا أنهم اعتنقوا النصرانية على مذهب الحنفاء الموحدين من العرب وكان اعتناقا مؤقتا ، فكل الذين دخلوا فى دين النصرانية من العرب الساكنين حول الحرم ما دخلوا فيه إلا انتظارا لذلك النبى الأمى العربى الذى بشرهم به رهبان الصوامع الذين كانوا منتشرين على طول طرق التجارة ، وما اختلف هؤلاء المتنصرون عن العرب الجاهليين الوثنيين فى الأخلاق والعادات والتقاليد .

وفتح باب الغرفة التى كان يتعبد فيها محمد فأفاق زيد من شروده فألفى محمدا يبتسم له فأحس كأن نورا يضىء جوانبه واستبشارا يشيع فى وجدانه وشيئا يجذبه إليه فيتقدم منه كالمسحور .

ومرر محمد يده على شعره فى حنان دافق ثم سارا معا إلى حيث كانت خديجة وابنها هند وبعض الإماء ، وزيد يعجب فى نفسه لأهل هذه الدار التى ليس فيها صنم من أصنام الآلهة ، وما دخل بيتا من بيوت سادات قريش إلا ووجد تماثيل لهبل أو اللات أو العزى أو مناة أو غيرها من الآلهة والقوم

يتمسحون بها التماسا للبركة !

ومدت المائدة وجلس محمد وخديجة وزيد وهند وبعض الإماء يتناولون الطعام فى جفان واحدة ، فاستشعر زيد غبطة ، فمحمد يطعمه من طعامه ويلبسه من لباسه ، وإنه لا يفعل ذلك لأنه تبناه بل إن هذه صفته مع كل من فى الدار من عبيد وإماء .

وطافت بذهن زيد فكرة أقرب إلى الإحساس ، إن أهل هذا البيت يختلفون عن كل من حولهم من العرب ، إنهم لا يعبدون الأصنام ولا يسجدون للأوثان ولا يقسمون باللات والعزى ولا ينطقون الفحش من القول ، إنهم واحة للأخلاق فى صحراء ماجنة كافرة ، وبدأت تتفتح لعين الصبى بعض حكمة وقوعه فى الأسر وبيعه بيع العبيد لهذه الأسرة الكريمة ، فربه قد أراد له أن يشب فى كنف رجل عظيم على خلق عظيم ليأخذ عنه أفضل ما تجود به البشرية .

وقام محمد وخديجة إلى غرفتهما ، وانسل زيد وهند إلى الخارج ليلعبا مع صبيان قريش عند الصفا ، وانبسطت أسارير خديجة ثم أفضت إلى زوجها بسرها . إنها حامل وإن هى إلا شهور حتى تضع ما فى بطنها ، وكانت تهتز طربا فلو أنها قد أنجبت من زوجيها السابقين ، إلا أنها تحس فى صميم وجودها أن إنجابها ذرية من محمد الأمين شيء آخر ، رائع يثلج الصدر ويشرق النفس بآمال عظيمة ، فمرور الأيام يؤكد لها أن سيكون لزوجها الكريم شأن أى شأن .

وعرف الفرح طريقه إلى قلبه ، فقد شب وحيدا يتيما لم يذق طعم حنان الأبوة ولا حلاوة الأخوة وإن ذاق طعم الاستبشار بالأنس بربه ومداومة النظر إلى وجهه . إنه بشر ينفعل بما ينفعل به الناس ، وهل هناك فرحة أعظم لرجل

من أن يكون له عقب ؟ كانت فرحته عظيمة بالنبأ السار السعيد ، فذلك الذى فى بطن خديجة الابن والأخ والحبيب .

وأطلق محمد لخياله العنان فراح يفكر فيما يفعله بابنه إذا وضعت خديجة ذكرا ، إنه سيبعث به فى اليوم الثانى من مولده إلى الصحراء ليشب فصيحا ولينمو حرا طليقا فى أحضان الطبيعة الأم الحنون ، وليسمو إلى الآفاق العليا كما سما وليتصل بينبوع السعادة وروح الوجود .

إنه سيبعث به إلى بنى سعد ليكون فى رعاية آبائه الحارث وحليمة والشيماء ، وتذكر محمد أيامه فى هوازن فإذا بجبالها الشاهقة تتمثل لعينيه ، وإذا به يرى نفسه وهو يداعب غنيمات حليمة فتترقرق الرقة فى محياه ويتدفق الحنان من كنوز فؤاده ، ورأى نفسه وهو يلعب مع نفيسة وأخيه عبد الله لعبة العظمة البيضاء ، وترادفت على خياله صورة غلمان بنى سعد فإذا بمشاعر لذيذة تملأ جوانحه ، فهو وفى للأسرة التى استرضع فيها ، وهو وفى للغلمان الذين شاركوه طفولته ، وهو وفى للأرض التى شب عليها ، ولا غرو فقد صيغ من الوفاء .

ومرت الأيام والشهور وهو عاكف على عبادته ، عاكف على رعاية الطاهرة وسيدة نساء قريش ، يغمر زيدا وهند وإماء الدار وعبيدها بعطفه ، ويقابل صديقه أبا بكر ، وينطلق إلى دار أبى طالب ليقابل طالبا وجعفر وعقيلا وأبناء عمه الأعزاء ، وكان أبو سفيان ابن عمه الحارث لا يفارقه فهو تربه وشبهه وأخوه فى الرضاعة ، وكثيرا ما كان يسمعه أشعاره فقد كان أبو سفيان شاعرا مجيدا من شعراء بنى هاشم ، تعمل له القبائل ألف حساب .

وكان يقابل أعمامه العباس وحمزة ويطوف ببيت عمه أبى لهب ، وكانت امرأة عمه أم جميل ترحب به ، وكثيرا ما كان يداعب ابنى عمه عتبة ومعتب

ابنى أبى لهب ، فقد كان محمد محبوبا من بنى هاشم يألف ويؤلف .

وقابل فى دار زوجه حكيم بن حزام والزبير بن العوام ـــ فقد كان الزبير ابن عمته صفية وابن أخى خديجة فى نفس الوقت ـــ وعدى بن نوفل وورقة بن نوفل وكل بنى أسد . وكان الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس زوج هالة بنت خويلد ، وكانا قد أنجبا مِقسَما (أبا العاص) فكانوا يزورون خديجة وما أكثر ما أعاروا محمدا سمعهم .

وجاءت أم أيمن من يثرب ، وكانت قد تزوجت فى مكة وانطلقت إلى هناك مع زوجها وبقيت معه إلى أن جاءت بابنها أيمن ، ولم تستطع الصبر على مكة وحنت إليها فحملت ابنها وعادت إلى دار خديجة ، وقد أقبلت فى وقت كانت الطاهرة فى حاجة إليها فهى على وشك أن تضع ، وإنه ليرضيها أن تكون أم أيمن حاضنة العزيز المنتظر .

ووضعت خديجة طفلة جميلة فضمها محمد إليه فى عطف وحب ، وشكر الله على ما آتاه وسماها : زينب .

وجاءت هالة بنت خويلد وفى يدها ابنها مِقسَم لتهنئ أختها بزينب فلما دخلت عليها تعانقتا ، وما استقرت فى مكانها حتى وضعت خديجة ابنتها بين يدى أختها ، فراحت هالة تتفرس فى وجه ابنة أختها مليا ثم مالت عليها وقبلتها فى حنان ، وأحست بابنها يرنو إلى ابنة خالته فى استطلاع فأمرته أن يجلس لتضعها فى حجره .

وجلس مقسم وقد أشرق وجهه بالفرح ، فوضعت أمه ابنة خالته فى حجره فجعل ينظر إليها وقد هزه الطرب ، فقالت خديجة :

ـــ أتتزوجها يا مقسم ؟

فهز الصبى رأسه موافقا ، وضحكت الأختان وما طاف بذهنهما أن زواج

(أبى العاص) وزينب بنت محمد كان مسطورا فى سجل القدر .

٢١

انقلب أبو سفيان إلى مكة مسرورا بعد أن زار فارس وفتحت له أبواب إيوان كسرى وقدم إلى ملك الملوك هدية ، وعاد يحمل الهدايا والنفائس التى ستسيل لعاب طمع القرشيين جميعا. فقد كانوا عبيد المال ، وكانت منزلة السادة عندهم تقاس بما فى خزائنهم من ذهب وفضة .

كان ينفس على حليفه الحارث بن كلدة الثقفى أنه رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار من أهل جند يسابور ، وجاد فى هذه الصناعة،وطب بأرض فارس،وعالج وشهد أهل فارس بعلمه واشتهر طبه بين العرب،فقد كان أبو سفيان يتطلع لزعامة العرب ويكره أن يرتفع اسم فوق اسمه،وقد كانت رحلته إلى إيوان كسرى مغامرة،فقد انطلق إليها دون استئذان من عاهلها الكبير،ولكنها كانت مغامرة واجبة لإعلاء شأنه فى قبائل الحلفاء والأعداء على السواء،وكانت مغامرة موفقة فسيعرض ما جاء به من هدايا على أشراف قومه ليعلن للملأ أنه صار صديقا لكسرى ، وأنه ذهب إلى أبعد أرض ذهب إليها أى من العرب فلا فضل لهاشمى ولا مخزومى ولا ثقفى .ولا لأحد من زعماء القرشيين عليه ، فقد تعلم القراءة والكتابة ورحل إلى أقصى الأرض ليرشف من أرق الحضارات وأحبها إلى قلوب قومه .

وخرجت قريش لاستقباله ، أبو طالب على رأس الهاشميين والحارث بن عامر على رأس بنى نوفل وعثمان بن طلحة على رأس بنى عبد الدار وعبد الله

بن جدعان على رأس بنى تيم ويزيد بن زمعة على رأس بنى أسد والوليد بن المغيرة على رأس بنى مخزوم والخطاب بن نفيل على رأس بنى عدى وعتبة بن ربيعة على رأس بنى شمس ، وغص المكان برجال بنى أمية وسادات دار الندوة فانتفخت أوداج أبى سفيان عجبا وتيها .

وتعانق الرجال والتصقت الصدور بالصدور وخفقت القلوب بمشاعر رقيقة أرسلت الدموع من المآق ، وماج الناس بعضهم فى بعض ، وعلت الوجوه فرحة واستبشار وانقلب يوم التلاقى إلى يوم عيد سعيد .

وسار أبو سفيان إلى ديار بنى أمية فداعبت الآمال صدور بعض الرجال والنسوة والعبيد والإماء ، راح كل منهم يمنى نفسه بهدية من السيد الذى قفل سالما من بلاد الفرس ، بلاد الحرير والطرف الثمينة ، ولكن زعيم بنى أمية لم يبسط يده بل جعلها مغلولة إلى عنقه ، فإذا بالآمال تتبخر ، وإذا بأحاديث الرجال والنساء تدور حول بخله وتتندر بنوادره .

واجتمع أصحابه عنده وقد أعاروه سمعهم ، فراح يصف فى زهو ما كان بينه وبين كسرى ويقص تفاصيل رحلته ، وغلبه طبعه فروى على أعين الناس مغامراته النسائية و لم يبد فى وجه أحد من الحاضرين دهشة أو استنكار فقد عرف عنه أنه عاهر وأنه لا يستر فسقه .

كان إذا ذهب إلى الشام يروى ما كان بينه وبين بنات بنى الأصفر ، صاحبات العيون الزرق والشعر الذهبى والجسد الأبيض البض ، وكان يقص فى إسهاب مغامراته مع بغايا يثرب ، وقد ذاعت أنباء ما كان بينه وبين سمية مولاة الحارث بن كلدة وإنكاره لابنه زياد منها ، وما كان بينه وبين صاحبات الرايات الحمر من مغامرات فى طول البلاد وعرضها ، ومن عجب أن بخله وعهره لم يحطا من قدره فى أعين الناس فما كان للقيم الروحية وزن فى ذلك

المجتمع الجاهلى الذى طغت عليه المادة والحيوانية وكان ميزانه الخزائن والكنوز ، فبريق الذهب يغسل كل الآثام والخطايا ويبرر كل الذنوب ويرفع صاحبه إلى الصدارة .

كانت التجارب العاطفية والذكريات الشهوانية تروى على الملأ فى صراحة لا تخدش الحياء ، وكان الشعراء يقولون ما يفعلون وما لا يفعلون فى جرأة ظالمة ، يتغزلون فى كرائم الأسر ويتشببون بالعذارى وبالزوجات وتنتشر أقوالهم فى القبائل ، دون أن يحفلوا بشعور الأهل والأزواج ، وكان النسوة راضيات فى قرارة نفوسهن بذلك الغزل فهو يرضى غرورهن وينشر محاسنهن على الملأ ، فالنساء يغرهن الثناء .

وذهب أبو سفيان إلى دار عتبة بن ربيعة وكانت الصداقة بينهما متينة ، فقد كان عتبة يتيما فى حجر حرب فتربى مع أبى سفيان فى دار واحدة ، وبينا كان أبو سفيان فى دار عتبة وقعت عيناه على هند بنت عتبة ، إنه كان يراها وهى طفلة ، ولكنه رآها فى تلك اللحظة آسرة جميلة تنم عيناها عن شخصية قوية طموح ، تفرض نفسها على كل من يراها .

وانصرف أبو سفيان إلى داره وصورة هند تملأ كيانه ، فهو يراها فى غدوه ورواحه ، فى إقباله وإدباره ، فى وحدته وفى أثناء جلوسه مع قومه ، فقد هام بها حبا ، وفكر فى أمره ، فرأى أن الأوان قد آن ليتزوج ، لينجب ابنا يرثه ويرث مجد بنى أمية .

ولم يكن أبو سفيان وحده من أحب هند وتعلق بها فؤاده ، فمسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس رآها وخفق بحبها قلبه . وكان مسافر أحد أزواد الركب ، وكان أزواد الركب من قريش ثلاثة : مسافر وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد وأبو أمية بن المغيرة المخزومى ، وقيل لهم أزواد الركب لأنهم

كانوا إذا سافروا لم يتزود معهم أحد ولا يدعون غريبا ولا مارا طريقا ولا محتاجا يجتاز بهم إلا أنزلوه والمنايا تكفلوا به حتى يظعن .

كان مسافر سيدا فى قريش وكان شاعرا ، وقد فخر على قريش لما ولى بنو هاشم السقاية والرفادة ، فإنما كان بنو عبد مناف أهل بيت واحد شرف بعضهم لبعض شرف ، وفضل بعضهم لبعض فضل ، قال :

ورثنـــــا المجد مـــــن آبـــــا
ئنـــــا فنما بنـــــا صعـــــدا
ألم نسق الحجيـــــج وننحـــــر الدّلاقـــــة الرفـــــدا[1]
ونلقـــــى عنْـــــد تَصْريـــــف المـ
ـنايـــــا شـــــددا رُفُـــــدا
فـــــإن نهلَك فلـــــم نُمْـــــلك
ومـــــن ذا خالـــــدا أبـــــدا
وزمـــــزم فى أرومتنـــــا
ونفقـــــأ عين مـــــن حسدا

كان مسافر يعارض عمارة بن الوليد ، وكان خلىّ البال قبل أن تستولى هند بنت عتبة على لبه ، فلما شغل بها قلبه رأى أن يذهب إلى عتبة بن ربيعة يطلبها منه ، وما دار بخلده أن أباها يرد طلبه فهو قرشى ماله ممدود ، قد أكثر الشعراء فى مدحه وضرب به المثل فقيل أقرى من زاد الركب .

إن عتبة زوّج ابنته عاتكة أبا أمية بن المغيرة ، وكان عنده ثلاث عواتك غيرها : عاتكة بنت عبد المطلب ، أم زهير وعبد الله ابنى عمة محمد بن عبد

---

(١) الدلاقة : الناقة السمينة . والرفد : التى يملأ لبنها الرفد وهو قدح يحلب فيه .

الله ، وعاتكة بنت جذل الطعان أم أم سلمة والمهاجر ، وعاتكة بنت قريش وقد قبل عتبة مصاهرته لشرفه وماله وكرمه وهو ليس أقل منه شرفا ومالا وكرما .

وذهب مسافر إلى حيث كان عتبة بن ربيعة وطلب منه ابنته فأمهله إلى أن يأخذ رأيها ، وما كاد مسافر ينصرف حتى أقبل أبو سفيان وطلب منه هند فالتمس منه أن ينتظر حتى يرى رأى هند فيه .

وانطلق إلى هند وكان هواه مع أبى سفيان ، بيد أنه راح يغرى نفسه أن يكون على الحياد وأن يترك لابنته حرية اختيار رجلها ، فما أن دخل عليها حتى قال لها إنه قدم ليشاورها فى أمر رجلين من قومها رغبا فى الزواج بها ، فقالت :

ـــ صفهما لى .

قال وهو يتصنع الهدوء والحياد :

ـــ أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله ؛ وأما الآخر فموسع عليه ، منظور إليه ، فى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب ، مِدْرهُ أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله (كناية عن اليقظة) .

وصمت عتبة بن ربيعة وهو يحسب أنه أنصف الرجلين لم يتحيز لأحدهما ، ولم يحس أن هواه كان مع الآخر ، إنه حرص على أن يعدل ولكنه لم يقدر ، وأرهف سمعه وجمع شتات نفسه ليسمع رأى ابنته ، فقالت هند :

ـــ يا أبت ، الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشِرت ، وخافها أهلها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن

أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه علىّ بعد .

فلزم عتبة الصمت و لم يقل لها إنه مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس ، زاد الركب من تدله بحبها وصارت أعز أمنيات حياته أن تمسى هند الزوجة والحبيبة والأهل .

وقالت هند :

ــ وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة فزوجنيه .

وقال عتبة فى انشراح :

ــ إنه أبو سفيان بن حرب .

وعرف مسافر أن هند بنت عتبة حبيبة الفؤاد قد فضلت عليه أبا سفيان ، فحزن وانسل ليختفى بعيدا يعيش مع طيفها ، ينظم الشعر الرقيق يناجى الحبيب ، حتى رق عظمه ومات شهيد الهوى وصريع هند بنت عتبة .

وتأهبت قريش لزواج زعيم بنى أمية المتطلع إلى سيادة قومه ، فأرسلت إلى داره الهدايا حتى إذا ما وافت ليلة الزفاف نحرت الذبائح ومدت الموائد وضربت الجوارى بالدفوف ورقصت الراقصات وغنت الجرادتان جاريتا عبد الله بن جدعان ، وحملت هند بنت عتبة إلى دار من اختارته زوجا ووقف أبوها عتبة وعمها شيبة وسادات عبد شمس يتلقون التهانى وأطيب التمنيات .

وكانت اليمن قد صارت فى حوزة الفرس بعد موت سيف بن ذى يزن تُولىِّ عليها حاكما من قبلها ، وكان ذلك الحاكم الفارسى يعرف مكانة الكعبة فى نفوس الحميريين فكان يبعث بالجزائر إلى الحرم تقربا إلى شعبه وزلفى .

وحدث أن أهدى ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة وأمر أن ينحرها أعز قرشى ، فقدمت وأبو سفيان عروس بهند بنت عتبة ، وبلغها ما قال ملك اليمن

فقالت لزوجها :

ـــ لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التى لعلها أن تفوتك .

فقال لها :

ـــ يا هذه ، دعى زوجك وما يختاره لنفسه ، والله ما نحرها غيرى إلا نحرته .

وظلت النحائر فى عقلها حتى خرج أبو سفيان فى اليوم السابع فنحرها ، فتهللت هند بنت عتبة بالفرح ، فقد كانت تحلم بسيد مطاع فى قومه ، فإذا بها تتزوج برجل ليس ككل الرجال أقر كل سادات قومه أنه أعز قريش و لم يجرؤ أن ينافسه فى ذلك الشرف منافس .

٢٢

اشتدت وطأة المرض على عبد الله بن جدعان فغصت داره بسادات بنى هاشم وبنى أمية وبنى مخزوم وبنى تيم وبنى عدى وبنى أسد وبنى نوفل وبنى عبد الدار وكل بيوتات قريش ، وكان أبو قحافة وأبو بكر يستقبلان الزوار ، وجاء صديقه ونديمه أمية بن أبى الصلت من الطائف وقد جاء معه بالحارث بن كندة طبيب العرب وابنه النضر ليفحصا عن الرجل الذى غمر الناس بجوده ، ولكن ماذا يستطيع الطب أن يفعل فى الشيخوخة والفناء ؟

وجلس عند الباب مولاه صهيب بن سنان وقد أطرق وراحت تنثال على رأسه الذكريات : رأى نفسه وهو فى قصر من القصور العظيمة يرفل فى الحرير ويغدو ويروح ومن حوله الخدم والحشم والإماء فقد كان ابن حاكم أيلة من قبل الشاهنشاه كسرى العظيم .

ورأى نفسه وهو يتنزه فى قارب فى نهر الفرات ، والمغنيات يترنمن بأعذب الألحان ، إنه وهو فى مجلسه عند باب مولاه عبد الله بن جدعان ليحس وقع تلك الألحان فى قلبه ، وليرى بعين خياله قصر أبيه المطل على النهر العظيم ، وأبراج الآلهة مرتفعة إلى السماء لكأنما تسهر على أمن العباد .

إنه يحس حنينا طاغيا إلى أمه وأبيه وإلى الأرض الطيبة التى نبت فيها ، حتى إنه ليستشعر كأن الدموع تبلل روحه وإن لم تطفر من مآقيه ، فقدْ فقَدَ حياته الناعمة السعيدة وطرد من النعيم ، سمع وهو فى قصر أبيه أن الحرب قد تجددت بين الفرس والروم وما كان يدرى ما الحرب وما قسوتها ، كل ما كان يدريه أن

يصغى إلى أنبائها كما يصغى إلى قصة مثيرة تقصها عليه أمه أو إحدى الجوارى اللائى يموج بهن قصر أبيه .

وكست وجه صهيب موجة من الأسى وهو فى مجلسه عند باب ابن جدعان ، فقد كان يرى بعقله ذلك اليوم الرهيب الذى ارتسم فيه الهلع على وجوه من فى القصر ، حتى أبوه العظيم كان يرتجف من الخوف وإن كان السيف فى يده وجنوده من حوله ، وأمه تولول وتصيح فى هلع :

ـــ الروم ! .. الروم !

والجوارى والإماء يصرخن فى فزع وهن يمجن بعضهن فى بعض ، يهرولن هنا وهناك دون هدف ، إنه أحس أن شيئا مفزعا قد وقع وأن ذلك الشىء قد أقبل من قبل الروم ، ولكنه لم يكن يدرى ما الروم وما ذلك الشىء الذى أنزل الرعب فى قلوب كل من فى القصر الكبير !

وتدفق الجنود الروم من كل الأبواب كالسيل الجارف على رءوسهم الخوذات وغطت صدورهم الدروع وفى أيديهم السيوف ، وقد حمل بعضهم رايات عليها النسر الرومانى ، وأمام عينيه دارت مبارزات وكر وفر وسقوط قتلى على الأرض وجرى وراء الجوارى والإماء وصراخ مفزوع ونهب لكل ما فى القصر ، ثم لم يعد يدرى شيئا فقد عطل ذهنه الذهول ، كل ما أحس به أنه حُمل وأُخذ خارج القصر .

وذهبوا به إلى أرض الروم واستقر هناك يلتقط بعض الكلمات ممن حوله ويرى معابد غير معابد قومه وصلوات غير صلواتهم فشب فى أرض غريبة يتعلم لغة غير العربية حتى أتقنها ، وما كاد ينسى مأساة حياته ويألف حياته الجديدة حتى قدم أناس من كلب فابتاعوه ممن كان عندهم .

وكان الكلبيون يعرفون إقبال القرشيين على الموالى الذين يحسنون اللغات ،

فهم أهل تجارة وقوافلهم تنطلق إلى بلاد الفرس وإلى بلاد الروم ، والتفاهم بين أهل تلك البلاد والقرشيين يتم غالبا عن طريق هؤلاء العبيد الذين يجيدون التكلم بلغات الأقوام الذين تنزل قوافل قريش بأرضهم ، فانطلقوا بصهيب إلى مكة ليبيعوه مع من أسروا من سبى وما اشتروا من أسواق النخاسة .

ورأى صهيب نفسه وهو يباع فى سوق مكة وعبد الله بن جدعان يشتريه ، إنه أحس فى تلك اللحظة حقارة الحياة وود لو يموت ويستريح ولكنه ذاق فى دار عبد الله بعض النعيم الذى ذاقه فى قصر أبيه فى أيلة .

وكان ألكن إذا تحدث بالعربية نطقها نطق الأعاجم ، فأطلقوا عليه الرومى ، وسعد فى دار ابن جدعان وبلغ قمة سعادته لما أعتقه عبد الله وجعله حليفه ، وظل فى دار الكرم يسقى الوفود التى لا تنقطع فى ليل أو نهار ، فقد كانت الخمر تجرى كالنهر فى بيت ابن جدعان وكانت ليالى السمر متصلة ، فأصبح صهيب الرومى ساقى القوم ورمز السرور .

إنه سمع من السمار أشعار أمية بن أبى الصلت وأبى طالب والزبير بن عبد المطلب وأبى سفيان بن الحارث والنابغة والخنساء وكل فحول الشعراء ، وسمع ما كان يروى عن أيام العرب وحروبهم وما قيل فيها من فخر وهجاء ، وسمع بعض الحكايات التى استوردها التجار من بلاد الفرس وبلاد الروم مع ما استوردوا من سلع ، فكانت تلك القصص تعيد إليه ذكريات أيلة وبلاد الروم ، فهى نفس الحكايات التى كان يسمعها من أمه قبل النوم والتى كثيرا ما سمعها فى أرض الروم .

وسمع أحاديث الدين فى مكة وطاف بالبيت مع الطائفين وقدم الذبائح والقرابين ، ولكنه لم يستشعر الطمأنينة فى قلبه ، فتباين ما رأى من أديان يحيره ، ولم يستطع أن يترك الغيبيات وراء ظهره فهو شغوف بالغيب

وبالدين .

وقدم أمية بن أبى الصلت على ابن جدعان وهو مسجى فى فراشه ، فلما دخل عليه قال له عبد الله :

— أمر ما أتى بك !

فقال أمية :

— كلاب غرماء تبحتنى ونهشتنى .

فقال ابن جدعان فى صوت خافت :

— قدمت علىّ وأنا عليل من حقوق لزمتنى ونهشتنى ، فأنظرنى قليلا ما فى يدى شىء ، وقد ضمنت قضاء دينك ولا أسأل عن مبلغه :

فأقام أمية أياما فأتاه فقال :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى
حياؤك إن شيمتك الحياء

وعلمك بالأمور وأنت قرم
لك الحسبُ المهذب والسناء

كريم لا يغيره صباح
عن الخُلُق السنى ولا مساء

تبارى الريح مكرُمة وجودا
إذا ما الكلب أجحره الشتاء

إذا أثنى عليك المرء يوما
كفاه من تعرضه الثناء

إذا خلفت عبد الله فاعلم
بأن القوم ليس لهم جزاء

فـــأرضُك كل مكرمـــة بناهـــا
بنـــــو تَيْـــــم وأنت لهم سماء

فأبــرَز فضلـــه حـــق عــليهم
كما بـــرزت لناظرهـــا السمـــاء

فهـــل تخفـــى السمـــاء على بصير
وهـــل بـــالشمس طالعـــة خفـــاء

وكانت الجرادتان عند ابن جدعان ، فقال لابن أبى الصلت :

ــ خذ أيتهما شئت .

فأخذ إحداهما وانصرف ، فمر بمجلس من مجالس قريش فلاموه على أخذها وكلموه فى ذلك ، فوقع الكلام من أمية موقعا وندم ورجع إليه ليردها عليه ، فلما أتاه بها قال له ابن جدعان :

ــ لعلك إنما رددتها لأن قريشا لاموك على أخذها وقالوا : لقد لقيته عليلا فلو رددتها عليه فإن الشيخ يحتاج إلى خدمتها ، كان ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كل حق ضمنه لك .

فقال أمية :

ــ والله ما أخطأت يا أبا زهير .

ــ فما الذى قلت فى ذلك ؟

فقال أمية :

عطـاؤك زيـن لامـرىء إن حبوتـه
ببـــذل وما كل العطـــاء يزيـــن

ولـيس بشين لامرىء بـذل وجهـه
إلـــيك كما بـــعض السؤال يشين

فهز الطرب الرجل المريض فقال لأمية :

خذ الأخرى .

فأخذهما جميعا وخرج ، فلما صار إلى القوم بهما أنشد :

ومـــالى لا أحييـــه وعنـــدى
مـــواهب يطّلِعْـــن مـــن النجـــاد

لأبـيض مـــن بنـــى تيم بـــن كـــعب
وهـــم كالمَشْرفيـــات الحداد

أخذ الرجل الذى كان يطمع فى الرسالة وينتظر وحى السماء أمتى الرجل المريض الذى يحتاج إلى خدمتهما ، ولم يكتف بذلك بل قال إنه يكفيه من مسألة ابن جدعان أن يثنى على الرجل الجواد ويسكت حتى يأتى عبد الله على حاجته ، ولم يوجه ذلك الثناء للإله الذى ينتظر أن يبعثه إلى عباده !

وراح عبد الله بن جدعان يجود بنفسه وصهيب الرومى يقوم بخدمته ، وأبو قحافة وأبو بكر وأهل البيت قد التفوا حول سريره ، ودخل أمية بن أبى الصلت عليه فقال :

ـــ كيف تجدك أبا زهير ؟

فقال ابن جدعان وهو يلفظ أنفاسه :

علم ابـن جدعـان بـن عمـــ ـــرو أنـه يومـا مدابـــر
ومسافـــر سفـــرا بعيـــ ـــدا لا يئـوب بـه المسافـــر
فقـــــدوره بفنـائـــه للضيـــف مترعـــة زواخـــر
تبـدو الـكسور[1] مـن انفـــرا ج الـــغلى فيها والكراكـــر
فكــــأنهن بما حميـــــ ـن وما شحـــن بها ضرائـــر

---

(١) الكسور : جمع كسر وهو نصف العظم بما عليه من اللحم .

بـــذَّ المعـــاشر كلهـــا بالـفضل قـد علـم المعـــاشر
وعـــــلا عُلــــوَّ الشمس حتــى مـا يفاخـــره مفاخـــر
دانت لـــه أبنـــاء فِهـــر مــن بنــى كــعب وعامـــر
أنت الجوادُ ابـــن الجـــوا د بكـم ينافـــر مـــن ينافـــر

وتذكر عبد الله بن جدعان ذلك اليوم الذى شرب فيه مع أمية فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب ، فقال له :

ـــ ما بال عينك ؟

فسكت ابن أبى الصلت ، فلما ألح عليه قال له :

ـــ أنت صاحبها أصبتها البارحة .

ـــ أوَبلغ منى الشراب الذى أبلغ معه من جليسى هذا ! لا جرم لأدينها لك ديتين ، فأعطاه عشرة آلاف درهم وقال :

ـــ الخمر على حرام أن أذوقها أبدا .

ورن فى أغواره صوته واهيا لكأنما يأتى من قرار سحيق :

شربت الخمـــر حتـــى قـــال قومـــى
ألست عـــن السَّفـــاه بمستفيـــق
وحتـــى مــــا أوسَّد فى مبـــيت
أنــام بـــه سوى التُّـــرْب السحيـــق
وحتـــى أغلق [١]الحانـــوتُ رهنـــى
وآنست الهوان مــــن الصديـــــق

ومات الرجل الكريم الذى تزاحم ذات يوم على جفنة له محمد بن عبد الله

---

(١) أغلق الرهن : أستحقه ، والحانوت الخمار ، والحانوت أيضا دكان الخمار .

وعمرو بن هشام (أبو جهل) ، فدفع محمد عمرا فسقط على الجفنة فشجت ركبته ، وحزنت قريش وأغلقت الأسواق ثلاثة أيام حدادا عليه .

وبقى صهيب فى دار ابن جدعان ينتظر قدَره ليكون « سابق الروم » ، وكان لابد أن يكون لبنى تيم سيد وزعيم بعد عبد الله بن جدعان ، ولم يكن فيها غير أبى قحافة وابنه أبى بكر ، وكان أبو قحافة أصلح من يكون سيدا بحكم سنه فما كانت قبيلته تفكر فى أن تنال زعامة قريش أو تنافس بنى هاشم وبنى أمية وبنى مخزوم على تسنم الزعامة ، بيد أن رجاحة عقل ابنه أبى بكر واستقامة ضميره وعفته وعزوفه عن الشهوات وتفتح ذهنه وغزارة معرفته بالأنساب قد هيأت أبا بكر لزعامة بنى تيم ، حتى إن قريشا رضيت به حكما للديات فما قضى به أقروه وما قضى به غيره عارضوه .

وكان أبو بكر صديق محمد وصاحبه يتشبه به ويأخذ عنه مكارم الأخلاق ، حتى إنه كان يفوح بأريج عطر ينبعث من نفس طيبة ؛ إنه بعض أريج صاحبه محمد بن عبد الله الذى ألبسه الله لباس التقوى وزينه بخلق عظيم ، وفتح له أبواب رحمته وأنزل على قلبه كنوزا روحانية من خزائن الملكوت .

٢٣

كانت الجهالة متفشية فى العرب لا علم ولا حكمة ولا فلسفة ، بل خرافات وأساطير وإيمان بكل ما تؤمن به القبيلة أو تعتقد فيه ، فالعربى مهما بلغت مكانته وإن ساح فى الأرض واتصل بالروم والفرس يلتجىء فى تعرف ماضيه ومستقبله إلى الكهانة والعرافة وزجر الطير والعيافة ، فلم يجلب له الدين العلم والحكمة ، فالدين مجموعة من الأدعية والأفعال لتسكين غضب الآلهة وجلب رضاها لتطيل الأعمار وتربى الأموال .

وكانت مكة خزانة علم العرب ، وعلى الرغم من ذلك ما كان فيها ممن يحسن الكتابة غير أبى سفيان بن حرب وعثمان بن عفان وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح ونفر قليل كانوا يحصون ما فى قوافل التجارة من سلع ، ويقدمون صكوكا لأصحاب البضاعة لإثبات حقهم ، ويحررون العقود والمواثيق عند الحرم .

كان العرب يمتازون بالبيان وطلاقة اللسان وبمعرفة الأنساب ومثالب القبيلة ومناقبها ، وكان الشعراء هم العلماء فى قبائلهم يشعرون ما لا يشعر غيرهم ، وكانوا يصفون الحياة وصفا سطحيا لا تأمل فلسفيا فيه ولا غور فى أعماق النفس البشرية . إنهم يتشببون بالمحبوب ويصفون جماله وحسنه ، وكان الجمال عندهم جمالا ماديا لا أثر فيه للروح ، أو يتشدقون بشجاعتهم ، أو يتغنون بفعال قبائلهم أو يعددون مناقب من يمدحونه ويبالغون فى كرمه ، أو يهجون قبيلة عدت على قبيلتهم ، أو يرثون راحلا ، أو يحرضون قبائلهم على

الأخذ بثأر من اغتيل منهم ، أغراض ضيقة لا تسمو بالروح إلى ملكوت السماء ، ولا تجعلها تغوص فى أعماق البشرية .

و لم يكن بين هؤلاء الجاهليين من اشتغل بالفلسفة غير النضر بن الحارث بن كلدة ابن خالة محمد بن عبد الله ، فقد سافر إلى البلاد واجتمع مع الأفاضل والعلماء واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، ففتن بعلمه الذى حصله من الكتب وكتابة الكتب وامتلأ غرورا ، وإن كان كل ما عرفه أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وسَفَنْديار .

لم يكن النضر يطلب الحق بل كان يطلب قشور المعارف ، فكان محجوبا عن العلم الصحيح والحكمة الحقة باعتقادات تقليدية جمدت فى نفسه ورسخت فى قلبه وصارت حجابا بينه وبين درك الحقائق ، فالحقيقة موجودة والقلب موجود بيد أن العلم لم يكن حاصلا ، لأن العلم هو وصول الحقيقة إلى القلب ، و لم يفتح النضر قلبه لتتجلى فيه حقيقة الحق فى الأمور كلها .

لم يعرف النضر نفسه فلم يعرف ربه ، فحال الله بينه وبين قلبه فمنعه من مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته ، وحُجب عن أنوار العلوم لأن فؤاده كان مستغرقا بغير الله فلم تدخله المعرفة بجلال الله ، وهى كمال العلم وجوهر الحكمة ونور اليقين .

وما كان فى الأرض أحد على علم غير محمد بن عبد الله ، فالله هو المتولى لقلبه والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، قد فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فى قلبه وانشرح صدره وانكشف له سر الملكوت .

وانقشع عن وجه قلبه كل حجاب بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية بعد أن استعد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله من الرحمة ،

فانكشف له الأمر وفاض على صدره النور ، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله ، فمن كان لله كان الله له .

سلم قلبه من غير الله واستعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه فانكشفت له الحقائق بكشف إلٰهى بعد أن ارتفع الحجاب بلطف من الله ، فلمع فى قلبه من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف ، إنه الإلهام والنفث فى الروح ، ولولا الجهل الذى ران على القلوب لنظر الناس إلى ملكوت السماء .

كان يعبد الله بكل وجوده ، فالعبادة تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه ، فكان يستشعر أنه يعرج إلى السماء فيجتهد فى العبادة ليترقى ، فقد ألهم أن درجات الترقى لا حدود لها إذ معلومات الله التى ينهل من ينبوعها ليس دونها منتهى فلا نهاية لها ،فسعد بالقرب من الله وبهذه السعادة كان قربه من ربه قربا بالمعنى والحقيقة والصفة .

عرف بالتأمل والتدين والتفكير أن أعدى عدو للمرء نفسه التى بين جنبيه ، فجاهد نفسه وقاوم شهواته ، فقد عرف أن الشهوة تقوده إلى الخبث والتبذير والتقتير والرياء والمجانة والعبث والجشع والملق والشماتة والحقد والحسد ، وكظم غيظه فقد اهتدى إلى أن مغبة الغضب التهور والصلف والاستشاطة والكبر والعجب والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم ، فما تقود طاعة الشهوة والغضب إلا إلى المكر والخداع والحيلة والدهاء والغش .

كان قلبه متعرضا لنفحات رحمة ربه فاستقر فيه العلم والحكمة ، واليقين والعفة ، والقناعة والهدوء ، والزهد والورع ، والتقوى والانبساط والحياء ،

والشجاعة والكرم ، والنجدة وضبط النفس ، والصبر والحلم ، والاحتمال والعفو ، والثبات والنبل ، والشهامة والوقار ، وكانت مرآه نفسه تزداد كل يوم جلاء وإشراقا ونورا وضياء ، حتى يتلألأ فى قلبه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر .

وخرج محمد من تعبده ، وما كاد يسير خطوات حتى وقعت عيناه على ابنته زينب فلذة الفؤاد وقد تفتحت تفتح الزهور ، فخفق قلبه حبا وانبسطت أساريره ورفعها بين يديه وقبلها فى حنان ، ثم انطلق بها إلى حيث كانت خديجة .

كانت زينب فى الثانية من عمرها حلوة لطيفة ، وكانت خديجة تنتظر مولودها الثانى وكانت سعيدة غاية السعادة عرفت السكينة بعد القلق ، وذاقت حلاوة الهيام فى دنيا الروح مع زوجها بعد طغيان شهوة المال والهوس فى طلب الثروة .

كانت كنوزها غنية ولكنها تعلمت أن أموالها وغناها لا تساوى شيئا إذا ما قورنت ببصيص من النور ينزل على قلبها فيزيد كنوزه غنى ، فقد تلقت من محمد الحبيب أن ما من عضو من الأعضاء ولا من حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله ، فغضت بصرها عن عيوب الناس ، وصمت أذنيها عن سماع البهتان ، وأمسكت لسانها عن الخوض فى أعراض الناس ، فأحست نفسها تزكو وتزداد طيبا ، وقلبها أجرد فيه سراج يزهر .

تعلمت أن قلب كل إنسان مستعد لحمل الأمانة ، وأن لا حجاب بين القلب والملكوت ، وأن صفاء القلب وصلاحه لا يكفيان لهداية السبيل بل لا بد أن يطلب المرء الحق لينال الفوز الأكبر ، فجاهدت لتعرف الله . لتكون تلك المعرفة جمالها فى الدنيا وكمالها وفخرها .

كان محمد يتلقى علمه من ربه بالإلهام والنفث فى الروع ، وكان كلما أشرق قلبه بالنور اجتهد ليورثه الله علم ما لم يعلم ، وكان يلقن زوجه أنوار ما يجود الله عليه من علوم وهو يرجو أن يجعل الله لها واعظا من قلبها ، فمن كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ .

وكان حب محمد لخديجة يدفعه إلى أن يجذبها معه إلى السماء ، وكانت تتهلل بالفرح كلما ارتادت معه عوالم ما فوق الطبيعة وما وراء المحسوسات وتنقلب مستبشرة بشرف ما حصلت عليه من معلومات ، وكانت تفعم بالسرور والأمل كلما ألقى فى روعها أن محمدا الحبيب على نور من ربه وأنه سالك فى الطريق .

كان بيت خديجة واحة من الإيمان فى صحراء الكفر والضلالة ، السراج المنير فى ظلمات بعضها فوق بعض ، يذكر فيه اسم الله فى الغدو والآصال ، وقد كان ذلك الذكر ينبعث من قلبين مؤمنين عرفا الحقيقة وأشرق فيهما نور الله ، وقد كان ذلك الذكر يفوق كل الذكر المنبعث من قلوب الحنفاء والصابئين وأهل الكتاب وكل من تحركت بالذكر شفتاه ، فلو وزن إيمانهما بإيمان أهل الأرض لرجحهم .

كانت تحاسب التجار فصارت تحاسب نفسها على جميع حركاتها وسكناتها ، وكانت محاسبة التجار عقب انتهاء كل رحلة ولكن محاسبة نفسها كانت آناء الليل وأطراف النهار ، وكانت تكتب حساب التجار فى قراطيس وجريدة الحساب فصارت تكتب حساب نفسها على صحيفة قلبها ، وقد سمت روحها حتى صارت تحاسب نفسها على الأنفاس التى تتردد بين جنبيها .

وعرفت أسرار الأعمال معرفة حقة ، وسبرت غور نفسها فعرفت آفات النفوس ومواضع الغرور فاتقت هوى النفس وزجرت القلب عن الفكر فيه

والهم به ، فكان بصرها نافذا عند ورود الشبهات ، وعقلها كاملا عند هجوم الشهوات ، ولا غرو فهى أول مريدة فى مدرسة محمد بن عبد الله من يهجم على قلبه العلم كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى .

وضم محمد زينب إلى صدره فانبسطت أساريره ، وفطنت خديجة إلى حبه الدافق للثمرة المباركة التى جمعت بينهما فخفق قلبها وتدفقت منه كنوز مشاعرها الرقيقة وزاد فى غبطتها أنها ستضع لزوجها العظيم مولودا ثانيا ، وشردت خديجة تفكر فيما فى بطنها وراح محمد يتفرس فى وجه زينب وقد أمتلأ قلبه نشوة واستبشارا .

كانت زينب تشبه خديجة ولكن ذلك لم يكن ما يشغل قلب أبيها فقد كان يفكر فى جفنيها وكيفيه انفتاحهما وانطباقهما ، وفى عينيها ولسانها وشفتيها ، وفى إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق ، واسترسل فى تأمله فراح يفكر كيف خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل والقلب ، فيمتلىء اندهاشا وإجلالا ، وإنه سيستمر فى تفكيره وتدبره والنظر فى خلق الله حتى يصل إلى عين اليقين .

كان يخلو بربه ويطيل النظر إلى وجهه ، وكان يمشى فى الأسواق يبيع ويشترى ويتوكل على ربه ، فلم ينقطع للعبادة ويهجر الدنيا بل أقبل عليها وأخذ نصيبه منها ؛ فكان يحب الخيل ويركب الفرس العرى ما عليه سرج فقد كان فارسا لا يشق له غبار ، وكان يتدرب على الرماية وما كان عمه الحمزة الذى كانت هوايته الصيد والقنص يفوقه فى التسديد إلى الهدف ، وكان يحب الطيب وعرف أنواعه من عمه أبى طالب فقد كان عطارا .

وكان يعمل لأن على المرء أن يسعى وأن يضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله ، لم يقعده غنى خديجة عن السعى ولم تحجبه عبادته عن الناس بل كان

يعود المرضى ويشهد الجنائز ويصل ذوى رحمه ولا يجفو على أحد . يقبل معذرة المعتذر إليه ، ويمزح ولا يقول إلا حقا ، ويرى اللعب المباح فلا ينكره ، ولا يجزى بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، منّ الله عليه بكمال الاستبصار فى ملكوت السماء وفى ملكوت الأرض .

ووضعت خديجة مولودها الثانى وجاء أنثى ففرح محمد بما آتاه الله وشكره بقلبه أن جاد عليه بذرية ، سمى ابنته الثانية رقية ، ثم راح يعبد ربه ويشتد على الصراط المستقيم .

٢٤

كان سلمان الفارسي عاكفا على العبادة فى الكنيسة يقرأ فى التوراة والإنجيل ويصغى إلى ما يترامى إلى المتعبدين فى الكنيسة من أنباء اضطهاد الإيرانيين للنصارى ، فكان يتحرق شوقا إلى الجهاد فى سبيل العقيدة التى اعتنقها .

إنه قرأ تاريخ ما كان بين النصارى وبين الملك قباذ ، وقرأ المناظرات التى دارت بين المجوس والرهبان ، وود لو كان بين المتناظرين ليفند مزاعم المجوس فقد كان مجوسيا وقد ترقى فى ديانة الإيرانيين حتى صار قاطن النار ، ثم كفر بذلك الدين الذى ينفر منه كل ذى عقل سليم .

وكانت المناظرات التى دارت بين ملوك إيران ورجال الدين المسيحى تشغل كثيرا من وقته ، فكان يقرأ كل ما يقع فى يده من أنبائها ، وعلى الرغم من أنه اعتنق المسيحية فلم يكن متعصبا لها تعصبا أعمى بل اتخذ لنفسه القاعدة التى اتخذها يزدجرد الثانى إن صدقا أو نفاقا : « أسأل وأختبر وأرقب ، فسوف نختار ما يظهر لنا أنه الأفضل » .

وراح يقرأ تاريخ النصرانية وأعمال الشهداء فى إيران ، فوجد أن النصرانية عندما انتشرت فى أرمينية كانت مصدر القلق فى إيران ، وكان المفهوم فى المدائن أن استعمار أرمينية يظل منتجا ما بقيت فيها الخلافات الدينية ، ولكن العظماء ورجال الدين الزرادشتيين رأوا ضرورة قمع هذه الفتنة فقابلوا الملك ودارت بينه وبينهم مداولات انتهت بتقديم أمر إلى الأشراف الأرمن باسم الملك : لقد أمرنا بسطر أصول ديننا الذى يعتمد على الحقيقة والذى يقوم على

أسس متينة وأرسلناها لكم ، وإنا راغبون فى أنكم وأنتم الأعزاء النافعون للبلاد تقبلون وتدخلون فى ملتنا المقدسة الحقة ، وتطرحون هذا الدين الذى نعرف جميعا بلا ريب أنه زائف عقيم ، وإذا فعليكم حين تعرفون مرسومنا أن تقبلوه مختارين راضين ولا توجهوا أنفسكم نحو نحل أخرى ، وعلاوة على هذا قد تنازلنا إلى أن نأمركم بأن تكتبوا إلينا دينكم المزعوم الذى كان حتى اليوم سبب ضلالكم ، وأنكم حين تعرفون كما عرفنا ديننا فلن يجرؤ سكان جورجيا والألبان على مخالفة إرادتنا » .

واجتمع الأساقفة النصارى وأعظم قساوسة أرمينيا لكى ينظروا فى القضية ، وبعد أن درسوا الرسالة التى توضح أركان الدين المزدى صاغوا ردا بالغا فى الشدة :

« الحق أننا كنا ونحن فى قصرك بحضرة المغان الذين يسمون مشرعين قد هزأنا بهم واحتقرناهم ، فإنا نكن لهم اليوم أكثر من هذا وذاك ، إن كنت تريد إجبارنا على قراءة كتبك والإصغاء إليها وهى كتب لا تعنينا ولا يمكن أن تكون موضوع تفكيرنا ، ثم نحن زيادة فى احترام إرادتك لم نكن نريد أن نفتح كتابك ونقرأ ذلك لأن دينك نعرفه باطلا ونعرف أنه أوهام رجال بلهاء وقد نقل تفاصيله إلينا مشرعو الزور ؟ دينا كهذا نعرفه أكثر مما نعرف لا يستحق أن يقرأ عنه أو يصغى إليه ، والحقيقة أننا حين قرأنا شريعتك اضطررنا إلى أن نهزأ بها ، وكذلك سخرنا من هذه الشرائع والمشرعين ومن يؤمنون بمثل هذه الأضاليل ، ومن أجل هذا رأينا عبثا غير لائق أن نكتب وفقا لأمركم قواعد ديننا ونرسلها إليكم ؛ لأننا لم نعتقد أن دينكم الباطل المضل جدير بأن يقرأ وأن يعرض علينا كى لا نؤذيكم بالسخرية به ، فكان عليكم لحكمتكم العالية أن تفكروا فى هذا حين كتبتموه وأرسلتموه إلينا ، فكيف نستطيع أن نعرض

على جهلكم ديننا الإلهى المقدس ، وأن نسلمه إلى سخرياتكم وشتائمكم ؟ وأما ما يمس عقيدتنا فاعلم علم اليقين أننا لن نعبد أبدا ما تعبدون ، لن نعبد العناصر والشمس والقمر والهواء والنار ، ولن نعبد هذه الآلهة كلها التى تسمونها فى الأرض والسماء ، ولكنا كما تعلمنا نعبد إلها واحدا حقا هو خالق السماء والأرض وما فيهما .. » .

وراح سلمان يقرأ الآراء المسيحية التى كان ينقم عليها الزرادشتيون.إنهم يقولون إن النصارى مخطئون إذ يؤكدون أن الخير والشر صادران من فاعل واحد ، وأن الله غيور ، وأنه من أجل تينة واحدة قطعت من شجرة خلق الموت وحكم على الناس بأن يتحملوه ، مثل هذه الغيرة لا توجد بين الناس أبدا لا بين الله وبينهم ، وخطيئة أخرى وقع فيها النصارى هى أن الله الذى خلق السموات والأرض ، جاء إلى الدنيا وولدته عذراء اسمها مريم .

وراح يقرأ الطعن فى العذراء وفى يوسف النجار وفى علماء الدين النصارى الذين يقولون إنه ليس إثما أن تأكل اللحم وهم أنفسهم لا يأكلونه ، وأن النساء حلال للرجال وهم أنفسهم لا يتزوجون ، ويقولون إن من يكنز المال يذنب ويمتدحون الفقر ويبالغون فى هذا وهم يحبون المصائب ويحتقرون التوفيق . إنهم يزدرون الثراء ويعتبرون المجد كالعدم . إنهم يحبون رث الثياب ويؤثرون العادى من الأشياء على ثمينها ، إنهم يمتدحون الموت ولا يحفلون بالحياة ، إنهم يعيبون ولادة الأطفال ويأسفون على العقم .

كان سلمان كلما قرأ ما كان من مجادلات بين الزرادشتيين والنصارى يحس حسرة ، فما كانت المناقشات موضوعية وما كانت تقرع الحجة بالحجة ، بل كانت أقرب إلى المهاترات منها إلى مجادلات تبغى وجه الحقيقة ، ولكنه على الرغم من ضيقه بذلك الأسلوب بذرت فى جوفه بذور الشك فى

نصاعة الدين الذى اعتنقه ، ففى كلام الزرادشتيين وطعنهم على دينه ظل من الحقيقة ، وهو يريد دينا نقيا من كل الشوائب ، دينا يطمئن له قلبه ويستريح له ضميره .

وعكف على قراءة الجدل الذى نشب بين النساطرة واليعاقبة فى مدرسة الرها حيث كان نصارى إيران يتلقون الدين المسيحى ، كان النساطرة يقولون : إن للمسيح طبيعتين متميزتين إحداهما إنسانية والثانية إلهية ، بينما كان القائلون بوحدة الطبيعة (المونوفيزيت) يقولون إن هاتين الطبيعتين قد وجدتا فى شخص المسيح .

وقرأ كيف أصبحت النسطورية المذهب الوحيد لنصارى إيران وكيف حرم على الرهبان منافسة القسس فى المراسيم الدينية ، وكيف حرم على رجال الدين أن ينذروا الرهبنة فإنها لم تبح إلا لمن آثر الحياة الدينية فى صومعة ، وفطن إلى أن ذلك القرار الأخير إن هو إلا تفاهم مع المزدين الذين كانوا يجزعون من الرهبنة ، فوطن العزم على أن يرحل إلى الموصل ، فما يقرأه يتعارض وما وصل إلى الكنائس من أن هرمزد الرابع شاهنشاه إيران قال : إنه كما لا قوام لسرير ملكنا ولا ثبات له مع استفسادنا من فى بلادنا من النصارى وأهل سائر الملل المخالفة لنا ، فأقصروا عن البغى على النصارى وواظبوا على أعمال البر ليرى ذلك النصارى وغيرهم من أهل الملل فيحمدوكم عليه ، وتتوق أنفسهم إلى ملتكم . كان سلمان يريد لب الحقيقة .

وشد سلمان الرحال إلى الموصل وهو قلق لا يستقر على قرار ، فلم يشرق قلبه بنور اليقين وإن أمضى فى تعبده سنين ، وكان الثوار قد أطاحوا بهرمزد ونصبوا ابنه كسرى الثانى ملكا عليهم ، وقد عمل الإمبراطور موريق إمبراطور الروم على مناصرة كسرى وأمده بالعون الحربى على أن ينزل له

كسرى عن مدينتى دارا وميافارقين ، وكان الروم قد استولوا عليهما فى الحرب التى كانت دائرة بين الفرس والروم .

ولم يكن الموابذة سعداء بعودة كسرى الثانى الملقب برويز (المظفر) إلى العرش ، فإنه قد تأثر أثناء إقامته فى الإمبراطورية الرومانية ومال إلى الإيمان بجميع أنواع الأوهام والخرافات المسيحية وقد دست فى رأسه آراء النصارى امرأة نصرانية اختصها بحبه هى شيرين .

وقتل فوكاس الإمبراطور موريق فاتخذ كسرى من ذلك ذريعة لبدء حرب جديدة مع بيزنطة ، فسار قواد الفرس إلى آسيا الصغرى ليستولوا على الرها وأنطاكية ودمشق ، وكانت ظاهرة عجيبة أن ملوك الأرض فى ذلك الوقت لم يموتوا على فراشهم بل قتلوا غيلة ليتم الفساد فى الأرض قبل أن يشرق نور الفجر الجديد .

وأدار الانتصار رأس كسرى برويز فسمى نفسه : « الرجل الخالد بين الآلهة ، والإله العظيم جدا بين الرجال ، صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس » .

وهمس الناس بأن كسرى قد اعتنق النصرانية بسبب زواجه الأميرة البيزنطية ماريا وأثر عشيقته المسيحية شيرين فيه ، والحق أنه أضاف إلى عقيدته من الخرافات المسيحية فوق ما كان يعتقد ، ويشهد بذلك العدد الغفير الذى يحيط به من الكهان والسحرة والمنجمين ، وكان لديه ثلاثمائة وستون منهم على عدد أيام السنة .

كان للنصارى حينما اعتلى كسرى الثانى العرش حرية الدين ، ولكن لم يكن لهم الحق فى التبشير بدينهم وإدخال الزرادشتيين فيه ، فإن من يخرج من دينه من هؤلاء كان عقوبته الإعدام .

ووصل سلمان إلى الموصل وانطلق إلى الكنيسة التماسا للحقيقة ومكث بها يرقب أحوال المصلين : كانوا رهبانا جوالين شحاذين ، كانوا نوعا من فقراء النصارى يتخفون وراء زهد ظاهرى ، وكانت أخلاقهم فاسدة يتدخلون بحكم عملهم الخارجى فى بيوت النار حيث يرتكبون كل ما يشتهون من منكر .

كان الحنانيون وكانوا عند الناس موحدين جبريين ، واليعاقبة الذين يؤمنون بوحدة طبيعة المسيح الذين استردوا نفوذهم ، يتهمون بكل قواهم الكنيسة النسطورية وقام النزاع من جديد بين النساطرة واليعاقبة ، وانتصر اليعاقبة لأنهم وجدوا فى جبريل كبير أطباء كسرى بطلهم المغوار ، فقد كان نسطوريا واعتنق مذهب اليعاقبة ، وزاد فى قوة اليعاقبة أن شيرين اعتنقت مذهبهم .

وكفّر اليعاقبة النسطوريين ، وكفر النسطوريون اليعاقبة ، ودار رأس سلمان وتبلبلت أفكاره فرأى أن يرحل من الموصل إلى نصيبين لعل النور أن يشرق فى قلبه .

ورحل سلمان إلى نصيبين وراء الحقيقة ، إنه غادر قصر أبيه وهجر دينه ووطنه طلبا للحقيقة الخالدة والخير الأسمى ، ولكنه بعد طول الترحال والاعتكاف فى كنائس الشام وكنائس الموصل لم يعرف باله الراحة ، ولم تركن سفينته إلى شاطىء الطمأنينة ، فلا يزال فى بحر زاخر متلاطم من الشكوك ، إنه يريدها حقيقة ناصعة ، حقيقة تبدد ظلام قلبه وتشرق فيه بالنور .

كانت نصيبين نقطة الالتقاء بين الإمبراطورية الإيرانية والإمبراطورية الرومانية ، فهى مركز من أهم مراكز الدين المسيحى وإن سقطت فى أيدى

الفرس ، فقد كانت فى أيدى الرومان طويلا ولا بد أن يكونوا تركوا فيها من العلم ما يشفى غليل الباحث عن الحقيقة ، فقد عقد فيها مجمع للأساقفة ولا بد أن ذلك المجمع قد أزال بعض الغموض الذى ران على قلب سلمان .

ونزل سلمان فى إحدى كنائس نصيبين حصن النسطورية الحصين وهو يرجو أن يجد من إيمان القساوسة ما يعيد الإيمان إلى قلبه ، ولكنه ما كاد يقرأ ما كتبه مطران نصيبين لكسرى أنوشروان حتى ود لو يطير من تلك المدينة التى حسبها واحة الإيمان فإذا بها معقل الشرك والشك والضياع ، فقد كتب البطريق آراءه الخاصة بالله وبالعالم بمداد المؤمن الواثق بدينه وربه : « فقد وجد من يعتقدون فى إله واحد ويدعى آخرون أنه ليس بواحد ويقول آخرون بأن له صفات متضادة وينفى آخرون عنه الصفات ، وبعض يقول إنه قادر على كل شىء وبعض آخر يقول إن قدرته لا تشمل كل شىء . بعض يقول إنه خلق الدنيا وكل ما فيها وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شىء . وهناك من يقول إن العالم محدث وآخرون يقولون إنه قديم .. » .

إن سلمان يريد الحقيقة وذلك القول الذى يكشف عن دين نصارى نصيبين لا يورث فى القلب إلا القلق والحيرة ، فهذه الآراء شائعة فى صلب الديانة الإيرانية لعلها تسربت إلى المسيحية مع تسرب الجيوش الإيرانية إلى المدينة ، إنه أراد أن يتحرر من عبودية حبه لأهله ، من عبودية حبه لأرضه، من عبودية خضوعه لتقاليد مجتمعه ، من عبودية دين آبائه وأجداده ، ليعلو على نفسه حتى يصل إلى غاية غاياته ، إلى انتصاره الروحى ، ولكنه لم يصل إلى شىء ، ذهبت أيامه ولياليه أدراج الرياح ، ولم يشأ أن يستسلم ليأسه ، بل رأى أن ينطلق بحثا عن ضالته ، عن نور النور ، عن كمال الكمال ، عن روح الروح ، عن عين الحقيقة ، وإنه لواثق من أنه سيصل ، فمن قصد وصل .

إن كانت النصرانية قد شابتها الشوائب فى الشام والموصل ونصيبين من اختلاطها بمعتقدات الوثنيين وأساطير الزرادشتيين ، فهو يحس أنها كما أنزلت فى كنائس الروم ، فمن أين يأتيها الباطل وهى بعيدة عن الوثنية والزرادشتية والقساوسة المتملقين للملوك .

وخرج سلمان إلى عمورية فى قلب بلاد الروم وهو يرجو قصد السبيل ، انطلق وراء سعادة روحية غالية تتقاصر أمامها كل سعادة ويهون فى سبيلها كل ألم وكل عذاب ، فما أحلى المشقة إذا كان الطريق ينتهى إلى حيث لا نهاية ؛ إلى ملكوت السماء .

ونزل سلمان بعمورية وألقى سمعه إلى رجال الدين فلم ينشرح صدره ، كانت المسيحية قد ماجت بأساطير الرومان وأساطير اليونان ، وحلت مريم العذراء محل الأم العظيمة فى الديانة الوثنية الرومانية القديمة ، بل حلت محل إيزيس الأم الحزينة التى انتقلت عبادتها من مصر إلى اليونان والرومان.

وكان اليأس يدب فى قلب سلمان فراح يشغله بالدنيا . فاكتسب حتى كانت له بقرات وغنيمة ، وذات يوم قال له رجل صالح من شيوخ الرهبان إنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب ، مُهاجره إلى أرض بين حرتين[١] بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

ونزل قول الراهب على قلبه نزول المطر على الأرض الميتة ، فاستشعر كأن حياة جديدة قد دبت فيه ، وأنه قد منح قلبا جديدا أشرق فيه النور وفاض.

---

(١) الحرة : كل أرض ذات حجارة سود .

بالأمل ، فإذا فى لحظة يحجب عن قلبه كل ما شغله عن الله ، قد قطعت عنه كل جوانب الدنيا لينجذب إلى السماء .

وتأهب ليشتد إلى الصراط المستقيم ، لينطلق إلى أرض ذلك النبى ليقتبس منه النور ليهديه إلى جوهر الحقيقة وينبوع السعادة الأبدية .

فمكث بعمورية يترقب ورود تجار من بلاد العرب ليحملوه إلى ذلك النبى الذى قد أظل زمانه ، ليؤمن به ويصدقه ويكون سابق الفرس » .

٢٥

كان أبناء إسماعيل عليه السلام أول من بدل دين أبيهم إبراهيم ، فإنه لما ضاقت بهم مكة وخرجوا ليتفسحوا فى الأرض ولينشروا دين الله أخذوا معهم حجارة من الحرم تبركا بها وتذكارا للبيت المعظم الذى تعلقت به أفئدتهم ، فكانوا كلما هزهم الشوق إليه أخرجوا تلك الحجارة ونظروا إليها فى تقديس ، ثم أعادوها إلى أماكن حفظها .

وعلى مر السنين صارت تلك الأحجار مقدسة ، ولما طالت الشقة بينهم وبين مكة وحنوا إلى الطواف وضعوا تلك الحجارة وطافوا بها طوافهم بالكعبة وجعلوا لها حرما ، فلما طال عليهم العهد حسبوا أنها إنما تعبد لذاتها وبنوا لها كعبة تشبها بكعبة أبيهم إبراهيم .

وتمكن أبناء نابت بن إسماعيل من تأسيس مملكة النبط واتخذوا البتراء عاصمة لهم ، وارتحلوا إلى الشام ومصر والعراق ، وإلى بلاد اليونان وما وراءها ، ورأوا جمال التماثيل فازدروا ما كانوا يعبدون من حجارة ، فجلبوا تمثال إيزيس من مصر لتصبح العزى ، وجلبوا من بلاد اليونان تمثال أبوللو إله الشعر ليصبح هبل ، وانتهى بهم الأمر بأن حفروا فى الجبال معبدا هائلا لإلههم ذى الشرى ورب البيت ليحج إليه عرب سيناء والعربية الشمالية .

وانتشرت فى بلاد العرب بدعة إقامة الكعبات ، فبنى فى مشارف الشام بيت الأقيصر ، وكان مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة يحجون إليه ويحلقون رءوسهم عنده ويلقون قبضة من الدقيق مع كل شعره ، وبنيت الكعبة

اليمانية وهى بيت ذى الخلصة فى أرض خثعم بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وكان بصنعاء بيت رئام يحجون إليه وينحرون عنده فطلب حبران ممن يقرأون التوراة من ملك اليمن أن يأمر بهدمه لأنه شيطان يفتن الناس ، فأذن لهما فهدماه ، وبنيت فى نجران كعبة كان العرب من كل القبائل إذا ما يمموا شطر اليمن يزورونها ، وقد قال الأعشى لناقته ذات يوم :

فكعبـــة نجران حتم عليـــ ـــك حتى تُناخى بأبـــوابها

نزور يزيـــد وعبـــد المسـ ـــيح وقيسا وهم خير أربابها.

وقام بالكوفة بيت سنداد وكان يقوم بزيارته كل من ذهب الحيرة من العرب .

وفى كل قبيلة من القبائل قام إله تعظمه بعض القبائل الأخرى أو تزدريه ، وكان أشهرها اللات فى ثقيف ، ومناة على شاطئ البحر الأحمر بالمشلل بقديد بين مكة والمدينة وكان يعظمه الأوس والخزرج وقريش وبعض القبائـل الأخرى ، وإن كنا لا ندرى حكمة وضعه كالحارس على البحر فلعله كان رمزا لإله البحر ، أو لعله وجد فى حطام سفينة من السفن الرومانية أو اليونانية التى كانت تمخر البحر الأحمر فوضع فى ذلك المكان واستعير له اسم الإله منوتن النبطى الذى كان إله المنايا . ومن الغريب أن العرب كانوا يكرهون البنات ويخشون عارهم ومع ذلك جعلوا آلهتهم إناثا وزعموا أنهن بنات الله يشفعن إليه .

وعلى الرغم من الكعبات التى انتشرت فى أرجاء بلاد العرب فقد اجتمع لبيت مكة ما لم يجتمع لبيت آخر ، فالقبائل كلها عرفت له مكانته فهو بيت أبيهم إبراهيم وأول بيت وضع للناس للعبادة فجلبوا إليه أصنامهم وتكدست فيه الآلهة المتنافرة ، إله تعبده قبيلة وتبغضه أخرى فلا يغض ذلك من مكانة

البيت ، فالبيت هو المقصود بالقداسة ولا قداسة لإله بعينه إلا بين المؤمنين به من أتباعه .

اختلفت شعائر الأصنام وبقيت شعائر البيت لا خلاف عليها بين القبائل ، وإن اعتورها بعض التعديل أو أدخلت على نداءات التلبية بالتوحيد نوع من الشرك لتتلاءم النداءات مع ما طرأ على عقيدة إبراهيم من تغيير .

وإذا آن أوان الحج كانت القبائل التى تدين بالمجوسية أو اليهودية أو النصرانية أو الوثنية تأتى من كل فج عميق ليؤدى العرب جميعا لا فرق بين معتقداتهم المناسك ، وكانوا يؤمنون أن للكون إلها أعظم من سائر الآلهة يتوجهون إليه بالدعاء والشكر .

وظلت مكة مفتوحة أمام كل القبائل ليست لها سيادة قاهرة على القوافل التى تمر بها ولا سلطان على جيرانها ، فما كان فى مكة دولة كدولة اليمن أو الحيرة أو الغساسنة تزعج الوافدين إليها بقوانينها بل كانت مثابة للناس وأمنا ، وكل ما كان بين القبائل ومكة تقديس البيت واحترام القبيلة التى تسهر عليه وتخدمه .

كان بيت إبراهيم ، هو الرابطة الروحية التى ربطت قبائل العرب على اختلاف مذاهبهم السياسية وعباداتهم ، وقد حدث لما فر النبط إلى مكة ودومة الجندل وتيماء والمناطق الشمالية من جزيرة العرب أيام غزاهم الرومان أن حملوا معهم لغتهم العربية التى إغتنت وترقت باحتكاكها بحضارات الفرس والفراعنة واليونان ونشروها فى مكة ، ومنها شعت تلك اللغة حتى صارت لغة العرب جميعا ، أقاليمها الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية[1] وتمت

---

(١) راجع الجزء الرابع « العدنانيون » وانظر التذييل .

وحدة اللغة تمهيدا لنزول القرآن بها .

وتعرض بيت مكة للغزو الحبشى ، ولو تمكن أبرهة من أن يدك الحرم لقطع الخيط الوحيد الذى يشد قبائل العرب بعضها إلى بعض ، ولكن الله أراد أن يصون بيته ليشع منه نور الهداية على العالمين ، فجعل كيد أصحاب الفيل فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل .

وبقيت مكة واحة الحرية فى صحراء العبودية التى كانت ترسف فيها الدول العربية فى الجزيرة العربية ، فاليمن كانت فى قبضة الحبشة ثم الفرس ، والحيرة تستمد سلطانها من الفرس ، وكسرى قد بعث من يبنى فى ثقيف حصنا ، والغساسنة تحت ظل النسر الرومانى ، وتميم وبعض القبائل تدين بالولاء لفارس ، بينا كانت قبائل أخرى تميل إلى الرومان .

وقد حاول عثمان بن الحويرث أن يدخل مكة فى حوزة الدولة الرومانية كما دخلت اليمن فى حوزة الفرس ، ولكن القرشيين الذين لم يخضعوا لسلطان أبدا ثاروا فى وجهه فعاد إلى القسطنطينية ليشكو إلى قيصر قومه الذين رفضوا إطاعة الإمبراطور العظيم ، وأبوا أن يولوه ملكا عليهم من قبله .

ونجح تجار قريش بالشام فى أن يجعلوا عمرو بن جفنة ملك الغساسنة من قبل قيصر يحاول أن يفسد عليه أمره ، فكتب إلى ترجمان قيصر يبدل فى كلام عثمان ليوقع بينه وبين الإمبراطور ، وقد نجح الترجمان فى ذلك ولكن عثمان اكتشف المؤامرة ورفع الأمر مرة ثانية إلى قيصر ، فكتب لعثمان بن الحويرث إلى عمرو بن جفنة أن يحبس له من أراد حبسه من تجار قريش .

وقدم على ابن جفنة فوجد بالشام أبا أحيحة سعيد بن العاص وابن أخته أبا ذؤيب من بنى عبد عامر بن لؤى ، فحبسهما .

وبلغ خبر حبس أبى أحيحة قريش فأجمع رهط من بنى عبد شمس أن يفتدوا

سعيد بن العاص بمال يجمعونه فقال لهم مسافر بن عمرو :

ــ لا تفتدوا رجلا فانيا واحدا بهذا المال وزوجوا به فتيانا من فتيانكم يولد لبعضهم مثله .

وبلغ ذلك سعيد بن العاص وهو فى سجنه فقال لأبى ذؤيب هشام :

قومى وقومك يا هشام قد اجمعوا
تركى وتركك آخر الأعصار[١]

وظل مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس يخذل عن سعيد بن العاص ، ولكن رجالا رأوا أن يخرجوا فى طلبه فلحق بهم وقال :

ــ لو قسمتم ما تنفقون فى صداق عدة من فتيان بنى أمية ، أوشكتم أن تروا فيهم مثل سعيد رجالا كثيرا .

فأمسك بعضهم عن الخروج ، وانطلق الآخرون ليفتدوه بعد أن جاء قوله :

يا راكبا إما عرضت فبلغن قومى بريدا
عثمان أو عفان أو أبلغ مغلغلة[٢] أسيدا
فلأمدحن الوافدين بمدحة تأتى سرودا
حسنا وأدبرها ، أصيرها فتحسبها برودا

وبلغ رجال بنى شمس الشام وقد مات أبو ذؤيب فى الحبس فعملوا على إطلاق سراح أبى أحيحة ، فلما قدم مكة جعل يحرض على بنى أسد ويغرى بهم بنى عامر وبنى أمية فى دم أبى ذؤيب ، فقال أبو العاص بن أمية :

---

(١) أبد الدهر .

(٢) مسرعة السير .

إنى أعــادى مــعشرا كانــوا لنــا حصنــا حصينــا
حلفــوا مــع الجوزاء ، إذ خلقــوا ووالدهــم أبونــا
أبلــغ إلــيك بنــى أميــة آيــة نصحــا مبينــا
إنــا خلقنــا مصلــحين ومــا خلقنــا مفسدينــا

فأمسكت بنو أمية عن بنى أسد ، ورهن أبو أحيحة ابنه أبان بن سعيد ببنى عامر ليحقن بذلك على بنى أسد دم أبى ذؤيب ؛ لأن دعوة بنى قصى يومئذ واحدة ، فما كانت هناك عداوة قائمة بين بنى هاشم وبنى أمية وغيرهم من أبناء قصى والدية عليهم جميعا ، فقال أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى :

ألا مــن مبلــغ عنــى سعيــدا رسولا والـرسول من التــلاقى
بماذا قبــلت تــرهنهم أبانــا بــلا حــق لــدى ولا حقــاق
فنحـن البــيض أشبهنــا قصيــا وأنتم شبــه أستــاء الزِّقــاق

وراح سعيد بن العاص ومسافر بن أبى عمرو من فضلت هند بنت عقبة عليه أبا سفيان بن حرب ، يتبادلان الهجو شعرا حتى انحطا إلى سباب يخدش الآذان .

فلما سمع بنو عامر قول أبى زمعة وقالوا :

ــ فاحلفوا لنا .

فقال لهم أبو زمعة :

يــاحسل[1] حسل عامــر لا تجهلى
إن تسألى أيماننــا لا نفعــل
أو تبــذلى أيمانكــم لا نفعــل

---

(١) هو حسل بن عامر بن لؤى .

وجعلت بنو عامر تجمع لبنى أسد ، فقال أبو زمعة :

سيكفينى الوليد أبا لبيد ... ويكفى بكره عوف بن دهر
وأكفى غير مكترث سهيلا ... ويكفى باطلى سهل بن عمرو
ألم تر أننا من ذى قذاف ... نسيل كأننا دَفّاع بحر
ونلبس للعدو جلود أسد ... إذا نلقاهُم وجلود نَمْر

بدأت العداوة بين بنى أسد وقريش عامة وبين سعيد بن العاص بالتراشق بالاتهامات وبإلقاء كل فريق بما يجود به شعراؤهم فى وجه الفريق الآخر ، وكان سعيد يحرض بنى عامر على الثأر لدم أبى ذؤيب الذى ذهب ضحية عثمان بن الحويرث بن أسد ، وانتهت مرحلة الكلام وراحت القبائل تتأهب للقتال . ترى ما الذى دار فى رأس خديجة بنت خويلد بن أسد ؟ وبماذا كانت تحدث زوجها الحبيب عن هذه الفتنة التى أطلت بخطمها تهدد وحدة قريش ؟ وإذا نشبت الحرب أيشترك فيها محمد بن عبد الله كما اشترك مع أعمامه فى حرب الفجار ؟

كان محمد يحب قومه من كل قلبه وما كان يحب أن تقع البغضاء فى قلوبهم ، فكان كلما خلا بربه لا يسأله صلاح أمره وحده ، بل كان يسأله صلاح أمر الناس جميعا .

ولم يرض عثمان بن الحويرث عن بنى أسد وإن كان قد جلب لهم المتاعب ، فقال :

ظلمت فلم يغضب عدى ونوفل
ولـيس على أبى هشام[١] معوّل

(١) حكيم بن حزام .

ولـيت حظـى مـن تـويت ونصره
نضى إذا أرمـى بـه لا يـعضل

ولما بلغ قول أبى زمعة سهيل بن عمرو قال :

— والله لا أرجل رأسى ولا يمسه غسل حتى نعطى حقنا هذا أو نكثر فيها الدماء .

فقال أبو زمعة :

أتـانى ذرأ قـول عـن سهيـل — يـؤرقنى ومـا بى مـن رقـاد
أسامـى الأكـرمين بجل قومـى — إذا انسل الضعيـف بـغير زاد
فإن يكـن العتـاب بغيْت منى — فعاتبنـى فمـا بك مـن بعـاد
أتوعـدنى وعبـد منـاف حـولى — ومخزوم ، ألهف ! بمن تعـادى
وقـد منعـوا الظواهـر غير شك — إلى جـنب البواطـن فالعـوادى
بكـل طوالـة وبكـل نهد — ضوامر قـد طويـن مـن الطراد
لنا بالخيف[١] قد علمـت معـد — وراق المجد يرفـع بالعمـاد

وأراد أبو سفيان أن يحقن الدماء فقال :

— والله لا يقضى فيه قضاء شهرا .

وشُم عمرو بن جفنة عثمان بن الحويرث فمـات فى الشام ، فقال ورقة بن نوفل :

ألا هـل أتى ابنتـى عثمان أن أبـاهما
حـانت منيتـه بجنب الفَـرْصَد

---

(١) منى .

ركب البريـد مخاطـرا عـن نـفسه
مَـيْتُ المضِنَّـة للبريـد المُـقصد
فلأبـكين عثمان حـق بكـائه
ولأنشدن عمـرا وإن لم يـنشد

حتى الشيخ الجليل الذى نظر فى الكتب وعرف اليهودية والنصرانية لم تغسل من صدره عصبية قومه ، فراح يتوعد عمرو بن جفنة ويتوعده بالثأر لعثمان بن الحويرث صديق صباه ومن كفر بالأصنام ، ومن تجرى فيه نفس الدماء التى تجرى فى عروقه : دماء بنى أسد .

وصان الله بيته من أبرهة وأصحاب الفيل . وصان مكة من أن تكون ذليلة تحت النسر الرومانى ، لأن الله يعد أم القرى لنبأ عظيم ، ومن البيت الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل سيشرق النور ليغمر العالمين .

٢٦

كانت السعادة تخفق فى جنبات البيت ، فزينب تناغى أختها أم كلثوم ، وخديجة تضم رقية إلى صدرها وقد انبسطت أساريرها وراح محمد يرنو إلى أسرته فى انشراح لا يفرق فى حبه بين بناته وهند بن أبى هالة وزيد بن شراحيل ، فقد وسعهم جميعا قلبه الكبير وفاض عليهم من كنوز حنانه ورقته .

كانت الأسرة تعيش حياة ناعمة ، ولولا الآمال الكبار التى كانت تشغل قلب الأبوين الكريمين لما عرف القلق طريقه إلى العش الهانىء ، فمحمد بن عبد الله يبغى وجه الله فراح ينفق عمره فى جهاد نفسه وحرمان ذاته من مباهج الأرض طمعا فى ملكوت السماء وغبطة سرمدية ونشوة روحية تتلاشى أمامها كل لذائذ الوجود ، بينما كانت خديجة ترقب زوجها فى فرح واستبشار فكل أحواله تؤكد لها أنه الموعود ، ولكنها كانت تتعجل ذلك اليوم الذى تشرق فيه من دارها شمس الحقيقة لتغمر مكة وما حولها وكل الكون ، وكان صبرها ينفد أحيانا فتهمس الأصوات فى أغوار نفسها : متى يا خديجة ، متى ؟

إنها كانت متلهفة على ذلك الحدث الكبير ، فالنبوءة التى سمعتها فى ذلك اليوم الذى اجتمعت فيه نساء قريش فى الحرم فى يوم العيد تتردد فى ضميرها ، ورؤياها التى رأتها تشاغل عقلها ، وحديث غلامها ميسرة حفر فى عقلها ، ونبوءات ابن عمها ورقة بن نوفل تضىء جوانب نفسها ، ولو أشاحت بوجهها عن نبوءة العيد ورؤياها وأحاديث غلامها وابن عمها الشيخ الجليل ،

فأفعال زوجها كلها تشير إليه بأنه المصطفى والمنتظر .

إن ثقتها ليست مستمدة من أحلامها ورؤاها وجيشان شعورها وإلحاحه على صورة واحدة وحسب ، بل إن مكارم أخلاق زوجها وانقطاعه لمناجاة ربه وأنسه به وهجران الخلق فى حبه وصبره مع الله وإشراق المعارف فى قلبه وانكشاف الحقائق له ، لا يمكن أن تكون إلا بإلهام إلهى وكشف ربانى .

إن لله فى أرضه آنية هى القلوب فأحبها إليه أرقها ، وإن قلب محمد لأرق القلوب على أهل بيته وعلى إخوانه ؛ وأصفاها وقلب محمد أصفى من الصفاء وأنقى من النقاء وأصلبها ؛ وليس على وجه الأرض من يملك قلبا أصلب من قلب زوجها فى الحق : إنه التقوى والورع ومكارم الأخلاق .

وكانت كلما طالت عشرتها معه ازدادت إعجابا به وثناء على الله الذى خلقه على خلق عظيم ، وكانت تعجب فى نفسها : إن لم يكن محمد بن عبد الله خير البشر فمن يكون ؟ إنه يرى أن الله حق وهدى ، وأن الإيمان به مطلوب لأنه حق وهدى ، وأن هذا الإيمان أعلى من كل إيمان وأقدس لأنه إيمان بالحق والهدى ، فهو بكل جوارحه ووجدانه وقلبه لله ، ومن كان لله كان الله له .

إنه معظم لله ، خائف أياه ، راج له ، شغل قلبه بالنظر إليه ، قد صفت له لذة المناجاة ؛ ولكنه صرف قلبه عن سائر الأمور إلى أمر الله ، هواه ووجهه وفؤاده إلى الله ، فهو حصنه وملاذه ومنتهاه ، فلا بد أن يكون ملحوظا ومرقوبا بعين الله ، فلا يستتر عن عين الله ساتر ولا يحجب عنه محب قد أحضر فى قلبه جميع أنواع لطفه لتتفتح له رحمته .

طهر باطنه لأنه موضع نظر ربه ، ونقى سره وسريرته وأقام قلبه مع الله ، وجاهد النفس لكيلا تتشعب به الهموم فى أودية الدنيا ، وهجر مباهجها فى

سبيل وجه الله ، وصبر ثم عمل الصالحات وتوكل على الله ، وما تيسرت طاعته إلا بإعانة ربه الذى يأخذ بيده ويلقى العلم والحكمة فى عين وجوده فيشرق لبه بأنوار المعارف واليقين .

انكشفت له أشياء بطريق الإلهام ووقعت فى قلبه من حيث لا يدرى ، قد جاهد فى الله فحق على الله أن يهديه سبله وأن يجعل له نورا يفرق به بين الحق والباطل ، وأن ييسره للنظر بنوره ، وأن يقذف فى قلبه علما من لدنه يتفتح فى سر القلب لصلاح الخلق .

كان باب قلبه متصلا بالملكوت ؛ إنه باب إلهام ونفث فى الروع ، وإنه لينفتح بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الدنيا ليتلقى منه وحى السماء ، فيتولى الله سياسته ويصبح جليسه ومحادثه وأنيسه وتضحى يد الله على فيه لا ينطق إلا بما هيأ الله له من الحق .

أصبح يحس روح الوجود فى روحه وعين الوجود فى عينه وأن الله يجرى منه مجرى الدم ، وقد جعل إرادته خيرة لأن الخير الحقيقى إنما يوجد حيث توجد الإرادة الخيرة ، وفهمه الضرورة الكامنة فى الطبيعة وأسرار ما فوق الطبيعة ، وأعانه على أن تندمج إرادته فى الإرادة الكلية ليجعل كلامه على لسانه .

ألهم قوانين الوجود فعمل على أن تطابق إرادته الباطنة تلك القوانين ، ونفث فى روعه أن الفضيلة علم والرذيلة جهل فكان يسأل الله فى مناجاته أن يلهمه العلم وألا يجعله من الجاهلين .

وكان مبعث سلوكه الرغبة فى الخير رغبة مباشرة ، فرق قلبه حتى إنه لم يوجه كلمة قاسية إلى ربيبه هند بن خديجة ، أو يكلف زيد بن شراحيل بعمل ، أو يقطب جبينه لعبد أو جارية ، وإن كلف أحدا ممن تحته بعمل كان

يعينه فيه ، وكان يقابل الناس حتى وهو فى لحظات ضيقه هاشا باشا ، وإن صافح أحدا يترك يده فى يده لا يسحبها منه حتى يتركها الآخر ، فأحبه كل من اتصل به وتعلقت به القلوب .

إنه لا يكف عن العزلة والنظر إلى وجه الله ، فهو يحس أن عطايا نورانية توهب له من جود الله وكرمه وأن ضياءها يزداد إشراقا كلما طال أنسه بربه ؛ فحريته وعلمه وحكمته قد منحت له من أصل وجوده وصميم ذاته : من الله المتعالى ، وأن ليس له من غاية سوى أن يفنى فى الحقيقة المتعالية : فى الخير الأسمى .

وعرف سر الحرية ، الحرية الراشدة التى تخضع للعقل وتسترشد بالنور الإلهى الذى يشرق فى الرأس فيبدد الأهواء والنزوات ، وعرف أنه بالحياة الروحية الصحيحة تسمو الحرية الكبرى لتصبح حرية متعالية ، حرية مستمدة من العلة الحرة لسائر الأشياء .

آمن بالغيب وآمن بالقضاء والقدر وخضوع الإنسان للإرادة الإلهية ، فهو لا يقدر على شيء إلا بالله ، وإذا اختار فالخيرة لله تجرى الأمور بمشيئته وإرادته ، وأن الإنسان ليس إلا عبدا لله ، فمن طلب الرشاد فليعمل على كمال العبودية ، فمن صدقت لله عبوديته خلصت عن رق الأغيار حريته .

إن الإرادة تستهدف الخير المطلق ، إن الله سوَّى الأنفس وألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ، وإن السير ينبغى أن يكون فى طريق السعادة القصوى ، فى طريق من ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، الباطن تقدسا لا عدما ، وسع كل شيء رحمة وعلما .

إن الله لا يكف عن أن يمدنا بالقوة والنور ، فمن رشد جعل قوته من قوة الله وجعل نور عقله ونور بصيرته ونور بصره من نور النور ، فينطلق مستبشرا

متهللا بالفرح فى طريق النور شاعرا بخصب وجوده وإمتلائه بالحكمة ، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

كانت المشاعر تموج فى نفس محمد وكانت الحقائق تتكشف فى قلبه ، فكان يحدث خديجة بما يجول فى رأسه من خواطر وما يجيش فى صدره من أفكار وما ألقى فى قلبه من نور ، فكانت خديجة تستبشر بما يقول وتنفعل به حتى تحس إشراق أنوار المعارف فى قلبها وتهيم معه فى رحاب الملكوت فتمتلىء بلذة روحية صافية وتستشعر سعادة من يدنو من السماء ونشوة من يستظل بظل الله .

وكانت إذا ما جلست إليه تذهل عن نفسها وبناتها وتجارتها وآمالها وكل ما طاف بها من رؤى وأحلام ، وتتجه بكل كيانها إلى الحقيقة المتعالية ترشف من رحيق الإيمان بردا وسلاما وطمأنينة وأمنا واستقرارا ، حتى إذا ما غاب عنها وبعدت عن مجال تأثيره هاجمتها أفكارها المتلهفة على تحقيق الحلم الذى عاش يراودها سنين ؛ حلم أن يكون زوجها الأمين نبى هذه الأمة .

كانت خواطرها تحرضها على أن تنطلق إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه ما رأت من حال زوجها فى خلوته وفى مناجاته لربه وفى أنسه به وتحدثه عن عجائب المكاشفات التى أشرق بها قلبه بنور ربه ولكنها كانت تغلق قلبها دون تلك الخواطر ، وتلزم نفسها بالصبر انتظارا لمشيئة الله .

وراحت الأيام تمر وخديجة تقاسى فى لحظات مصاحبتها لنفسها من قلق الترقب والانتظار وقد عجزت عن أن تصمد أمام إلحاح الفكرة المتلهفة عن إشراق النور من دارها ، ومداومة إلحاحها على وتيرة واحدة وتسلطها على كل كيانها واحتلال كل تفكيرها ، وكانت لا تنثنى ولا تريم وزوجها فى غار حراء يتحنث لربه ويقطع كل علائقه بالدنيا وشواغلها من أهل وأولاد وأصحاب

وتجارة وبيع فى سبيل وجه الله .

وألفت خديجة نفسها حبيسة مع تلك الفكرة الملحة التى تريد أن تسبق الزمن أو ترفع الأسجاف عن الغيب لترى تحقيق أمانيها وما بشرت به ، فلم تعد تحتمل مقاومة ذلك الإلحاح المتصل فرأت أن تفر منه إلى ابن عمها الشيخ الجليل ورقة ، لعلها تجد عنده سلوى تعيد إلى نفسها الطمأنينة التى هجرتها وتثبت دعائم الصبر فى القلب المتشوف المتطلع إلى غيب السماء .

ودخلت خديجة على الشيخ الجليل فألفته عاكفا على كتبه يجتهد فيها ويحاول أن يكشف ما فيها من أنوار لعله يهتدى بنورها إلى طريق السالكين إلى الله ، فالشيخ الذى أفنى عمره فى الرحلات وفى الكتب لا يزال يبحث عن السبيل وقصد السبيل فقد شغل بالكتب عن الله ومن شغل قلبه بغير الله لم يعرف كمال الكمال ، ولو هداه الله وتجلى عليه بالبركات لسعدت روحه بلذة الوصال ولغمرته لطائف الرحمة ولنهل العلم الثابت من خزائن الملكوت .

ومس صوت خديجة أذنيه فرفع الشيخ رأسه وأشرق وجهه بابتسامة رقيقة فأقبلت عليه تحييه فى احترام ، ثم جلست إليه تحدثه عن زوجها الذى أشرق العلم فى قلبه دون أن ينظر فى كتاب ، وتلقى الحكمة من فوق السموات بطول السهر مع الخبير العليم ، واستمرت تقص على ورقة أفعال زوجها وهى مستبشرة قد تدسست فى صدرها حماسة طاغية ، فأرهفت حواس الشيخ وألقى إليها سمعه وهو منفعل بالأحداث التى ترويها عن حال الأمين فى ليله ونهاره ، فى يقظته ومنامه ، وكانت كلها تفصح عن صحبته الدائمة لله ، فهو يعيش له وبه ويفر منه إليه ليس له قصد إلا وجهه الكريم .

أقبلت خديجة على الشيخ وهى ترجو أن تجد عنده ما ينزل السكينة على قلبها القلق ، فإذا بالشيخ ينفعل ويصبح أكثر منها لهفة على قدوم ذلك اليوم

الأغر الذى يظهر فيه النبى المنتظر الذى بشرت به الأنبياء ، فإذا به مثلها يستبطىء الأمر ويقول :

— حتى متى ؟

وبلغ تأثره منتهاه فقد كان يقول لابنة عمه حينما كانت تسأله عن أمر زوجها العزيز : « ما أراه إلا نبى هذه الأمة الذى بشر به موسى وعيسى » ، وإذا بالانتظار قد طال ، فراح ينشد :

لججتُ وكنتُ فى الذكرى لجوجا
لِهَمٍّ طالما بعث النشيجا

ووصف من خديجة بعد وصف
فقد طال انتظارى يا خديجا

ببطن المكتين على رجائى
حديثك أن أرى منه خروجا

بما خبرتنا من قول قَسٍّ
من الرهبان أكره أن يَعُوجا

بأن محمدا سيسود فينا
ويخصم من يكون له حَجيجا

ويظهر فى البلاد ضياء نور
يُقيم به البرية أن تَعوجا

فيلقى من يحاربه خسارا
ويلقى من يسالمه فلوجا[1]

فياليتى إذا ما كان ذاكم
شهدت فكنت أولهم ولوجا

---

(١) الظهور على الخصم والعدو .

وقامت خديجة وما شفى الشيخ لها غليلا فما كان ورقة بن نوفل يملك مفاتيح الغيب ، فلله غيب السموات والأرض والله أعلم حيث يجعل رسالته .

٢٧

خرج محمد من دار خديجة قاصدا بيت عمه أبي طالب فقد كان يزور ذلك البيت الذى شب فيه واستقر به قبل أن يتزوج خديجة ، ولم ينس يوما فضل أبي طالب عليه فكان يمر ليلقى عليه السلام فى دكانه أو ينطلق إلى داره ليأنس بأبناء عمه طالب وعقيل وجعفر .

كان أبو طالب قد بلغ الخامسة والستين قعدت به السن عن الخروج فى تجارته واكتفى بدكان العطارة وشراء أنواع الطيب من القوافل التى كانت تعود من رحلة الشتاء من اليمن محملة بأنواع البخور ، وقد ظل بيته مفتوحا للضيف وعابر السبيل فأتى كرمه وكثرة عياله على ماله فنزل به الفقر ولم يحط ذلك من قدره ، فظل سيد بنى هاشم الذى إذا أشار لبى الهاشميون إشارته .

أناخ الفقر على دار أبي طالب بينا كانت دار العباس تزدهى بالغنى العريض ، فالتجار يأتون إليه من القبائل ليبتاعوا منه بعض التجارة ، وأصحاب الحاجات يقترضون منه بالربا ، وكان يختلف إلى اليمن يشترى العطر ويبيعه أيام الموسم ، وكان أبو لهب يعيش فى بحبوحة من العيش فقد كسب من التجارة أموالا كثيرة ، ولكنه كان مغرما بالشراب ولعب الميسر وكان يأخذه الحماس فى القمار فيقامر بمبالغ هائلة ، وكانت مغامراته تذهل الحاضرين .

وشب حمزة فارسا قد تحلى بأخلاق الفرسان ، يكسب كثيرا فيخرج

للصيد والقنص ويعين الملهوف بماله ويشد أزر الضعيف بساعده وسيفه ورمحه ، فكان يكره الظلم الاجتماعى الذى يقع على الأبدان والنفوس .

وكان الغيداق رجلا كريما أشبه أبناء عبد المطلب بأبيه ، فهو جواد كريم ، ولولا أن قريشا أطلقت على عبد المطلب الفياض لأنه كان يطعم الناس والوحوش فى الصحراء وجوارح الطير على قمم الجبال ، لكان الغيداق أحق أهل مكة بذلك الوصف .

وكان الزبير بن عبد المطلب يخرج فى قوافل قومه ، فلما ولى الشباب آثر مسامرة الشعراء ، فصارت شهوته فى أن يسمع الغاوين أشعاره أو يلقى السمع إلى شعر الفحول ، وكان معجبا بشعر أبى سفيان ابن أخيه الحارث ، فكان إذا ما أنشد أبو سفيان فى عكاظ كان الزبير يحس راحة وطمأنينة ؛ فإذا ما ذهب أبو طالب فى الغابرين وإذا ما انقضت أيامه هو وشعراء جيله من بنى هاشم فسيجد الهاشميون فى أبى سفيان بن الحارث خير مدافع عن قبيلته ، فما دار بخلد الزبير أن دولة الشعر يمكن أن تدول .

وكان الزبير يحب محمدا كما كان يحبه كل أعمامه وأبنائهم وكل من اتصل به من قريش ، وكان يحب فيه صدقه وجوده ومكارم أخلاقه ، ولكنه لم يكن يتصور أن محمدا يستطيع أن يذود عن شرف بنى هاشم بلسانه ، فما كان هجاء وما كانت القبائل تعمل حسابا إلا للهجائين ، ولكن محمدا ما تعلم الشعر وما ينبغى له ، وإن كان الناس لا يهيمون فى الوديان إلا وراء الشعراء ليسمعوا منهم وينقلوا ما يجودون عليهم به إلى القبائل فينتشر فى العرب .

وكان الزبير يحسب أن محمدا بزواجه من سيدة نساء قريش سيركن إلى الدعة ويستسلم للرفاهية ، وأنه سيتجنب المخاطر بعد أن أنجب زينب ورقية وأم كلثوم فالأموال فتنة والأبناء مجبنة ، وليس فى الحياة ما يستحق المخاطرة بعد

أن تستقر الأحوال المادية ويرزق المرء بقرة عينه ، فإن كانت خديجة لم ترزقه البنين فالأيام كفيلة بأن تجود عليهما بما يشتهيان فتتم لهما السعادة ، وتمضى الحياة ناعمة هانئة .

وكان أبو طالب يؤمن فى قرارة نفسه بأن محمدا بركة ، فقد قاسى قومه من الجفاف فاستسقى به كما فعل جده عبد المطلب من قبل فنزلت الأمطار ، وقد نظم أبو طالب شعرا يمتدح فيه شمائل ابن عبد الله ، ولكنه كان يؤمن بما يؤمن به أخوه الزبير ، فما كان يرى فى محمد المنافح عن القبيلة وشرفها ، فهو عف اللسان قد قطع علائقه بنادى قومه وآثر العزلة والاعتكاف والبعد عن حلقات الشعراء والظرفاء ، لم يرتفع له صوت فى الأسواق ولم يبد منه ميل للعنف ولا التنابذ بالألقاب ولا الفخر بحسبه ونسبه وقبيلته ، ولم يدع أبدا للأخذ بثأر ، ولم يؤجج نار البغضاء فى الصدور ؛ إنه داعية سلام وما كان أبو طالب يستطيع أن يتصور أن دعاة السلام يستطيعون أن يذبوا عن قبائلهم أو أن يرفعوا من شأنها .

ولم يكن فى قريش كلها من يعرف حقيقة مجاهدة محمد بن عبد الله لنفسه وصبره على العزلة وأنسه بربه وإشراق أنوار المعارف فى قلبه وآمال خديجة الروحية العريضة إلا صديقه وصفيه أبو بكر وورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، فإن كان محمد يتحنث فى غار حراء فى شهر رمضان فكثير من الحنفاء والمتدينين فى مكة يتحنثون مثله فى الغار ، وإن كان لا يسجد لصنم فالحنفاء الذين كانوا على ملة إبراهيم لا يسجدون للأصنام ، فالناس يحكمون بالظواهر ولا يعلم سر القلوب إلا عالم الغيب والشهادة العزيز المتعال .

ودخل محمد على عمه فى الدار فألفى طالبا وعقيلا وجعفرا عنده ، فلما رأوه تهللت وجوههم بالبشر ورنا إليه أبو طالب رنوة طويلة نزلت بردا

وسلاما على قلبه ، وإذا بما كان ينطق به كلما رأى محمدا يهجس فى نفسه رنين حلو جذاب : « ما أشبهه بعبد الله » فقد كان أبو طالب شقيق عبد الله وكانت رؤية ابن أخيه تذكره بذبيح قريش العزيز وتفجر العواطف الرقيقة من الفؤاد .

وكان أبو طالب يؤثر عقيلا بحبه ، وكان محمد يعرف هذه الحقيقة فأحبه لحب عمه إياه ، وكان كلما رآه ناداه بكنيته وقد كنى عقيلا بأبى يزيد ، وأقبل على عمه وأبناء عمه بكل جسمه ونفسه وراح يجاذبهم أطراف حديث عذب ، وكان وقع كلماته كالندى فى النفوس .

ودخلت زوجة عمه فاطمة بنت أسد وهى حامل فى شهرها الأخير ، فقام إليها يرحب بها من كل قلبه ويغمرها بعواطفه الصادقة ، فهو لا ينسى يتمه الذى مسحته فاطمة بفيض حبها ورعايتها ؛ كانت خير عوض عن آمنة وعبد المطلب .

وخرجت فاطمة لتطوف بالبيت تأهبا لأن تضع ما فى بطنها قبل أن تنقطع عن الطواف طوال مدة الوضع والنفاس فالغياب عن النظر إلى الكعبة يتعب نفس كل قرشى وقرشية اعتاد أن يديم النظر إليها كلما خرج فى الصباح أو آب فى المساء .

وخرجت من الدار وجاريتها فى أثرها وسارت الهوينى فى طرقات مكة الضيقة المسقوفة لتحمى المارة من لسعات الشمس الحامية ، وأحست ألما فى أحشائها وبالجنين يتحرك فى بطنها فخطر لها أن تعود إلى البيت ولكنها طردت ذلك الخاطر ، واشتدت لتتم الطواف ثم تثوب على عجل .

ووقعت عيناها على أخشبى مكة : جبل قبيس وهو يشرف على الصفا وجبل قعيقعان وهو يشرف على مكة ووجهه إلى قبيس ، فخيل إليها أن الجبلين

بل ومكة كلها تتراقص ، فاستندت على جاريتها واستمرت فى سيرها نحو الحرم وهى تعض على شفتيها .

وبلغت الكعبة وهى تتحامل على نفسها وعلى جاريتها ، وراحت تطوف حول البيت وهى تحس أنها تنوء وأن الدنيا كلها قد كسيت بسواد كسواد أستار الكعبة ، وضربها المخاض فطلبت من جاريتها فى صوت خافت أن تقودها إلى جوف الكعبة .

ودخلت فاطمة بنت أسد وجاريتها إلى حيث كان هبل منتصبا ومن حوله أصنام القبائل وأوثانها ، وقد ازدحم الرجال والنساء على يمين الداخل ليلقوا فى خزانة الكعبة الحلى والطيب وما تجود به أنفسهم من متاع قربانا للآلهة ، فهرعت الجارية إلى كاهن هبل ومالت إلى أذنه وأسرت إليه بكلمات وهى منفعلة تتلفت فى خوف إلى حيث وقفت سيدتها تنوء من حركة ذلك الذى يريد أن يخرج من بطنها ، فأسرع الكاهن يخرج كل من كانوا فى جوف الحرم ووقف على باب الكعبة يمنع الناس من الدخول .

ووضعت الجارية قطعا من الآدم تحت سيدتها وغطتها بغطاء كانت تلتف به ، فما كان للكعبة سقف يحمى فاطمة من الشمس والهواء ، ومرت لحظات من القلق والألم ثم وضعت فاطمة غلاما جميلا تلقته الجارية بين يديها فرحة مستبشرة ، حتى إنها ذهلت به عن أن تلتفت إلى الأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة لتحمدها على سلامة سيدتها وتشكرها على ما أعطت .

وتردد صياح الطفل أول ما تردد فى جنبات بيت الله . ووقعت عيناه أول ما وقعت على سماء الله ، ولو درى الكاهن الواقف عند الباب خطورة ذلك المولود على آلهتة ومعتقداته لهشم رأسه اللين أو شد على خناقه بأصابعه حتى يفارق الحياة ، ولكنه لو هم لما قدر فقد كان فى رعاية رب البيت ، رب

العالمين .

وعادت فاطمة إلى الدار شاحبة اللون وإلى جوارها جاريتها وهى تحمل المولود على ذراعيها وتضمه على صدرها فى حرص ، فلما رأى أبو طالب وأبناؤه ومحمد دخول السيدة الكريمة هرعوا إليها وأسندوها فى رفق وساروا بها حتى وضعوها فى سريرها ، وارتفع عويل الطفل فجاءوا له بمرضعة حاولت أن تلقمه ثديها فأبى واستمر فى البكاء ، فجاءوا له بأخرى فأبى أن يأخذ ثديها وظل مستمرا فى عويله ، فرق له قلب محمد فتناوله وضمه إلى صدره فى حنان ، فإذا بالوليد يخشع ويكف عن البكاء .

والتفت أبو طالب إلى ابن أخيه وقال :

ـــ ماذا نسميه ؟

فقال محمد وهو ينظر إلى وجه الطفل القابع فى أحضانه كملاك :

ـــ عليا .

وألقى الله فى قلب محمد حب على بن أبى طالب ، فكان يذهب إلى دار عمه ليناغى الصبى ويداعبه فأحبه حبه زينب ورقية وأم كلثوم وهند بن خديجة وزيد بن شراحيل بل أشد ، ومرت الأيام وأصابت قريشا أزمة شديدة قاسى منها أبو طالب وكان ذا عيال كثير ، وفطن محمد إلى ضيق الشيخ فذهب إلى عمه العباس وكان من أيسر بنى هاشم وقال له :

ـــ يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه عياله ، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه .

فقال العباس :

ـــ نعم .

فانطلقا حتى لقيا أبا طالب فقالا له :

ــ إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

فقال لهما أبو طالب :

ــ إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما .

فأخذ محمد عليا فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه ، وكان مما أنعم الله به على على بن أبى طالب أنه كان فى حجر محمد بن عبد الله .

٢٨

كان عدى بن زيد قد احتال حتى جعل كسرى أنوشروان يولى النعمان بن المنذر أمر الحيرة ، وقد حقد عليه لذلك عدى بن مرينا فقد كان يرى أن صاحبه الأسود بن المنذر أحق بالولاية من أخيه ، ولم ينس ابن مرينا ما فعل ابن زيد فراح يتربص به الدوائر وينتظر فرصة سانحة ليثأر منه .

وتزوج عدى بن زيد هند ابنة النعمان ، وعلا شأن النعمان وأصبح قبلة قبائل العرب يفدون إليه يلتمسون ما عنده وقد توطدت صداقات بينه وبين سادات العرب وشعرائهم ، وكان ابن مرينا كثير المال والضيعة ، فلم يكن فى الدهر يوم يأتى إلا على باب النعمان هدية من ابن مرينا ، فصار من أكرم الناس عليه حتى كان لا يقضى فى ملكه شيئا إلا بأمر ابن مرينا ، وكان إذا ذكر عدى بن زيد عند النعمان أحسن الثناء عليه وأتبع ذلك بأن يقول : إن عدى بن زيد فيه مكر وخديعة والمعدّى لا يصلح إلا هكذا .

فلما رأى من يطيف بالنعمان منزلة ابن مرينا عنده لزموه وتابعوه فجعل يقول لمن يثق به من أصحابه : إذا رأيتمونى أذكر عديا عند الملك بخير فقولوا : إنه لكذلك ، ولكنه لا يَسلم عليه أحد ، إنه ليقول إن النعمان عامله وأنه هو ولاه ما ولاه ، فلم يزالوا بذلك حتى أضغنوه عليه .

وصنع عدى بن زيد ذات يوم طعاما للنعمان وسأله أن يركب إليه ويتغدى عنده هو وأصحابه ، فركب النعمان إليه فاعترضه عدى بن مرينا فاحتبسه حتى تغدى عنده هو وأصحابه وشربوا حتى ثملوا ، ثم ركب إلى عدى ولا فضل

فيه فأحفظه ذلك ورأى فى وجه عدى الكراهة ، فقام فركب ورجع إلى منزله .

وأطرق عدى بن زيد يتذكر أول يوم قدم فيه على النعمان قبل أن ينطلق به إلى قصر كسرى . صادفه لا مال عنده ولا أثاث ولا ما يصلح للملك ، وكان آدم إخوته منظرا وكلهم أكثر مالا منه . وراح الحوار الذى دار بينه وبين النعمان يرن فى أغواره :

ـــ كيف أصنع بك ولا مال عندك !

ـــ ما أعرف لك حيلة إلا ما تعرفه أنت .

ـــ قم بنا نمض إلى ابن قردس .

ورأى بعين خياله وهما ينطلقان إلى الرجل حتى أتياه ليقترضا منه مالا ، فأبى أن يقرضهما وقال :

ـــ ما عندى شىء .

فأتيا جابر بن شمعون الأسقف أحد بنى الأوس بن قلام فاستقرضا منه مالا ، فأنزلهما عنده ثلاثة أيام يذبح لهما ويسقيهما الخمر ، فلما كان اليوم الرابع قال لهما :

ـــ ماذا تريدان ؟

فقال له عدى :

ـــ تقرضنا أربعين ألف درهم يستعين بها النعمان على أمره عند كسرى .

فقال لهما :

ـــ لكما عندى ثمانون ألفا .

فقال النعمان لجابر :

ـــ لا جرم لا جرى لى درهم إلا على يديك إن أنا ملكت .

وقد وفى النعمان لجابر فهو صاحب القصر الأبيض فى الحيرة ، فما باله يفضل ابن مرينا عليه ؟ وغضب عدى بن زيد وانفعل ، فقال مخاطبا النعمان :

أحسِبْتَ مجلسنا وحسـ ـن حديثنا يودى بمالك
فالمال والأهلون مصـ ـرعة لأمرك أو نكالك
ما تأمُرَنْ فينا فأمـ ـرك فى يمينك أو شمالك

ورأى ابن مرينا أن الجفاء قد وقع بين النعمان وعدى بن زيد فرأى أن يجهز على عدوه ، فكتب كتابا على لسان ابن زيد إلى قهرمان له (أمين الملك) ثم دسه إليه واحتال حتى أخذ الكتاب منه وأتى به النعمان فقرأه فاشتد غضبه ، فأرسل إلى عدى بن زيد :

ـ عزمت عليك إلا زرتنى فإنى قد اشتقت إلى رؤيتك .

كان عدى بن زيد يومئذ عند كسرى فاستأذن كسرى فأذن له ، فلما أتاه لم ينظر إليه حتى حبسه فى محبس لا يدخل عليه فيه أحد ، فجعل عدى يقول الشعر وهو فى الحبس :

ليت شعرى عن الهمام ويأتيـ
ـك بِخُبْر لأنباء عطف السؤال
أين عنا إخطارنا المال والأنفـ
ـسَ إذا ناهدوا اليوم المحال(١)
ونضالى فى جنبك الناس يرمو
ن وأرمى وكلنا غير آلى(٢)

---

(١) الكيد والمكر .

(٢) غير مقصر .

فـأصيب الـذى تريـد بلاغـىّ
وأرى عـــليهمُ وأوالى
لـيت أنى أخـذت حتفـى بكفـى
ولم ألـق ميتـة الأقتـال(١)
محلـوا محلهـم لصرعتنـا العـا
م فقـد أوقعـوا الرّحـا بالثقـال

وراح عدى بن زيد يرسل إلى النعمان قصائده فلا تغنى عنده شيئا ، فلما طال سجنه كتب إلى أخيه أبىّ وهو مع كسرى بهذا الشعر :

أبلـغ أبيًّـا على نأيـه ... وهـل ينفـع المرء ما قـد علـم
بـأن أخـاك شقيـق الفـؤا ... د كـنت بـه واثقـا مـا سلـم
لـدى ملك موثـق فى الحديـد ... إمـا بحق وإمـا ظلـم
فلا أعرفنك كـذات الغـلام(٢) ... مـا لم يجد عارمـا (٣) تعتـرم
فـأرضك أرضك إن تأتنـا ... تنـم نومـة لـيس فيها حلـم

فلما قرأ أبىّ كتاب عدى قام إلى كسرى فكلمه فى أمره وعرفه خبره ، فكتب إلى النعمان يأمره بإطلاقه وبعث معه رجلا .

وعرف أعداء عدى أن كسرى قد كتب إلى النعمان فى أمره فجاءوا إلى النعمان وقالوا له :

ــ اقتله الساعة .

---

(١) الأعداء .
(٢) الأم المرضع .
(٣) راضعا .

فأبى عليهم . وجاء الرسول وقد كان أخو عدى تقدم إليه ورشاه وأمره أن يبدأ بعدى فيدخل إليه وهو محبوس ، فقال له : « ادخل عليه وانظر ما يأمرك به فامتثله ، فدخل الرسول على عدى فقال له :

— إنى قد جئتك برسالة ، فما عندك ؟

— عندى الذى تحب .

فوعده بعدة سنية وقال له :

— لا تخرجن من عندى وأعطنى الكتاب حتى أرسله إليه ، فإنك والله إن خرجت من عندى لأقتلن .

— لا أستطيع إلا أن آتى الملك بالكتاب فأوصله إليه .

فانطلق بعض من كان هناك من أعدائه فاخبر النعمان أن رسول كسرى دخل على عدى وهو ذاهب به ، وإن فعل والله لم يستبق منا أحداً أنت ولا غيرك ، فبعث إليه النعمان أعداءه فغمّوه حتى مات ثم دفنوه .

ودخل الرسول إلى النعمان فأوصل الكتاب إليه ، فقال :

— نعم وكرامة .

وأمر له بأربعة آلاف مثقال ذهبا وجارية حسناء وقال له :

— إذا أصبحت فادخل أنت بنفسك فأخرجه .

فلما أصبح ركب فدخل السجن فأعلمه الحرس أنه مات منذ أيام ، و لم نجترىء على إخبار الملك خوفا منه وقد عرفنا كراهته لموته .

فرجع إلى النعمان وقال له :

— إنى كنت أمس دخلت على عدى وهو حى ، وجئت اليوم فجحدنى السجان وبهتنى وذكر أنه قد مات منذ أيام .

فقال له النعمان :

ـــ أيبعث بك الملك إلى وتدخل إليه قبلى ! كذبت ولكنك أردت الرشوة والخبث .

فتهدده ثم زاده جائزة وأكرمه وتوثق منه ألا يخبر كسرى إلا أنه قد مات قبل أن يقدم عليه . فرجع الرسول إلى كسرى وقال :

ـــ إنى وجدت عديا قد مات قبل أن أدخل عليه .

وندم النعمان على قتل عدى وعرف أنه احتيل عليه فى أمره ، واجترأ أعداؤه عليه وهابهم هيبة شديدة ، ثم إنه خرج إلى صيده ذات يوم فلقى ابنا لعدى يقال له زيد ، فلما رآه عرف شبهه فقال له :

ـــ من انت ؟

فقال :

ـــ أنا زيد بن عدى بن زيد .

فكلمه فإذا غلام ظريف ففرح به فرحا شديدا وقربه وأعطاه ووصله واعتذر إليه من أمر أبيه ، وأعد له معدات السفر ثم كتب إلى كسرى :

ـــ إن عديا كان ممن أعين به الملكُ فى نصحه ولبه فأصابه ما لا بد منه وانقطعت مدته وانقضى أجله ، ولم يصب به أحد أشد من مصيبتى . وأما الملك فلم يكن ليفقد رجلا إلا جعل الله له منه خلفا لما عظم الله من ملكه وشأنه ، وقد بلغ ابن له ليس بدونه رأيته يصلح لخدمة الملك فسرحته إليه ، فإن رأى الملك أن يجعله مكان أبيه فليفعل وليصرف عمَّه عن ذلك إلى مكان آخر .

وصار زيد بن عدى يلى المكاتبة عن الملك إلى ملوك العرب فى أمورها وفى خواص أمور الملك ، وكانت له من العرب وظيفة موظَّفة فى كل سنة : مهران أشقران يجعلان له هلاما (مرق لحم يطبخ بخل) والكمأة الرطبة فى حينها

واليابسة والأقِط والأدم وسائر تجارات العرب .

فلما وقع زيد بن عدى عند الملك هذا الموقع سأله كسرى عن النعمان فأحسن الثناء عليه ، ومكث على ذلك سنوات على الأمر الذى كان أبوه عليه ، وأعجب به كسرى فكان يكثر الدخول عليه والخدمة له .

وكانت لملوك العجم صفة من النساء مكتوبة عندهم فكانوا يبعثون فى تلك الأرضين بتلك الصفة ، فإذا وجدت حملت إلى الملك غير أنهم لم يكونوا يطلبونها فى أرض العرب ولا يظنونها عندهم ، ثم إنه بدا للملك فى طلب تلك الصفة وأمر فكتب بها إلى النواحى ، ودخل إليه زيد بن عدى وهو فى ذلك القول فخاطبه فيما دخل إليه فيه ، ثم قال :

— إنى رأيت الملك قد كتب فى نسوة يُطلَبن له وقرأت الصفة وقد كنت بآل المنذر عارفا ، وعند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة .

— فاكتب فيهم .

فقال زيد بن عدى فى دهاء :

— أيها الملك أن شر شيء فى العرب وفى النعمان خاصة أنهم يتكرمون — زعموا فى أنفسهم — عن العجم ، فأنا أكره أن يغيبهن عمن تبعث إليه أو يعرض عليه غيرهن ، وإن قدمت أنا عليه لم يقدر على ذلك ، فابعثنى وابعث معى رجلا من ثقاتك يفهم العربية حتى أبلغ ما تحبه .

فبعث معه رجلا جلدا فهما فخرج به زيد ، فجعل يكرم الرجل ويلطفه حتى بلغ الحيرة ، فلما دخل على النعمان أعظم الملك وقال :

— إنه قد احتاج إلى نساء لنفسه وولده وأهل بيته وأراد كرامتك بصهره فبعث إليك .

فقال النعمان :

ـــ ما هؤلاء النسوة ؟

قال زيد :

ـــ هذه صفتهن قد جئنا بها .

وكانت الصفة أن المنذر الأكبر أهدى أنوشروان جارية كان أصابها إذ أغار على الحارث الأكبر بن أبي شمر الغساني ، فكتب إلى أنوشروان بصفتها وقال : إني قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر ، بيضاء قمراء وطفاء كحلاء دعجاء حوراء عيناء قنواء شماء برجاء زجاء ، أسيلة الخد شهية المقبّل جثلة الشعر عظيمة الهامة بعيدة مهوى القرط ، عيطاء عريضة الصدر كاعب الثدى ضخمة مُشاش المنكب والعضد حسنة المعصم لطيفة الكف سبطة البنان ، ضامرة البطن خميصة الخصر ، غرثى الوشاح رداح الأقبال رابية الكفل لفّاء الفخذين ريا الروادف ضخمة المأكمتين مفعمة الساق ، مشبعة الخلخال لطيفة الكعب والقدم قطوف المشى مكسال الضحى بضة المتجرد ، سموعا للسيد ليست بخنساء ولا سعفاء ، رقيقة الأنف عزيزة النفس لم تغذ فى بؤس ، حيية رزينة حليمة ركينة ، كريمة الخال تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها ، وتستغنى بفصيلتها دون جماع قبيلتها ، قد أحكمتها الأمور فى الأدب فرأيها رأى أهل الشرف وعملها عمل أهل الحاجة ، صناع الكفين قطيعة اللسان رهوة الصوت ساكنة ، تزين الولى وتشين العدو ، إن أردتها اشتهت ، وإن تركتها انتهت ، تحملق عيناها وتحمر وجنتاها وتذبذب شفتاها ، وتبادرك الوثبة إذا قمت ولا تجلس إلا بأمرك إذا جلست .

قرأ زيد هذه الصفة على النعمان فشقت عليه ، وقال لزيد والرسول يسمع :

ـــ أما فى مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته !

فقال الرسول لزيد بالفارسية :

ـــ ما المها والعين ؟

فقال له بالفارسية :

ـــ كاوان (أى البقر) .

فأمسك الرسول وقال زيد للنعمان :

ـــ إنما أراد الملك كرامتك ، ولو علم أن هذا يشق عليك لم يكتب إليك به .

فأنزلهما يومين عنده ثم كتب إلى كسرى .

ـــ إن الذى طلب الملك ليس عندى .

وقال لزيد :

ـــ اعذرنى عند الملك .

فلما رجعا إلى كسرى قال زيد للرسول الذى قدم معه :

ـــ أصدق الملك عما سمعت فإنى سأحدثه بمثل حديثك ولا أخالفك فيه .

فلما دخلا على كسرى قال زيد :

ـــ هذا كتابه إليك .

فقرأه عليه فقال له كسرى :

ـــ وأين الذى كنت خبرتنى به ؟

ـــ كنت خبرتك بضنَّتهم بنسائهم على غيرهم ، وإن ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعرى على الشبع والرياش ، وإيثارهم السموم والرياح على طيب أرضك هذه حتى إنهم ليسمونها السجن ، فسل هذا الرسول الذى كان معى عما قال فإنى أكرم الملك عن مشافهته بما قال وأجاب .

قال للرسول :

ـــ وما قال ؟

فقال له الرسول :

ـــ أيها الملك إنه قال : أما كان فى بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا !

فعرف الغضب فى وجهه ووقع فى قلبه منه ما وقع ، لكنه لم يزد على أن قال :

ـــ رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ثم حار أمره إلى التباب (الهلاك) .

وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان ، وسكت كسرى أشهرا على ذلك وجعل النعمان يستعد ويتوقع حتى أتاه كتابه : أن أقبل فإن للملك حاجة إليك . فانطلق حين أتاه كتابه فحمل سلاحه وما قوى عليه ثم لحق بجبل طىء ، وكانت فرعة بنت سعد بن حارثة بن لأم عنده وقد ولدت رجلا وامرأة ، وكانت أيضا عنده زينب بنت أوس بن حارثة ، فأراد النعمان طيئا على أن يدخلوه الجبلين ويمنعوه ، فأبوا ذلك عليه وقالوا له :

ـــ لولا صهرك لقتلناك ، فإنه لا حاجة بنا إلى معاداة كسرى ولا طاقة لنا به .

وأقبل يطوف على قبائل العرب ليس أحد منهم يقبله ، غير أن بنى رواحة بن قطيعة بن عبس قالوا :

ـــ إن شئت قاتلنا معك .

لمنّة كانت له عندهم ، قال :

ـــ ما أحب أن أهلككم فإنه لا طاقة لكم بكسرى .

فأقبل حتى نزل بذى قار فى بنى شيبان سرا ، فلقى هانىء بن مسعود من بنى شيبان وكان سيدا منيعا ، فاستجار بهانىء فأجاره وقال له :

ــ قد لزمنى ذمامك وأنا مانعك مما أمنع نفسى وأهلى وولدى منه ما بقى من عشيرتى الأدنين رجل ، وإن ذلك غير نافعك لأنه مهلكى ومهلكك ، وعندى رأى لك لستُ أشير به عليك لأدفعك عما تريد من مجاورتى ولكنه الصواب ، فقال :

ــ هاته .

ــ إن كل أمر يجمل بالرجال أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سوقة ، والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريما خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد المُلك ، هذا إن بقيت . فامض إلى صاحبك وأرسل إليه هدايا ومالا وألق نفسك بين يديه ، فأما إن صفح عنك قعدت ملكا عزيزا ، وإما إن أصابك فالموت خير من أن يتلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها وتأكل مالك وتعيش فقيرا مجاورا أو تقتل مقهورا .

ــ كيف بحُرمى ؟

ــ هن فى ذمتى لا يُخلص إليهن حتى يُخلص إلى بناتى .

ــ هذا وأبيك الرأى الصحيح ولن أجاوزه .

ثم اختار خيلا وحُللا عَصب[1] اليمن وجوهرا وطرفا كانت عنده ووجه بها إلى كسرى ، وكتب إليه يعتذر ويعلمه أنه صائر إليه ، ووجه بها مع رسوله فقبلها كسرى وأمره بالقدوم ، فعاد إليه ،

---

(١) ضرب من برود اليمن يعصب غزله أى يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج ، فيأتى موشيا لبقاء ما عصب منه أبيض لم يأخذه صبغ .

الرسول فأخبره بذلك وأنه لم ير له عند كسرى سوءا ، فمضى إليه حتى إذا ما وصل إلى المدائن لقيه زيد بن عدى على قنطرة ساباط فقال له :

ــ انج نعيم إن استطعت النجاة .

فقال له النعمان فى غيظ :

ــ أفعلتها يا زيد ! أما والله لئن عشت لك لأقتلنك قِتلة لم يُقتلها عربى قط ولألحقنك بأبيك !

فقال له زيد :

ــ امض لشأنك نعيم فقد والله أخَّيت لك أخِية لا يقطعها المهر الأرن (النشيط) .

فلما بلغ كسرى أنه بالباب بعث إليه فقيَّده ، وبعث به إلى سجن كان له بخانقين فلم يزل فيه حتى وقع الطاعون هناك فمات .

وحزن النابغة على النعمان بن المنذر وقال :

من يطلب الدهر تدركه مخالبه
والدهر بالوِتر ناج غير مطلوب

ما من أناس ذوى مجد ومَكرُمة
إلا يشد عليهم شِدة الذيب

حتى يُبيد على عمد سراتهم
بالنافذات من النَّبل المصابيب

إنى وجدت سهام الموت معرضة
بكل حتف من الآجال مكتوب

وألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخميين وولت من قبلها حاكما

فارسيا يخضع له أمراء العرب ، وقد نزل بقلوب الذين يشدون الرحال إلى قصر الخورنق هم ثقيل وحسبوا أن عز العرب قد زال من الحيرة ، ولو رفعت أستار الغيب لرأوا أتباع محمد بن عبد الله يتدفقون إليها غازين منتصرين بعد ثلاثين سنة من ذلك اليوم الذى حزنوا فيه على ضياع ملك العرب .

٢٩

راحت امرأة تبخر الكعبة وهى تتلو الأدعية وتبتهل إلى الآلهة فطارت شرارة فى ثياب الكعبة ما لبثت أن سرت فتأججت النيران فى الكسوة وتراقصت ألسنتها ، فهرع الناس إلى الحرم مفزوعين واجتهدوا فى إخماد النار وقد نزلت فى قلوبهم رهبة ، خشية أن تثأر الآلهة منهم لما نال البيت المقدس .

وأقبل سادات قريش يفحصون عن البيت فوجدوا أن جدرانه قد أصابها الوهن من الحريق ، وفى دار الندوة أداروا الرأى بينهم فاستقر رأيهم على أن يدعوا البيت على حاله وأن يكتفوا بكسوته كسوة جديدة ، وأن يقدموا القرابين تسكينا لغضب الآلهة .

وجاء الشتاء وإذا بأمطار غزيرة تهطل على جبال مكة فتجرى سيولا إلى ديانها تقتلع الأشجار وتجرف الحجارة وترتفع من فوق الردم الذى صنعوه ليصون البيت الحرام من السيل ويمنعه ، فتدفقت المياه إلى الكعبة وسالت فى شوارع مكة وطرقاتها .

وأشرقت السماء بعد بكائها وغاض الماء وخف الناس إلى بيتهم المقدس الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا وقد انتشر بين جنوبهم خوف وقلق ، فلما رأوا ما حاق بالبيت زاد خوفهم وربا قلقهم فقد ألفوا جدران الكعبة قد تصدعت بعد توهينها من الحريق الذى أصابها ، فقد كانوا على علم بأن ذلك البيت لو ذهب لذهبت مكة بل لذهبت ريح العرب .

واجتمع أشراف قريش يقلبون الرأى حتى انتهى أمرهم إلى ضرورة هدمها

وإعادة بنائها ، وأن يشيدوا بنيانها ويرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا . ووافقوا على ما انتهوا إليه ولكن من أين لهم الأخشاب والنجارون والبناءون والمهندسون الذين يقومون بهذا العمل ويشرفون على تنفيذه ؟

كان إمبراطور الروم قد أرسل سفينة محملة بالرخام والخشب والحديد سرحها مع باقوم المهندس الرومى إلى الكنيسة التى حرقها الفرس بالحبشة ليعيد بناءها تقربا لربه وكسبا لود الأحباش الذين كانوا على النصرانية ، وكانوا على حدود مملكة اليمن التى احتلها الفرس وطردوا منها حلفاءه ، فقد كانت تراوده فكرة مناوءة الفرس هناك ، وتحريض الحبشة على إعادة غزو اليمن لفتح جبهة ثانية فى الحرب المشتعلة الأوار بين الإمبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم .

كانت السفينة تمخر عباب البحر الأحمر حتى إذا ما بلغت جدة — ساحل مكة — بعث الله عليها ريحا فاضطربت اضطرابا شديدا ، وألقى الرعب فى قلب قبطانها فأراد أن يحتمى بالشاطىء فاندفع إليه والسفينة تتماوج مع الريح وقد فقد سيطرته عليها ، فإذا بها ترتطم بالصخور وإذا بأصوات من عليها من نجارين وحدادين وبنائين وبحارة تشق أجواز السماء رعبا وإذا بهم يلقون بأنفسهم فى البحر التماسا للنجاة ، وجنحت السفينة ثم استقرت على الصخور حطاما ..

وجاء الخبر إلى مكة أن سفينة رومية محملة بالرخام والأخشاب والنجارين والحدادين والبنائين قد كسرتها الرياح وأنها راقدة هناك على الساحل ، فاستبشر المكيون وأحسوا أن ذلك رزق ساقه الله إليهم وأنه برهان على رضاه على ما عقدوا عليه النية .

وقام أبو وهب عمرو بن عائذ خال عبد الله بن عبد المطلب وكان شريفا

فى قومه ، وقال :

ـــ لا تدخلوا فى نفقة هذا البيت مهر بغى ولا بيع ربا ، ولا تجعلوا فيه شيئا أصبتموه ولا قطعتم فيه رحما ولا انتهكتم فيه حرمة بينكم وبين أحد من الناس .

واجتمعت القبائل لهدم بيتهم المقدس فهابوا هدمه وفرقوا منه خشية أن ينزل رب البيت بهم بلاء ، فقام الوليد بن المغيرة وقال لهم :

ـــ أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟

قالوا فى أصوات مضطربة :

ـــ بل نريد الإصلاح .

قال فى ثبات :

ـــ فإن الله لا يهلك المصلحين .

قالوا وهم يتلفتون :

ـــ من الذى يعلوها فيهدمها ؟

قال فى شجاعة :

ـــ أنا أعلوها وأنا أبدؤكم فى هدمها .

فأخذ المعول ، ثم قام عليها والقلوب واجفة والنظرات زائغة وقد تأهبوا جميعا للفرار إذا ما بدا أن الله سينزل غضبه على من جرؤ على هدم بيته ، ووقف خالد بن الوليد ينظر إلى أبيه فى إعجاب وإكبار فقد ورث عنه الشجاعة وثبات الجنان .

ورفع المعول ثم هدم من ناحية الركنين وقد كتم الناس أنفاسهم فى إشفاق وحذر ، ثم قال :

ـــ اللهم لا ترع ، لا نريد إلا الخير .

ورفع المعول ثم هدم من ناحية الركنين ، وقد كتم الناس أنفاسهم وأرهفت

مشاعرهم وراحوا يتلفتون ويترقبون ما سيحيق بالوليد من انتقام ، وانقضى النهار وانصرف الوليد إلى داره وانصرف الناس إلى دورهم يتربصون تلك الليلة وقالوا :

ــ ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء هدمناها ، فقد رضى الله ما صنعنا .

لم تعرف مكة النوم فى تلك الليلة ، كانت الأنظار متجهة إلى بيت الوليد والقلوب تعلقت به والآذان مرهفة تحصى ما يدور فيه من أصوات فقد يرتفع منه فى سكون الليل صوت الناعى ليكون لهم نذيرا ، فأهل مكة كانوا يرتجفون خشية أن ينزل بهم العذاب .

فأصبح الوليد من ليلته غاديا إلى عمله فقام على الكعبة وراح يعمل المعول فيها ، فاطمأن الناس إلى أن الله قد رضى عن عملهم وعادت الثقة إلى نفوسهم فراحوا يهدمون معه حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس : أساس إبراهيم ، فإذا بحجارة خضرة كأسنمة الإبل أخذ بعضها ببعض ، فأدخل رجل ممن كان يهدم عتلته بين حجرين منها ليقلع بها بعضها ، فلم يتحرك الحجر وبدا كأن مكة قد تحركت بأسرها ، فانتهوا عن ذلك الأساس .

ووجدت قريش فى الركن كتابا بالسريانية فلم يدر ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا هو : « من يزرع خيرا يحصد غبطة ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة ، تعملون السيئات فكيف تجزون الحسنات ، أجل (نعم) لا يجنى من الشوك العنب » .

وخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى السفينة التى تحطمت على ساحل مكة فابتاعوا خشبها وعادوا بباقوم ومن معه من النجارين والحدادين إلى مكة ، فلما دخلوا الحرم راح باقوم يقلب بصره فى أصنام القوم التى

أخرجت من الكعبة فى حرص شديد ، فلم تثر دهشته فما أكثر التماثيل التى رآها فى شوارع القسطنطينية وفى ميادينها وفى كنائسها .

ورأى أبو وهب عمرو بن عائذ أن يجزىء العمل فقال لقريش :

ــ إنى أرى أن يقسموا أربعة أرباع .

فكان شق الباب لعبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركنين الأسود واليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وبنى سهم بن عمرو ، وكان الجانب الذى فيه الحجر لبنى عبد الدار ولبنى أسد ولبنى عدى .

وخف شباب مكة ورجالها وشيوخها ليسهموا فى بناء بيت الله فذهب محمد والعباس ورجال بنى هاشم ينقلون الحجارة ، واجتهد بنو مخزوم فى العمل فسيدهم الوليد بن المغيرة له اليد الطولى فى إتمام أجرأ عمل قامت به قريش .

وارتفع البناء وكان مدماكا من خشب الساج ومدماكا من الحجارة ، فلما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختصموا ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، واشتد الجدل بينهم ولجوا فى الخصام حتى كادت الحرب تنشب أظفارها فيهم ، ومكث النزاع بينهم أربع ليال ثم اجتمعوا فى المسجد الحرام وقال أبو أمية بن المغيرة وهو حذيفة والد أم سلمة ، وكان أسن قريش كلها وكان من أزواد[1] الركب :

ــ يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب

---

(١) أزواد الركب : مسافر بن أبى عمرو ، وزمعة بن الأسود ، وأبو أمية بن المغيرة لأنه لم يكن يتزود معهم أحد فى سفر يطعمونه ويكفونه الزاد .

الصفا يقضى بينكم .

وتعلقت العيون بباب الصفا ، البـاب المقابـل لما بين الركـنين اليمانى والأسود ، ومرت لحظات ترقب وانتظار ثم لاح القادم لعيونهم فقالوا فى استبشار .

— هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

كانوا يتحاكمون إليه فى الجاهلية فهو دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ، زكى الله فؤاده ولسانه وجوارحه ، فكان إذا قضى ارتضوا حكمه فقد عرف عنه العدل وعدم الميل مع الهوى ، لا يخشى فى الحق لومة لائم .

وكان راجح العقل سديد الرأى ، ما أن قصوا عليه ما اختلفوا فيه حتى نفث فى روعه الفكرة التى ترضى القبائل كلها وتحقن دماءهم فالتفت إليهم وقال :

— هلم إلىّ ثوبا .

فجاءوا له بثوب الوليد بن المغيرة فبسطه فى الأرض وكان كساء أبيض من متاع الشام ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ثم قال :

— لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا .

فسر القوم بحكمه وانبسطت الأسارير ولاح فى الوجوه الرضا ، فقد حقن ابن عبد الله بحكمه السديد دماء قريش وأبقى على وحدتها ، فكان فى ربع مناف عتبة بن ربيعة ، وكان فى الربع الثانى زمعة ، وكان فى الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، وكان فى الرابع قيس بن عدى .

ورفع الثوب فى حرص ورفق وقد تعلقت أعين الناس بالحجر المقدس ،

حتى إذا بلغوا به موضعه تناوله محمد من الثوب ووضعه فى موضعه ، وذهب رجل من أهل نجد ليناول محمدا حجرا يشد به الركن فقال العباس فى حدة :

ـــ لا .

وأسرع العباس وناول ابن أخيه ما شد به الركن فغضب النجدى ، وقد دفعه غضبه إلى محاولة إيغار صدور القوم على محمد وعمه فقال :

ـــ واعجبا لقوم أهل شرف وعقول وأموال عمدوا إلى رجل أصغرهم سنا وأقلهم مالا فرأسوه عليهم فى مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له .

ولم ينفعل الناس بكلام ذلك الحاقد ، وارتفع البنيان وجعلوا للبيت سقفا ، وإن اقتصروا عن قواعد إبراهيم عليه السلام حين عجزت بهم النفقة فأخرجوا حجر إسماعيل منه .

وراح الرسامون يرسمون على حيطان الكعبة من الداخل صورا تمثل معتقداتهم ، صوروا إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام ، وإسماعيل وفى يده الأزلام ، والملائكة ومريم العذراء وهى تحمل المسيح ، وكانت صور الملائكة ومريم من صنع الروم ، فيا طالما زينت كنائسهم بتلك الصور .

وكساها زعماؤهم أرديتهم وكانت من الوصائل ، ثم أعادوا الآلهة فى حرص شديد إلى حيث كانت والدعوات تنبعث حارة من صدورهم والدموع تسيل على خدودهم ودماء القرابين تجرى بين أساف ونائلة أنهارا ، شكرا للآلهة ، وبقيت الأصنام غارقة فى الصمت تنتظر مجىء الحق ليزهق باطلهم .

وعاد الناس للتمسح بأوثانهم ، واعتزل محمد قومه واعتكف فى حجرة عبادته يذكر الله وهو يرجو أن يتعرض لنفحات ربه ونزول الرحمة على قلبه وإشراق أنوار المعارف فى باطنه ، فقد ألهم أن القلب ملك وأن الجوارح

جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده .

٣٠

تصرمت أيام الأسواق وتدفقت القبائل إلى مكة لتأدية مناسك الحج ، وانسابت قريش لتطوف بالبيت وقد رفع رجالها ونساؤها وولدانها رءوسهم فقد كانوا يعرفون مقامهم فى القوم بل كانت كل بطن من بطونها تستشعر مكانتها ، فعبدمناف عزها ، وأسد ركنها وعضدها ، وعبد الدار رئتها وأوائلها ، وعدى جناحاها ، وزهرة كبدها ، ومخزوم ريحانتها وأراكتها ، وجمح وسهم عديدها ، وعامر ليوثها وفرسانها ، والناس تبع لقريش وقريش تبع لولد قصى .

وانطلق الحمس وهم قريش وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة ومدلج وعدوان والحرث بن مناة وعضل ليقفوا بالمزدلفة لا يتجاوزونها ، فهم أهل الحرم لا ينبغى أن يقدسوا شيئا تقديسهم للحرم ، فلو خرجوا إلى عرفة كما يخرج الحلة وهم سائر العرب ، لكان ذلك تقديسا لغير الحرم .

وكان محمد بن عبد الله يرى أن الحج عرفة ، فذهب مع الناس إلى عرفة مخالفا أهل مكة ، وكان معه زيد بن حارثه فى أهل بيته فعرفه بعض قومه ، فذهب إليه وقال له :

ـــ من أنت يا غلام ؟

ـــ من أهل مكة .

ـــ من أنفسهم ؟

ـــ لا .
ـــ فحر أنت أم مملوك ؟
ـــ مملوك .
ـــ عربى أنت أم أعجمى ؟
ـــ بل عربى .
ـــ من أهلك ؟
ـــ من كلب .
ـــ من أى كلب ؟
ـــ من بنى عبد ود .
ـــ ويحك ! ابن من أنت ؟
ـــ ابن حارثة بن شراحيل .
ـــ وأين أصبت ؟
ـــ فى أخوالى .
ـــ ومن أخوالك ؟
ـــ طيىء .
ـــ ما اسم أمك ؟
ـــ سُعدى .

وراح الرجل ينشد لزيد شعر أبيه حين فقده :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل

واستمر الرجل فى انشاده وزيد مطرق الرأس تتصارعه عواطف متباينة ، حتى إذا ما انتهى الرجل قال زيد :

أحــن إلى أهلى وإن كــنت نائيـــا
بــأنى قعيــد البـيت عنــد المشاعــر
فكفوا عن الوجد الـذى قـد شجـاكم
ولا تعملوا فى الأرض نص الأباعر(١)
فـــإنى بحمـــد الله فى خير أسرة
كــرام معــد كابـــرا بعــد كابــر

وكانت صوفة ترفع بالناس من عرفة وتجيز لهم إذا نفروا من منى ، فإذا كان يوم النفر وأتوا لرمى الجمار قام رجل من صوفة يرمى للناس لا يرمون حتى يرمى ، فكان ذوو الحاجات المستعجلون يأتونه فيقولون له :

ـــ قم فارم حتى نرمى معك .

فيقول :

ـــ لا والله حتى تميل الشمس .

فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له :

ـــ ويلك ؟ قم فارم .

فيأبى عليهم حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه ، فإذا فرغوا من رمى الجمار وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانب العقبة فحبسوا الناس وقالوا :

ـــ أجيزى بنى صوفه .

فلم يجز أحد من الناس حتى يجيزوا ، فإذا نفرت صوفه ومضت خلى سبيل

---

(١) اخراج أقصى ما عند الإبل من السير .

الناس فانطلقوا بعدهم .

وانقرضت صوفة فورثهم من بعدهم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم ، وكانت من بنى سعد فى آل صفوان بن الحارث ، فكان صفوان هو الذى يجيز للناس بالحج عن عرفة ، ثم بنوه من بعده ، وقال القائل :

لا تبرح النـاس مـا حجـوا معرفهـم
حتـى يقـال أجيـزوا آل صفوانـا

وكان كرب بن صفوان يأخذ بالطريق فلا يفيض أحد من عرفات حتى تغيب الشمس ، وكانوا يقفون بعرفات لا يعرفون بماذا يدعون ربهم فيقيمون يفتخرون بآبائهم وبأفعالهم ويسألون لدنياهم ، فإذا غربت الشمس سارع نحو جمع ويسيرون خلفه لكل حى مجيز سوى ذلك ، حتى يأتوا الحمس فى جوف الليل فيقضوا معهم وقد أخذ الطريق لا يخرج أحد قبل طلـوع الشمس .

وراح الناس يطوفون بالصفا والمروة ويهرولون بينهما إحياء لذكرى هرولة هاجر أم إسماعيل لما كانت تبحث عن ماء لابنها الذى كاد يموت عطشا ، ولم يطف الحمس بهما فقد كانوا يرون أن الطواف بهما ليس من شعائر الحج ، وطاف محمد بن عبد الله بهما مخالفا رأى أهله .

وجاء يوم الصدر فقام ناسىء الشهور ، وهو من يحل شهرا من الأشهر الحرم ويحرم شهرا ليس منها ، يخطب فى فناء الكعبة قال :

ـــ قد أنسأت العام صفر الأول .

يعنى المحرم ، فيطرحونه من الشهور ولا يعتدون به ويبتدئون بالقعدة ، فيصبح ذلك المحرم الذى أنسأه ذو الحجة ، فيحجون السنة التالية فى المحرم !

وانتهى الحج فدخل الحمس بيوتهم من ظهورها حتى لا يفسد حجهم إذا

ما أتوا البيوت من أبوابها ، ودخل محمد بن عبد الله بيته من الباب الواسع لا يحفل إذا ما استاء الحمس من فعاله أو غضبوا لتسفيه أحلامهم .

وعادت القبائل إلى منازلهم ، وهرع الرجل الذى التقى بزيد بن حارثة إلى بيت حارثة يقص عليهم ما كان بينه وبين زيد ، وينشد الشعر الذى قاله ابنهم فتجرى دموع الأم وتتجدد أحزان الأب وإن تدسس فى الصدر أمل ، وإن خفق القلب بالرجاء .

وشد حارثة وأخوه الرحال إلى مكة حتى إذا ما بلغاها انطلقا إلى دار خديجة وسألا عن محمد ، فقيل لهما إنه فى المسجد ، فهرعا إلى الكعبة ودخلا عليه وقالا :

ــ يا بن عبد المطلب ، يا بن هاشم ، يا بن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكون الأسير العانى وتطعمون الجائع ، جئناك فى ولدنا عندك ، فامنن علينا وأحسن فى فدائه فإنا سندفع لك ..

فقال محمد و لم تفارق الابتسامة شفتيه :

ــ وما ذاك ؟

ــ زيد بن حارثة .

فقال محمد فى هدوء وقد ظهر فى وجهه الحياء :

ــ أو غير ذلك ؟

ــ وما هو ؟

فقال محمد فى صدق :

ــ ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على الذى اختارنى فداء .

ففرح حارثة فما كان يخطر له على قلب أن يعرض أحد مثل هذا العرض

السخى ، الذى إن نم فإنما ينم عن خلق عظيم ومنتهى مكارم الأخلاق ، فقال :

ـــ زدت على النَّصَف وأحسنت .

وبعث محمد فى طلب زيد ، فلما جاء قال له :

ـــ من هذان ؟

فراح ينظر زيد إليهما وقد أشرق وجهه ، فخفق قلب حارثة وأحس رغبة فى أن يضم ابنه إلى قلبه الولهان ، ولكن زيدا قال فى هدوء :

ـــ هذا أبى حارثة بن شراحيل ، وهذا كعب بن شراحيل عمى .

فقال محمد فى بساطة :

ـــ أنا من قد علمت وقد رأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما .

فقال زيد وهو يرنو إلى محمد فى حب :

ـــ ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى مكان الأب والعم .

ـــ ويحك يا زيد ! تختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟

فقال دون تردد :

ـــ نعم ، ما أنا بالذى أختار عليه أبدا .

فلما رأى محمد منه ما رأى أخرجه إلى محل جلوس قريش فقال :

ـــ إن زيدا ابنى أرثه ويرثنى .

كان الرجل فى الجاهلية يعاقد الرجل فيقول دمى دمك وهدَمى هدَمك[1] وثأرى ثأرك وحربى حربك وسلمى سلمك ، ترثنى وأرثك

---

(١) أى إن قتلنى الإنسان تطلب بدمى كما تطلب بدم أقرب أقربائك .

وتطلب بى وأطلب بك وتعقل عنى وأعقل عنك. ، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف ، فلما رأى حارثة وكعب أن محمدا يطوف بزيد على حلق قريش ويقول : هذا ابنى وارثا وموروثا ويشهدهم على ذلك ، طابت نفساهما وإن لم يقدرا النعمة التى أنعم الله بها على زيد لما صار زيد بن محمد .

٣١

كان زيد بن عمرو بن نفيل منطلقا إلى داره وهو يترقب ، فشبح الخطاب يؤرقه وينزل الرهبة فى قلبه ، فقد كان زيد يرى أن قريشا قد ظلموا أنفسهم لما جعلوا لله اندادا ، وكانت نفسه تحدثه أحيانا أن ينصح لقومه وأن يدعوهم إلى نزع الأصنام من قلوبهم والتوجه إلى الله وحده ، فإذا ما استجاب إلى حماسته وسفه أحلام قومه كان الخطاب يغرى به شباب مكة ، فلا يستطيع أن يصبر على أذاهم ، فيفر منهم فى شعاب الجبال ، فقد كان أضعف من أن يقف فى وجه الاضطهاد أو يتحمل الأذى صابرا حتى يضع الأمور فى نصابها .

كان يرى قومه وهم ينزلقون إلى الهاوية قد تملكتهم شهوة التملك ، تلك الشهوة المسعورة المدمرة التى دفعتهم إلى الغارات على القوافل والقبائل للسلب والنهب وأسر الرجال والنساء ، ليكدسوا الأموال التى مزجت بعرق العبيد ودعارة البغايا ودماء الفضيلة ، وكان يرى مجتمعه وقد انقسم إلى طبقة راضية هى طبقة السادة الذين نزعت نفوسهم إلى القهر والسيطرة والظلم والولع بالدنيا ، وطبقات حانقة ذليلة هى طبقات العبيد الذين انتزعوا من أحضان أهليهم عدوانا ، والفقراء الذين يعيشون على كرم السادة الذين يوقدون النيران

لإرشاد الضيفان إلى موائدهم ، لا لخلق كريم فيهم بل طمعا فى ذهاب الصيت وحسن الأحدوثة .

كانت الحياة كأس خمر ولهوا ولعبا وإغارة ودفع مغير ، لا حكومة تقتص من جان أو تأخذ الحق من القوى للضعيف أو تحمى الطريق ، ولا ولاء لقانون أو حاكم أو سلطان ، بل ولاء للقبيلة ينتصرون لها ويموتون من أجلها ظالمة أو مظلومة ، فزاد السفه والغضب والأنفة والخفة والحمية والمفاخرة وكل ما تنتفخ به الأوداج غرورا .

وكانوا مجموعة من الجيران لا يراعون حق الجوار تجيش عقولهم بالعداوات ، فالمخاصمات تنشب لأتفه الأسباب ، والسيوف تمتشق لكلمة جارحة أو فعلة نكراء ، فتثور الحروب سنوات ، وينادى بالثارات ، وتروى الرمال بدماء الأبرياء ، ويقوم الشعراء بتأجيج نيران الشحناء فتسود قوانين الكراهية عوضا عن قوانين المحبة والسلام .

كانوا يعيشون فى أرض واحدة قد التفوا جميعا حول بيت الله ، ولكن كانت أحلامهم متباينة ، فبينا السادة يحلمون بقصور المدائن والخورنق وحوران والقسطنطينية وصنعاء وأكسوم ومنف وخزائن الذهب ، كان سواد الناس يحلمون بما يسكت صراخ البطن ، لم تمتد أمانيهم إلى ما وراء كسرة خبز أو شق تمرة أو جرعة ماء ، فقد امتلأت نفوسهم بالغل والحقد والحسد للأغنياء الذين إن شاءوا جادوا عليهم بما يمسك الرمق ، وإن شاءوا أمسكوا لتتم لهم أبشع صور استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

انعدمت فيهم القيم الروحية فما بقى لهم من عبادتهم إلا مراسيم وطقوس انتزعت منها الروح : حركات تتحركها الشفاه وإيماءات من الرأس وسعى وطواف والقلب غافل عن الذكر قد تعلق بالماديات .

جددوا بناء الكعبة وكسوها كسوة فاخرة ثم دنسوها بالأوثان ، وارتدوا ثيابا جديدة وتعطروا بأطيب العطور بينا كانت نفوسهم دنسة تقاسى فقرا روحيا وانهيارا فى الأخلاق قد ضاع الفضل بين الناس .

كان العدوان هو الوسيلة لفرض الإرادة ، والمال هو المعبود الحق ، والقوة هى القانون العدل ، والشعراء يتغنون بالشجاعة والوفاء وإطعام الطعـام وبطش الأقوياء وسفك الدماء وحرية السلب والنهب وارتكاب الفحشاء ووضع الأقدام على رقاب الأرقاء .

كان زيد بن عمرو يرى جاهلية قومه فتتمرد نفسه على ما هم فيه من ضلال ، وقد فكر ذات يوم أن يقوم بينهم هاديا ، وأن يسفه أحلامهم وأن يدعوهم إلى الله وحده ونبذ الأصنام ، فهب فى وجهه الخطاب وأذاه وحرض عليه الشباب إذا رأوه فى البيت يدعو الناس إلى دين الحنفاء رجموه بالحجارة ، فلم يحتمل ولم يصبر وفر إلى الجبال ، ثم آثر سلوك سبيل الملاينة والتزام السلامة والاستسلام ، وكان مغلوبا على أمره فما كان مؤيدا بروح القدس وما كان فى رعاية الله ، فأعتى العتاة لا يقدر وحده أن يقف فى وجه الفساد الذى ظهر فى مكة ، بله يأخذ بخطام قافلة الرذيلة إلى طريق النور والخلاص ما لم يكن مع الله وكان الله معه .

إنه قاوم الشر فى نفسه ولكنه عجز عن أن يقاوم الشر فى نفوس الآخرين ، وتدسس بصيص من النور إلى قلبه فى حين ران ظلام الشرك على قلوب قومه ، فقد عجز نور فؤاده عن أن يفيض ليغمر القلوب بالنور ، وكان أقصى ما يفعله من ضروب الشجاعة أن يسند ظهره إلى الكعبة ويقول :

ـــ يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى .

وأسماء بنت أبى بكر وشباب قريش ينظرون إليه مشدوهين لا يفقهون شيئا مما يقول ، وإن أحسوا بقلوبهم أنه يعارض عقائد أهله .

وبلغ زيد بن عمرو داره وجلس إلى ولده سعيد بن زيد وراح يحدثه عن دين آبائه وعن ما فيه من زيف ، ويقص عليه كيف خرج هو وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش إلى الشام يلتمسون الدين الصحيح ، وكيف اعتنق ورقة وعثمان وعبيد الله النصرانية وبقى على دينه يعتنق دين إبراهيم الذى طمسته الخرافات والأساطير .

وحدثه فى انفعال عن حديث الرهبان الذين قالوا له : إن الدين الذى تبحث عنه سيبزغ من عند البيت . وراح يروى له كل ما سمعه وعرفه عن النبى المنتظر ، وسعيد منفعل بما يقول ، وقد أحس تعاطفا عميقا مع أبيه لما قال إنه يخشى أن ينقضى أجله قبل أن يرى ذلك النبى ويؤمن به .

كان زيد بن عمرو يؤدب ابنه ويعده ليكون من المؤمنين بالرسالة المرتقبة ، وكان سعيد يستجيب لنصائح أبيه ويعجب فى نفسه من اضطهاد الخطاب له . وطالما تمنى أن يعود الوفاق بين الرجلين فهو يتوق إلى الزواج من فاطمة بنت الخطاب ابنة عمه ، ولكنه يخشى أن يكون ما بين أبيه وعمه سدا يحول بين تحقيق حلمه .

كان الخطاب يحب زيد بن عمرو ولكن حبه لآبائه ومعتقداتهم وتقاليدهم أشد ، فما أن سفه عمرو معتقدات الآباء حتى تبخر من قلب الخطاب كل حب له ونزل فيه غضب وحقد وإصرار على أن يعود لملة آبائه أو يتحمل مغبة صبوته ، وكان شرود زيد من حظيرة الإيمان بالاصنام والأوثان سببا فى أن يهتم الخطاب بغرس الإيمان بدين الآباء فى قلب ابنه عمر .

كان الخطاب يصطحب عمر بن الخطاب معه إذا ما ذهب إلى هبل أواللات

أو العزى أو مناة ليعلمه كيف يشكر آلهة أبائه ويقدم إليها القرابين والهدايا التماسا للرزق ودفعا للشر ، وكان يعلمه كيف يتمسح بصنم الإله قبل أن يذهب للنوم وكيف يدعوه فى الصباح عقب أن يستيقظ من رقاده ، فشب عمر بن الخطاب مؤمنا بأصنام قومه متعصبا لها ، فقد نجح أبوه فى أن يسدل أستارا من الأوهام على عين بصيرته وعين عقله ، وأن يملأ رأسه بما شاء من عقائد ، وأن يبذر فيه بذرة أن الموت فى سبيلها عز الدنيا وشرفها ، فاستقر فى وجدانه أنه حامى حمى الآلهة ولم يؤمن بقلبه أنه فى حماها !

كان عمر بن الخطاب قويا جبارا إذا ما آمن بفكرة لا يحيد عما يعتقد أنه حق قيد أنملة ، له شخصية قوية تفرض نفسها على كل من حولها . وقد تمكن على الرغم من حداثة سنه أن يكون مرموقا فى قبيلته بل فى قريش كلها ، وكان يغالى فى إيمانه على الرغم من معاقرته الخمر وارتكابه ما يرتكبه الشباب المكى من مساوىء ، فما كان يذهب إلى فراشه قبل أن يتمسح بصنم أبيه الذى كان قائما فى الدار . .

وذات ليلة كان عمر بن الخطاب بعيدا عن البيت ، بعيدا عن الأصنام والأوثان ، وأراد أن يؤدى صلاته للآلهة فلم يجد حجرا يشبه إلهه أو قريب الشبه منه ، ولم يجد معه إلا العجوة فصنع منها إلها ، ثم قام يصلى له ويدعوه فى حرارة وإخلاص .

ومر الوقت وأحس جوعا فراح يبحث عن طعام فلم يجد غير إلهه ، فتناوله وأكله ، ولم يستنكر فعلته ولم يرف على شفتيه الابتسام فقد كان صادق الاعتقاد فى كل ما يفعل ، متحمسا له مؤمنا به .

كان راجح العقل ثاقب الفكر حازما عادلا ، وكان معدنه طيبا ، تراكمت جاهلية قومه على عقله ورانت على فكره واختلط تبره بترابه وعلا

صدؤه معدنه ، ولن يكشف عن حقيقة لبه ونفاسة جوهره[1] إلا نفحة من نفحات القدير العزيز .

كان الجفاء بين الخطاب وزيد قائما ، وكان الخطاب يأمل أن يئوب زيد إلى رشده ، وكان زيد يرجو أن يظهر النبى المنتظر ليؤمن به ويتبعه ، وكان يمر على محمد بن عبد الله ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما ، فيدعوانه لطعامهما فيعتذر ، ولو درى أن الذى يحدثه فى غدوه ورواحه هو نبى هذه الأمة لأقبل عليه متفرحا مستبشرا يقبل رأسه .

كان زيد بن عمرو يقول الشعر وكان الرواة يروون ما يسمعون ، وقد سمعته أسماء بنت أبى بكر يقول :

عزلت الجن والجنّان عنى
كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها
ولا صنمى بنى طسم أدير
ولا غنما أدين وكان ربا
لنا فى الدهر إذ حلمى صغير
أربا واحدا أو ألف رب
أدين إذا تقسمت الأمور
ألم تعلم بأن الله أفنى
رجالا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببره قوم
فيربو منهم الطفل الصغير

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « الناس معادن ، خيرهم فى الجاهلية خيرهم فى الإسلام » .

وبينـــا المرء يـــعثر ثـــاب يومـــا
كما يتـــــراوح الـــغصن الـــنضير

وقد روت أسماء ولا ريب ما سمعت على أبويها ، فلم يندهش أبو بكر فقد كان يؤمن بأن للكون ربا واحدا وكان من الحنفاء .

وقابل زيد بن عمرو عامر بن ربيعة فراح يحدثه فقال له :

ــ أنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ولا أرانى أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبى ، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه منى السلام ، فإنى طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم . فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وراءك ، لم يبق نبى غيره .

ومات زيد بن عمرو بمكة وهو يتحرق شوقا إلى لقاء رسول الله ليؤمن به ويصدقه ويشهد أنه نبى ، ودفن بأصل حراء ، وراح ورقة بن نوفل يرثى رفيق الصبا الذى ثبت على دينه واعتزل الأوثان :

رشدت وأنعـــمت ابـــن عمـــرو وإنما
تجـنبت تنـورا مـــن النـــار حاميـــا

لديـــنك ربـــا لـــيس ربـــا كمثلـــه
وتـــركك جِنّـــان الجبـــال كما هيـــا

أقـــول إذا أهبـــطت أرضا مخوفـــة
حنانـــيك لا تظهـــر على الأعاديـــا

حنانـــيك إن الجن كانت رجاءهـــم
وأنت إلٰهـــى ربنـــا ورجائيـــا

لتدركـــــن المرء رحمة ربـــــه
وإن كان تحت الأرض سبعين واديـا

أدين لـرب يستجيب ولا أرى
أديـن لمن لا يسمـع الدهـر واعيـا
أقـول إذا صليت فى كل بيعـة
تباركت قد أكثرت باسمك داعيـا

٣٢

جلس محمد ينظر إلى الصبى على بن أبى طالب وفى حجره بنت عمه فاطمة يقلب وجهه فيها فى دهش وحيرة وحب ، ففاطمة كانت أول مولودة توضع بين يديه ، وكانت دهشته لعينيها اللتين تتحركان ولفمها الصغير الذى يقدر على التثاؤب وكانت حيرته أنه سمع من خديجة أنها عما قليل ستكبر وتلعب معه وتأكل معه ، فما كان يتصور كيف تنمو وتلعب وتأكل وهى التى بين يديه قطعة من اللحم لا حول لها ولا سلطان ، وعلى الرغم من استكانتها فى حجره فقد تعلق بها ، وزاد فى حبه لها أن ابن عمه محمدا سماها فاطمة باسم أمة فاطمة بنت أسد ، فقد كان ذلك مبعث سروره وإن لم يدر بخلده أنه كان وفاء من ابن عبد الله للسيدة الكريمة التى رعته وكانت له نعم الأم بعد موت آمنة ، ونعم الراعى بعد موت جده عبد المطلب .

كانت زينب ترعاه وكانت تدلله أحيانا ، وطالما نام بين ذراعيها وهى تغنى له ، وكانت رقية تحنو عليه وتروى له بعض حكايات الأبطال ، وكانت أم كلثوم تشاركه لعبه ، أما فاطمة فهو يهفو إليها وإن كان فى حيرة من أمرها !

إنه أحب البيت ومن فى البيت ، أحب محمدا وتعلق به وأحس على الرغم

من صغر سنه أن محمدا يحبه حبا صادقا ، وأنه يفرح به إذا ما ارتمى فى أحضانه وأنه يقبله فى حنان دافق ، وأن قبلته رجيمة قد تفوق فى رحمتها قبلة أبيه أبى طالب .

وأحب خديجة وأحبته خديجة لطفولته البريئة ولحب زوجها له ، فخديجة تحب كل ما يحبه محمد وهواها دائما مع من يكون هوى زوجها معه ، وأحبت زيد بن محمد ، وأحبت أم أيمن ، وأغدقت أموالها على كل من رأى محمد أن يحسن إليه .

وأحب على زينب وكانت فى عينيه بمثابة أمه الصغيرة التى تطعمه وترعاه ولا تجد غضاضة فى أن تلعب معه أو تجرى خلفه ، وأحب رقية ويا طالما أعارها سمعه يصغى إلى حكاياتها فى اهتمام ، أما أم كلثوم فقد كانت تشاركه لعبه فى الدار وخارج الدار ، قد ذهبت معه إلى دار أبيه أبى طالب وانطلقت به إلى الحرم وشربت معه من ماء زمزم .

وأحب هند بن أبى هالة وزيد بن محمد ، وكان يتمنى أن يشتد عوده ليخرج مع ابن عمه محمد بن عبد الله كلما خرج أو ذهب إلى الأسواق مثلما يخرج معه هند وزيد ، فكانت أمنيته العزيزة أن يكون فى رفقة ابن عمه على الدوام .

كان يملأ البيت مرحا وحياة ، وكان ذهنه صاحيا وعيناه مفتوحتين يحاول أن يقلد ما يراه ويقتبس أخلاقه من أخلاق أهل البيت ، ومن حسن طالعه أنه كان فى كنف أسرة خلقها الله لتكون نبراسا لمكارم الأخلاق ، ومن رعاية الله وفضله عليه أن وفقه إلى أن يتخذ من ابن عمه الكريم قدوة حسنة ، فنهل من نبع عذب رقراق يفيض بالخيرات ويفيء بما أفاء الله عليه من كرمه وجوده وحكمته .

كانت فاطمة أقرب بنات محمد شبها بأبيها ، وكان على يحاكى محمدا فى مشيته وفى لفتته وفى نبرات صوته وعلاقته بمن حوله وفى تصرفه فى الأشياء ،

فكانا أقرب أهل البيت إلى قلبه ، وكانت أساريره تتهلل بالفرح كلما رآه يحمل فاطمة كأنما نفث فى روعه ما سيكون للصغيرين من شأن فى مستقبل الأيام .

وكان محمد إذا حمل فاطمة وضع عليا على فخذه وغمرهما بحبه وناجاهما كأنما هما روح واحد ، وكانت خديجة تمد إليهم عينيها وقد شعت منهما رقة تفصح عما يعتمل فى صدرها من إحساسات وعما يزخر به قلبها من مشاعر غنية تسمو ببشريتها ، وكانت تعبر عن صدى انفعالها بتقبيل فاطمة وعلى والنظر إلى محمد فى إكبار .

وجاء أبو طالب ليزور ابنه ، فلما وقعت عينا على عليه هرع إليه فبسط له الشيخ ذراعيه فارتمى فى أحضانه واستكان فى الصدر الحنون ، فترقرقت الرحمة فى وجه الشيخ ورأى أن يداعب ابنه ، فقال له إنه سيأخذه معه ليستقر عنده مع أخويه طالب وعقيل ، فلما سمع على دعابة أبيه انفلت من بين ذراعيه وجرى إلى محمد يلوذ به ويؤكد أنه لن يفارق حبيبه أبدا .

وضحك الشيخ وابتسمت خديجة ورفت ابتسامة على شفتى محمد وإن أحس دموعه تبلل روحه ، فهو يتأثر بالوفاء ولا يجد جزاء الوفاء إلا الوفاء ، فإنه لما اختاره زيد بن حارثة على أبيه بلغ به الانفعال أن أعلن على الملأ أن زيدا ابنه له حقوق الأبناء .

ولم يدر بم يجازى ابن عمه الذى فر من حضن الحنان الأبوى إليه ؟ لا يستطيع أن يعلن على الملأ أنه ابنه كما فعل بزيد فأبو طالب سيد بنى هاشم وأنه لشرف لا يدانيه شرف أن ينسب إليه على ، فلم يجد للتعبير عن عواطفه إلا أن يحمل عليا ويضمه إليه كأنما يعلن للوجود أن عليا منه وأنه فى رعايته .

وكان طالب وعقيل وجعفر وفاطمة بنت أسد يأتون لزيارة محمد ورؤية على ، فكانت خديجة ترحب بهم أجمل ترحيب وكان حكيم بن حزام والزبير

إبن العوام يأتيان لزيارة عمتهما خديجة ، فكان محمد يحدثهما حديثا لطيفا تشع منه الحكمة فيصغيان إليه فى فرح واستبشار ، كان البيت ترف عليه السعادة ، ولو شاء الزوجان أن يمضيا عمرهما فى بحبوحة من العيش وسلام لكان ذلك ميسورا مهيأ ، ولظلت قلوب مكة معلقة بأهل البيت السعيد الذين فتحوا أبواب الدار ونوافذ الأفئدة لكل الناس ، ولكن محمدا لم يخلق للدعة والهدوء والاستقرار فهو منذ رأى النور كان حليف العزلة والألم والأحزان ، وكان فى رحلة دائمة ما إن يشب على قدميه فى بنى سعد حتى يعود إلى مكة ، وما يكاد يستقر فى بيت أبيه حتى تحمله أمه إلى يثرب ، إلى دار أخوال جده عبد المطلب من بنى النجار ، ثم يعود إلى مكة مثقلا بالأسى والهموم ، وينتقل من بيت أبيه إلى دار جده ثم من دار جده إلى دار عمه ، ولا يمكث طويلا فى تلك الدار فهو يخرج مع عمه الزبير إلى اليمن ثم يجوب الأسواق فى تجارة خديجة ، فإن كان قد عرف نوعا من الاستقرار فى دار الزوجية فما ذلك إلا ليلتقط أنفاسه استعدادا لأكبر كفاح يخوضه رجل من أجل انتشال البشرية من مهاوى الجهل والظلام ، إلى حيث يشرق النور على قلوب العباد .

وكانت خزائن خديجة تفيض بالذهب والفضة ، وكانت قافلة تجارتها تعدل قوافل قريش كلها ، وكان تاجرا ناجحا الخير فى ركابه والبركة فى يمينه ، فلو شاء أن يكون ثريا من أثرياء مكة فالظروف كلها ميسرة له ، ولو أراد أن يكون شريفا من أشراف دار الندوة كحكيم بن حزام وأبى سفيان ابن حرب وعتبة بن ربيعة وعمرو بن هشام (أبى جهل) لرحب به القوم ، ولكنه كان يرى أن المال وظيفته أن ينفق لإسعاد الناس ، وأن حكومة دار الندوة إن هى إلا حكومة تخدم مصالح السادة على حساب الفقراء والمساكين والعبيد وكل من ليس له سلطان . وهو يمقت الظلم ويستشعر فى أعماقه رغبة جياشة فى

مقاومة كل ظلم وفساد ، ولكنه كان بنفسه أضعف من أن يقاوم ما فى مجتمعه من شرور وآثام .

وأقبلت هالة بنت خويلد على دار أختها خديجة ، فلما رأت زينب ضمتها إلى صدرها فى حب وقبلتها فى شوق ، وكانت هالة منفعلة وهى تحتوى بنت أختها فى أحضانها حتى إن رقية وأم كلثوم قرأتا فى وجهها أشياء ، فنظرت كل منهما إلى أختها فى دهش ثم انسلتا إلى حجرتهما وزينب فى أثرهما .

ومرت هالة بعلى بن أبى طالب فداعبته وراحت تحاوره فألفته طيبا متفتحا فيه كل محاسن بنى هاشم ، فلم تعجب فهو أول صبى فى الأسرة من أبوين هاشميين كريمين ، فأبوه شاعر ذلك الحى من قريش ، وأمه من كرائم نساء البيت الهاشمى الذى عرفت نساؤه بدماثة الخلق والعزة والكرامة .

وخلت هالة بأختها فأفضت إليها بما جاءت من أجله ، قالت لها إن ابنها يرغب فى زواج زينب ، فأقبلت خديجة على أختها متفرحة ، فأبو العاص بن الربيع كان يغشى بيتها كلما أراد ، وقد كانت تعتبره ابنا من أبنائها كهند بن أبى هالة أو كعلى بن أبى طالب ، إنها لأمنية عزيزة أن تتزوج زينب ابن أختها هالة ، بيد أن خديجة على الرغم من موافقتها وترحيبها بهذه المصاهرة التمست من أختها أن تنتظرها حتى تستأذن محمدا .

ودخلت خديجة على محمد وقد عرف البشر فى وجهها ، وقالت له إن هالة جاءت تخطب زينب لأبى العاص ، فأثنى زوجها على ابن أختها ، ثم ذهب إلى حيث كانت بناته وقال لزينب فى عطف وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة عذبة : إن أبا العاص بن الربيع قد جاء يخطبها ، فأطرقت زينب حياء وإن تلألأ البشر فى وجهها والتمعت عيناها قبل أن تسبل عليهما جفونها ، فالتفت إلى خديجة وأنبأها بموافقته ، فسكوت زينب علامة رضاها على ذلك الزواج .

وجاء أبو العاص بن الربيع فى سادات قومه وغص بيت خديجة بسادات بنى أسد : ورقة بن نوفل وعدى بن نوفل — وحكيم بن حزام — وآل العوام بن خويلد ، وبسادات بنى هاشم : أبى طالب والزبير بن عبد المطلب والعباس وحمزة والغيداق وطالب وعقيل وأبى سفيان بن الحارث ، وسادات عبد شمس وسادات بنى أمية وسادات بنى مخزوم وسادات بنى تيم وسادات بنى عدى وأشراف قريش . ونحرت النحائر ومدت الموائد وقام القيان يرقصن وجلجلت أصواتهن بالغناء ، وساد الفرح الدار وراح أطفال قريش يغدون ويروحون كزهور الربيع : على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وأبناء أبى بكر ، كانوا جميعا فى تلك الدار التى لم تتجاوز نبضات قلبها زبوع مكة يمرحون ويضحكون ويباركون لمحمد بن عبد الله وأصهاره ، وما خطر على قلب رجل منهم أن ذلك الرجل الحيى الخجول سيرفع من شأنهم وسيسجل أسماءهم فى سجل الخلود .

واستوى الليل وحمل أبو العاص بن الربيع زينب بنت محمد إلى داره وأبوها يرقبها وأمها ترنو إليها وفى عينيها دموع وفى قلبها أفراح وفى ضميرها دعوات ، كانت بكل جوارحها وبكل عواطفها ترجو أن يكون التوفيق حليف ذلك الزواج .

وانفض الناس وعاد إلى الدار الهدوء ، ودخلت رقية وأم كلثوم حجرتهما ، كانت أول ليلة تدخلان فيها الحجرة وقد خلت من زينب ، فنظرت كل منهما إلى فراش أختهما الخالى ثم التقت نظراتهما وأطرق رأساهما أسى واندست كل منهما فى فراشها وأطلقت لخيالها العنان وراء الماضى ويحاول أن يستشف ما فى المستقبل المرتقب ، واستمرت كل منهما تحلق مع أحلامها المجنحة حتى خطفها النوم لتسعد بالرؤى العذاب .

٣٣

دخل بنو مخزوم الحرم ومن خلفهم الحبش عبيد عبد الله بن أبى ربيعة يحملون كسوة البيت ، فلما رأى الناس عبد الله بن أبى ربيعة همسوا قائلين :

ـــ العِدْل .

فقد كانت قريش بأجمعها تكسو الكعبة من أموالها سنة ويكسوها هو من ماله سنة ، واشرأبت الأعناق وامتدت العيون إلى عبد الله تنظر إليــه فى إعجاب ، وتحركت الألسنة تروى ما تعرف عنه فقال قائل :

ـــ ابن ذى الرمحين .

فقد قيل إن أباه قاتل برمحين يوم عكاظ ،وراح الناس يروون أن ريطة هى أم بنى المغيرة ولدت من المغيرة هشاما وهاشما وأبا ربيعة والفاكه ، وأن أم عبد الله أسماء بنت مخرمة عطارة يأتيها العطر من اليمن ، وقد تزوجها هشام بن المغيرة فولدت له عمرو بن هشام (أبا جهل) .

وهتف هاتف وهو يشير بأصبعه :

ـــ هذا الوليد بن المغيرة وابنه خالد بن الوليد .

فقال آخر :

ـــ صارت إلى خالد القبة والأعنة ، وأصبح فارس قريش .

فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فأنه سيكون على خيل قريش إذا ما خرجت للقتال .

وارتفعت أصوات تقول وموكب بنى المغيرة يتقدم صوب الحرم :

ـــ أبو حذيفة بن المغيرة .

كان أبو حذيفة هو القائل يوم أن أعادت قريش بناء الكعبة : « ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل إلا بسلم ، فإنه لا يدخلها حينئذ إلا من أردتم ، فإن جاء أحد ممن تكرهون رميتم به فيسقط فكان نكالا لمن رآه » .

كان الموكب فاخرا يموج بسادات بنى المغيرة ، وكان عبيد « عبد الله بن أبى ربيعة » الحبش يحملون أستارا من أجود الأقمشة ، ولم يثر كثرة الحبش دهشة الناس فقد كانوا يعرفون أن لعبد الله بن أبى ربيعة عبيدا من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وكان له جيش من الحبش .

كان الموكب مثيرا فبنو المغيرة يرفلون فى ثياب غالية والعبيد فى حلل قشيبة وعلى جانبى الركب جند بلا أسلحة وكل شىء ينم عن الثراء ، فلا غرو أن ضرب بعزهم المثل .

ورأى بعض المجان العاص بن هاشم بن المغيرة فراحوا يتغامزون عليه ، فهو ماجن عاهر ارتكب من الحماقات ما ضاقت به بنو المغيرة حتى هددوه بأن يخلعوه منهم ويبرءوا منه ومن أفعاله .

وراحوا يروون مغامراته فى الخمر والميسر والنساء وما أنزل بأهله من مغارم ، وكيف أن أبواب دور أبيه وأعمامه وجدته قد أغلقت فى وجوه دائنيه ، وكيف أعلن أبوه هاشم أنه لن يسدد أى دين يخسره ابنه فى الميسر .

وتذكر بعض من كانوا فى الحرم أبا أمية بن المغيرة فقال أحدهم فى أسى :

ـــ مات زاد الركب وغاب عن موكب قومه .

كان أبو أمية بن المغيرة زوج عاتكة بنت عبد المطلب ، وكان قد خرج تاجرا إلى الشام فمات بسَرْوْ سحيم ، فلما بلغ أبا طالب موت زوج أخته رثاه بقوله :

ألا إن زاد الـــركب غير مدافَــــع
بسرو سُحَيم غيَّبتـــــه المقابــــــر
بسرو سحيم عـــــارف ومناكــــر
وفـارس غـارات خطيب ويـاسر[(١)]
تنــادوا بــأن لا سيـــد الحى فيهم
وقـد فُجع الحيـان كـعب وعامــر
فكــان إذا يــأتى مــن الشام قافــلا
بمقدمـــه تسعـــى إلينـــا البشائـــر
فيصبـــح أهـــل الله بـــيضا كـــأنما
كستهم حـــبيرا ربـــدة ومعافـــر
تــرى داره لا يبرح الدهــر أمدهـــا
مجعجعـــة كَـــوم سمان وباقـــر[(٢)]
إذا أكـلت يومـا أتى الدهـر مثلهـا
زواهـــق زهـــم أو مخاض بهازر[(٣)]
ضروب بنصل السيـف سوق سمانها
إذا عدمـــوا زادا فـــإنك عاقـــر
وإلا يكـــن لحم غـــريض فإنـــه
تـــكب على أفواههـــن الغرائـــر
فيــالك مـــن نـــاع حبـيت بآلـــة
شراعيـــة تصفـــر منها الأظافـــر

(١) اللاعب بقداح الميسر . وهو مما يفاخرون به لأن الغالب يفرق لحم الجزور على الفقراء .

(٢) اسم جمع « بقرة »

(٣) النوق العظيمة .

وراح الأشراف يغسلون الكعبة بماء زمزم حتى إذا ما انتهوا منها تقدم سادات بنى المغيرة يكسونها ثم يطيبونها ويبخرونها بأجود أنواع المنــدل والعود ، وكانت أسماء بنت مخرمة تختار أفخر أصناف الطيب بما لديها من خبرة فى العطارة .

وطاف سادات بنى مخزوم وسادات قريش بالحرم ثم انسلوا إلى دورهم .

وجاء الليل وانطلق السمار إلى مسامرهم ، فخرج العاص بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب إلى حيث يمضى سادات قريش ليلهم فى لعب الميسر عند صفوان بن أمية صاحب الأزلام ، فقد كانت الأزلام فى بنى جمح .

واتفق أبو لهب والعاص بن هشام على أن يقامرا بعشر من الإبل فدعوا القدّار وهو الجزار وأمراه أن ينحرها ويجعلها عشرة أجزاء ، الكتفين جزأين كل واحدة منهما جزءا ، والصدر جزءا ، والعضدين جزأين ، والكاهل جزءا ، والملحاء وهو ما بين السنام إلى العجز جزءا ، والفخذين كل واحد منهما جزءا . ثم يقسم على الأجزاء العشرة ما فضل من الجنبين والسنام والكبد .

وأخذ أبو لهب قدحه وأخذ العاص قدحه ، وجلس الحُرْضة وهو الذى يضرب للاعبى الميسر بالقداح ، وهو لم يأكل لحما قط بثمن إنما يأكله عند غيره أو يهدى له الأيسار ، وأخذ يلف كفه بقطعة من جراب لئلا يجد مس قدح يكون له مع صاحبه محاباة ، وقد جلس خلفه الرقيب ليتناول منه السهم الذى يخرج فيخبر المتقامرين به .

وقال العاص :

ـــ المِجوَل .

فأتوا بالمجول وهو ثوب شديد البياض وجعلوه على يدالحُرضة ليغشى بصره

فلا يعرف قدح أبى لهب من قدح العاص .

وأراد العاص أن يطمئن إلى حياد الحرضة فقال :

— علىّ بالربابة .

فجىء بكيس فوضع به العاص سهمه ووضع أبو لهب سهمه فاستل الحرضة سهما ثم ناوله الرقيب من غير أن ينظر إليه ، فنظر الرقيب فيه وقال :

— سهم أبى لهب .

وفاز أبو لهب فأرسل اللحوم إلى الفقراء ودفع العاص ثمنها ، وقد ضاق صدره بما منى به من هزيمة وأراد أن يعوض ما فاته فطلب من أبى لهب أن يقامره على عشر ثانية من الإبل .

وجىء بالإبل ونحرها الجزار ، ودفع العاص إلى الحرضة سهمه ودفع إليه أبو لهب سهمه ووضع السهمان فى الربابة ، ومد الحرضة يده وأخرج سهما ناوله إلى الرقيب ، وما إن نظر فيه حتى صاح :

— فاز أبو لهب .

وحملت اللحوم إلى دور الفقراء والمساكين والرجال يتغنون بأبى لهب ، يقولون :

إذا شهد الأيسار أو غاب بعضهم
كفى الحى وضاح الجبين أريب

وزاغت نظرات العاص وانبهرت أنفاسه وتحرك جشعه وحز فى نفسه أنه دفع ثمن عشرين من الإبل ، ورأى أن يستمر فى اللعب ليخسر أبو لهب مثلما خسر ، فطلب من أبى لهب أن يقامره على عشر ثالثة من الإبل .

وجىء بالإبل ونحرت ودفع العاص بسهمه إلى الحرضة وهو يسبه ويلعن شؤمه ، وقدم إليه أبو لهب سهمه وهو يمتدحه ويمتدح خيره ، ووضع

السهمان فى الربابة وتناول الحرضة سهما ودفع به إلى الرقيب والعاص يرقب شفتيه فى اهتمام ، حتى إذا ما قال :

ـــ سهم أبى لهب .

أحس كأن خنجرا يغوص فى قلبه ، واستبدت به نزوة المقامرة فظل يقامر حتى خلعه أبو لهب من ماله فلم يبق له شىء ، و لم يحتمل قسوة الهزيمة فقال لأبى لهب :

ـــ إنى أرى القداح قد حالفتك يا بن عبد المطلب ، فهلم أقامرك فأينا قُمر كان عبدا لصاحبه .

وحبست الأنفاس واتسعت العيون ، لقد بلغت المقامرة ذروتها ، إن أناسا قد قامروا من قبل على نسائهم ، أما أن يخاطر رجل بحريته فذلك شىء مثير ، وصوبت الأنظار إلى أبى لهب وكانت روح المقامرة قد استولت عليه فقال :

ـــ أفعل .

وتجاوب المكان صيحات ترحيب وصيحات إنكار ، ودنا صفوان بن أمية صاحب الأزلام من الحلقة التى ضربت حول الحرضة يرصد هذه المقامرة المجنونة فى حرص شديد ، فما كان يستطيع أن يتصور أن يصبح أبو لهب عبدا للعاص بن هشام أو يصبح العاص بن هشام عبدا لأبى لهب . لقد باتت حرية أحد الرجلين معلقة بخروج سهم يحركه القدر !

وناول العاص سهمه للحرضة وهو يرتجف من الرأس إلى القدم ، وقدم إليه أبو لهب سهمه وقد مشت فى بدنه قشعريرة ، فإنه لأمر مخيف أن يفقد المرء حريته ويصير عبدا ملك يمين غريمه يحييه إن شاء ويقتله إن شاء ويذله إن شاء ويكلفه بما يشاء من أعمال وضيعة .

وراحت العيون تتبع حركات يد الحرضة وقد ران على المكان ترقب ورهبة

وقلق ، ومرت اللحظات بطيئة بطيئة لكأنها كانت دهرا ، وظهر فى يد الحرضة سهم من السهمين فشحب لون العاص ، فهو يخشى أن تستمر مخالفة القداح لابن عبد المطلب ، وراح قلبه يقفز فى صدره ويخفق خفقات وجل شديد ، وارتجفت شفتا أبى لهب واضطربت يده و لم تستقر عيناه فقد راح ينظر إلى لا شىء .

ومد الحرضة يده إلى الرقيب بالسهم فتناوله الرقيب بيد مرتجفة ونظر فيه والناس جميعا ترصد حركات شفتيه ، فقال فى صوت خافت مرتجف :

ـــ خرج سهم أبى لهب .

وتنفس أبو لهب الصعداء كأنما قد قام من تحت صخرة كانت تكتم أنفاسه ، وترنح العاص بن هشام وقد انقشعت عن عين بصيرته غمامة نزوة المقامر وانكشف لعقله الحقيقة البشعة ، إنه فقد حريته إلى الأبد استجابة لرغبة جامحة ليس لها عقل ، صار عبدا .. عبدا .

ورن فى جوفه صوت ساخر يردد . « العاص بن هشام مولى أبى لهب بن عبد المطلب .. العاص مولى أبى لهب .. العاص مولى أبى لهب » فود لو يستطيع أن يكتم أنفاس ذلك الصراخ المرير الذى يصبيه ، أو يخنق نفسه . وعادت السخرية تدوى بين جنبيه : « نفسك ؟! إنها لم تعد ملكك ، إنها قد صارت منذ الليلة ملك أبى لهب إن يشأ يزهقها وإن يشأ يطلقها » .

وكره أبو لهب أن يسترقه فتغضب بنو مخزوم ، فمشى إلى أبيه وقال له :

ـــ افتده منى بعشر من الإبل .

فظهر الغضب فى وجه هشام وأبى أن يفتديه ، فمشى أبو لهب إلى أعمامه وإلى جدته أسماء بنت مخربة وقال لهم :

ـــ افتدوه منى بعشر من الإبل .

فقالوا :

— لا والله ولا بوبرة .

وأبت بنو مخزوم أن تفتدى ابنها الماجن الآبق بعشر من الإبل ، ولما كان قلب أبى لهب قد قُدّ من فولاذ وإن كان جميل الخلقة ، فقد استرقه وأجلسه حدادا يعمل على الحديد » وأصبح العاص بن هشام مولى أبى لهب بن عبد المطلب .

٣٤

جلس على بن أبى طالب ورقية وأم كلثوم يصغون إلى محمد وهو يحدثهم عن دين قومهم وعن الأصنام التى لا تملك لنفسها نفعا أو ضرا . وكانت خديجة بعيدا ، فلما مس صوته أذنيها هرعت إليه لتصغى إلى عذب حديثه لتنسى آلام الحمل التى تضرب ظهرها وتسرى فى أحشائها .

كان على أكثر السامعين تفتحا ، وكان يرنو إلى ابن عمه فى حب وإعجاب يستشعر كلامه يستقر فى قلبه فينيز عين وجوده بالحكمة . إنه قد ذهب إلى الملتزم ليتعلم هناك القراءة والكتابة وقد ألقى سمعه إلى معلمه ، ولكن هيهات بين ما يسمع فى بيت الله وفى بيت خديجة . كان ابن عمه بحرا من العلم والحكمة بينا كان معلمه ضحلا لا يعرف من العلوم إلا سجع الكهان وأوزان الشعر ، وقد كره على نظم الشعر كما كرهه ابن عمه من قبل .

وكان على كلما غشى بيت أبيه ورأى الصنم الذى يسجد له آل أبى طالب تذكر قول ابن عمه فى الأصنام ، فألقى نظرة ازدراء على معبود آبائه وخرج ،

وكان كلما ذهب إلى الحرم ليطوف به ورأى الساجدين للأوثان سخر فى قرارة نفسه من عقولهم ، فقد كرم الله وجهه ولم يسجد أبدا لصنم .

وراحت فاطمة تغدو وتروح فى الغرفة ، تذهب إلى أبيها مرة وتنطلق إلى أمها مرة وترتمى بين أحضانهما فتلقاها خديجة باشة وهى تجاهد أن تخفى الألم الذى يعتصر جوفها ، وفطنت أم أيمن إلى ما تقاسى سيدتها فذهبت إلى فاطمة وحملتها ثم خرجت بها تداعبها بعيدا ، حتى لا تعكر صفو تلك الجلسة الهادئة ولتخفف عن خديجة آلام ارتمائها على بطنها .

وقام محمد ليودع الخارجين فى رحلة الصيف فطلب منه على أن ينطلق معه ، فأخذه فى يده وهو يبش له ويلقى على مسامعه نصائحه ، وخرجا إلى البيت وطافا به ثم ذهبا إلى حيث أناخت قافلة قريش ، وقد امتازت هذه الرحلة بشىء مثير ، فقد عزم الشابان عمرو بن العاص وعثمان بن عفان أن يركبا البحر وأن يذهبا إلى الحبشة وأن يلتمسا الإذن بالدخول على النجاشى لتوطيد أواصر الود بينه وبين الجيل القرشى الجديد .

وحان أوان الرحيل فتحركت المشاعر فى القلوب ، وانثالت الذكريات على رءوس الرجال والشيوخ الذين قعدوا عن الخروج فى تجارة أهلهم ، وودع محمد الرجال الذين سيسيرون فى معبد الله الكبير ، ثم قفل عائدا إلى داره وعلى بن أبى طالب فى يده .

وكان يحدث عليا وهما فى الطريق عن الخيل وركوبها ، وعن السهام وإطلاقها ، وعن السيوف واللعب بها ، وعلى يصغى إلى حديثه مشرق النفس ، تتراءى له أحلام جميلة ، ويطير مع آماله المجنحة فيرى نفسه فتى قريش وفارسها وبطلها الذى لا يدانيه بطل من أبطال العرب .

ودخل محمد وقد أرهف سمعه وغشيته رحمة ، فقد ترك خديجة وهى

تضع ما فى بطنها ، وانقلب على إلى أم كلثوم مسرورا يروى لها ما رآه فى يومه وكانت تحمل فاطمة ، فرقية وأم أيمن كانتا مع خديجة فى الغرفة التى أغلق بابها .

وراح محمد يغدو ويروح فى غرفات الطبقة العليا من الدار وهو يناجى ربه يسأله السلامة لزوجه التى ملأت حياته سلاما ، وفتح باب الغرفة وخرجت أم أيمن مسرورة ، وذهبت إلى حيث كان محمد وقالت له وقد أفعمت بالفرح :

— غلام ! إنه غلام !

وأطرق محمد برأسه ووقف خاشعا برهة كأنه فى صلاة وقد اتصلت روحه بروح الكون ، وانبعثت من صميم ذاته آيات الشكر لله ، وفاضت رحمته فترقرقت الدموع فى عينيه ، ثم ذهب إلى حيث كانت خديجة راقدة وإلى جوارها ابنهما ، فألقى على الطفل نظرة فإذا بشعره فاحم السواد كثا كشعره ،وإذا بأنفه أشبه بأنفه . فتحركت عاطفة الأبوة فيه فمال عليه وطبع على جبينه قبلة .

وفتحت خديجة عينيها وأشرق وجهها بابتسامة عذبة رقيقة ، ثم قالت :

— ماذا نسميه ؟

فقال محمد وهو يقبله بنظراته :

— القاسم .

وانطلق إماء خديجة إلى دور قريش يذعن نبأ مولد ابن محمد بن عبد الله ، فخف آل أبى طالب والعباس وحمزة وبنو أسد والصديق الوفى أبو بكر ليهنئوا أبا القاسم بما منّ الله عليه .

وجاء اليوم السابع من مولده فأمرت خديجة بنحر الجزور وإطعام الناس ،

وأولمت وليمة فاخرة لسادات قومها لم تشهد الدار مثلها من قبل ، فقد كانت في أعماق أعماقها تستشعر أنه لشرف عظيم أن يكون لها ولد من ابن عبد الله .

وانفض الجمع والسعادة تخفق بجناحيها على البيت الهانىء السعيد : مال ممدود وزواج موفق وذرية صالحة مطيعة خيرة وشرف وسؤدد وسلطان ، لقد تسنمت دار خديجة ذروة السعادة ، ولو كان رب البيت غير محمد بن عبد الله ربيب السماء ، لأسلم جنبيه لنوم هادىء لذيذ ، ولكن أبا القاسم استمر عازفا عن لذات الأرض هائما فى لذات السماء وكل ما تصفو به الروح .

إنه بات إذا رأى رؤيا جاءت كفلق الصبح ، فإذا رأى فى ليله حدثا من الأحداث جاء نهاره بما رآه فى نومه ، كأنما قد رفعت عن بصيرته أسجاف الغيب ، وكان يقص على خديجة أحلامه فكانت زوجته ترقب الأيام إرصادا لتأويل أحاديثه ، فإذا بالأحداث تقع كما رآها لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل ، فرؤياه صادقة ناصعه كرائعة النهار لا يلفها غموض ولا ضباب .

وتيقنت خديجة أن ما يراه أبو القاسم من عند الله إلهام يهبط عليه من السماء ، ونفث فى روعها أن ذلك بداية الشىء الذى كانت تتعجله ، فأشرقت نفسها بالأمل وخفق قلبها بالرجاء ويسرت لزوجها طول السهر مع ربه والنظر إلى وجهه .

ولم يشغل القاسم قلب أبيه عن الله ، فاستمر محمد فى اعتكافه وفى قطع شواغل الدنيا عن قلبه ليخلو لله وليتلقى من فوق السموات العلم والحكمة ، وقد شفت روحه وارتقت فى معارج الوصال حتى صارت قاب قوسين أو أدنى من نور النور وكمال الكمال .

وجاء إلى البيت السعيد أبو لهب وزوجه أم جميل بنت حرب بن أميه ، فألفيا عليا يداعب القاسم وخديجة تحنو عليها وتقول لعلى :

— قبل أخاك .

فتحركت الرقة فى قلب الرجل الذى قد قلبه من الصخر فمال على علىّ وقبله وحمل القاسم بين يديه وضمه إليه فى حنان ، ثم التفت إلى أم جميل وقال :

— إنه ليذكرنى بيوم مولد محمد .

وجاء محمد يرحب بعمه الذى أعتق مولاته ثوبية يوم بشرته بمولده ، ويحيى أم جميل وهو متطلق الوجه ، ولما جلسوا أجلس محمدا عليا إلى جواره ، فإن كانت خديجة تقول على الدوام إن عليا أخو القاسم فإن محمدا يقول إن عليا أخى ، فمحمد كان يحس فى قرارة نفسه أن ابن أبى طالب لم ير له أبا سواه .

وراح الجميع يتبادلون حديثا رقيقا حول رقية وأم كلثوم ومعتب وعتبة ، ثم قال أبو لهب إنه ما جاء إلا ليخطب ابنتي محمد لولديه ، فرحب محمد بهذه المصاهرة فهو يحب عمه وأولاده ويسره أن تقوى الأواصر بينه وبين بيت أبى لهب ، ولكنه علق موافقته على موافقة رقية وأم كلثوم .

ودخل على بنتيه فى حجرتيهما وقال لهما إن عمه أبا لهب يخطبهما لولديه معتب وعتبة وأنه يحب أن يسمع رأيهما فأطرقت البنتان حياء وإن ترقرق البشر فى وجهيهما ، فابتسم محمد وضمهما إليه فى حنان وقد توجت شفتيه بسمة رقيقة .

وعاد إلى حيث كان عمه وأم جميل وخديجة وقد نم وجهه عن الرضا فاستبشرت خديجة ، وأقبل على عمه يعلنه بموافقته وموافقة بنتيه على إتمام الزواج ، وفى جو مفعم بالود اتفق على موعد الخطبة .

وجاء إلى دار محمد أشراف بنى هاشم وأشراف بنى أمية وأشراف بنى أسد

وأشراف بنى عبد شمس ، وسادات بنى تيم وبنى عدى وبنى نوفل وبنى مخزوم وبنى زهرة وبنى عبد الدار وبنى سهم وبنى جمح وجلس أبو طالب إلى جوار أبى سفيان ، وورقة بن نوفل إلى جوار الوليد بن المغيرة ، وحكيم بن حزام يحادث حمزة بن عبد المطلب ، وجاء أبو بكر وعمرو بن العاص بن وائل .

وراح الزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعلى بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان يغدون ويروحون ويتنقلون بين الآباء ، وقد ساد الجميع الألفة والمحبة والسرور . وكانت تلك الليلة هى أخر ليلة يجتمع فيها شمل قريش ، فقد دنت رسالة محمد بن عبد الله التى يفرق بها بين الابن والأب والزوج والزوجة والصديق والصديق .

وانفض الناس كل إلى داره وبقيت السعادة مستقرة فى دار أبى القاسم ، حتى وعك القاسم فسهرت به خديجة وهى قلقة ، وراح محمد يحاول أن يواسيها وأن يعيد الطمأنينة إلى قلبها الواجف ، وإن شغل بمرض ابنه الحبيب .

واشتد المرض بالصبى الرضيع فارتسم فى وجه خديجة الهلع ، إنه فلذة الفؤاد وإن مجرد خاطر أن يموت يزلزل كيانها ويذهب نفسها شعاعا ، فيا طالما تمنت أن ترزق بولد لتقر به عين زوجها وقد حقق الله ما تمنت ، أوَيموت القاسم بعد أن تعلقت به روحها وروح زوجها ؟

وضاق صدر الصبى بأنفاسه ووهنت عيناه ومشى إليه الموت فأحست نياط قلبها تتمزق ووقدة نار فى حلقها ودموعها تجرى على خديها ، ولم تحتمل قسوة العواطف التى تجتاحها فشرقت بدموعها .

ورأى أبو القاسم ابنه يجود بروحه أمام عينيه فأحس بلوعة الفقد تغوص فى فؤاده وشعر بعنف الحزن يعتصر قلبه والعبرات تترقرق فى مقلتيه ، وفاضت رحمته فتناول الجسد الرقيق فى رفق وحمله على ذراعيه وقلبه يفيض أسى .

وأسلم القاسم الروح بين يديه فأعاده إلى فراشه وفى صدره شجن وفى جوفه نار ، ثم مد يده إلى وجهه وأسبل عينيه ، ولم تتحمل خديجة وطأة أحزانها فندت منها صرخة أم ثكلت فى أعز أمانيها .

وران على الدار حزن ، وكان موت القاسم إيذانا بانتهاء عهد الاستقرار وبدء عهد الشدة والصبر والكفاح والأحزان ، فما كانت الأعمال الكبار تتحقق إلا بالجهد والألم وتحمل ألوان العذاب ، وإن العمل الذى سيكلفه به ربه تنوء بحمله الجبال ، لولا رحمة من الله .

التـذييل

سأعود فى هذا التذييل إلى الحديث عن البشارات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن الإرهاصات التى ذاعت قبل مولده وبعثه . وقد دفعنى إلى هذا الموضوع أن كثيرا من المثقفين من المهتمين بدراسة مطلع الرسالة المحمدية يميلون إلى الأخذ برأى المستشرقين القائل بأن أغلب البشارات قد وضعها الإخباريون والمؤرخون المسلمون بعد انقضاء زمن الرسالة وانتشار الإسلام تأكيدا لدينهم ، ولإيهام المسلمين أن البشرية كانت تنتظر مبعث رسول كريم .

قد يكون لهذا الرأى وجاهته لو أن البشارات عن محمد بن عبد الله قد اقتصرت على روايات الإخباريين الإسلاميين والمؤرخين المتحمسين لدينهم ، ولكن التوراة والإنجيل فاضتا بالبشارات بالنبى الأمى الذى سيبعث من الأمم لا من بنى إسرائيل ، وقد سقت تلك البشارات بالتفصيل فى الأجـزاء السابقة ، والقرآن الكريم يؤكد أن أهل الكتاب كانوا يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم . ولو أن محمدا (ﷺ) قد ادعى هذه الدعوة و لم يكن لها سند فى التوراة أو الإنجيل لما اعتنق يهودى أو نصرانى الإسلام ، ولكننا نجد كثيرا من اليهود ومن النصارى قد دخلوا فى دين الله أفواجا لما أضاء نور الهداية صدورهم .

وللتدليل على أن بعض أيات الكتاب المقدس تبشر به نسوق ما قاله ول ديورنت فى كتابه قصة الحضارة ، وول ديورنت مؤرخ مسيحى معاصر

هاجم اليهودية فى كتابه ، فهو لا يؤمن بالأديان ، ولكنه قال فى الجزء الثانى من المجلد الرابع « عصر الإيمان » عندما كان يتكلم عن محمد فى مكة ، فى الفترة ما بين ٥٦٩ إلى ٦٢٢ من مولد السيد المسيح : « لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة ، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل وقطيعا من المعز وبيتا وأمة عنيت بتربيته فى طفولته ، ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه كأنه حمد مرة بعد مرة ، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات فى التوراة تبشر به » .

وإذا كان الإخباريون المسلمون والمؤرخون المتحمسون لدينهم هم الذين وضعوا البشارات والإرهاصات فى أخبارهم وتاريخهم ، فمن الذى جعل زرادشت يوصى قومه بأن يستمسكوا بما جاءهم به إلى أن يأتيهم صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب ؟

لقد ألف مولانا عبد الحق قديارى كتابا باللغة الإنجليزية سماه « محمد فى الأسفار الدينية العالمية » ، واستفاد فى مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعزبية وبعض اللغات الأوربية ، و لم يقف فيه عند التوراة والإنجيل فقط بل عم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له فى بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر أننا أطلعنا على شاهد أقوى منها فى روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية[1] .

ويقول الأستاذ عبد الحق إن اسم الرسول العربى « أحمد » مكتوب بلفظة العربى فى الساما فيدا Sama Vida من كتب البراهمة ، وقد ورد فى الفقرة

(١) مطلع النور للأستاذ عباس محمود العقاد .

السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها أن « أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة ، وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » .

ويزيد الأستاذ عبد الحق على ذلك أن وصف الكعبة المعظمة ثابت فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يسميها الكتاب بيت الملائكة ، ويذكر من أوصافه أنه ذو جوانب ثمانية وذو أبواب تسعة .

والمؤلف يفسر الأبواب التسعة بالأبواب المؤدية إلى الكعبة ، وهى باب إبراهيم وباب الوداع وباب الصفا وباب على وباب عباس وباب النبى وباب السلام وباب الزيارة وباب حرم .

وفى مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف أن النبى محمدا (ﷺ) مذكور بوصفه الذى يعنى الحمد الكثير والسمعة البعيدة ، ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذى ورد فى كتاب الأثار فافيدا حيث يشار إلى حرب أهل مكة وهزيمة (العشرين والستين ألفا مع تسعة وتسعين) وهم على تقدير المؤلف عدة أهل مكة وزعماء القبائل الكبار ووكلائهم الصغار ، كما كانوا يوم قاتلوا النبى صلوات الله عليه .

وكذلك صنع بكتب زرادشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية ، فاستخرج من كتاب زند أفستا Zend Ouesta نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيانت Soeshyant » ، ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبا لهب Angra Mainya ، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفؤا أحد (هيج جيزياونمار) وليس له أول ولا آخر ، ولا ضريع ولا صاحب ، ولا أب ولا أم ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا ابن ولا مسكن ، ولا جسد ولا شكل ، ولا لون ولا رائحة . « جزاحاز وانجام وانبار ودشمن ومانند وياز وبدر ومادر وزن فرزند وحاى سوى وتن اسا وتنانى ورنك وبوى لست » .

وهذه هى جملة الصفات التى يوصف بها الله سبحانه وتعالى فى الإسلام : أحد صمد ، ليس كمثله شىء ، لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا أحد ، و لم يتخذ صاحبة ولا ولدا .

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تنبىء عن دعوة الحق التى يجىء بها النبى الموعود ، وفيها إشارة إلى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها إلى اللغة العربية معناها بغير تصرف « أن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التى تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوخ وبلخ ، وهى الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم ، وإن نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات(١) » .

والكتاب يفيض بنبوءات التوراة والإنجيل وقد أوردناها فى الكتب السابقة ، وأعتقد أن فى ذلك الكفاية للتدليل على أن النبوءات والإرهاصات بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم ليست من وضع الإخباريين المسلمين ولا المؤرخين المتحمسين لدينهم ، وصدق الله العظيم حيث قال فى كتابه الكريم : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون(٢) » .

وأعود لأتمم حديثى عن الحنفاء الذين كانوا على دين إبراهيم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم . قال الإخباريون إن عبيد بن الأبرص كان من الحنفاء وإنه كان من فحول العرب وشعرائها المفلقين ، ونراه فى القصيدة

---

(١) صفحة ٤٧ من كتابه : « محمد فى الأسفار الدينية العالمية » .
(٢) الأنعام ٢٠

البائية التى أوردناها فى صلب الكتاب[١] يتوكل على الله ويدعو الناس إلى الاعتماد عليه ، فهل هذه البائية من نظم من قيل عنه إنه من فحول شعراء الجاهلية ؟

قال الجاحظ : إن عبيدا وطرفة بن العبد دون ما يقال عنهما إن كان شعرهما ما فى أيدى الناس فقط ، وقد أشار أبو العلاء المعرى إلى اختلال بائيته بقوله :

وقد يخطىء الرأى امرؤ وهو حازم
كما اختل فى نظم القريض عبيد

وفى رأيى أن هذه البائية التى قال عنها أبو العلاء إنها مختلة لا يمكن أن تكون من نظم شاعر جاهلى قيل عنه إنه من الفحول ، بل هى مدسوسة عليه قد عملت بعد صدر الإسلام فى زمن التدوين ونسبت إلى ذلك الشاعر ، وقد نسب الإخباريون ذلك الشعر وأمثاله لبعض من قيل إنهم من الحنفاء لتأكيد التكهن بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه ، وما كان الوحى فى حاجة إلى من يثبته من الشعراء والأحناف وقد بشرت الكتب السماوية كلها برسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

ووقفت طويلا أمام سن السيدة خديجة يوم أن تزوجت محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقد قيل إنها كانت بنت أربعين سنة ، وقيل ثلاثين وقيل خمس وثلاثين وقيل ثمان وعشرين وقيل خمس وعشرين ، وقد أخذت بالقول القائل بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها وهى يومئذ بنت ثمان وعشرين معتمدا فى ذلك على قول ابن عباس :

« إنها كانت فى الثامنة والعشرين ولم تجاوزها » .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « مطلع النور » .

---

(١) انظر ص ٢٤

« وكان النبى عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة فى نحو الخامسة والعشرين من عمره . أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول إنها كانت فى الأربعين أو فى الخامسة والأربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : إنها كانت فى الثامنة والعشرين و لم تجاوزها ، وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة . لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد فى الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد .

وقد يرجح تقدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج فى نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وإن كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبى هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو أن أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام » .

وخاتم النبوة الذى كان بين كتفى محمد صلى الله عليه وسلم دلالة على نبوءته الشريفة أكان من وضع كتاب السيرة ؟ يقول المتشككون فى كل شيء إن كتاب السيرة المسلمين اخترعوا قصص الإرهاصات بنبوءة نبيهم ، وقصص الأحبار والرهبان والكهان الذين بشروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك خاتم النبوة وتقبيل الراهب بحيرا له ، وطلب الراهب نسطورا من محمد إبان أن كان منطلقا إلى الشام فى تجارة خديجة أن يكشف عن ظهره ليرى العلامة ، كل ذلك قد وضعوه ليؤكدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال الذين لا يؤمنون بالعلامات والدلائل الملموسة إن وجود ذلك الخاتم لا يقدم ولا يؤخر فى أمر محمد بن عبد الله وصدق رسالته ، فما كانت بعثة

محمد فى حاجة إلى دليل مادى ملموس لتأكيدها ، ويكفي ما فى حياة الرسول قبل أن يبعثه الله وبعد الرسالة ما يؤكد صدق رسالته .

وأحب أن أقول : إن الاسلام فى كل ما شرع من عبادات يشرك الجسد مع الروح ، فهو يحترم الجسد احترامه للروح ، ففى الصلاة يشارك الجسد بالقيام وبالسجود الروح فى العبادة ، وكذلك الحال فى الصوم وفى الحج ، فلا غرابة أن يكون فى الرسول علامات جسدية مع الدلالات الروحية التى ينفرد بها ، وقد قال كتاب السيرة إن من العلامات الجسدية خاتم النبوة والحمرة الدائمة فى عينيه ، فهل كان ذلك محض اختراع ؟

لو سلمنا بأن كتاب السيرة المسلمين المتحمسين لنبيهم هم الذين اخترعوا حكاية خاتم النبوة وأنه من نسج خيالهم لإثبات سلطان نبيهم ، فمن الذى دسها فى التوراة ؟ إن أشعيا يقول فى إحدى بشاراته بالنبى الأمى الذى سيبعث من الأمم لا من بنى إسرائيل : « وأثر سلطانه على كتفيه » إشارة إلى خاتم النبوة ولا ريب ، فخاتم النبوة حقيقة واقعة ليس من نسيج خيال أتباع محمد المتحمسين له المؤمنين برسالته .

إن الملوك أو رؤساء الجمهوريات إذا ما بعثوا سفيرا إلى دولة من الدول زودوه بأوراق اعتماده الدالة على سفارته ، أويستكثر على رب الملوك ورؤساء الجمهوريات وحكام الأرض جميعا أن يزود رسوله بأوراق اعتماده ؟! لقد كان خاتم النبوة أوراق اعتماد محمد صلى الله عليه وسلم من رب العالمين .

وأثار المتشككون والطاعنون فى الإسلام موضوع معرفة الرسول الكريم اليهودية والنصرانية قبل البعثة وتأثره بتعاليم الديانتين فى رسالته ، وأحب أن أمضى مع المتشككين والطاعنين فى صدق محمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر الشوط فأعترف بأنه من الجائز أن يكون قد عرف اليهودية والمسيحية بل

والمجوسية أيضا ، فهند بن أبى هالة ، ابن زوجته خديجة الذى تربى فى حجره كان أبوه من تميم وكانت تميم تدين بالمجوسية ، فجائز أن يكون قد عرف المجوسية كما عرف الحنيفية واليهودية والنصرانية والصابئة من قبل ، فهل يقوده ذلك العلم إلى أن ينكر أخطاء تلك الديانات وما دس عليها من زيف وما أصابها من تبديل ، وأن يقوم اعوجاجها ويسمو بها من الشرك الذى يهبط بالبشرية إلى نقاء التوحيد ، ويعيد إلى الإنسانية كرامتها ؟!

كان ورقة بن نوفل يعرف اليهودية والنصرانية ، وكان عبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث على دين النصارى ، وكان أمية بن أبى الصلت يطمع فى الرسالة ، وكان آلاف من الكهان والأحبار والرهبان فى صوامعهم قد انقطعوا للعبادة ، فماذا فعل كل هؤلاء بقراءاتهم فى الكتب ودراستهم للأديان ؟

ولماذا نذهب بعيدا وأمامنا حاضر واقعنا ، إننا فى عصرنا هذا نعرف اليهودية والنصرانية والإسلام ، وفلسفات اليونان والآراء الفلسفية قديمها وحديثها ، ونزعم أن قلوبنا قد أشرقت بنور اليقين ، فهل يستطيع مصلح مهما أوتى من فصاحة أن يعيد النساء إلى الحجاب ، وأن يقضى على التبرج وطغيان المادية وعبادة المال والربا والبغى والبغاء ، والغيبة والنميمة والتجسس ، وأكل الأغنياء للفقراء وهضم الأقوياء حقوق الضعفاء ، وانتشال البشرية من وادى الدموع ؟!

إن طرق الإعلام الحديثة من صحافة وإذاعة وتليفزيون فى خدمه أى مصلح فى هذا العصر الذى تلاشت فيه المسافات ، وحرية الإصلاح وإبداء الرأى مكفولة لا عصبية لآلهة ولا احترام لمعتقدات الآباء ولا ارتباط بتقاليد الأسرة أو القبيلة ، فهل يستطيع إنسان وحده ، وكل وسائل الاتصال هذه بين يديه مهما أوتى من علم ، أن يصلح الضمائر والنفوس وأن يعيد إلى قطيع

البشرية إنسانيته وروحانيته ؟

إن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ما كان بقادر وحده وإن عرف اليهودية والنصرانية والمجوسية والحنيفية ودين الصابئة أن يغير وأن يجعل فجر التاريخ الجديد يشرق على الوجود .

لا شك أن ما حدث فى جزيرة العرب بعد الدعوة المحمدية معجزة لا يقدر عليها بشر مهما أوتى من علم وفصاحة وبيان ، ولو أنفق ما فى الأرض جميعا ما ألف بين قلوب أولئك الذين كانت العداوة والبغضاء تموج فى نفوسهم . إنها معجزة أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم بتأييد من الله ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

إن فى القرآن بعض ما فى التوراة وما فى الإنجيل ، وسبب ذلك أن النبع الإلهى الذى فاض على موسى وعيسى هو نفس النبع الذى فاض من كرمه على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق واحد ما بين ما فى القرآن وما فى الكتاب المقدس ، إن القرآن قد أعاد الإسلام الذى بشر به موسى نقيا ناصعا ، وأعاد الإسلام الذى دعا إليه السيد المسيح قويما قيما كما كان ، وقد أزال عن العقيدتين أساطير الشعوب وفلسفة المتفلسفين ، تلك الفلسفة التى انحرفت بديانات التوحيد إلى الشرك .

وقد صدق السيد المسيح حينما قال : « إن انطلاقى خير لكم ، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفراقليط ، فإذا انطلقت أرسلت به إليكم ، فإذا جاء فند أهل العلم » فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم وفند أقوال علماء اليهود والنصارى فيما أطبقوا عليه من أن المسيح عليه السلام قتل وصلب بعد أن عذب ، وما انفرد به علماء اليهود من بهتانهم فى الطعن على السيد المسيح ، وما انفرد به علماء النصارى من الدعوة إلى ألوهية المسيح .

وصدق حينما قال : « الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلّمهم بـه ، ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والغيوب » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى وبخ العلماء من أهل الكتاب على كتمان الحق ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، وقولهم المسيح ابن الله ، والمسيح هو الله ، وبيع الدين بالثمن البخس من عرض الدنيا ، وهو الذى أخبر بالحوادث والغيوب .

ثم محمد صلى الله عليه وسلم فى كل أفعاله عن أنه ربيب العناية الإلهية ، فهو ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا قوال بالهجر والخنى ، سدده ربه بكل جميل ، ووهب له كل خلق كريم ، وجعل السكينة على لسانه ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفـو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، رفع الله به من الوضيعة ، وأغنى به من العيلة ، وهدى به من الضلالة ، وألف به بين قلوب متفرقة ، وأهواء مختلفة وأنزل على جبال العرب نورا ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ولم يكتف المستشرقون بالطعن فى محمد والتشكيك فى رسالته ، بل أنكروا وحدة اللغة العربية قبل الإسلام فى عصر المعلقات والقصائد الجاهلية ، وقد كانت وحدة اللغة من مقدمات الدعوة الإسلامية التى خاطبت العرب جميعا بلسان يعرفونه من قبل عصر الإسلام ، فجاء بعض المستشرقين بوهم من أوهامهم يشككون فى وحدة هذه اللغة ، وينكرون اتفاق الجزيرة على التخاطب بلسان القرشيين والمكيين ، وزعموا أن وحدة اللغة ممتنعة لاختلاف لسان العدنانيين والقحطانيين.

وخير رد على هذا الزعم ما كتبه الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « مطلع النور » قال :

« .. ولكن اليهود الذين وفدوا إلى الحجاز بعد البعثة النبوية كان منهم كتاب ومؤرخون مطلعون على تواريخ حمير وتواريخ أسلافهم العبرانيين ، وكان منهم كعب بن ماتع الحميرى الملقب بكعب الأحبار ، وكان منهم وهب بن منبه الصنعانى الذى قال ابن خلكان إنه رأى كتابا له عن ملوك حمير وأخبارهم فى مجلد واحد ، ووصف هذا الكتاب بأنه مفيد .

وقد كان كعب ووهب من المغربين فى طلب النوادرفلم يذكروا لنا زمنا شهداه أو شهده آباؤهم وأجدادهم كانت فيه لغة قريش مجهولة فى اليمن أو ما جاورها . وأدنى من ذلك إلى عصر البعثة قدوم الوفود من اليمن إلى الحجاز وذهاب الولاة من الحجاز إلى اليمن بإذن النبى عليه السلام : ومنهم معاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب ومن كان يصحبهما فى عمل الولاية والتعليم ، فلم نسمع أن وفود اليمن على النبى جهلوا ما سمعوه أو نطقوا بكلام لا يفهمه أهل الحجاز ، وهؤلاء قد لقنوا لغاتهم من آبائهم فلا يفوتهم ما اختلف من كلامهم إذا كان ثمة خلاف .

وأقدم من البعثة المحمدية رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، وليس فى أخبار هذه الرحلات إلماع إلى تفاهم قريش مع أهل اليمن بلغة غير اللغة القرشية فى الجيل السابق للبعثة والجيل الذى تقدمه ، ومن البعيد جدا أن يغيب عن ذاكرة العربى حديث جيلين قبل جيله ، وقد كانت أخبارهم ورواياتهم وأنسابهم كلها قائمة على الحفظ وتسلسل الرواية والإسناد من جيل إلى جيل ، فإذا كانت لغة الحجاز شائعة عامة على مدى الذاكرة فى عصر البعثة المحمدية ، فلا أقل من ثلاثة أجيال تقدر لهذا الشيوع وهذا التعميم وترجع بنا هذه الأجيال إلى

أقدم الأوقات التى أسند إليها نظم المعلقات ، فلا تستغرب نظمها باللغة التى يفهمها العرب من الجنوب إلى الشمال .

ولقد سمع النبى عليه السلام قصيدة كعب بن زهير ، وقد نظمها ولا شك بلغة أبيه زهير بن أبى سلمى ، وكان زهير من أسرة شاعرة مسبوقا إلى النظم بتلك اللغة ، ولا يعقل أن يكون التغير فى لغة النظم قد طرأ عليهم فجأة فى مدى سنوات معدودات ، فإذا بلغنا بالمعلقات عصر هرم بن سنان ـ ممدوح زهير ـ وما تقدم بقليل ، فليس من شعراء المعلقات من هو أقدم من ذلك بزمن طويل يمتنع فيه التوافق على النظم الواحد واللغة الواحدة ، ولا بد أن نذكر هنا أن أوزان العروض لا تخلق بين يوم وليلة ، وأن قصيدة كعب ووزن قصيدة أبيه قد وجدا قبل عصر الشاعرين ونظمت فيهما قصائد جيل أو جيلين على الأقل قبل ذلك التاريخ ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعرا غير شعر اللغة الحجازية لما غاب خبره ولو غاب لفظه ومعناه .

ومن عسف القول ولا ريب أن نجزم بامتناع هجرة اليمانية إلى ما وراء حدود اليمن فى الجزيرة العربية ، فإذا جاز أن تهاجر منهم قبيلة واحدة فحكم القبيلة فى مسألة اللغة كحكم القبائل العشر أو العشرين . ولمن شاء أن ينكر نسبة البكريين أو التغلبيين أو الغساسنة إلى اليمن مستندا إلى دليل أو غير مستند إلى دليل على الإطلاق ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر نسبتهم إلى كل أصل معروف فى الجزيرة العربية ، ولا يأتى لهم بأصل غير تلك الأصول .

وإن من ينكر انتقال قوم من اليمن إلى ما وراءها لينكر أمرا غير قابل للإنكار فى الجزيرة العربية التى لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تواريخ الرحلات على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية وطوارىء الخصب والجدب والغلبة والهزيمة ، وما من باحث ذى روية يعتسف البت بذلك الإنكار ثم يجزم بحصر اليمانية فى

حدودهم منذ أحاطت بهم تلك الحدود ، فمن العسف أن يقال إن اليمانية لم تبرح اليمن قط فى العصور التى سبقت البعثة المحمدية ، وليس من العسف فى شىء أن يقال إنها برحتها على حسب الطوارىء وعوامل الجو والتاريخ ، ولا داعى بعد ذلك لاستغراب التوافق بين اليمانية وأنباء الحجاز وتهامة وسائر الجزيرة فى لهجة من اللهجات ، فما دمنا نقدر بحكم البداهة أن اليمانية وجدوا فى الجزيرة العربية وراء حدودهم وتكلموا كما يتكلم المقيمون فى جوارهم فقد زالت المشكلة و لم تكن هناك فى الحقيقة مشكلة تزال .

وليس أكثر من العسف الذى يلجأ إليه منكرو الوحدة فى لغة الجزيرة قبل البعثة المحمدية بجيلين أو ثلاثة أجيال ، وأن اعتساف التاريخ هنا لأهون فى رأينا من اعتساف الفروض الأدبية التى لا تقبل التصديق ، فما من قارىء للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواة يلفقون أشعار الجاهلية كما وصلت إلينا ويفلحون فى ذلك التلفيق ، إذ معنى ذلك « أولا » أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التى بلغها امرؤ القيس والنابغة وطرفة وعنترة وزهير وغيرهم من فحول الشعر فى الجاهلية ، ومعنى ذلك « ثانيا » أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب على حسب الأمزجة والأعمار والملكات الأدبية ، فينظمون بمزاج الشاب طرفة ومزاج الشيخ زهير ومزاج العربيد الغزل امرىء القيس ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد ، ويتحرون لكل واحد « مناسباته » النفسية والتاريخية ويجمعون له القصائد على نمط واحد فى الديوان الذى ينسب إليه ، ومعنى ذلك « ثالثا » أن هذه القدرة توجد عند الرواة ولا توجد عند أحد من الشعراء ، ثم يفرط الرواة فى سمعتها وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل ، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان فضلا عن إساغته بغير برهان ولغير سبب إلا أن يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين ، وإن

تصديق النقائض الجاهلية جميعا لأهون من تصديق هذه النقيضة التى يضيق بها الحس ويضيق بها الخيال .

وشتان — مع هذا — النقائض التى يستدعيها العقل ويبحث عنها إذا تفقدها فلم يجدها ، والنقائض التى يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم .

فهذه النقائض التى تحاول أن تشككنا فى وحدة اللغة العربية قبل الإسلام يرفضها العقل ، لأن قبولها يكلفه شططا ولا يوجبه بحث جدير بالإقناع .

فممايتكلفه العقل إذا تقبلها أن يجزم — كما تقدم — بانقطاع عرب اليمن عن داخل الجزيرة كل الانقطاع ، وأن يجزم ببقاء لغة قحطانية تناظر اللغة القرشية فى الجيلين السابقين للبعثة المحمدية ، غير معتمد على أثر فى ذاكرة الأحياء ولا فى ورق محفوظ ، وأن يلغى كل ما توارثه العرب عن أنسابهم وأسلافهم وهم أمة تقوم مفاخرها وعلاقاتها على الأنساب وبقاء الأسلاف ، وأن يفترض وجود الرواة المتآمرين على الانتحال بتلك الملكة التى تنظم أبلغ الشعر وتنوعه على حسب الأمزجة والدواعى النفسية والأعمار ، وأن يفهم أن القول المنتحل مقصور على الأسانيد العزبية مبطل لمراجعها دون غيرها من مراجع الأمم التى صح عندها الكثير مما يخالفه الانتحال والكذب الصريح .

ومن النقائض التى يستدعيها العقل ويستلزمها ويتخذ حجة لثبوت الواقع فى جملته أن يحدث الاختلاف فى الرواية وأن يتعذر فيها الإجماع بين الرواة ، فإن العقل لا يصدق الأقاويل التى يتفرق رواتها ويعول أصحابها على الذاكرة والإسناد ، ثم تأتى متفقة فى الجملة والتفصيل ، ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الأهواء للاضطراب والحذف والإضافة عن قصد أو بفعل النسيان والإهمال .

فاختلاف الرواة إذن سبب من أسباب التصديق واتفاقهم يدعو إلى الشك أو

التكذيب .

وقد نسمع النقيضين فى هذه الحالة فنرفضهما ولا نرفض لباب الخبر ومغزاه ، فقد سمعنا أن عمرو بن كلثوم أو الحارث بن حلزة ألقى قصيدته فى وقفة واحدة ، وسمعنا أن زهير بن أبى سلمى كان ينظم قصيدته فى الحول وتسمى قصائده من أجل ذلك بالحوليات ، وقد نسقط هذه المبالغة كما نسقط الشعر الذى بولغ فى وقت نظمه بين أقصى الطرفين .

وربما وقفنا على روايتين نصدقهما الآن عند النظر إلى الحقائق العصرية ، ونعلم أن تلفيقهما فى الزمن الماضى جد عسير ولو أراده الملفقون ، فما يروون عن امرىء القيس أنه تعجب من إعراض النساء عنه مع وسامته ومكانته ، وسأل إحدى النساء فى ذلك فقالت له : نعم . ولكن لك عرقا كأنه عرق كلب . ثم نقرأ أخبار وفاته فنعلم منها أنه أصيب قبل موته بقروح تساقط منها جلده ، وسمى الحلة التى كان يلبسها من أجل ذلك بذات القروح . ومؤدى الروايتين معا أن الشاعر كان على استعداد للمرض الجلدى لفساد رائحة العرق الذى يفرزه ، وأنه لم يزل حتى استشرى به الفساد فى رحلته القصية فظهر فى تلك القروح ، ويقترن ذلك بنوادره مع النساء المعرضات عنه وغلبة الشاعر علقمة عليه فى عينى امرأته ، فلا يسهل على الناظر فى جميع هذه الأخبار أن ينسب تلفيقها عمدا إلى راوية واحد ، ولا يسهل عليه أن يتلقاها متفرقة ثم يجردها من الدلالة التى تربط بينها على غير علم من الرواة المتفرقين .

وربما كذب الكثير من أخبار طرفة و لم تكذب قصيدته التى تنم فى جملتها على خلائقه التى تنوب عن تلك الأخبار ، وتغنينا عن محاسبة الرواة على التصديق أو على التكذيب .

وهذه القرائن الأدبية هى التى يغفل عنها المستشرقون ولا يفطنون لها لأنهم

ينظرون فى النصوص والأسناد ولا ينظرون فى الأدب ولا فى روح الكلام ومضامين التعبير ، ومنهم من لا يعرف أدب بلاده ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التى تلقنها فى حجر أمه ، فليست معرفته باللغة العربية كافلة له أن يحكم على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الأمزجة والأذواق ، ومنهم علامة تصدى لوضع المعجمات الكبرى فى اللغة العربية فكتب فى مادة « أخذ » أنها تأتى بمعنى نام لقوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » .. ومنهم من يترجم « أبا بكر » بأبى العذراء لأنه كان والد الزوجة التى بنى بها النبى عليه السلام وهى عذراء ، ومنهم من يترجم الصعيد بمصر الميمونة أو مصر السعيدةEgypt Felix قياسا على اليمن التى تسمى العربية السعيدة Arabis Felix ومنهم من يقول إن التضحية تدل على عبادة الشمس لأنها فى الضحى .. وما هى فى وضعها إلا كالتغدية فى الغداة والتعشية فى العشاء والسحور من السحر إلى غير ذلك من توقيت الوجبات والذبائح بميقاتها فى الليل والنهار .. ومنهم من يحسب أن القصيدة من القصد فيترجمها بالكلام الذى يراد معناه[1] .

....

....

والمعهود فى جماعة المستشرقين أن الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم بسوء النية ، لأنهم يخدمون سياسة المستعمرين أو سياسة المبشرين المحترفين أو ينظرون فى بحوثهم نظرة الغربى الذى ينظر إلى الشرق نظرة المتعالى عليه فى حاضره وماضيه غير أنهم ما عدا القليل منهم محدودون سطحيون يحومون حول المسائل الحسية ولا يتوسعون فى النظر أو يتعمقون وراء الظواهر التى

---

(١) حديث عن استحالة تزوير الأدب الجاهلى يرجع إليه فى (مطلع النور) .

يلمسها شاهد الحس لمسا ، فلا تخرج عنده من حدود ما يشتبه أو ينفيه من وقائع العيان والسماع .

فغاية ما يقصدون إليه من أمر اللغة أنهم يلتمسون الأسانيد المعتمدة عند أهلها فيأخذونها بالشك والتجريح ، وأنهم يهدمون الدعائم القائمة ليستجيزوا بعد ذلك كل ادعاء يدعونه وكل إنكار ينكرونه من أصول اليقين والاطمئنان . وتشككهم فى أسانيد اللغة من هذا القبيل لا يعدونه إلى مطلب بعيد من مطالب الإحاطة والاستيعاب ، فهو كالمنازع الذى ينكر على صاحب الدار وثيقته ولا يعدوها إلى أركان الدار وما فى الدار . وتقديرهم لمسألة الشك فى وحدة اللغة أقل جدا من قدرها الصحيح فى مقدمات الدعوة المحمدية ، إذ هى أصلح هذه المقومات للدلالة على ما بعدها ، وأصدق فى التمهيد لنتائجها من مقدمات السياسة والأحداث الاجتماعية ، لأنها المقدمة الوحيدة التى تمشى فى طريق الدعوة المحمدية مسابقة لها مترقبة لأوانها ولا تكون الدعوة المحمدية بالنسبة لها كأنها رد الفعل الذى يقاوم ما قبله ويجرى معه مجرى النقيض من النقيض .

ويقول الأستاذ العقاد : « ومن فهامة المستشرقين أنهم لا يختارون من تاريخ العرب مطعنا يصيبونه غير اللغة والأنساب ، وكلهم يتحذلقون على العالم فى شكوكهم الموكلة بالتاريخ العربى والإسلامى من أقدم عهوده ، ثم يأتى العلم فيثبت بالكشوف المحسوسة صدق الخرافة المزعومة وكذب العلماء الزاعمين ، حتى لقد أصبح التخريف حقا لهؤلاء المحققين الذين لا يعرفون من التحقيق إلا اتهام كل رواية عربية أو إسلامية بالتحريف.

فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عادا وثمودا وأنكر الكوارث التى أصابتهم بغير حجة إلا أنه يحسب المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفى

الجزاف ، فما لبثوا طويلا حين تبين لهم أن عادا وثمودا مذكورتان فى تاريخ بطليموس ، وأن اسم عاد مقرون باسم إرم فى كتب اليونان فهم يكتبونها « أدراميت » ، ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد إرم ذات العماد .. وعثر المنقب موزيل التشيكى صاحب كتاب الحجاز الشمالى على آثار هيكل عند « مدين » منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية ، وفيه إشارة إلى قبائل « ثمود » .

واختلف رواة السيرة والإخباريون فى عدد الذكور من أبناء محمد صلى الله عليه وسلم ، فالذى فى السيرة لابن اسحاق « أكثر بنيه القاسم ثم الطيب ثم الطاهر .. فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه » .

وقال الطبرى : « فولدت لرسول الله ثمانية : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة » وجاء فى « الاستيعاب » : « وأجمعوا أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن ، فهن زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم ، وأجمعوا أنها ولدت له ابنا يسمى القاسم وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم ، هذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم » .

وقال معمر عن ابن شهاب : « زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر .. » .

وفى الروض الآنف ، رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : « ولدت خديجة له : القاسم وعبد الله وهو الطاهر والطيب ، سمى بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمى به أولا عبد الله » .

وفى نسب قريش : «فولد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : القاسم وهو أكبر ولده ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية » .

وفى جمهرة أنساب العرب : « ولم يعقب عليه السلام ذكرا إلا إبراهيم بن رسول الله ، مات صغيرا لم يستكمل عامين فى حياة النبى عليه السلام ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الولد سوى إبراهيم : القاسم وآخر اختلف فى اسمه فقيل : الطاهر وقيل : عبد الله .. ماتوا صغارا جدا ، وكان له عليه السلام من البنات : زينب أكبرهن وتاليتها رقية وتاليتها فاطمة وتاليتها أم كلثوم ، أم جميع ولده — حاشا إبراهيم — خديجة أم المؤمنين » .

وتقول الدكتورة بنت الشاطىء فى كتابها « بنات النبى » : « ليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فما يختص بعدد أبناء محمد ، فقد يقال إن اللقب التبس بالاسم وجعل الطيب والطاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، أو مع القاسم وعبد الله فهم أربعة ، وما الطيب والطاهر — على الأرجح — سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك يكون للنبى من خديجة ولدان اثنان ، وهذا هو المشهور عند جمهور المسلمين وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل تلك الروايات » .

وأعتقد أن زينب كانت أكبر أولاد محمد صلى الله عليه وسلم ، وتاليتها رقية ، ولا يمكن أن تكون رقية أصغر أبنائه ، لأن زينب ورقية كانتا مخطوبتين لعتبة ومعتب ابنى أبى لهب قبل الرسالة وقد فسخت الخطبة بعد أن نزلت : « تبت يدا أبى لهب وتب .. » فكيف تكون مخطوبة فى ذلك الوقت وتكون أصغر أبنائه ، وأصغر أبنائه كانت تبلغ من العمر خمس سنوات أو ست يوم مبعثه صلى الله عليه وسلم .

وأعتقد أن فاطمة الزهراء هى صغرى بناته ، فهى التى كانت من بناته فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم وحدها بعد موت خديجة ، حتى أطلق عليها « أم النبى » لرعايتها به والسهر عليه . أما الذين قالوا إن القاسم أكبر أبنائه فقد

بنوا ذلك على أن سن السيدة خديجة عند زواجها من النبى صلى الله عليه وسلم كانت أربعين سنة ، فوجدوا أن مولد القاسم قبيل الرسالة ومولد عبد الله بعد الرسالة يكاد يكون مستحيلا ، أما وقد أخذت بالرأى القائل أن سن خديجة كانت فى الثامنة والعشرين عند الزواج فلا غرابة ولا استحالة أن تلد القاسم قبيل البعثة وأن تلد عبد الله بعد البعثة وأن يلقب بالطاهر والطيب لذلك ، لأن الله أكرمه بأن يولد فى الإسلام وعلى ذلك يمكن ترتيب أبناء محمد صلى الله عليه وسلم على النحو التالى :

زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء والقاسم وعبد الله .

وقد كثر فى هذا الجزء استخدام أسماء « القلب والنفس والروح والعقل » وسيكثر استخدامها فى الأجزاء التالية فى دقة ، وأن خير تمييز بينها ما قاله الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين ، قال :

لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين ، أحدهما : اللحم الصنوبرى الشكل المودع على الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف ، وذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية ، وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك ، فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين .

والمعنى الثانى هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ، ولها علاقة من القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته ، فإن تعلقوا

به يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان ، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين : أحدهما متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة ، والثانى أن تحقيقه يستدعى إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لغيره أن يتكلم فيه .

والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به لهذه اللطيفة ، وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها .

اللفظ الثانى « الروح » وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت ، فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ، فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا ، المعنى الثانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب ، وهو الذى أراده الله تعالى بقوله : قل الروح من أمر ربى ، وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته .

اللفظ الثالث « النفس » وهو أيضا مشترك بين معان ، ويتعلق بغرضنا منه

معنيان :

أحدهما أن يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لا بد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك .

المعنى الثانى هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت : النفس المطمئنة . قال الله تعالى فى مثلها : « يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . »(١) والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى ، فإنها مبعدة عن الله وهى من الشيطان ، وإذا لم يتم سكونها ، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت : النفس اللوامة ، لأنها تلوم صاحبها عن تقصيره فى عبادة مولاه ، قال الله تعالى : « ولا أقسم بالنفس اللوامة »(٢) . وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات وداعى الشيطان ، سميت : النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز : « وما أبرئ نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء »(٣) . وقد يجوز أن يقال المراد

---

(١) الفجر ٢٧ — ٢٨

(٢) القيامة ٢

(٣) يوسف ٥٣ .

بالأمارة بالسوء هى النفس بالمعنى الأول ، فإذا النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

اللفظ الرابع « العقل » وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان : أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب ، والثانى أنه قد يطلق ويراد به المدرك المعلوم ، فيكون هو القلب ، أعنى تلك اللطيفة ، ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حالة فيه ، والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق به محل الإدراك أعنى المدرك ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : أول ما خلق الله العقل ، فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل لا بد أن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ، ولأنه لا يمكن الخطاب معه ، وفى الخبر أنه قال له تعالى : أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، فإذا قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة ، وهى القلب الجسمانى والروح الجسمانى والنفس الشهوانية والعلوم ، فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس وهى اللطيفة العالمة المدركة فى الإنسان ، والألفاظ الأربعة فى جملتها تتوارد عليها ، فالمعانى خمسة والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق لمعنيين .

وقبل أن أختتم هذا التذييل ، أحب أن أوضح ما أجريته على قصة سلمان الفارسى من تعديل ، فقد ذكر كتاب السيرة قصة طويلة عن إسلام سلمان ، قيل إنها رويت على لسانه ، وسأورد هنا ما جاء فى السيرة النبوية لابن هشام عن حديث إسلام سلمان رضى الله عنه .

قال ابن اسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن محمود

ابن لبيد عن عبد الله بن عباس ، قال : حدثنى سلمان الفارسى وأنا أسمع من فيه ، قال :

كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من قرية يقال لها جَىّ وكان أبى دهقان قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، لم يزل به حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قطن النار التى يوقدها ، لا يتركها تخبو ساعة . قال : وكان لأبى ضيعة عظيمة ، فشغل فى بنيان له يوما ، فقال لى : يا بنى ، إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى ، فاذهب إليها فاطلعها وأمرنى فيها ببعض ما يريد ، ثم قال لى : ولا تحتبس عنى فإنك إن احتبست عنى كنت أهم إلى من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شىء من أمرى . قال : فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبى إياى فى بيته ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ، ورغبت فى أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن فيه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبى فلم آتها ، ثم قلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن عمله كله ، فلما جئت قال : أى بنى ، أين كنت ؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال : قلت له : يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم ، فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس قال : أى بنى ، ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ، قال : قلت له : كلا والله ، إنه لخير من ديننا . قال : فخافنى فجعل فى رجلى قيدا ، ثم حبسنى فى بيته .

قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام

فأخبروني بهم . قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم ، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم ، فألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علما ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة. قال : فجئته فقلت له : إني قد رغبت في هذا الدين ، فأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك فأتعلم منك وأصلى معك ؟ قال : ادخل . فدخلت معه . قال : وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه و لم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق . قال : فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه و لم يعط المساكين منها شيئا ، قال : فقالوا لى : وما علمك بذلك ؟ قال : قلت لهم : أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا عليه ، قال : فأريتهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا. قال : فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبدا ، قال فصلبوه ورجموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه ، قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلا لا يصلى الخمس ، أرى أنه كان أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أداب ليلا ونهارا منه . قال : فأحببته حبا لم أحبه شيئا قبله ، قال : فأقمت زمانا طويلا ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان إني قد كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه شيئا قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : أى بنى والله ما أعلم اليوم أحدا على ما كنت عليه ، فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنت

عليه فالحق به .

قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان ، إن فلان أوصانى عند موته أن ألحق بك ، أخبرنى أنك على أمره.فقال لى : أقم عندى ، فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان ، إن فلانا أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال يا بنى : والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين ، وهو فلان فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فأخبرته خبرى وما أمرنى به صاحبه ، فقال : أقم عندى ، فأقمت عنده فوجدته على رأى صاحبه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له : يا فلان ، إن فلانا كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : يا بنى ، والله ما أعلمه بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية من أرض الروم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته فإنه على أمرنا .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبرى : فقال : أقم عندى . فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه قال : ثم نزل به أمر الله تعالى فلما حضرت الوفاة قلت له: يا فلان، إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان . ثم أوصى بى فلان إلى فلان ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : أى بنى ، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه ، ولكن قد أظل زمان نبى مبعوث يدين بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرتين

بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

هذا هو الحديث الذى قيل إن ابن عباس سمعه من فى سلمان الفارسى ، و لم آخذ بكل الحديث كما ورد ، فالحديث لا يدل عن شخصية اعتنقت المسيحية وعرفت أسرارها وطافت المشرق والمغرب للبحث عن الحقيقة ، إنه حديث يمكن لأى راوية إسلامى فى صدر الإسلام أن يروى مثله ، و لم أنكر الحديث كله فقد أخذت صدره كما هو ، أما مسألة انتقال سلمان من رجل صالح إلى رجل صالح آخر بين كل منهما مسافات شاسعة فلم أدر حكمته ، فإذا كان سلمان يبغى دينا غير دينه فقد اهتدى إلى رجل زاهد فى الدنيا لا يرغب إلا فى الآخرة ، يعبد الله آناء الليل وأطراف النهار ، فماذا يريد بعد ذلك ؟ إذا كان ذلك الرجل لم يمنحه كل ما يريد من العلم وكان متعطشا إلى المعرفة ألم يكن فى صاحب صفين الكفاية ما دام على أمر صاحبه ، وإذا كان لا يزال متعطشا إلى المعرفة بعد موت صاحب صفين ، فلماذا لم يستقر فى عمورية إذا كان النور قد أشرق فى قلبه ؟

اننى لم أشك فى الرحلة و لم أحاول أن ألوى خط سيره ، كل ما فعلته أننى جعلت غرض رحيله غير الغرض الوارد فى الحديث ، فلو كان سلمان قد اهتدى إلى جوهر الحقيقة لما رحل ليبحث عنها ، فلم يطمئن قلبه إلى كل ما سمعه فى الموصل وفى نصيبين وفى عمورية ، فاستمر فى سياحته ليبلغ غايته : وجه الله ذى الجلال والاكرام .

وقد سردت فى أثناء رحلته ما كان فى إيران من أحداث فى ذلك الوقت وبعض ما كان يدور بين النساطرة واليعاقبة ، ولابد أن سلمان قد سمع ذلك الجدال وقد يكون اشترك فيه فما من مسيحى فى ذلك الوقت لم يشترك فى

ذلك الحوار المشبوب .

وأرجو أن أكون قد وفقت ، وإن جانبنى الصواب فأدعو الله أن يغفر لى ، فما أطمع إلا فى أن أدنو من الحقيقة وروح العصر الذى أدون أحداثه ، معتمدا على الحقائق التى وصل إليها علم التاريخ فى هذا الزمن الذى نعيش فيه .

القاهرة ١٩٦٧/١٢/٥

محمد رسول الله ﷺ

والذين معه

في عشرين جزءا

الجزء	العنوان	التاريخ
١	ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ـــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ـــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ـــ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧	ـــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ـــ عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١	ـــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ـــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ـــ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦	ـــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ـــ غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨	ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ـــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٣٥٦٠
الترقيم الدولى ٨ ــ ١٤٩ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



